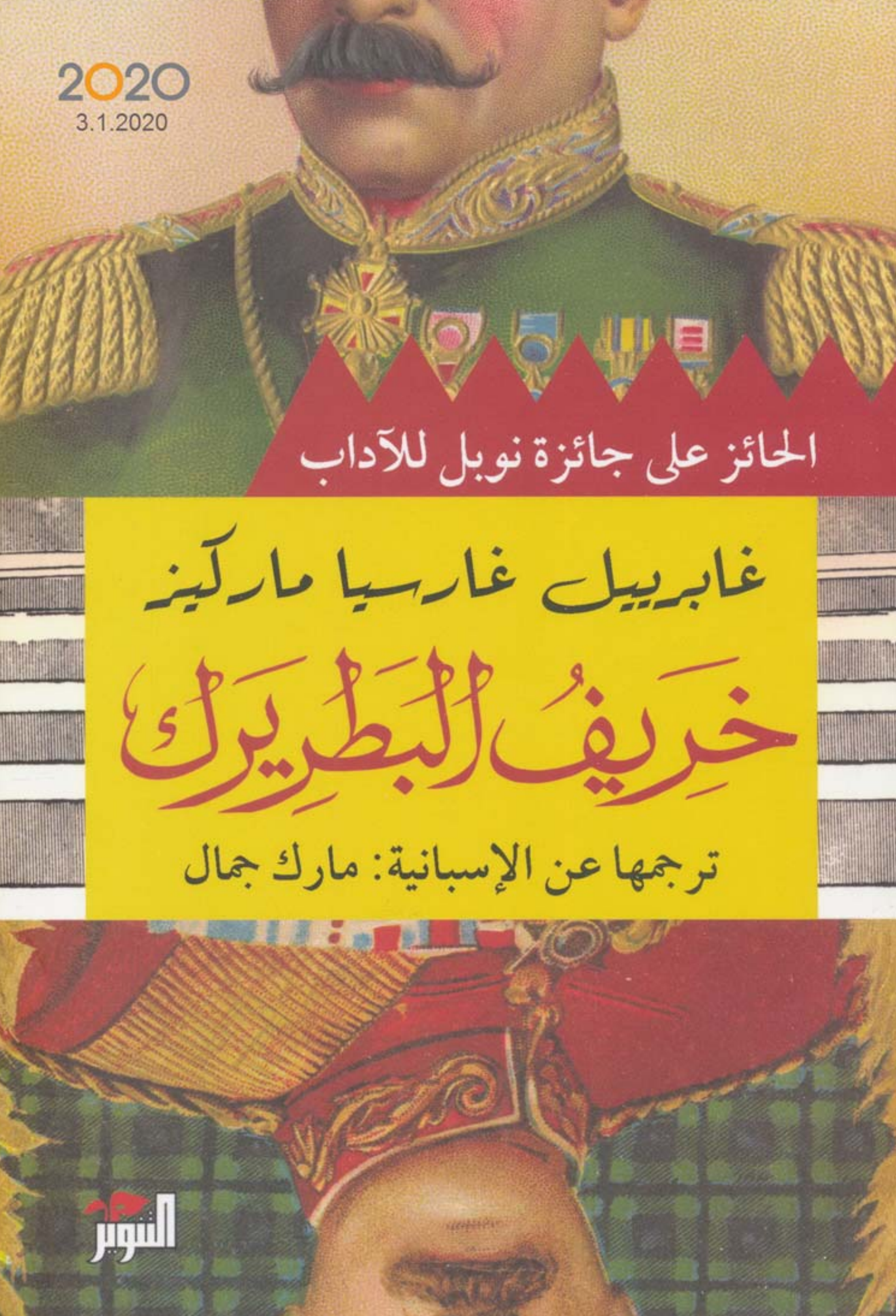

2020
3.1.2020
الحائز على جائزة نوبل للآداب
غابرييل غارسيا ماركيز
خريف البطريرك
ترجمها عن الإسبانية: مارك جمال
التنوير

غابرييل غارسيا ماركيز

خريف البطريرك

ترْجَمَها عنِ الإسبانيّة: مارك جمال



الكتاب: خَريفُ البَطْرِيَرك
تأليف: غابرييل غارسيا ماركيز
تَرجَمَها عنِ الإسبانيّة: مارك جمال
عدد الصفحات: 336 صفحة
الترقيم الدولي: 1-043-472-614-978
الطبعة الأولى: 2018

هذه ترجمة مرخصة لرواية
EL OTOÑO DEL PATRIARCA
تأليف
Gabriel García Márquez

الناشر


دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت – بئر حسن – بناية قاسم فارس (سارة بنما) – الطابق السفلي
هاتف: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
مصر: القاهرة – 2 شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) – جاردن سيتي
هاتف: 002022795557
بريد إلكتروني: cairo@dar - altanweer.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر – 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar - altanweer.com
موقع إلكتروني: www.dar - altanweer.com







Proyecto ganador de la convocatoria:
Becas para traducir y publicar obras de autores
colombianos en el exterior
Programa Nacional de Estímulos
Ministerio de Cultura

المشروع الفائز بمنحة ترجمة ونشر الأعمال الكولومبية في الخارج
برنامج الدعم الوطني
وزارة الثقافة الكولومبية

«قصيدة في عزلة السلطة»

من كتاب رائحة الجوافة[1]

(1) لا شك في أن خريف البطريرك هي رواية غارسيا ماركيز الأوفر حظًّا من البحث والدراسة والتحليل، بشهادة صاحبها نفسه. غير أننا، وعلى كثرة ما قِيل وما يمكن قوله عن هذا العمل، لم نجد لتقديمه خيرًا من اللقاء الذي أجراه بلينيو أبوليو ميندوسا (1932) مع المُؤلِّف، حيث تطرَّق غارسيا ماركيز إلى بعض مفاتيح الكتاب المهمة وأسراره في واحدة من المرات النادرة التي فيها تحدَّث بشيء من الوضوح والاستفاضة عن خريف البطريرك. ويُعدُّ هذا واحدًا من سلسلة لقاءات مُطوَّلة جمعها أبوليو ميندوسا، الكاتب والصحافي وصديق غارسيا ماركيز المُقرَّب، في كتاب واحد بعنوان رائحة الجوافة صدر عام 1982 (المترجم).

پلينيو أپوليو ميندوسا: أتذكر تلك الطائرة؟

غابرييل غارسيا ماركيز: أي طائرة؟

پ. أ. ميندوسا: تلك التي رأيناها تحلِّق في سماء كاراكاس[1] في الثانية فجرًا يومَ الثالث والعشرين من يناير 1958. أعتقد أن كلينا رآها من شرفة الشقة الواقعة في حي سان برناردينو حيث نزلنا، فرأينا نورَيْن حمراوَيْن يحلِّقان على ارتفاع خفيض في عتمة السماء، فوق مدينة مهجورة بسبب من حظر التجوال، في مدينة لم تنَم ترقُّبًا لسقوط الديكتاتور بين لحظة وأخرى.

غ. غ. ماركيز: الطائرة التي ولَّى پيريس خيمينيس[2] هاربًا على متنها.

پ. أ. ميندوسا: أجل، الطائرة التي أنهت ديكتاتورية دامت ثمانية أعوام في فنزويلا. اسمحْ لي بالتوجُّه إلى القارئ فأحدِّثه عن تلك اللحظة. الأمر من الأهمية بمكان لأنها اللحظة التي فيها خطرت لك فكرة كتابة رواية الديكتاتور. تلك التي ستغدو خريف البطريرك بعد مضي سبعة عشر عامًا وبعد كتابة نسختَيْن غير تامتَيْن.

---

(1) كاراكاس: عاصمة فنزويلا وأكبر مدنها.

(2) ماركوس پيريس خيمينيس (1914 – 2001): ديكتاتور عسكري حكم فنزويلا ما بين عامي 1952 و1958.

على متن الطائرة كان الديكتاتور وزوجته وبناته ووزراؤه وأقرب أصدقائه. كان ملتهب الوجه نظرًا لإصابته بالألم العصبي، وقد ثارت ثائرته على مرافقه الذي نسي في عجلة الفرار حقيبةً تحوي أحد عشر مليونًا من الدولارات عند قاعدة الطائرة التي صعدوا إليها بسُلَّم من الحبال.

وبينما الطائرة تعلو وتبتعد مُتَّجهةً صوب البحر، صوب الكاريبي، أعلن مذيع الراديو سقوط الديكتاتورية مقاطعًا بذلك برامج الموسيقى الكلاسيكية التي قد استمعنا إليها على مدى أيام ثلاثة. فإذا بأنوار نوافذ كاراكاس تُضاء واحدًا تلو الآخر، كمصابيح شجرة أعياد الميلاد. أما الهذيان فسوف يندلع لاحقًا، في غمرة ضباب الفجر وهوائه العليل. أبواق، صرخات، صافرات إنذار المصانع، أناس يلوِّحون بالأعلام في السيارات والشاحنات... وقُبَيْل احتراق بناية أمن الدولة، كانت الجماهير قد أخرجت السجناء السياسيين من هناك محمولين على الأكتاف.

كانت تلك أول مرة نشهد فيها سقوط ديكتاتور في أمريكا اللاتينية. واعتبارًا من تلك اللحظة عشتُ وغارسيا ماركيز أيامًا مشحونة للغاية، إذ كنا مسؤولَيْن عن مجلة أسبوعية. هذا وقد زرنا حَرَمَي السلطة، أي وزارة الدفاع التي كانت بمثابة حصن تُقرأ عَبْر أروقته لافتات جاء فيها ما يلي: «ما سمعت هنا، ورأيت هنا، ابقه هنا»، فضلًا عن القصر الرئاسي المعروف باسم ميرافلوريس.

وفي ذلك القصر العتيق الذي يعود إلى الحقبة الاستعمارية وتتوسَّط باحته نافورة وتحفُّه أصص الأزهار، عثر غارسيا ماركيز على كبير الخدم الشيخ الذي عمل هناك منذ أمد بعيد، منذ زمن

ديكتاتور آخر هو خوان بيسينتي غوميس[1]، البطريرك الشيخ ذو الأصول الريفية، تَتَرِيّ العينيْن والشارب، ذلك الذي قضى نحبه على فراشه، في هدوء، بعد أن حكم بلده بقبضة من حديد قرابة ثلاثين عامًا. كان كبير الخدم لا يزال يذكر الجنرال؛ السرير المُعلَّق حيث كان يأخذ القيلولة، وديك المصارعة الذي كان يروقه.

هل خطرت لك فكرة الرواية بعد الحديث إليه؟

غ. غ. ماركيز: كلا، بل خطرت لي يومَ اجتمع مجلس الحكومة في المكان نفسه، أي في قصر ميرافلوريس، بعد سقوط پيريس خيمينيس بيوميْن أو ثلاثة، أتذكر؟ شيء ما كان يجري، في حين جعلنا نحن الصحافيين والمُصوِّرين نترقَّب في حجرة الانتظار الملحقة بالمكتب الرئاسي. كانت الرابعة فجرًا على وجه التقريب لمَّا انفتح الباب ورأينا ضابطًا في ثياب الميدان يسير إلى الوراء ممسكًا بمدفع رشاش وقد علق الوحل بحذائه. مرَّ من بيننا نحن الصحافيين وهو لا يزال سائرًا إلى الوراء، مُصوِّبًا مدفعه الرشاش، مُلطِّخًا البساط بما علق بحذائه من الوحل. نزل الدَّرَج، واستقلَّ سيارة حملته إلى المطار ومن ثم إلى المنفى.

وفي تلك اللحظة بعينها، لحظة خروج ذلك العسكري من حجرة يدور فيها النقاش حول التشكيل النهائي للحكومة الجديدة، أدركتُ ما السلطة، وما لغز السلطة.

پ. أ. ميندوسا: بعد أيام، وفيما نحن مُتوجِّهان بالسيارة إلى المجلة حيث كنا نعمل، قلتَ لي: «إن رواية ديكتاتور أمريكا اللاتينية

---

(1) خوان بيسينتي غوميس (1857 – 1935): ديكتاتور عسكري فرض حكمه على فنزويلا ابتداء من عام 1908 وحتى وفاته.

لم تُكتَب بعد». إذ اتَّفقنا على أنها لم تكُن السيد الرئيس لصاحبها أستورياس[1]، تلك الرواية التي اعتبرناها بشعة.

غ.غ. ماركيز: إنها رواية بشعة.

ب. أ. ميندوسا: أذكر أنك عكفت على قراءة السيَر الذاتية للطغاة. فأُصِبتَ بالذهول. ذلك أن سائر طغاة أميركا اللاتينية كان بهم مسٌّ من الهذيان. وهكذا كنتَ تروي لنا كل ليلة على مائدة العشاء ما تجد من القصص بين دفات الكتب. أيّ ديكتاتور هو الذي أمر بقتل الكلاب السود؟

غ.غ. ماركيز: دوفالييه. دكتور دوفالييه حاكم هاييتي[2]، المعروف بلقب «پاپا دوك». هو الذي أمر بالقضاء على الكلاب السود في البلد، لأن واحدًا من أعدائه قد تحوَّل إلى كلب لئلَّا يقع رهن الاعتقال ثم يُقتَل. تحوَّل إلى كلب أسود.

ب. أ. ميندوسا: ألم يكُن دكتور فرانسيا[3] حاكم باراغواي هو الذي أمر بضرورة زواج كل الرجال فوق الواحد والعشرين عامًا؟

غ.غ. ماركيز: بلى، وأحكم إقفال البلد كما لو كان بيته، فلم يترك سوى نافذة واحدة مفتوحة لتلقِّي البريد. كان دكتور فرانسيا غريب

(1) السيد الرئيس (1946): رواية للكاتب الغواتيمالي ميغيل أنخيل أستورياس (1899 - 1974).

(2) فرانسوا دوفالييه (1907 - 1971): طبيب وسياسي فرض حكمه المستبد على هاييتي ابتداء من عام 1957 وحتى وفاته.

(3) خوسيه جاسپار رودريجيس دي فرانسيا (1766 - 1840): محام وسياسيٍ وأول ديكتاتور يفرض حكمه على باراغواي بعد استقلالها عن إسبانيًا، إذ امتدَّ حكمه من عام 1814 وحتى وفاته.

الأطوار للغاية. وقد بلغ مرتبةً رفيعة للغاية بوصفه فيلسوفًا حتى استحقَّ أن يقدِّم كارلَيل[1] دراسة عنه.

پ. أ. ميندوسا: هل كان ثيوصوفيًّا[2]؟

غ. غ. ماركيز: كلا، بل إنه ماكسيميليانو هِرنانديس مارتينيس[3] حاكم سالفادور هو الذي كان ثيوصوفيًّا، وهو الذي أمر بتغطية جميع مصابيح الإنارة العمومية بالورق الأحمر في أرجاء البلد لمكافحة وباء الحصبة. كما اخترع بندولًا كان يضعه فوق الطعام قبل تناوله للتحقُّق من خلوِّه من السموم.

پ. أ. ميندوسا: وماذا عن غوميس، خوان بيسينتي غوميس، حاكم فنزويلا؟

غ. غ. ماركيز: كان لغوميس حدس بلغ من الاستثنائية حد إنه بدا أقرب إلى القدرة على العِرافة.

پ. أ. ميندوسا: كان يأمر بالإعلان عن موته، ثم يقوم كالبطريرك في كتابك. وبالمناسبة، فإنني حين أقرأ خريف البطريرك يتبادر إلى مخيلتي خوان بيسينتي غوميس بطباعه وسماته. ربما لا يكون مُجرَّد انطباع شخصي. ألم يكُن غوميس في ذهنك وأنت تكتب الرواية؟

غ. غ. ماركيز: لطالما كانت نيتي صنع توليفة من سائر طغاة أمريكا اللاتينية، ولا سيما في منطقة الكاريبي. وعلى الرغم من ذلك، فلقد

---

(1) توماس كارليل (1795 - 1881): فيلسوف وكاتب ومُؤرِّخ وعالم رياضة إسكتلندي.

(2) ثيوصوفية: حركة دينية أسَّستها الروسية هيلينا بلاڤاتسكي (1831 - 1891)، وتعني الحكمة الإلهية.

(3) ماكسيميليانو هِرنانديس مارتينيس (1882 - 1966): ديكتاتور عسكري حكم سلفادور ما بين عامي 1931 و1944.

فرضت شخصية خوان بيسينتي غوميس نفسها بشدة وفتنتي بقوة هائلة حتى إن البطريرك أخذ عنه أكثر كثيرًا مما أخذ عن غيره من الطغاة بلا أدنى شك.

وعلى كل حال، فالصورة الذهنية المنطبعة لديَّ عن كليهما واحدة. ما لا يعني بطبيعة الحال أن غوميس وشخصية الكتاب واحد، وإنما البطريرك بالأحرى تجسيد مثالي لصورته.

پ. أ. ميندوسا: وفي الوقت الذي استغرقته تلك القراءات اكتشفتَ أن الطغاة يشتركون في الكثير من السِّمات. على سبيل المثال، أصحيح أن أمهاتهم جميعًا من الأرامل؟ وبمَ تفسِّر ذلك؟

غ. غ. ماركيز: إن الشيء الذي أعتقد أني قد تثبَّتُّ منه هو هيمنة صورة الأم في حياتهم، وفي المقابل هم طالما كانوا يتامى الأب دومًا، على نحو ما. وبذلك أقصد أعظمهم مقامًا بطبيعة الحال. لا أولئك الذين وجدوا كل شيء مُعدًّا من أجلهم وانتقلت إليهم السلطة بالوراثة. فأولئك مختلفون، ذلك أنهم قلة قليلة، ويفتقرون إلى أدنى قيمة أدبية.

پ. أ. ميندوسا: قلتَ لي إن جميع كتبك تنطلق من صورة بصرية. فما الصورة البصرية التي منها ينطلق خريف البطريرك؟

غ. غ. ماركيز: ينطلق خريف البطريرك من صورة ديكتاتور طاعن في العمر، إلى درجة عصية على التصوُّر، يمكث وحده في قصر حافل بالأبقار.

پ. أ. ميندوسا: ذات مرة أخبرتَني قولًا أو كتابةً بأن العمل يبتدئ بديكتاتور طاعن في العمر يُحاكَم في الإستاد. (يبدو لي أن الصورة مُستلهَمة من المحاكمة التي خضع لها واحد من العسكر المناصرين

لباتيستا[1] في هافانا، وبذلك أعني محاكمة سوسا بلانكو[2] التي شهدتُها معك بُعَيْد انتصار الثورة). أعتقد أنك شرعتَ في كتابة الرواية مرتيْن ثم هجرتَها، فكيف كان ذلك؟

غ. غ. ماركيز: على مدى أعوام طوال واجهتني مشكلة البناء، المشكلة نفسها التي تواجهني في سائر كتبي. فأنا لا أشرع في الكتابة ما لم أحلّها أولًا. وفي أثناء محاكمة سوسا بلانكو ليلتها، في هافانا، بدا لي أن المنولوج الطويل الذي يلقيه الديكتاتور الشيخ المحكوم بالإعدام هو البناء المفيد. ولكن كلا، فالأمر ينطوي على مغالطة تاريخية في المقام الأول. علمًا بأن أولئك الطغاة إما يقضون نحبهم تحت وطأة الشيخوخة على فراشهم وإما يُغتالون وإما يلوذون بالفرار. بَيْد أنهم لا يخضعون للمحاكمة. وفي المقام الثاني، كان المونولوج سيقيِّدني بمنظور الديكتاتور ولغته هو دون سواه.

پ. أ. ميندوسا: أعرف أنك كنت تعمل على خريف البطريرك منذ وقت غير يسير حين علَّقتَه لكتابة مئة عام من العزلة، فلمَ؟ ليس من الشائع أن يعلِّق المُؤلِّف كتابًا للشروع في آخر.

غ. غ. ماركيز: السبب في ذلك أنني كنت أكتب خريف البطريرك... وأنا لا أعرف كنهه حق المعرفة، ولذا فلم يتسنَّ لي النفاذ إلى عمق الكتاب. أما مئة عام من العزلة...، ذلك المشروع الأقدم عهدًا الذي

---

(1) فولخينسيو باتيستا (1901 - 1973): عسكري شغل منصب الرئاسة في كوبا عن طريق الانتخابات عام 1940 إلَّا أنه استمرَّ في فرض حكمه على كوبا حتى أطاحت به الثورة الكوبية عام 1959.

(2) خيسوس سوسا بلانكو (1907/ 1908 - 1959): كولونيل في جيش فولخينسيو باتيستا. اتُّهِم بارتكاب العشرات من جرائم القتل وحوكم محاكمة علنية انتهت بالحكم عليه بالإعدام، وذلك بعد انتصار الثورة الكوبية.

حاولت إنجازه مرات كثيرة، فقد عاود مقاطعتي فجأةً حاملًا إليَّ الحل الوحيد الذي كان ينقصني: الصوت. ولم تكُن تلك المرة الأولى على كل حال. فلقد سبق لي تعليق رواية ساعة الشؤم عام 1955 في باريس لكتابة ليس لدى الكولونيل من يكاتبه...، إذ كان كتابًا مختلفًا داخل الكتاب، ويحول دوني ودون المضي قدمًا.

وبصفتي كاتبًا فأنا ألتزم بمعيار القارئ نفسه، فحين أفقد اهتمامي بكتاب أنحِّيه جانبًا. وفي كلتا الحالتيْن، هنالك لحظة أفضل لمواجهته دائمًا.

پ. أ. ميندوسا: لو تعيَّن عليك تعريف كتابك بجملة واحدة، فبمَ تعرِّفه؟

غ. غ. ماركيز: بأنه قصيدة في عزلة السلطة.

پ. أ. ميندوسا: ولمَ استغرقت كل هذا الوقت في كتابته؟

غ. غ. ماركيز: لأني كتبتُه كما تُنظَم الأشعار، كلمة كلمة. في البدء كنتُ أقضي أسابيع لا أكتب خلالها أكثر من سطر واحد.

پ. أ. ميندوسا: في هذا الكتاب سمحتَ لنفسك بكل صنوف الحرية، من حيث بناء الجملة، والزمن، وربما الجغرافيا، بل وكذلك التاريخ طبقًا لما ذهب إليه البعض. دعنا نتحدَّث عن بناء الجملة. في الكتاب فقرات طويلة تخلو من النقط والفواصل المنقوطة حيث تتداخل وتتشابك المنظورات السردية. ولا شيء من ذلك في كتابتك إلَّا وكان له ما يبرِّره. فما الضرورات الضاربة في العمق التي اقتضت منك استخدام اللغة على هذا النحو؟

غ. غ. ماركيز: تخيَّل لو كان بناء الكتاب طوليًّا، كان سيغدو لامتناهيًا وأكثر بعثًا على الضجر. ولكن في المقابل، البناء الحلزوني

يسمح بضغط الزمن وسرد قدر أكبر بكثير من الأشياء، وكأنها مضغوطة في كبسولة. ومن ناحية أخرى، المونولوج مُتعدِّد الرواة يسمح بتداخل الكثير من الأصوات من دون التعريف بنفسها، كما يحدث بالفعل في التاريخ وفي تلك المؤامرات الكاريبية الضخمة المفعمة بأسرار لا نهاية لها. على كل حال، هو أوفر كتبي حظًّا من التجريبيَّة وأكثرها أهميَّةً عندي بوصفه مغامرة شعرية.

پ. أ. ميندوسا: كما أنك سمحتَ لنفسك ببعض الحريَّة من حيث الزمن.

غ. غ. ماركيز: الكثير منها. كما تذكر، فالديكتاتور يفيق من نومه ذات يوم ليجد الجميع وقد اعتمر قلانس حمر. فيُقال له إن بعض غرباء الأطوار...

پ. أ. ميندوسا: «يلتحفون بثياب كثياب الولد السباتي».

غ. غ. ماركيز: «يلتحفون بثياب كثياب الولد السباتي»... ويقايضون كل شيء (بيض سحالي الإغوانا، وجلود التماسيح، والتبغ، والشكولا) مقابل القلانس الحمر. فيفتح الديكتاتور نافذة مُطلَّة على البحر، وهناك يرى البارجة التي هجرها مُشاة المارينز، وسفن كريستوف كولومبوس الثلاث المعروفة باسم الكارافيل.

كما ترى، نحن إزاء حدثَيْن تاريخييْن (وصول كولومبوس وإنزال مشاة المارينز) متجاورَيْن بلا أدنى اعتبار للترتيب الزمني. ذلك أنني قد سمحتُ لنفسي بكل صنوف الحرية عن عمد.

پ. أ. ميندوسا: وماذا عن الجغرافيا؟

غ. غ. ماركيز: والجغرافيا أيضًا. فلا شك أن بلد الديكتاتور يقع في الكاريبي. ولكنه مزيج من الكاريبي الإسباني والكاريبي

الإنجليزي. فأنا أعرف الكاريبي جزيرة جزيرة، مدينة مدينة، كما تعلم. وبين دفتي الكتاب أودعتُ كل شيء. وأودعتُ ما يخصُّني في المقام الأول. بما في ذلك الماخور حيث عشتُ في بارَّانكيَّا، وكارتاخينا[1] الزمنِ الماضي الذي عشتُه طالبًا، وحانات المرفأ التي كنتُ أقصدها لتناول الطعام بعد خروجي من الجريدة، في الرابعة صباحًا، بل وحتى المراكب الشراعية التي كانت تبحر إلى آروبا وكوراساو[2] مُحمَّلةً بالمومسات. فالرواية تشتمل على شوارع تشبه الشارع التجاري في بنما، وأركان من هافانا العتيقة، ومن سان خوان[3]، أو من لا غوايرا[4]. ولكن فيها أيضًا أمكنة من جزر الأنتيل الإنجليزية بمن فيها من الهندوس والصينيين والهولنديين.

پ. أ. ميندوسا: هناك من يزعم بأن الديكتاتور في كتابك يجمع بين شخصيتيْن تاريخيتيْن؛ الزعيم ذي الأصول الريفية من ناحية، من أمثال غوميس، ذلك المنبثق من قلب الفوضى والأناركية اللتيْن أسفرت عنهما حروبنا الأهلية، وهو الزعيم الذي يمثِّل الطموح إلى النظام والوحدة الوطنية في لحظة بعينها، ومن ناحية أخرى الديكتاتور العسكري القاتم ذي المرتبة المغمورة الذي يفتقر إلى الكاريزما تمامًا، ولكن مشاة المارينز

---

(1) بارَّانكيَّا وكارتاخينا (التي عُرِفَت أيضًا خلال الحقبة الاستعمارية باسم كارتاخينا دي إندياس): مدينتان تقعان شمالي كولومبيا وتطلّان على الكاريبي.

(2) آروبا وكوراساو: جزيرتان تقعان جنوبي البحر الكاريبي.

(3) سان خوان: عاصمة بورتوريكو، وتطلّ على الكاريبي.

(4) لا غوايرا: عاصمة ولاية بارجاس في فنزويلا، وتطلّ على الكاريبي.

الأمريكان فرضوه على بلده، من أمثال سوموسا[1] أو تروخِيُّو[2]. فما رأيك في ما قلت؟

غ. غ. ماركيز: بغضّ النظر عن تكهُّنات النُقَّاد، فلقد أذهلني (وأسعدني) ما أفضى به إليَّ صديقي العظيم، الجنرال عمر تورِّيخوس[3]، قبل موته بثمانية وأربعين ساعة، حين قال: «إن خريف البطريرك خير كتبك، فكلنا كما وصفتنا أنت».

پ. أ. ميندوسا: في صدفة تدعو إلى الفضول، يكاد يتزامن ظهور خريف البطريرك مع روايات أخرى لكُتَّاب من أمريكا اللاتينية تتطرَّق إلى الموضوع نفسه، الديكتاتور. أعتقد أنها: نهج الوسيلة للكاتب أليخو كارپينتيير[4]، وأنا الأعلى للكاتب روا باستوس[5]، وعمل الموتى للكاتب أرتورو أوسلار پييتري[6]. بمَ تفسِّر ذلك الاهتمام المفاجئ بشخصية الديكتاتور الذي استحوذ على كُتَّاب أمريكا اللاتينية؟

---

(1) أناستاسيو سوموسا غارسيا (1896 – 1956): ديكتاتور فرض حكمه المستبد على نيكاراجوا فعليًّا من عام 1936 وحتى اغتياله.

(2) رافايل ليونيداس تروخِيُّو (1891 – 1961): عسكري وسياسي فرضه حكمه المستبد على جمهورية الدومينيكان من عام 1930 وحتى اغتياله.

(3) عمر إفراين تُورِّيخوس (1929 – 1981): قائد الحرس الوطني في بنما وحاكمها الفعلي من 1968 حتى وفاته.

(4) أليخو كارپينتيير (1904 – 1980): كاتب كوبي له أثر كبير على آداب أمريكا اللاتينية. من أهم رواياته مملكة هذا العالم (1949).

(5) أوغوستو روا باستوس (1917 – 2005): كاتب وصحافي من أهم كُتَّاب باراغواي على الإطلاق.

(6) أرتورو أوسلار پييتري (1906 – 2001): محامٍ وكاتب وصحافي وسياسي من فنزويلا.

غ. غ. ماركيز: لا أظنُّه اهتمامًا مفاجئًا. ذلك أنه من المواضيع الثابتة في أدب أمريكا اللاتينية منذ البدء، وأفترض أنه سيظلّ كذلك. الأمر الذي يمكن تفهُّمه، فالديكتاتور هو الشخصية الميثولوجيَّة الوحيدة التي أنتجتها أمريكا اللاتينية، وما زالت دورتها التاريخية بعيدة عن بلوغ نهايتها.

ولكني في واقع الأمر لستُ مُهتمًّا بالشخصية في حد ذاتها (شخصية الديكتاتور الإقطاعي) بقدر ما أنا مُهتمٌّ بالفرصة التي منحتني إياها للتأمُّل في السلطة. وذلك هو الموضوع الكامن في كتبي جميعًا.

پ. أ. ميندوسا: بطبيعة الحال. فخيوطه الأولى تتجلَّى في ساعة الشؤم ومئة عام من العزلة. ولكن لا مفر من سؤالك، فيمَ يهمُّك الموضوع إلى هذا الحد؟

غ. غ. ماركيز: يهمُّني لأني طالما اعتقدتُ بأن السلطة المطلقة هي الإنجاز الأسمى والأعقد للإنسان، ولذا فإنها تلخِّص كل ما له من عظَمة وبؤس. وكما قال لورد أكتون[1]: «السلطة مَفْسَدة، والسلطة المطلقة مَفْسَدة مطلقة». وذلك موضوع يلهب شغف الكاتب لا محالة.

پ. أ. ميندوسا: أفترض أن مقاربتك الأولى للسلطة كانت أدبية صرفة. لا بد أنك تعلَّمت شيئًا في هذا الصدد من أعمال ومُؤلِّفين بعينهم. فما هي تلك الأعمال ومن هم أولئك المُؤلِّفين؟

غ. غ. ماركيز: تعلَّمتُ الكثير من أوديب ملكًا[2]. كما تعلَّمت قدرًا

(1) لورد جون دالبرغ أكتون (1802 – 1902): مُؤرِّخ وسياسي وكاتب إنجليزي.
(2) أوديب ملكًا: تراجيديا مسرحية للكاتب اليوناني سوفوكليس (496/ 497 – 405 ق.م.).

غير قليل من بلوتارخس[1] وسويتونيوس[2] وغيرهما من كُتَّاب سيرة يوليوس قيصر بوجه عام.

پ. أ. ميندوسا: وهو الشخصية التي فُتِنْتَ بها.

غ.غ. ماركيز: لم أُفتَن بها وحسب، بل إنها الشخصية التي كنت أودُّ لو أني مبدعها في الأدب. ولمَّا كان ذلك ضربًا من المحال، فقد تعيَّن عليَّ أن أرضى بصناعة ديكتاتور مستعينًا على ذلك بقصاصات من سائر الطغاة الذين مرُّوا علينا في أمريكا اللاتينية.

پ. أ. ميندوسا: قلتَ عن خريف البطريرك أمورًا تنطوي على قدر غير قليل من المفارقات. أولًا قلتَ إنه الأكثر شعبية بين كتبك من المنظور اللغوي، رغم أنه يبدو أكثرها زُخرفًا وصعوبةً في واقع الأمر...

غ.غ. ماركيز: كلا، بل إنني استعنتُ في كتابته بالكثير من التعابير والأمثال الشعبية من كل أرجاء منطقة الكاريبي. أحيانًا ما يُجنُّ جنون المترجمين وهم يحاولون الوقوف على مغزى عبارات ما يكاد يسمعها سائقو سيارات الأجرة في مدينة بارَّانكيَّا حتى يدركوا مغزاها ضاحكين. إنه كتاب يتَّسم بالطابع الكاريبي، الساحلي، إلى حد يثير الغضب، إنه ترف يسمح به لنفسه مُؤلِّف مئة عام من العزلة حين يقرِّر أن يكتب ما يريد أخيرًا.

---

(1) بلوتارخس أو فلوطرخس (45 - 125 م على وجه التقريب): ومؤرخ وكاتب سيرة وفيلسوف يوناني من أهم مُؤلَّفاته حيوات متوازية الذي أدرج فيه سلسلة من سير مشاهير الإغريق والرومان.

(2) سويتونيوس (69 - 125 م على وجه التقريب): مُؤرِّخ روماني من أهم مُؤلَّفاته مشاهير الرجال وحيوات القياصرة.

پ. أ. ميندوسا: كما تجزم أنه كتاب تدلي فيه باعترافاتك، كتاب مفعم بالتجارب الشخصية. سيرة ذاتية مُشفَّرة، هكذا قلتَ ذات مرة.

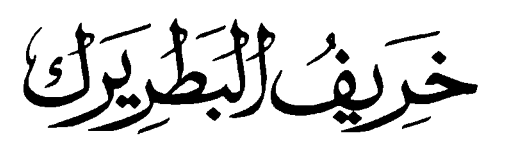
غ. غ. ماركيز: أجل، إنه كتاب اعترافات. الكتاب الوحيد الذي طالما وددتُ كتابته فلم أستطِع قبل ذاك.

پ. أ. ميندوسا: يبدو غريبًا أن تتمكَّن من الاستعانة بتجاربك الشخصية لإعادة بناء مصير الديكتاتور. من شأن أي مُحلِّل نفسي أن يرهف السمع إلى هذا الموضع من الحديث... قلتَ ذات مرة إن عزلة السلطة تشبه عزلة الكاتب. ربما عنيتَ بقولك عزلة الشهرة من باب أولى. ألا تعتقد أن مهارتك وإنجازك دفعاك للتضامن مع شخصية البطريرك سرًّا؟

غ. غ. ماركيز: لم أقُل يومًا إن عزلة السلطة كعزلة الكاتب. بل قلتُ، من ناحية، إن عزلة الشهرة تشبه عزلة السلطة كثيرًا، على حد قولك أنت نفسك. ومن ناحية أخرى، قلتُ إن لا مهنة تفوق مهنة الكاتب عزلةً، وبذلك عنيتُ أن أحدًا لا يقدر على مساعدة المرء في لحظة الكتابة، أو معرفة ما يودّ عمله. كلا، فالمرء في وجه الورقة البيضاء وحيد، في عزلة مطلقة.

وأما في ما يتعلَّق بعزلة السلطة وعزلة الشهرة، فلا شك في التشابه بينهما. ذلك أن استراتيجية الاحتفاظ بالسلطة واستراتيجية الدفاع عن الذات في وجه الشهرة تتشابهان في خاتمة المطاف. وبصفة جزئية، ذلك هو السبب المفضي إلى العزلة في كلتا الحالتيْن. وعلاوة على ذلك، إن انقطاع التواصل الذي يحيط بكل من السلطة والشهرة يؤدِّي إلى تفاقم المشكلة. إنها مشكلة معلوماتية في الأساس، تنتهي بعزل كل من صاحب السلطة وصاحب الشهرة عن الواقع المُتملِّص

المُتغيِّر. ولذا فالسؤال الأكبر في كل من السلطة والشهرة واحد: «من تصدِّق؟». السؤال الذي، إذا انتهينا فيه إلى أقصى غاياته الهاذية، لا بد أن يفضي بدوره إلى السؤال الختامي: «سحقًا، من أنا؟». والوعي بهذه المخاطرة، التي ما كنتُ لأتعرَّف عليها لو لم أكُن كاتبًا شهيرًا، ساعدني كثيرًا بطبيعة الحال في خلق بطريرك يُحتمَل أنه ما عاد يعرف ولا حتى اسمه. وفي هذه اللعبة، لعبة الذهاب والإياب، وخُذْ وهات، من المحال ألَّا يتضامن المُؤلِّف مع شخصيته في خاتمة المطاف، مهما بدت الشخصية مقيتة. حتى وإن كان ذلك بدافع الشفقة ليس إلَّا.


خريف البطريرك

خلال نهاية الأسبوع تسلَّلت العقبانُ عَبْر شرفات البيت الرئاسي، فخرَّبت أسْوِجة النوافذ المعدن نَقْرًا، وبخفقان أجنحتها حرَّكت الزمنَ الراكد في الداخل، ومع بزوغ فجر الإثنين أفاقت المدينة من سباتها الذي دام قرونًا على نسيمٍ دافئٍ رقيقٍ مبعثه ميِّتٌ عظيمٌ وعظمةٌ مُتعفِّنة. عند ذاك فقط تجرَّأنا على الدخول في غير حاجة إلى مناطحة الجدران المتداعية المصنوعة من حجارة مُحصَّنة، كما أراد الأكثر عزيمةً وسطنا، ولا خلخلة المدخل الرئيسي بنير الثيران، كما اقترح آخرون، ذلك أن مُجرَّد دفعة من جانب أحدهم كانت كافية لخلع مُفصَّلات البوابات المُصفَّحة التي تصدَّت لمدافع وليام دامپيير[1] في عهد البيت البطولي. كان ذلك أشبه باختراق أجواء زمنٍ غير الزمن، إذ كان الهواء أكثر رهافة في جوف تلك الآبار حيث استقرَّت أنقاض عرين السلطة الشاسع، حيث الصمت أكثر إيغالًا في القِدَم، والأشياء تتراءى بمشقَّة على الضياء العتيق. وعلى امتداد الباحة الأولى، التي تخلخل البلاط فيها بضغط الحشائش من تحت سطح الأرض، رأينا مقرَّ الحرّاس الهاربين وقد خيَّمت عليه الفوضى، والأسلحةَ المهجورة في الخزائن، والمائدةَ الطويلة ذات الألواح الخشنة بما فوقها من صحون ما زالت تحوي بقايا غداء الأحد الذي قطعه الذعر، رأينا العنبر الغارق في الغَبَش حيث كانت المكاتب المدنية، ورأينا

(1) وليام دامپيير (1651 – 1715): مُستكشِف وبحَّار إنجليزي.

الفطر المُلوَّن والزنابق الشاحبة وسط عرائض غير مُنجزَة كان المسار العادي للعمل عليها أبطأ من مسار الحيوات الأكثر شظفًا، ورأينا جرن المعمودية وقد استقرَّ في وسط الباحة، الجرن حيث عُمِّد ما يربو على خمسة أجيال وسط شعائر عسكرية، ورأينا في الخلفية إسطبل نوَّاب الملوك القديم وقد غدا مرأبًا، ورأينا بين أزهار الكاميليا والفراشات عربةً من زمن الصخب، ومركبةً من عام المُذَنَّب، وعربةَ الطاعون، وعربةَ نقل الموتى من عهد النهضة والانضباط[1]، وسيارةَ الليموزين المُسرنَمة التي ترجع إلى القرن الأول من السلام، كلّها في حالة جيّدة تحت خيوط العنكبوت المُغبَّرة، وكلها مطليّ بألوان العَلَم الوطني. في الباحة التالية، اكتست شجيرات الورود بنُدَف من الغبار القمري خلف سياج حديد. شجيرات الورود التي كان البُرْص يخلدون إلى النوم تحت ظلالها في زمن البيت المجيد، وقد تكاثرت في ظلِّ الهجر حتى ما كادت تبقى ثغرة واحدة بلا رائحة في غمرة الهواء الذي بلغنا من خلفية الحديقة، هواء الورود المخلوط بالعَفَن ونَتَن قنّ الدجاج وروائح الروث وتخمُّرات بول الأبقار والجنود الآتية من البازيليكا[2] التي ترجع إلى الحقبة الاستعمارية، تلك التي غدت حظيرةً تُحلَب فيها الأبقار. وفيما رحنا نشقُّ طريقنا عبر الآجام الخانقة رأينا الرواق ذا الطاقات وأُصُص القرنفل وأوراق زنابق الألستروميريا[3] والجهنميات حيث كانت مهاجع المحظيّات،

(1) «النهضة والانضباط» أو «النهضة في ظل الانضباط»: شعار تبنَّته عدة ديكتاتوريات عسكرية في أمريكا اللاتينية، ونجده على علم دولة البرازيل حتى يومنا هذا.

(2) بازيليكا أو بازيليك: كنيسة تمتاز بالضخامة، لها صحن وجناحان أو أكثر.

(3) ألستروميريا: من أنواع الزنابق التي تنمو في أمريكا الجنوبية.

وبالحكم على تنوُّع المُخلَّفات المنزلية وعدد آلات الحياكة، فقد بدا لنا جائزًا أن ما يربو على ألف امرأة قد عشن هناك برفقة قطعانهن من الصغار المُسْبَعين[1]، رأينا فوضى حرب تسود المطابخ، ورأينا الثياب المُتعفِّنة تحت أشعّة الشمس في أحواض الغسيل، وفوّهةَ المرحاض المفتوحة، المرحاض الذي يشترك فيه الجنود والمحظيات، ورأينا في الخلفية الصفصاف البابلي الذي جيء به حيًّا من آسيا الصغرى في صوبات بحرية عملاقة، بتربته ونُسغه ورذاذه. وفيما وراء الصفصاف رأينا البيت المدني، حزينًا مترامي الأطراف، والعقبان ما زالت تتسلَّل عَبر مشربياته المُهشَّمة. لم نُضطرّ لفتح المدخل عنوة، على عكس ما دار في خلدنا، إذ بدا وكأن البوابة المركزية قد انفتحت متأثِّرةً بضغط الصوت ليس إلَّا، فصعدنا إلى الطابق الرئيسي عَبْر دَرَجٍ من حجارة عارية تمزَّقت أبْسِطة دور الأوبرا التي كانت تكسوها تحت وطأة أظلاف الأبقار، ومن الردهة الأولى وحتى المخادع الخاصة رأينا أطلال المكاتب والقاعات الرسمية حيث كانت الأبقار تجوب غير آبهة فيما هي تأكل الأستار المخملية وتلوك ساتان الأرائك، ورأينا لوحات بطولية تمثِّل قديسين وعسكرًا ملقاة على الأرض وسط قطع أثاث مُهشَّمة وروث أبقار حديث، ورأينا قاعة طعام التهمتها الأبقار، وقاعة الموسيقى المُدنَّسة تحت وطأة الخراب الذي ألحقته بها الأبقار، ورأينا طاولات الدومينو وقد تهشَّمت، والمراعي التي اكتست بها طاولات البلياردو وقد أتت عليها الأبقار، ورأينا آلة الريح مهجورةً في أحد الأركان، تلك الآلة التي كانت تزيِّف ظواهر وردة البوصلة باتجاهاتها الأربعة لتهوِّن على أهل البيت شعورهم بالحنين إلى البحر الذي رحل، ورأينا أقفاص طيور مُعلَّقةً

(1) مُسْبَع: أي وُلِد بعد سبعة أشهر من الحمل.

في أرجاء المكان كافة وما زالت مُغطَّاة بملاءات النوم منذ إحدى ليالي الأسبوع الماضي، ورأينا عبر النوافذ الكثيرة ذلك الحيوان الضخم المُتمثِّل في المدينة، رأيناه في سباته وهو لا يزال غافلًا عن يوم الإثنين التاريخي وقد بدأت تدبُّ فيه الحياة، وفيما وراء المدينة، على مرمى الأفق، رأينا الفُوَّهات الخامدة يكسوها الرماد القمري الخشن في السهل اللامتناهي حيث كان البحر في ما مضى. وفي ذلك المكان المحظور الذي لم تتسنَّ معرفته سوى لقلة قليلة من ذوي الامتيازات رحنا نتشمَّم رائحة لحوم العقبان لأول مرة، وأدركنا لهاثها الذي دام دهرًا، وغريزتها التنبُّؤية، واسترشدنا بريح العَفَن التي أرسلها خفقان أجنحتها إلى أن عثرنا في قاعة الاجتماعات على هياكل الأبقار بمُؤخِّراتها الحيوانية الأنثوية ينخرها الدود، وقد انعكست صورتها مرات ومرات على مرايا بطول الجسد، عند ذاك دفعنا بابًا جانبيًّا يُفضي إلى مكتب محجوب خلف الجدار، وهناك رأيناه هو، بالزيّ الكتّاني المُجرَّد من الشارات، والطماق[1]، ومهماز الذهب في كاحله الأيسر، رأيناه أشد هرمًا من سائر الرجال وسائر الحيوانات الهرمة على اليابسة وفي الماء، وقد ارتمى على وجهه أرضًا، وتوسَّد ذراعه اليمنى التي انثنت تحت رأسه، على نحو ما كان يخلد إلى النوم ليلة بعد ليلة طوال ليالي حياته مفرطة الطول، حياة المُستبدِّ في عزلته. ثم إننا لم ندرك استحالة التعرُّف عليه إلَّا حين جعلنا وجهَه إلى أعلى حتى نراه، رغم أن العقبان لم تنقر وجهه،

(1) طماق: واقٍ للساقيْن غالبًا ما يُصنَع من الجلد.

ولكن لأن أحدًا منا لم يكُن قد رآه قط، ورغم أن صورته الجانبية منقوشة على جانبي العملات المعدنية، وعلى طوابع البريد، وعلى ملصقات الأدوية المُطهِّرة، وعلى أحزمة فتق الخصية، وعلى القلائد، ورغم أن صورته معروضة في كل أوانٍ وكلِّ مكانٍ، تلك الصورة المُؤطَّرة المطبوعة طباعة حجرية حيث يظهر حاملًا على صدره عَلَم الوطن وتنِّينه، فقد كنا نعرف أنها نسخ عن نسخ من صور كانت بالفعل تُعدُّ غير مطابقة للأصل في زمن المُذنَّب، حين كان آباؤنا أنفسهم يعرفونه عَبْر ما سمعوا من روايات آبائهم، كما عرفه آباء آبائنا عَبْر ما سمعوا من روايات آبائهم، فدَرَجنا منذ الطفولة على الاعتقاد بأنه يعيش في بيت السلطة لأن أحدهم قد رأى المصابيح الكرويَّة تُضاء ذات ليلة احتفالية، ولأن أحدهم روى قائلًا إني قد رأيتُ العينيْن المحزونتيْن، والشفتيْن الشاحبتيْن، ورأيتُ اليد المُتأمِّلة تلوِّح بإيماءات وداع إلى غير أحد من خلال زينة القدّاس الإلهي التي بها ازدانت السيارة الرئاسية، ولأنهم مضوا إليه بالأعمى الشريد ذات أحد منذ أعوام طوال خلت، الأعمى الذي كان يتلو قصائد الشاعر المنسي روبِن داريو[1] لقاء خمسة سِنْتات، فعاد سعيدًا وبحوزته قطعة مورُّوكوتا[2] استحقَّها بجدارة ونالها عن تلاوة الشعر له وحده، رغم أنه لم يرَه، بطبيعة الحال، ليس لكونه أعمى بل لأن فانيًا واحدًا لم يرَه منذ زمن الحُمَّى الصفراء، وعلى الرغم من ذلك كنا نعرف أنه هناك،

---

(1) روبِن داريو (1867 - 1916): شاعر وصحافي ودبلوماسي من نيكاراغوا. من أعظم شعراء اللغة الإسبانية أثرًا في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، ومن رواد حركة الحداثة الأدبية التي ازدهرَتْ في تلك الحقبة. جدير بالذكر أن المُؤلِّف يُدرِج الكثير من أشعار روبِن داريو في شتَّى أجزاء الرواية.

(2) مورُّوكوتا: عملة قديمة من الذهب أو الفضة، تمتاز بضخامة الحجم.

كنا نعرف لأن العالم ظلَّ يمضي قدمًا، والحياة تمضي قدمًا، والبريد يصل، وجوقة البلدية تعزف فالسات ساذجة كطبول الانسحاب أيام السّبت تحت النخيل المُغبَّر وأعمدة الإنارة الذاوية في ميدان السلاح[1]، ويحلُّ عازفون طعنوا في العمر محلَّ عازفي الجوقة الأموات. أما في الأعوام الأواخر، حين لم تعُد تُسمَع داخل البيت أصوات البشر ولا تغريدات الطيور، حين أُوصِدَت البوابات المُصفَّحة إلى الأبد، كنا نعرف أن أحدهم في البيت المدني بالنظر إلى الأنوار الشبيهة بأنوار الملاحة التي كانت تتبدَّى ليلًا عَبْر النوافذ المُطلَّة على البحر، وأما أولئك الذين تجرَّأوا على الاقتراب فقد سمعوا وقع أظلاف كارثي وتنهُّدات حيوان ضخم وراء الجدران المُحصَّنة، وذات مساء من شهر يناير رأينا بقرة تتأمَّل الغسق من الشرفة الرئاسية، تخيَّلْ، بقرة في شرفة الوطن، أي شيء فظيع، أي بلد خرائي، فذهبنا إلى كثير من التكهُّنات حول كيفية وصول بقرة إلى الشرفة في حين يعلم الجميع أن الأبقار لا تتسلَّق الدَّرَج، ناهيك عن الدَّرَج الحجريّ، ولا سيما إذا كان مفروشًا بالأبسطة، حتى إننا لم نتأكَّد في خاتمة المطاف إن كنا قد رأيناها فعلًا أو كنا قد أمضينا المساء بميدان السلاح وحلمنا خلال سيرنا برؤية بقرة في شرفة رئاسية حيث لم ولن يُرَى شيء مرة أخرى على مدى أعوام طوال حتى فجر الجمعة الماضية حين بدأت تصل أولى العقبان التي حلَّقت تاركةً إفريز مستشفى المعوزين حيث كانت تغفو دومًا، ثم لحقت بها عقبان أخرى من الأراضي الداخلية، جاءت في موجات متعاقبة آتيةً من أفق بحر الغبار حيث كان البحر في ما مضى، وجعلت

(1) ميدان السلاح: اسم يُطلَق على الميدان الرئيسي في عدد كبير من مدن أمريكا اللاتينية التي شيَّدها الإسبان.

تحوم في دوائر بطيئة فوق بيت السلطة طوال اليوم حتى صَدَر أمرٌ صامت عن مَلِكٍ له ريشات عروس وطوق قرمزي، فانطلق دويّ زجاج يتهشَّم، وهبَّت ريح الميِّت العظيم، وشرعت العقبان في الدخول والخروج عَبْر النوافذ، ما لا يُعقَل حدوثه إلا في بيت لا سطوة فيه، وهكذا فلقد تجرَّأنا نحن أيضًا على الدخول، فعثرنا في ذلك الحَرَم المهجور على أنقاض العَظَمة، والجثمان الذي نقرته العقبان، ويدَي العذراء الأسيلتيْن، وخاتم السلطة المحيط بعظم البنصر، ألفيناه وقد نمت على كل موضعٍ في جثمانه أشنيات[1] بحرية متناهية الضآلة وحيوانات طفيلية من أعماق البحر، ولا سيما تحت الإبطيْن وعند ملتقى الفخذيْن، كان يضع الحزام الكتاني حول خصيته المصابة بالفتق، تلك التي تجنَّبتها العقبان دون بقية الجثمان رغم أنها في ضخامة كُلْيَة العِجْل، أما نحن فلم نجرؤ على التصديق بموته ولا حتى آنذاك، ذلك أنها كانت المرة الثانية التي يُعثَر فيها عليه في ذلك المكتب، وحيدًا، في ثيابه، وقد لقي ميتةً طبيعية في أثناء نومه على ما يبدو، كما أنذرت مياه الطاس التنبُّؤيَّة منذ أعوام طوال خلت. أما حين عُثِر عليه لأول مرة، في مطلع خريفه، كانت الأمَّة لا تزال مفعمة بالحياة إلى درجة تكفي لكي يشعر معها بالموت يتهدَّده، حتى وهو في ظلِّ العزلة التي خيَّمت على مخدعه، وبرغم ذلك فقد مضى يحكم وكأنه يعلم أن قَدَره حكم عليه بألّا يموت أبدًا، فما كان ذلك يبدو بيتًا رئاسيًّا حينها بل سوقٌ يُضطرُّ المرء فيها أن يشقَّ طريقه وسط أفراد خدمة عسكرية حُفاة الأقدام يفرغون حمولات الحمير من الخضروات وأقفاص الدجاج في الأروقة، وهم يثبون من فوق

(1) الأشنيات: نمو مُشترَك ما بين الفطر والطحلب، إذ تشترك أنسجتهما معًا في تكوين جسم واحد.

نساء برفقة أبنائهن بالمعمودية، أولئك الذين كانوا يتضوَّرون جوعًا وينامون مُكدَّسين على الدَّرَج ترقُّبًا لمعجزة الصدقة الرسمية، هناك حيث يُضطرُّ المرء أن يتفادى تيارات المياه القذرة التي تسكبها محظيات سليطات اللسان كُنَّ يضعن أزهارًا نضرة في المزاهر بدلًا من الأزهار الليلية ويمسحن الأرضيات وينشدن أغنيات الحُبِّ الوهمي على إيقاع الأغصان اليابسة التي ينفضن بها الأبسطة في الشرفات، كل ذلك وسط جلبة عارمة مصدرها موظّفين دائمين كانوا يعثرون على دجاجات تضع بيضها في جوارير المكاتب، وزحام المومسات والجنود في دورات المياه، وصخب الطيور، وشجار الكلاب الضالة خلال الاجتماعات، فما كان أحد يعرف مَنْ هو مَنْ ولا مَنْ مُرسَل من طرف مَنْ في ذلك البيت المشرع الأبواب حيث يتعذَّر تحديد موقع الحكومة في ظلِّ الفوضى العارمة التي عمَّت أرجاء المكان. أما رجل البيت فما كان يشارك في ذلك الهرج الكرنفالي وحسب، بل كان ينشِّطه ويتزعَّمه، فلا تكاد أنوار مخدعه تُضاء، قبل شروع الديكة في الصياح، حتى ينفخ الحرس الرئاسي في بوق الاستيقاظ الذي ينطلق حاملًا الإعلان عن مطلع يوم جديد إلى ثكنة إل كونديه القريبة، فتكرِّرها الأخيرة على قاعدة سان خيرونيمو، التي تكرِّرها على حصن المرفأ، فيعيد الأخيرُ إطلاق البوق ست مرات متتالية لإيقاظ المدينة أولًا ثم البلد بأسره، بينما يتأمَّل وهو على المرحاض المُتنقِّل يحاول أن يخمد بيديْه الطنين الذي يدوِّي في مسمعيْه، ذلك الطنين الذي بدأت تظهر عليه أعراضه آنذاك، ويراقب أنوار سفن تمرُّ عَبْر البحر الزبرجدي المُتقلِّب الذي كان لا يزال أمام نافذته في زمن المجد. ومنذ وضع يده على البيت، كان يشرف يوميًّا على حلب الأبقار في الحظائر ليكيِّل بيده الحليب الذي

تُقِلُّه العربات الرئاسية الثلاث إلى ثكنات المدينة، ثم يحتسي قدحًا من القهوة السوداء مع كعك الكاسابي[1] في المطبخ وهو لا يعلم تمام العلم إلى أين ستجرفه دفقات رياح النهار الجديد، مُولِّيًا انتباهه إلى ثرثرة الخدم دومًا، وهم أهل البيت الذين يتحدَّث إليهم باللغة نفسها، ويُقدِّر تملُّقهم الجاد أكثر مما عداه من التملُّق ويُحسِن الكشف عن سرائر قلوبهم أكثر مما عداها من القلوب، وقُبَيْل التاسعة كان يغتسل على مهل بمياه الأوراق المغلية في المسبح الغرانيتي المقام تحت ظلال شجر اللوز في باحته الخاصة، غير أنه ما كان يفلح في التغلُّب على هموم الفجر ومواجهة صروف الواقع إلا بعد الحادية عشرة. أما في ما مضى، إبان احتلال مُشاة المارينز[2]، فكان يقفل دونه باب مكتبه للبتِّ في مصير الوطن مع قائد قوات الإنزال، ويذيِّل ببصمة إبهامه القوانين والمراسيم بكافة صنوفها، ذلك أنه ما كان يتقن القراءة ولا الكتابة آنذاك، ولكنه ما إن تُرِك وحيدًا لوطنه وسلطته مرةً أخرى حتى لم يعد إلى تسميم دمه بذلك الخمول الذي تبعث عليه القوانين المكتوبة، بل شرع يحكم بالصوت الحي والجسم الحاضر في كل أوانٍ وكلِّ مكانٍ، بتروٍّ بدائي وإن يكُن بهمَّة عصيَّة على التصوُّر في مثل عمره، تحاصره جموع من البُرْص والعميان والمفلوجين[3]، يتوسَّلون إليه أن يمنحهم ملحَ العافية بيديْه،

(1) كعك الكاسابي: صنف من صنوف الكعك الشائعة في أمريكا اللاتينية، ويُعَدُّ من طحين نبات المنيهوت.

(2) مُشاة المارينز: قوات مشاة بحرية الولايات المتحدة الأمريكية.

(3) يُلاحَظ أن الرواية زاخرة بالاقتباسات المأخوذة من الكتاب المُقدَّس فضلاً عن التشبيهات والمقارنات التي يعقدها الكاتب بين شخص البطريرك والإله طبقًا للعقيدة المسيحية. ولذا روعي قدر المستطاع نقل هذه الإشارات بما يوافق النسخة العربية من الكتاب المُقدَّس بترجمة فان دايك. وسوف نوضح بعضًا من هذه الإشارات عند الضرورة.

كما يحاصره ساسة مُتعلِّمون مُتملِّقون وقحون يبشِّرون به مُقوِّمًا للزلازل والكسوف والأعوام الكبيسة ودونها من أخطاء الرَّب، أما هو فيجرجر قائمتي الفيل اللتيْن يخطو بهما فوق الثلوج عَبْر أنحاء البيت كافةً بينما يحلُّ مشكلات الدولة ويبتُّ في الشؤون المنزلية بالبساطة نفسها التي بها يصدر أمره قائلًا اخلعوا هذا الباب من هنا وضعوه هناك من أجلي، فيخلعونه، ردُّوه إلى موضعه مرة أخرى من أجلي، فيردُّونه، ويصدر أمره بألَّا تُدقَّ ساعةُ البرج معلنةً تمام الثانية عشرة في الثانية عشرة بل في الثانية حتى تبدو الحياة أطول أمدًا، فيمتثلون إلى أمره، من دون لحظة تردُّد ولا راحة إلَّا في ساعة القيلولة الهامدة حين يلتجئ إلى غَبَش المحظيات، فيختار إحداهن قسرًا، من دون أن يجرِّدها أو يجرِّد نفسه من الثياب، ومن دون أن يوصد الباب، عند ذاك يتردَّد في أجواء البيت لهاثه الخالي من الروح، لهاث الزوج المُتعجِّل، ورنين مهماز الذهب المُتلهِّف، ونحيب الكلاب الخافت الذي ينخرط فيه، وفزع المرأة التي تهدر لحظات الحُبِّ في محاولة صرف النظرات البذيئة التي يحدجها بها الصغار المُسْبَعون، وصراخها قائلةً اغربوا عن وجهي، اذهبوا والعبوا في الباحة فهذا أمر لا تجوز مشاهدته للأطفال، فكأن ملاكًا يشقُّ سماء الوطن، إذ تخبو الأصوات، وتتجمَّد الحياة، ويتحجَّر كلٌّ في مكانه واضعًا سبابته على شفتيْه، وتنقطع الأنفاس، صمتًا، فالجنرال يضاجع، أما أعلم الناس به فما كانوا يطمأنّون ولا حتى إلى الهدنة التي تسود تلك اللحظة المُقدَّسة، ذلك أنه دائمًا ما كان يبدو حاضرًا في أكثر من موضع في آن، فيُشاهَد وهو يلعب الدومينو في السابعة ليلًا ويُشاهَد في الوقت نفسه وهو يضرم النار في أقراص روث الأبقار لطرد البعوض من قاعة الاجتماعات، كما لم يكُن أحدٌ يُمنِّي نفسه بالأوهام

حتى تنطفئ أنوار النوافذ الأخيرة وتُسمَع صلصلة مُدوِّية مصدرها المزاليج الثلاثة، والمغاليق الثلاثة، والأقفال الثلاثة عند إغلاق باب المخدع الرئاسي، وتُسمَع هَدَّة جسده إذ يهوى على الأرض الحجرية من فرط الإعياء، وأنفاس الطفل الهرم التي تزداد عُمقًا مع ارتفاع المدِّ، حتى يسكت طنين الزيزان في طبلتي أذنيْه على وقع قياثير الريح الليلية وتهبّ موجةٌ عاتية من الزبد لتجرف شوارع المدينة العتيقة، مدينة نوَّاب الملوك والقراصنة، وتقتحم البيت المدني عَبْر سائر النوافذ وكأنها يوم سبت مُروِّع من أيام أغسطس، موجةٌ تجعل محار البرنقيل[1] ينمو على المرايا وتترك قاعة الاجتماعات تحت رحمة هذيان القروش وتتخطَّى أعلى مستويات سجَّلتها محيطات ما قبل التاريخ، وتغمر وجه الأرض والفضاء والزمان، فلا يبقى سواه طافيًا وحده، على وجهه، في مياه أحلامه القمرية، أحلام غريق في عزلته، بزيّ الجندي العادي المنسوج من الكتان، والطماق، ومهماز الذهب، وقد توسَّد ذراعه اليمنى التي انثنت تحت رأسه. أما في ما يتعلَّق بتواجده في كل مكان في الوقت نفسه خلال الأعوام الحجرية السابقة على موته الأول، وصعوده فيما هو نازل، وانتشائه بالبحر فيما هو يحتضر تحت وطأة حب خائب من غرامياته، فلم تكُن تلك امتيازات خصَّته بها طبيعته التي جُبِل عليها كما بشَّر مُتملِّقوه، ولا كانت هلوسة جماعية كما زعم منتقدوه، بل كان ذلك الحظ الذي شاء له أن يعتمد على خدمات پاتريسيو أراغونيس الأمينة ووفاء الكلاب الذي تميَّز به، وپاتريسو أراغونيس هو شبيهه المثالي الذي عُثِر عليه من دون أن يبحث عنه أحد، وكان ذلك حين أقبلوا عليه

(1) البرنقيل: محار يعيش في المياه المالحة ويلتصق بالصخور وأرصفة الموانئ وقيعان السفن والأشياء.

بالخبر القائل بأن ثمة مركبة رئاسية زائفة تجوب قرى الهنود حيث تجني أرباحًا طائلة بانتحال شخصيتكم سيدي الجنرال، وقد شُوهِدَت العينان اللتان غشيهما الصمت في الغَبَش الجنائزي، كما شُوهدَت الشفتان الشاحبتان، ويد العروس المرهفة التي وضعها في القفاز الساتاني وأخذ ينثر بها حفنات الملح على المرضى الذين خرُّوا جاثين في الشارع، في حين مضَت المركبة متبوعة بضابطيْن زائفيْن من سلاح الفرسان يحصِّلان ثمن نعمة الشفاء بالعملة الصعبة، تخيَّلْ سيدي الجنرال، أي انتهاك، أما هو فلم يُصدِر أي أوامر ضد المُنتحِل بل طَلَب إليهم أن يمضوا به إلى البيت الرئاسي سرًّا على أن يُغطَّى رأسه بجوال من الخيش لئلَّا يقع خلط بينهما، وعند ذاك تكبَّد مهانة رؤية نفسه على قدم المساواة مع غيره على هذا النحو، سحقًا، إن هذا الرجل أنا، قال، إذ كان في واقع الأمر وكأنه هو، في ما عدا نبرة السطوة في صوته، والتي لم يفلح الآخر في تقليدها قط، وفي ما عدا وضوح خطوط راحة اليد حيث يمتدُّ قوسُ الحياة في غير تعثُّر ليحيط بقاعدة الإبهام، أما كونه لم يأمر من فوره بإعدام الآخر رميًا بالرصاص فلم يكُن الباعث على ذلك رغبته في الإبقاء عليه بصفته مُنتحلًا رسميًّا، إذ تبادرت إلى ذهنه تلك الخاطرة في وقت لاحق، بل توهُّمًا منه بأن شفرة قَدَرِه ربما كانت مكتوبة على راحة يد المُنتحِل، الوهم الذي كدَّر صفو نفسه. ولمَّا اقتنع بأن ذاك الحلم محض عبث، كان پاتريسيو أراغونيس قد نجا في غير اكتراث من ست محاولات اغتيال، واكتسب عادة جرِّ قدميْه اللتيْن قد تفلطحتا بفعل دقات المطرقة، وصار يدوِّي في مسمعيْه الطنين ويتغنَّى فتقُه بالأغنيات فجرَ أيام الشتاء، كما تعلَّم كيف يخلع مهماز الذهب ثم يعاود وضعه وكأن سيوره قد تشابكت لمجرَّد أن يكسب بعض الوقت خلال

الاجتماعات بينما هو يتمتم بقوله سحقًا لتلك الحلقات التي يطرقها حدَّادو فلانذِرز[1] فهم لا يصلحون ولا حتى لهذا الغرض، وبعد أن كان مهذارًا كثير الدعابة وهو يعمل بنفخ القوارير في فرن الزجاج الخاص بأبيه إذا به يغدو مُتجهِّمًا مُغرِقًا في التأمُّل، فما عاد يولِّي انتباهه لما يُقال له بل صار يتفرَّس في غَبَش العيون حتى يسبر ما لا يُقال، ولا يجيب سؤالًا قط ما لم يسأل أولًا وأنت ما رأيك وبعد أن كان صعلوكًا عالةً وهو يتاجر في بيع المعجزات إذا به يغدو مَشَّاءً لا يني ونشيطًا إلى حدِّ الألم، وإذا به يغدو مُقتِّرًا جشعًا، ويستسلم لمطارحة الحُبِّ قسرًا والنوم بثيابه أرضًا، والاستلقاء على وجهه، من دون وسادة، ويتخلَّى عن خيلائه السابقة على أوانها التي تحدو به إلى تكوين هوية تخصُّه وحده، كما تخلَّى عن كل الحِرَف التي ورثها وأحلامه الوردية بالعمل في نفخ قوارير الزجاج وصنعها ببساطة، فصار يواجه أخطار السلطة الأشد هولًا، ويضع أحجارَ أساسٍ لن تُقام فوقها أحجارٌ ثانية يومًا، ويقصُّ أشرطة افتتاح على أرض العِدَى ويتجشَّم الكثير من الأحلام الضائعة سدًى والكثير من التنهُّدات المكبوتة، تنهُّدات الأوهام المستحيلة، وهو يُتوِّج ملكات الجمال الكثيرات العابرات البعيدات كل البعد عن المنال، وهو لا يكاد يمسُّهن مسًّا، ذلك أنه قد رضي بأن يعيش إلى الأبد قَدَرًا ليس قدره، رغم أنه لم يفعل ما فعل عن طمع أو اقتناع بل لأنه هو قايضه بحياته وظيفةَ مُنتحِل رسمي مدى الحياة نظير راتب اسمي قدره خمسون بيسو شهريًّا، وامتياز يضمن له أن يحيا حياة الملوك من دون أن يتكبَّد مصيبة أن يكون واحدًا منهم، فأي شيء تبغي فوق ذلك. ولقد بلغت تلك الحيرة في الهوية أوجَها ذات ليلة عاتية الرياح، ألفى خلالها

---

(1) فلانذِرز: إقليم في بلجيكا.

باتريسيو أراغونيس يتنهَّد مولِّيًا وجهه شطر البحر وقد غشيته أبخرة أشجار الياسمين العطِرة، فسأله في وجَل مشروع عمّا إذا كانوا قد دسُّوا له نبتة الأقونيطن السّامّة في الطعام، ذلك أنه بدا هائمًا على وجهه كمن تسلَّل إليه الهواء الفاسد، فأجابه باتريسيو أراغونيس قائلًا كلا سيدي الجنرال، بل إن الأمر أسوأ مما ذكرت، فلقد توَّج إحدى ملكات جمال الكرنفال يوم السبت وراقصها على أنغام الفالس الأول، والآن لا يجد إلى الخروج من تلك الذكرى سبيلًا، فهي أجمل امرأة على وجه الأرض، وهي من تلك النساء اللواتي لم يُخلَقن للمرء من أمثالي سيدي الجنرال، لو أنك رأيتَها، فأجابه وهو يتنفَّس الصعداء بقوله سحقًا، يعاني الرجل من تلك الأمور متى حُرِم من النساء، واقترح عليه اختطافها كما فعل هو بكل الفاتنات اللائي صرن محظيات له، ولسوف أضعها لك على الفراش عنوةً بينما يكبِّل أربعةٌ من رجال القوات قدميْها ويديْها، فتغترف أنت منها بالمغرفة الكبيرة، سحقًا، وتلتهمها وهي مُكبَّلة الحركة، قال، فحتى أصعبهن مراسًا يستشطن غضبًا في بادئ الأمر ثم يتوسَّلن إليك لاحقًا ويقلن لا تتركني سيدي الجنرال كتفاحةِ وردٍ[1] تعِسة فقدت بذرتها، غير أن باتريسيو أراغونيس لم يُرِد كل هذا، بل أكثر منه، أراد أن يكون محبوبًا، فهي من أولئك اللواتي يعرفن من أين يأتي المغنُّون[2] سيدي الجنرال، ولسوف ترى أنك ما إن تراها حتى ترى بنفسك، أما هو فقد أشار عليه بالدروب الليلية المُفضية إلى مخادع المحظيات باعتبارها

---

(1) تفاح الورد: فاكهة لها رائحة الورود تنمو في المناطق ذات المناخ الاستوائي كبلدان الكاريبي.

(2) إشارة إلى أغنية لفرقة كوبية تُدعَى ثلاثي ماتاموروس (1925 - 1961)، مطلعها كما يلي: «ماما، وددتُ لو أعرف من أين يأتي المغنُّون».

وصفة للتسرية عن الذات، وأقرَّ له بالحق في استخدامهن كما لو كان هو نفسه، قسرًا وعلى عجل ومن دون أن يتجرَّد من ثيابه، فما كان من پاتريسيو أراغونيس إلا أن غاص عن طيب خاطر في مستنقع الحُبِّ المُستعار ظنًّا بأنه سوف يتمكَّن بذلك من تكميم أشواقه، بَيْد أن لهفته بلغت من الشدة حتى إنه كان ينسى شروط الاستعارة في بعض الأحيان، فيفتح سَحَّابِ بنطاله وهو شارد البال، ويستغرق طويلًا في دقائق التفاصيل، ويتعثَّر سهوًا في الأحجار الخفيَّة[1] للنساء الأشد وضاعة، فينتزع الآهات من أعماقهن ويُضحِكهن من فرط الدهشة تحت جنح الظلام، يا لك من شيطان سيدي الجنرال، كن يقلن له، بعد أن شاب زاد شراهة، ومن حينها ما عاد أيٌّ منهما أو منهن يدري مَنْ هو ابن مَنْ، أو مع مَنْ، ذلك أن أبناء پاتريسيو أراغونيس كانوا يولدون مُسْبَعين أيضًا، مثلهم كمثل أبنائه هو. وهكذا أصبح پاتريسيو أراغونيس رجل السلطة الأساسي، الأكثر شعبية، وربما الأكثر مهابة أيضًا، أما هو فقد وجد من الوقت مُتَّسعًا لتولِّي أمور القوات المُسلَّحة بالقدر نفسه من العناية كما في مطلع حُكمه، ليس لأنها الدعامة التي عليها تقوم سلطته كما ظننَّا جميعًا، بل على العكس، فالقوات المُسلَّحة ألدَّ أعدائه الطبيعيين، ولذا كان يحمل بعض الضباط على الاعتقاد بأنهم يخضعون لمراقبة البعضِ الآخر، ويأمر لهم بتنقُّلات عشوائية درءًا للتواطؤ في ما بينهم، ويمدُّ الثكنات بثماني رصاصات زائفة في كل عشر رصاصات حية، ويزوِّدها بالبارود المخلوط برمال الشاطئ في حين يُبقِي الذخيرة الحية قرب متناول يده في مُستودَع

(1) عبارة تتكرَّر في غير موضع مع اختلاف الصياغة، ويُرجَّح أن يكون الكاتب قد استعارها من التعبير الدارج في كولومبيا «انتزع الرجل أحجار المرأة»، أي أثارها وجعلها تصل إلى النشوة الجنسية.

بالبيت الرئاسي يحتفظ بمفاتيحه في حلقة معدنية مع مفاتيح أخرى لا نُسَخ لها يفتح بها أبوابًا ليس لأحد سواه أن يفتحها، وهو في حماية الظلِّ الهادئ لرفيقي، رفيق العمر كله، جنرال رودريغو دي أغيلار، رجل المدفعية الأكاديمي ووزير الدفاع وفي الوقت نفسه قائد الحرس الرئاسي ومدير أجهزة الدولة الأمنية وواحد من الفانين القلائل الذين أُقِرّ لهم بالحق في الفوز عليه في مباراة دومينو، ذلك أنه قد فقد ذراعه اليمنى وهو يحاول إبطال مفعول عبوة ديناميت قُبَيْل مرور العربة الرئاسية من موقع محاولة الاغتيال بدقائق. كان يشعر بكل أمان في كنف الجنرال رودريغو دي أغيلار وحضور پاتريسيو أراغونيس حتى إنه بدأ يتغاضى عن نُذُر الشؤم ويظهر على الملأ أكثر فأكثر، بل وجرؤ على التنزُّه في أرجاء المدينة مع مرافق واحد وحسب في عربة مسقوفة مُجرَّدة من الشارات، مضى يتأمَّل من بين أستارها الكاتدرائيةَ المُختالة ذات الأحجار المُذهَّبة، تلك التي أعلنها الكاتدرائية الأجمل في العالَم بموجب مرسوم رئاسي، ومضى يختلس النظر إلى القصور الحجرية العتيقة بما لها من بوابات تعود إلى زمن السُّبات وأزهار عبَّاد شمس تتَّجه شطر البحر، ويختلس النظر إلى الشوارع المرصوفة العبقة برائحة ذبالات الشموع في حيِّ نوَّاب الملوك، والآنسات الشاحبات اللائي يغزلن الدانتيل في حشمة لا تُقاوَم وسط أُصُص القرنفل وأغصان الجهنميات على ضياء الشرفات، ودير راهبات بيثكايا[1] الذي يشبه رقعة الشطرنج، وتتردَّد بين جنباته أنغام تمرين الثالثة مساءً على آلة الكلافيكور الموسيقية، المقطوعة نفسها التي عُزِفَت في الماضي احتفالًا بمرور المُذنَّب لأول مرة، ثم إنه اجتاز متاهة السوق البابلية، بما فيها من موسيقى

(1) بيثكايا: مقاطعة في إقليم الباسك بشمال إسبانيا.

مُميتة، وشعارات تذاكر اليانصيب، وعربات باعة عصير القصب، وصفوف بيض سحالي الإغوانا[1]، وبضائع الأتراك[2] البخسة التي أحالت الشمسُ لونها، ولوحات النسيج المُروِّعة للمرأة التي مُسِخَت عقربًا جزاءً لها عن عصيان أبويها، والزقاق التعِس بمن فيه من نساء لا رجال لهن يخرجن عاريات ساعة الأصيل لشراء سمك الكوربين الأزرق والمرجان المُتورِّد وتبادل السباب المقذع مع بائعات الخضروات ريثما تجفُّ ثيابهن على شرفات من الخشب المُزخرَف، أما هو فقد تنسَّم رياح ثمار البحر المُتعفِّنة، والبريق اليومي الذي به تتألَّق البجعات عند منعطف الطريق، وفوضى الألوان التي عمَّت أكواخ الزنوج فوق الرُّبَى المُشرِفة على الخليج، وبغتةً، هوذا المرفأ، آهِ، المرفأ، المرسَى ذو الألواح الإسفنجية، وبارجة مُشاة المارينز العتيقة، أطول من الحقيقة وأشد كآبة، وعاملة المرفأ الزنجية التي تأخَّرت أكثر مما ينبغي في إفساح الطريق أمام العربة الصغيرة المخيفة، حتى أحسَّت المرأة وكأن الموت قد مسَّها إذ رأت ذلك الشيخ الغارِب الذي جعل يتأمَّل المرفأ بنظرة هي الأحزن في العالَم بأسره، إنه هو، هتفت مذعورةً، عاش الفحل، هتفت، عاش، ثم هتف الرجال، والنساء، والأطفال الذين خرجوا مهرولين من المقاصف وحانات الصينيين، عاش، هتف أولئك الذين تشبَّثوا بقوائم الخيل واعترضوا سبيل العربة لمصافحة يد السلطة، فكانت تلك المناورة من البراعة والمباغتة حتى إنه بالكاد وجد من الوقت مُتَّسعًا لينحِّي ذراع مرافقه المُسلَّحة وهو ينتهره بصوت مفعم بالتوتُّر، لا تكُن أحمق أيها الملازم، دعهم فهم يحبونني، وبلغ منه الافتتان بذلك

---

(1) إغوانا: جنس من السحالي ضخمة الحجم.

(2) الأتراك: تسمية شائعة كان يُوصَف بها العرب الوافدون إلى أمريكا اللاتينية.

السيل الجارف من المحبة وبما تلاه خلال الأيام اللاحقة حتى شقَّ على الجنرال رودريغو دي أغيلار إثناؤه عن فكرة الخروج في نزهة على متن عربة مكشوفة ليتمكَّن مواطنو الوطن من رؤيتي بكامل هيئتي، سحقًا، ذلك أنه لم يشكّ حتى في عفوية الحفاوة الغامرة التي قوبِل بها عند المرفأ، وإن كان ما تلا ذلك من ترتيب أجهزته الأمنية نفسها بغرض مرضاته من دون مجازفة، وقد شُغِف بنسائم المحبة عشيةَ خريفه حتى إنه تجرَّأ على الخروج من المدينة بعد أعوام طوال، فأعاد تسيير القطار العتيق المطلي بألوان العَلَم الوطني الذي كان يتسلَّق زحفًا على أطناف[1] مملكته الموحشة المترامية الأطراف، ويشقُّ طريقه وسط أغصان الأوركيديا والبلسمينا الأمازونية، فيهيِّج القردة وعصافير الجنة، والفهود النائمة على القضبان، وصولًا إلى قرًى ثلجية مهجورة في الپارامو[2] حيث كان مسقط رأسه، وهناك راحوا يترقَّبون قدومه في محطات القطار بجوقات الحداد، ويقرعون له النواقيس الجنائزية، ويرفعون اللافتات ترحيبًا بالنبيل الجالس عن يمين الثالوث الأقدس، ذلك الذي لا اسم له، ومن الضِّياع يحشدون له هنودًا أجلافًا أقبلوا للتعرُّف على السلطة الخفية في الغَبَش الجنائزي الذي خيَّم على المقطورة الرئاسية، أما أولئك الذين تمكَّنوا من الاقتراب فلم يروا سوى العينيْن الذاهلتيْن خلف الزجاج المُغبَّر، والشفتيْن المُرتجفتيْن، وراحةَ يدٍ لا منبت لها تلوِّح بالتحية من على

(1) طنف (ج.) أطناف: ما برز من الجبل ونحوه كأنه جناح.

(2) الپارامو: منظومة بيئية متكاملة تُوصَف بأنها مرتفعة جبلية استوائية بوجه عام، وتتركَّز بصفة أساسية في كولومبيا والإكوادور وفنزويلا وبيرو. يُفضَّل ذكر اللفظ الإسباني كما جاء في الأصل نظرًا لأهميته في السياق ولعدم وجود ما يقابله في العربية.

حافة المجد، في حين جعل أحد مرافقيه يحاول إقصاءه عن النافذة، خُذْ حذرك سيدي الجنرال، فالوطن في حاجة إليك، فكان هو يجيبه بين حلم وحلم قائلًا لا تقلق يا كولونيل، فهذا الشعب يحبُّني، وكما كان في قطار الپارامو هكذا كان في الباخرة النهرية ذات الدولاب الخشب، تلك التي مضت تاركةً خلفها أثرًا من فالسات تنساب على أنغام البيانولا وسط شذى الغاردينيا العذب وعَفَن السَّمَنْدَل[1] في الروافد الاستوائية، وراحت تتفادى هياكل تنانين تعود إلى عصور ما قبل التاريخ، وجُزُرًا مُبارَكةً تضع فيها الحوريات صغارهن، وأصائل تتخلَّلها كوارث المدائن المتلاشية، وصولًا إلى الأعشاش المحترقة الموحشة التي أطلَّ سكانها من الضفَّة لرؤية الباخرة الخشب المطليَّة بألوان الوطن، فما كادوا يتبيَّنوا إلَّا يدٍ لا صاحب لها في قفاز ساتاني راحت تومئ بالتحية من نافذة المقصورة الرئاسية، أما هو فقد رأى الجموع تلوِّح بأوراق القلقاس على الضفَّة نظرًا لنقص الأعلام، ورأى أولئك الذين ألقوا بأنفسهم في المياه ومعهم تابير[2] على قيد الحياة، وساق يام[3] ضخمة مثل قائمة الفيل، وقفص دجاج جبلي، لإضافة كل ذلك إلى قِدْر السانكوتشو[4] الرئاسي، فتنهَّد مُتأثِّرًا في الغَبَش الكنائسي الذي غشي المقصورة، انظرْ كيف يتوافدون يا كابتن، انظرْ كم يحبونني. أما في ديسمبر، حين يغدو عالَم الكاريبي بلّوريًّا، فكان يستقلُّ العربة المسقوفة ويرتقي الأطناف الصخرية

(1) سمَنْدَل: حيوان من رُتبة البَرْمائيات، صغير الجسم ويشبه السحالي.
(2) تابير: حيوان يشبه الخنزير يعيش في الغابات والأدغال بأمريكا الجنوبية والوسطى.
(3) يام: نبات يشبه البطاطا الحلوة، وينمو في المناطق ذات المناخ الاستوائي.
(4) سانكوتشو: يخنة تقليدية شائعة في كثير من دول أمريكا اللاتينية، وتُعدُّ باستخدام شتَّى صنوف اللحوم والخضروات.

وصولًا إلى البيت المُقام على قمة الشعاب، وهناك يقضي المساء في لعب الدومينو مع الطواغيت القدامى الذين قد حكموا بلدانًا أخرى في القارة نفسها، أولئك الذين كانوا آباء لأوطان أخرى ثم خُلِعوا عن عروشهم، فأنعم عليهم بالملجأ على مدى أعوام طوال وهم الآن يطعنون في العمر في ظلِّ رحمته، حالمين بزوارق من نسج الخيال من شأنها أن تمنحهم فرصة ثانية، وهم جلوس على مقاعدهم في الشرفات، يحدِّثون أنفسهم، موتى يقضون نحبهم شيئًا فشيئًا في دار الراحة التي شيَّدها من أجلهم على مشارف البحر بعد أن استقبلهم جميعًا وكأنهم رجل واحد ليس إلَّا، فكان كل واحد منهم يصل عند بزوغ الفجر مرتديًا زيَّه بالمقلوب فوق ثياب النوم، حاملًا صندوق نقود منهوبة من الخزانة العامة وحقيبة تحوي كيس الأوسمة، وقصاصات صحف مُلصَقة في دفاتر حسابات قديمة وألبوم صور حيث يظهر هو خلال الاجتماع الأول، كما لو كانت أوراق اعتماده، ويقول انظرْ سيدي الجنرال، هأنذا حين كنتُ ملازمًا، أما ذلك فيوم تولَّيتُ الحكم، أما تلك فالذكرى السادسة عشرة لتسلُّم مقاليد السلطة، انظرْ هنا سيدي الجنرال، فكان ينعم عليهم بالحق في اللجوء السياسي من دون أن يلقي إليهم بالًا أو يتفحَّص أوراق اعتمادهم، فلا يجدر برئيس مخلوع أن يحمل سوى بطاقة هوية وحيدة، شهادة وفاته، كان يقول، وبالازدراء نفسه ينصت إلى خطاب هزيل واهم يقول فيه إنني أتقبَّل ضيافتكم النبيلة زمنًا يسيرًا ريثما تقتصُّ العدالة الشعبية من مُغتصِب السلطة، أسطوانة الوقار الصبياني المعهودة التي يتلوها عليه مُغتصِبُ السلطة بعد قليل، ثم يتلوها عليه مُغتصِبُ السلطة من مُغتصِب السلطة، وكأنما الحمقى المُغفَّلون لا يعلمون أن السقطة لا نهضة منها في سياسة الرجال، فكان يُنزِلهم جميعًا في

البيت الرئاسي بضعة أشهر، حيث يرغمهم على لعب الدومينو إلى أن يجرِّدهم من آخر سِنْت بحوزتهم، وإذا هو يقتادني من ذراعي إلى النافذة المُطلَّة على البحر، ويعينني كي أتحسَّر على هذه الحياة اللعينة التي لا تمضي سوى في اتجاه واحد ليس إلَّا، ويعزِّيني بوهم الرحيل إلى هناك، انظرْ، إلى هناك، إلى ذلك البيت مترامي الأطراف الذي يبدو وكأنه عابرة محيطات جنحت على قمة الشعاب، هناك حيث هيَّأتُ لك حجرة يغمرها الضياء وتُقدَّم فيها أطايب الأطعمة، فهناك تجد أمامك من الوقت مُتَّسعًا للنسيان في صحبة رفاق آخرين يشاطرونك المصاب نفسه، زِدْ على ذلك الشرفة المُطلَّة على البحر حيث يروق له الجلوس في أمسيات ديسمبر، لا استمتاعًا بلعب الدومينو مع ثلة المُغفَّلين بمقدار ما هو طلبًا لتلك اللذَّة الخبيثة التي يبعث عليها شعوره بأنه ليس واحدًا منهم، ولكي يطالع نفسه في مرآة العِبَر المُستفادة من بؤسهم بينما هو يتمرَّغ في بِرْكة شاسعة من السعادة، ويحلم وحيدًا، وعلى أطراف أصابعه يلاحق الخلاسيات الوادعات اللائي كنَّ يكنسن البيت المدني في غَبَش الفجر، كما يلاحق المرء خاطرٌ خبيث، ويتنشَّق الرائحة التي يتركنها خلفهن، رائحة المهجع العمومي ومُلمِّع الشعر الذي يُباع في الصيدليات، ويتحيَّن فرصة اختلائه بإحداهن ليطارحها الحُبِّ على طريقة الديكة خلف أبواب المكاتب، أما هن فينفجرن ضاحكات تحت الظلال، يا لك من شيطان سيدي الجنرال، ما زلتَ شرهًا كل الشراهة على كل ما لك من عظمة، ثم يبقى حزينًا بعد مطارحة الحُبِّ ويشرع في الغناء مُعزِّيًا نفسه حيث لا يمكن لأحد سماع صوته، يا قمر يناير الوضَّاح[1]،

---

(1) أغنية من التراث الفنزويلي مطلعها كما يلي: «يا قمر يناير الوضَّاح، يا جدول النور الأبدي العظيم، احمل عني رسالة، إلى المرأة القاسية التي بها شُغِفت».

كان يتغنَّى، انظرْ إليَّ كم أنا حزين على مقصلة نافذتك، ويتغنَّى، موقنًا كل اليقين من حب شعبه له في شهور أكتوبر الخالية من نُذُر الشؤم، حتى إنه كان ينصِّب سريرًا مُعلَّقًا في باحة قصر الضواحي الذي تسكنه أمُّه بينديسيون ألبارادو ويأخذ قيلولته تحت ظلال شجر التمر الهندي، وحده بلا مرافقين، حالِمًا بالأسماك الشاردة تسبح في مياه المخادع المُلوَّنة، إن الوطن لخير الاختراعات يا أمي، ويتنهَّد، وإن لم يترقَّب ردًا قط من الشخص الوحيد في العالم بأسره الذي تجرَّأ وعنَّفه على رائحة البصل العطن تحت إبطيْه، بل كان يعود أدراجه إلى البيت الرئاسي حيث يدخل عَبْر البوابة الضخمة مأخوذًا بذلك الموسم الإعجازي في الكاريبي خلال يناير، وبالتصالح مع العالم في أواخر الشيخوخة، وبتلك الأمسيات الأرجوانية التي يعقد خلالها السلام مع السفير البابوي الرسولي الذي كان يزوره في غير أوقات الاجتماعات محاولًا إقناعه بإيمان المسيح وهما يتناولان الشكولا والكعك، فيكاد هو يموت من الضحك مُحتجًّا بأنه لو كان الرَّب فحلًا كما تزعم حقًّا فاسأله أن يخلِّصني من تلك الخنفساء الطنَّانة في مسمعي، كان يقول ذلك، ثم يحلُّ أزرار بنطاله التسعة ويطلعه على فتقه المفرط الضخامة، اسأله أن يخلِّصني من انتفاخ هذا الكائن، كان يقول، فيلقي عليه السفير البابوي الرسولي موعظة رواقية مُطوَّلة على طريقة رُعاة الكنائس، ويحاول إقناعه بأن كل ما هو حقّ، أيًّا كان قائله، منبعه الروح القدس، فيصحبه إلى الباب مع أضواء المصابيح الأولى، وهو يكاد يموت ضحكًا كما لم يُرَ من قبل إلا في ما نَدَر، يا أبت، لا تهدرْ البارود على العقبان، كان يقول، لِمَ تريد مني أن أهتدي إلى الدين ما دمتُ أمتثل لرغباتكم بأي حال، سحقًا. وإذا بالملاذ الهادئ يتبدَّد فجأةً داخل حلبة مصارعة الديكة

في الپارامو النائي حين أقدم ديكٌ سفَّاح على اقتلاع رأس غريمه ثم التهمه نَقْرًا في حضور المشاهدين الذين جُنَّ جنونهم لمرأى الدماء، فاحتفت جوقة نحاسية من السكارى بفظاعة الواقعة على أنغام موسيقى الحفلات، ولم يرصد أحدٌ سواه نذيرَ الشؤم الذي انطوت عليه الواقعة، أحسَّ به جليًّا وشيكًا حتى إنه أمر مرافقَه سرًّا بإلقاء القبض على أحد أفراد الجوقة، ها هو ذا، نافخ البوق، وبالفعل عُثِر بحوزته على بندقية اقتُطِع جزء من ماسورتها ثم إنه اعترف تحت التعذيب بالتخطيط لإطلاق النار عليه في غمرة فوضى الخروج، قطعًا، فالأمر أكثر من جليّ، قال شارحًا، فلقد رحتُ أنظر إلى سائر الحضور فينظرون إليَّ هم أيضًا، وحده الوغد نافخ البوق لم يجرؤ على النظر إليَّ مرة واحدة، مسكين ذاك الرجل، رغم علمه بأن ذلك ليس السبب الأوحد لتوجُّسه، إذ لم يبارحه ذلك الإحساس طوال لياليه في البيت المدني حتى بعد أن أثبتت له أجهزته الأمنية أن ليس هنالك ما يدعو إلى التوجُّس سيدي الجنرال، فكل شيء تحت السيطرة، أما هو فقد تشبَّث بـپاتريسيو أراغونيس كما لو كان يتشبَّث بنفسه منذ تكبَّد نذير الشؤم في حلبة مصارعة الديكة، وجعل يُطعمه مما يأكل، ويسقيه من عسل النحل الخاص بالملعقة نفسها، حتى يكون له على الأقل عزاء في موتهما معًا إن دُسَّ له السُمّ في الطعام، وراحا يجوبان حجرات منسية، مثلهما كمثل الهاربين، سيرًا فوق الأبسطة لئلَّا يتعرَّف أحدٌ على خطاهما الضخمة المُختلَسة، خطى الفيلَيْن التوأميْن، ويبحران معًا على ألَقِ الفنار المُتقطِّع الذي كان يتسلَّل عَبْر النوافذ كل ثلاثين ثانية ليغمر حجرات البيت بالخُضرة عَبْر الدخان المتصاعد من أقراص روث الأبقار ووداعات السفن الليلية الكئيبة في البحار النائمة، ويقضيان أمسيات كاملة وهما

يتأمَّلان الأمطار، ويحصيان طيور السنونو في أصائل سبتمبر الخاملة كعاشقَيْن طعنا في العمر، وقد نأيا بنفسَيْهما عن العالَم حتى إنه لم يدرك أن صراعه الضاري من أجل التواجد مرتيْن يعزِّز الشكوك النقيضة القائلة بأن وجوده آخِذٌ في التلاشي، وبأنه مُستلقٍ في سبات عميق، وبأن الحراسة قد ضُوعِفَت وما عاد يُسمَح لأحد بالدخول إلى البيت الرئاسي أو الخروج منه، وبأن هنالك من أفلح في اختراق الحواجز المنيعة على الرغم من ذلك، فرأى الطيور وقد خيَّم عليها الصمت في أقفاصها، والأبقار تشرب من جرن المعمودية، والبُرْص والمفلوجين نيامًا تحت شجيرات الورود، فبدا الجميع وكأنهم يترقَّبون بزوغَ الفجر عند منتصف النهار، ذلك أنه قد لقي ميتة طبيعية في أثناء نومه على نحو ما تنبَّأت به مياه الطاس التنبّؤيَّة وإن أرجأت القيادة العليا إذاعة الخبر ريثما يحاول جنرالاتها تصفية حساباتهم المُؤجَّلة في اجتماعات سريَّة دامية. كان يدرك أن شيئًا على وشك أن يحدث في حياته رغم جهله بأمر تلك الإشاعات، فصار يقطع مباريات الدومينو البطيئة لسؤال الجنرال رودريغو دي أغيلار كيف تسير الأمور يا رفيق، كل شيء تحت السيطرة سيدي الجنرال، والوطن ينعم بالهدوء، ثم إنه جعل يترصَّد العلامات التنبُّؤية في أقراص روث الأبقار المُتوهِّجة في الأروقة وآبار المياه العتيقة كالمحارق الجنائزية، فلا يجد جوابًا يشفي لهفته، وكان يزور أمه بينديسيون ألبارادو في قصر الضواحي حين تخفُّ وطأة القيظ، فيجلسان لتنسُّم هواء المساء المنعش تحت شجر التمر الهندي، وهي على كرسي الأمِّ المُتأرجِح، طاعنة في العمر وإن ظلَّ روحها كاملًا بلا نقصان، تنثر حفنات الذرة للدجاجات والديكة الرومية التي تنقر الحَبَّ في الباحة، أما هو فيستلقي على الأريكة المضفورة

من الخيزران المطلية بالأبيض، حيث يروِّح عن نفسه بقبعته، وبنظرة تشي بجوع عتيق يلاحق الخلاسيات من ذوات القوام الضخم اللائي يحملن إليه عصائر الفاكهة المُلوَّنة الطازجة، كي تروي عطش القيظ سيدي الجنرال، فيما هو يفكِّر قائلًا لنفسه آهٍ يا أمي بينديسيون ألبارادو لو علمتِ أنني ما عدتُ أحتمل العالَم، وأنني أودُّ الرحيل إلى حيث لا أدري يا أمي، بعيدًا عن كل هذا الجور، بَيْد أنه لم يُطلِع ولا حتى أمه على مكنون تنهُّداته بل كان يعود أدراجه إلى البيت الرئاسي مع أولى أنوار الليل، فيتسلَّل عَبْر باب الخدم ويطوي الأروقة منصتًا إلى دبيب خطوات الخَفَر الذين يبادرونه بالتحية، لا جديد سيدي الجنرال، كل شيء تحت السيطرة، في حين يعرف هو أن كلامهم عارٍ من الصحة، وأنهم يخدعونه من باب العادة، ويَكْذِبونه من باب الخوف، وأن لا شيء حقيقيًّا في ظلِّ أزمة الحيرة التي نغَّصت عليه مجده وأفقدته حتى شهوته العتيقة إلى الحكم منذ تلك الأمسية المشؤومة في حلبة مصارعة الديكة، فكان يبقى مستلقيًا على وجهه أرضًا حتى ساعة مُتأخِّرة للغاية، من دون أن يغمض له جفن، وعَبْر النافذة المشرعة المُطلَّة على البحر سمع قرع الطبول النائية ومزامير القِرَب الحزينة التي علت احتفالًا بأحد أعراس الفقراء، وبالفرح العارم نفسه الذي كان سيعمُّ الأجواء احتفالًا بموته، سمع وداع سفينة شاردة رحلت في الثانية من دون إذن الربان، وسمع حفيف بتلات الورود المُتفتِّحة عند بزوغ الفجر، راح يتفصَّد عرقًا مُثلجًا، ويتنهَّد رغمًا عنه، فلم تطمئنّ نفسه لحظةً واحدة، وبغريزته البرّية كان هاجسٌ قد حدَّثه بقرب المساء الذي بُوغِت فيه بحشود غفيرة في الشارع بينما هو عائد أدراجه من قصر الضواحي، فانفتحت النوافذ ثم أُقفِلَت، وذُعِرَت طيور السنونو في سماء ديسمبر الرحيبة، أما هو

فقد وارَب ستار العربة ليتحقَّق مما يجري، وقال لنفسه ها هو ذا يا أمي، ها هو ذا، قالها لنفسه شاعرًا بارتياح مُروِّع، ورأى بالونات مُلوَّنة في السماء، بالونات حمر وخضر، بالونات صفر كحبات البرتقال الضخمة الزرق، بالونات هائمة لا حصر لها انطلقت مُحلِّقةً في غمرة الذعر الذي تملَّك طيور السنونو وطفت في الهواء لحظةً تحت ضياء الساعة الرابعة البلّوري، وإذا بكل البالونات تنفجر بغتةً في دوي صامت، لتتناثر الآلاف والآلاف من الأوراق في سماء المدينة، عاصفة من المنشورات الطائرة، فاغتنمها الحوذي فرصةً لينسلَّ خارج السوق العمومية بصخبها من دون أن يتعرَّف أحد على مركبة السلطة، لأن الكل قد تكالب على أوراق البالونات سيدي الجنرال، وراحوا يهتفون بما ورد فيها من الشرفات، ويردِّدون من الذاكرة قائلين يسقط القمع، ويهتفون، الموت للطاغية، بل وحتى خَفَر البيت الرئاسي جعلوا يقرأون بصوت مرتفع، اتحاد الجميع من دون تمييز طبقي في مواجهة الاستبداد الذي دام قرونًا، والتصالح الوطني في مواجهة فساد العسكر وغطرستهم، ولا دماء بعد اليوم، ويهتفون، لا نهب بعد اليوم، وأخذ البلد بأسره يفيق من نعاسه التي دام دهرًا في اللحظة عينها حين دلف هو عَبْر بوابة المرأب وقُوبِل بالخبر المُروِّع القائل بأن پاتريسيو أراغونيس قد جُرِح جرحًا مُميتًا بسهم مسموم سيدي الجنرال. قبل أعوام، في ليلة غشيها الكدر، كان قد اقترح على پاتريسيو أراغونيس رهانَ حياة أو موت، دعنا نلعب مباراة صورة أم كتابة، فإذا رجحت الصورة تموت أنت، أما إذا رجحت الكتابة فأموت أنا، ولكن پاتريسيو أراغونيس أوضح له أن الرهان سوف ينتهي بموتهما معًا بالتعادل لأن جميع العملات المعدنية تحمل صورة كلٍّ منهما على الجانبيْن، عند ذاك اقترح عليه

رهانَ حياة أو موت على طاولة الدومينو، عشرون مباراة والفوز لمن يربح أكبر عدد منها، فقبل پاتريسيو أراغونيس، لي جزيل الشرف وبالغ السرور سيدي الجنرال ما دُمتَ تخوِّلني الحق في الفوز عليك، أما هو فأبدى قبوله، مُوافقَة، فلعبا مباراة، لعبا مباراتيْن، لعبا عشرين مباراة، وكان الفوز حليف پاتريسيو أراغونيس دومًا، أما هو فما كان يفوز سوى لأن الفوز عليه ممنوعٌ، خاضا معركة طويلة دامية حتى بلغا المباراة الأخيرة من دون أن يفوز هو بمباراة واحدة، أما پاتريسيو أراغونيس فجعل يجفِّف عرقه برُدْن القميص مُتنهِّدًا، لشد ما يؤسفني سيدي الجنرال ولكني لا أريد الموت، عند ذاك شرع هو في جمع قطع الدومينو ورصِّها بالترتيب داخل علبة صغيرة من الخشب، وكما يلقي المُعلِّم درسًا في المدرسة مضى هو يقول إنه لا ينبغي له الموت على طاولة الدومينو أيضًا، بل إنه متى أزفت ساعته فلسوف يلقى ميتةً طبيعية في مكانه وفي أثناء نومه كما أنذرت مياه الطاس التنبُّؤية منذ فجر عهده، وبالتفكير في الأمر مليًّا فحتى هذه الميتة لن يلقاها، لأن بينديسيون ألبارادو لم تلدني كي أعير الطاس أهمية بل كي أحكم، وفي خاتمة المطاف فإنِّي أَنَا هُوَ[1]، ولستُ أنت، فابتهلْ للرب حمدًا لأنها لا تعدو أن تكون مُجرَّد لعبة، قال ضاحكًا، ولم يُخيَّل إليه لا في حينه ولا في أي وقت سواه أن تلك الدعابة الفظيعة من شأنها أن تغدو حقيقةً ليلةَ دلف إلى حجرة پاتريسيو أراغونيس ليجده في وجه سكرات الموت، بلا دواء يُرتجَى، وبلا أمل في النجاة

---

(1) عبارة تتكرَّر إشارةً إلى ما ورد في شتَّى أقسام الكتاب المُقدَّس، مع اختلاف اللفظ أحيانًا، مثال: «فَقَالَ اللهُ لِمُوسَى: «أَهْيَهِ الَّذِي أَهْيَهْ»». (خروج 3: 41)، «اُنْظُرُوا يَدَيَّ وَرِجْلَيَّ: إِنِّي أَنَا هُوَ!». (إنجيل لوقا 42: 93)، «أَجَابَ يَسُوع: «قَدْ قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي أَنَا هُوَ». (إنجيل يوحنا 81: 8).

من السم، فبادره هو بالتحية من مكانه عند الباب فاردًا راحة يده، عسى أن ينجِّيك الرَّب أيها الفحل، شرف عظيم أن تموت من أجل الوطن. وهكذا رافقه في أثناء احتضاره البطيء، فبقيا وحدهما في الحجرة، حيث كان يناوله بيديْه ملاعق من مُسكِّن الألم، فيتجرَّعها پاتريسيو أراغونيس في غير امتنان، ويقول له بين رشفة وأخرى، هنا أتركك زمنًا يسيرًا في عالمك الخرائي سيدي الجنرال لأن قلبي يحدِّثني بأننا سرعان ما نلتقي في أعمق أعماق الجحيم، حيث أتلوَّى أنا تحت وطأة السم بأشد مما تتلوَّى أسماك البوري، أما أنت فتحمل رأسك في راحة يدك حائرًا لا تدري أين تضعه، وأقولها بلا أدنى احترام سيدي الجنرال، فالآن صار في وسعي البوح لك بأنني لم أحبّك يومًا، على عكس ما يُخيَّل إليك، بل إنني منذ عصور القراصنة حين شاء حظي التعِس أن يوقعني تحت سطوتك وأنا أبتهل كي يقتلوك ولو قتلًا كريمًا حتى تدفع ثمن حياة اليتم التي أعطيتني، ذلك أنك في بادئ الأمر فلطحتَ قدميَّ بيد الهاون لتجعل منهما قدمَيْ رجل مُسرنَم، شأنهما في ذلك شأن قدميْك، ثم إنك ثقبتَ خصيتي بمخارز الدبَّاغين لإصابتي بالفتق، ثم حملتَني على شرب زيت التربنتين لأنسى القراءة والكتابة بعد كل ما تكبَّدت أمي من العناء في تعليمي، وطالما أرغمتَني على حضور اللقاءات العامة دومًا، تلك التي لا تجرؤ على حضورها، ليس لأن الوطن في حاجة إليك على قيد الحياة كما تدَّعي، بل لأن أكثر الناس جرأة تتجمَّد مؤخرته وهو يتوِّج إحدى مومسات الجمال من دون أن يدري في أي موضع يقصفه الموت، وأقولها بلا أدنى احترام سيدي الجنرال، أما هو فلم يلقِ بالًا لوقاحة پاتريسيو أراغونيس وإنما لجحوده، وأنا الذي كفلتُ لك حياة الملوك، فأنزلتُك قصرًا ووهبتُك ما لم يهب أحدٌ ولم يوهَب

لأحدٍ في هذا العالَم قط، بل وحتى نسائي أعرتُك إياهن، وإن كان حريًّا بنا ألَّا نتطرَّق إلى ذلك الأمر سيدي الجنرال، فلئن يُخصَى المرء بالمطرقة خير له من أن يطرح الأمهات أرضًا وكأنه يسِم إناث العجول، لمُجرَّد أن أولئك المسكينات اللقيطات معدومات القلوب لا يشعرن ولا حتى بكيِّ الحديد ولا يرفسن ولا يتلوَّين ولا يتأوَّهن كما تفعل إناث العجول، ولا تتصاعد الأدخنة من أعجازهن ولا تفوح منهن رائحة اللحم الشائط، وذاك أقل ما يُطلَب إلى النساء الصالحات، بل يمدِّدن أجسادهن، أجساد الأبقار النافقة، حتى يؤدِّي المرء واجبه بينما يواصلن تقشير البطاطس ويصحن في الأخريات بقولهن هلا أسديتِ إليَّ معروفًا وراقبتِ المطبخ من أجلي ريثما أفرغ مما في يدي حتى لا يحترق الأرز، ليس هنالك من يحسب أن ذلك هو الحب سواك سيدي الجنرال لأنك لا تعرف غيره، وأقولها بلا أدنى احترام، عند ذاك شرع يصرخ بصوت هادر وقال له اخرسْ، سحقًا، اخرسْ وإلَّا دفعت الثمن غاليًا، فما برح پاتريسيو أراغونيس يقول وهو لا يضمر أدنى نية في السخرية منه، وفيمَ صمتي ما دام أقصى ما في وسعك أن تقتلني، وها أنت تقتلني، حريٌّ بك أن تغتنم هذه اللحظة كي ترى وجه الحقيقة سيدي الجنرال، كي تدرك أن أحدًا لم يُفضِ إليك يومًا بما يدور في خلده حقًّا وإنما يخبرك الجميع بما يعلمون أنك تودُّ سماعه، ويحنون هاماتهم إجلالًا في وجهك بينما يلوِّحون بأصابعهم الوسطى خلف ظهرك، كُن مُمتنًّا ولو للصدفة التي جعلتني أنا الأشد أسفًا عليك في هذا العالَم بأسره لأني الوحيد الذي يشبهك، الوحيد الذي تحلَّى بالنزاهة اللازمة كي يخبرك بما يجري على ألسنة الجميع من أنك لستَ رئيسًا على أحد، وأنك لم تتربَّع على العرش بقوة مدافعك بل نصَّبك الإنجليز ثم

دعمك الغرينغو[1] بخصيتَيْ بارجتهم لتظلَّ جالسًا على العرش، فلقد رأيتُك تزحف كالصراصير غاديًا رائحًا، رائحًا غاديًا، وأنت لا تدري من أين تبدأ في الحكم من فرط الخوف حين صاح فيك الغرينغو قائلين هنا نتركك لماخور الزنوج الذي ترأسه ولنرَ كيف تتدبَّر أمورك من دوننا، وإن كنتَ لم تنزل عن العرش منذ ذلك الحين، إن كنتَ لم تنزل عن العرش قط، فليس لأنك لا ترغب في ذلك بل لأنك لا تستطيع، اعترفْ، فأنت تعرف أنهم ما إن يلمحوك في الشارع بثياب الفانين حتى ينقضُّوا عليك مثل قطيع من الكلاب ويثأروا لمذبحة سانتا ماريا دِل ألتار، ويثأروا للسجناء الذين يُلقَى بهم في خنادق حصن المرفأ لكي تلتهمهم التماسيح أحياءً، ولأولئك الذين تُسلَخ جلودهم أحياءً ثم تُرسَل إلى أسرهم لتكون عبرة لمن يعتبر، مضى يقول، وينقِّب في بئر بلا قرار تعتمل فيها أحقاده الدفينة المُؤجَّلة ويغترف حفنات من فظائع نظام الخِسَّة، حتى لم يعُد يقوى على قول المزيد لأن مِدمَّةً نارية قد مزَّقت أحشاءه، وعند ذاك رقَّ قلبه وما عاد يرمي إلى الإساءة بل قال في ما يشبه التوسُّل أنا جاد في ما أقول سيدي الجنرال، اغتنمْ فرصة احتضاري الآن كي تموت معي، ليس هنالك من هو أجدر مني بأن يقولها لك فأنا لم أسعَ لأكون شبيهًا لأحد قط، دعْ عنك أن أغدو بطلًا من أبطال الوطن، وإنما أردتُ أن أصبح نافخ زجاج تعِس كي أصنع القوارير مثلي كمثل أبي، تَحَلَّ بالجرأة سيدي الجنرال، فالموت لا يؤلم بقدر ما يبدو، قالها وقد بدت عليه أمارات الصدق التي كانت من الهدوء حتى إنه هو لم يغضب بالقدر الكافي للردِّ عليه بل حاول أن يسانده على مقعده حين

(1) غرينغو: لفظ شائع يُستخدَم للإشارة إلى الأمريكيين، وينطوي على شيء من الاستخفاف.

رآه وقد بدأ يتلوَّى ويتشبَّث بأحشائه بكلتا يديْه وينشج بدموع الألم والخزي قائلًا لشد ما أنا آسف سيدي الجنرال ولكني أكاد أفعلها على نفسي، أما هو فقد ظنَّه يقولها مجازًا بمعنى أنه مشرف على الموت من فرط الخوف، فأجابه پاتريسيو أراغونيس بأن كلا، إنما قصدتُ أنني أفعلها على نفسي بمعنى أنني أفعلها على نفسي سيدي الجنرال، أما هو فقد رجاه قائلًا تمالكْ نفسك يا پاتريسيو أراغونيس، تمالكْ نفسك، ينبغي لنا نحن جنرالات الوطن أن نموت كما الرجال حتى وإن كان الثمن حياتنا، ولكن قوله جاء مُتأخِّرًا أكثر مما ينبغي لأن پاتريسيو أراغونيس قد انكفأ على وجهه وهوى فوقه وهو يرفس بقدميْه من فرط الخوف، غارقًا في الخراء والدموع. وفي المكتب الملحق بقاعة الاجتماعات اضطُرَّ هو لفرك جسمه بالليف والصابون لإزالة رائحة الموت الكريهة، ثم ألبسه ثيابه التي كان يرتديها، وحزام الفتق الكتاني، والطماق، ووضع مهماز الذهب في كاحله الأيسر، شاعرًا في تلك الأثناء بأنه على وشك أن يغدو الرجل الأشد عزلةً على وجه الأرض، وأخيرًا طمس كل أثر خلَّفته تلك التمثيلية وأعدَّ نسخة طبق الأصل من المشهد الذي قد رآه بعينيْه على صفحة مياه الطاس التنبُّؤيّة بأدق تفاصيله، حتى تعثُر كنَّاسات البيت على جثمانه فجرَ اليوم التالي كما عثرن عليه في المكتب فعلًا وقد استلقى على وجهه أرضًا ولقي ميتة زائفة طبيعية لأول مرة في أثناء نومه، بالزيّ الكتاني المُجرَّد من الشارات، والطماق، ومهماز الذهب، وقد توسَّد ذراعه اليمنى التي انثنت تحت رأسه. وعلى عكس ما توقَّع، لم يُذَع الخبر على الفور تلك المرة أيضًا، بل مرَّت ساعات طوال من التروِّي، والتحقيقات الخفية، والصفقات السريَّة بين ورثة النظام الذين كذَّبوا إشاعة موته في محاولة لكسب الوقت وساقوا في سبيل

ذلك كل صنوف الروايات المتضاربة، وجاؤوا بأمه بينديسيون ألبارادو إلى الشارع التجاري حتى نتأكَّد من خلو سحنتها من مظاهر الحداد، فألبسوني ثوبًا مُزيَّنًا بنقوش الأزهار كالمُهرِّجين يا سيدي، وأرغموني على شراء قُبَّعة من ريشات ببغاء المَكاو[1] حتى يراني الجميع سعيدة، وأرغموني على شراء كل ما وجدنا من التوافه في الحوانيت رغم أني أبيتُ يا سيدي، وقلت لهم ما تلك ساعة التسوُّق بل ساعة البكاء، فحتى أنا صدَّقتُ أن ابني هو من قضى نحبه، وأرغموني على الابتسام عنوةً ريثما يلتقط الناس لي الصور وأنا بكامل هيئتي، فقال العسكر إنه واجب لا بد من تأديته من أجل الوطن، في حين مضى هو يتساءل من مخبئه حائرًا، ماذا دهَى العالَم حتى لا تُبدِّل أكذوبةُ موتِه شيئًا، وكيف طلعت الشمس مرةً ثم أخرى من دون أن تتعثَّر في طريقها، وما تلك الأجواء الخليقة بأيام الآحاد يا أمي، ولمَ يشتدُّ القيظ كعادته من دوني، كان يسائل نفسه دَهِشًا حين دوَّت طلقة مدفع بحصن المرفأ في غير أوانها وشرعت نواقيس الكاتدرائية الرئيسية تقرع ومضت الجماهير الغفيرة صعودًا إلى البيت المدني وهم يفيقون من ذلك الخمول الذي دام قرونًا بعد أن بلغهم أعظم خبر في العالَم بأسره، عند ذاك وارَب هو باب مخدعه وأطلَّ على قاعة الاجتماعات فرأى نفسه في النعش وقد فاق جميع باباوات المسيحية موتًا وبهرجةً، وهو الجريح تحت وطأة شعوره بالفزع والخزي من جسده، جسد الفحل العسكري المُمدَّد وسط الأزهار، والسحنة الشاحبة بفعل المساحيق، والشفتيْن المطليتيْن، ويدي الآنسة اللامبالية اللتيْن وضعهما فوق صدره المُصفَّح بنياشين

(1) المَكاو: سلالة من الببغاوات تتميَّز بأذيالها الطويلة وألوانها الزاهية، ويعود أصلها إلى أمريكا الجنوبية والوسطى والكاريبي.

الحرب، والزيّ الرسمي الصارخ بشموسه العشر الغاربة، شموس جنرال الكَوْن التي اخترعها أحدهم من أجله عقب موته، وسيف ملك ورق اللعب الذي لم يستلّه قط، والطماق الجلدي المصقول ومهماز الذهب، وعتاد السلطة الهائل والأمجاد الحربية الكئيبة التي تقلَّصت لتلائم حجمه البشري، حجم المُخنَّث المُمدَّد، سحقًا، يستحيل أن يكون ذلك هو أنا، قال لنفسه في ثورة عارمة، فما ذاك من العدل في شيء، سحقًا، قال لنفسه وهو يتأمَّل الموكب المُتحلِّق حول جثمانه، ولبرهة نسي الغايات العكِرة من وراء تلك التمثيلية وأحسَّ بالانتهاك والضآلة إزاء قسوة الموت في حضرة جلالة السلطة، رأى الحياة من دونه، وبشيء من الشفقة رأى الحال التي انتهى إليها الرجال إذ لم يعُد يشملهم هو بسطوته، وبتوجُّس خفي رأى أولئك الذين ما جاؤوا سوى لكشف طلاسم اللغز الآتي ذكره، أكان هو حقًّا أم لم يكُن، رأى شيخًا يؤدِّي له تحية ماسونية من عهد الحرب الفيديرالية، ورأى رجلًا مُتَّشحًا بثياب الحداد يطبع قبلة على خاتمه، ورأى طالبة مدرسة تودِع زهرة على جثمانه، ورأى بائعة أسماك لم تقوَ على احتمال حقيقة موته فبعثرت محتويات سلَّة الأسماك الطازجة على الأرض وعانقت الجثمان المُعطَّر وهي تبكي صارخةً إنه هو، ربَّاه، ما عسى أن يكون مصيرنا من دونه، راحت تبكي، إنه هو إذًا، راحوا يصرخون، إنه هو، صرخت الجماهير المختنقة تحت أشعة الشمس في ميدان السلاح، وعند ذاك سكتت نواقيس الكاتدرائية في حين انطلقت نواقيس جميع الكنائس معلنةً عن أربعاء الفرح، وانطلقت ألعاب الفصح النارية، ودوَّت مفرقعات المجد، ودقَّت طبول التحرير، أما هو فرأى فِرَق الهجوم تتسلَّل عَبْر النوافذ وسط ترحيب صامت من جانب الحرس، ورأى القادة

الأشاوس الذين فرَّقوا الموكب بالعصي وطرحوا بائعة الأسماك أرضًا، وهي التي حزنت عليه حزنًا بلا عزاء، ورأى أولئك الذين انقضّوا على الجثمان في قسوة، ورأى الرجال الثمانية الذين أخرجوه من حاله الضاربة في القِدم ومن زمنه الخيالي، زمن أزهار العشاق وعبَّاد الشمس، وجرجروه على الدَّرَج، ورأى أولئك الذين عاثوا فسادًا في جنة الرخاء والتعاسة ظنًّا منهم أنهم قادرون على تخريبها إلى الأبد إن استطاعوا تخريب عرين السلطة إلى الأبد، وهدموا تيجان الأعمدة الدوريسية[1] المصنوعة من الكارتون المُقوَّى والأعمدة البابلية المُتوَّجة بنخيل من المرمر، ومزَّقوا الأستار المخملية، وأطاحوا بأقفاص الطيور من النوافذ، وكذلك فعلوا بعرش نوَّاب الملوك، والبيانو الكبير، وحطَّموا قوارير حفظ رماد الأبطال المجهولين، ولوحات النسيج التي تمثِّل عذارى نائمات على متن جنادل من الخذلان، ولوحات الزيت الهائلة التي تمثِّل أساقفة وعسكر موغلين في القِدَم ومعارك بحرية عصية على التصوُّر، وأبادوا العالَم حتى لا تبقى في ذاكرة أجيال المستقبل ولو ذكرى هزيلة من ذكريات تلك السلالة اللعينة من العسكر، ثم إنه أطلَّ على الشارع عَبْر خصاص النافذة ليرى إلى أي مدى بلغت الأضرار التي أسفرت عنها الإطاحة بالأغراض من النوافذ، وبنظرة واحدة رأى من الخِسَّة والجحود أكثر مما رأت عيناي وبكت منذ مولدي يا أمي، فرأى أرامله فرِحات يهجرن البيت من أبواب الخدم ويسحبن الأبقار من أرسانها إلى خارج حظائري، ويحملن أثاث الحكومة، وأواني عسل مناحلكِ يا أمي، رأى صغاره المُسْبَعين وهم يدقُّون موسيقى الفرح بآنية المطبخ وكنوز الكريستال وفضِّيات مائدة الولائم

---

(1) دوريسي: طراز من المعمار اليوناني.

الأسقفية، وبصيحات الشوارع راحوا يتغنّون مات أبي، وعاشت الحرية، ثم إنه رأى حلقة نيران أُضرِمَت في ميدان السلاح لإحراق صوره الرسمية والتقاويم السنوية المطبوعة طباعة حجرية، تلك التي كانت تُعرَض في كل أوان وكل مكان منذ مطلع حكمه، ورأى جثمانه يُجرجَر عَبْر الشوارع تاركًا خلفه سيلًا من الأوسمة، والكتفيات، وأزرار السترة، ومِزَق النسيج المُقصَّب، والزخارف المُطرَّزة، والشراريب المُدلَّاة من سيوف ورق اللعب، والشموس العشر الحزينة، شموس ملك الكَوْن يا أمي، انظري كيف وضعوني، مضى يقول، وهو يحسُّ على بشرته بهوان البصاق ومحتويات مباول المرضى التي راحوا يفرغونها فوقه من الشرفات، وقد هالته فكرة أن تمزِّقه الكلاب والعقبان إربًا ثم تلتهمه وسط العواء الهاذي ودويّ الرعد الآتي من الألعاب النارية في كرنفال موتي أنا. وحتى في أعقاب الكارثة ظلَّت تترامى إليه موسيقى نائية في تلك الأمسية التي خلت من الريح، في حين ظلَّ هو يقتل البعوض، وبالصفعات نفسها يحاول قتل الزيزان الطنَّانة في مسمعيْه، تلك التي حالت دونه ودون التفكير، ثم إنه ظلَّ يرى وهج الحرائق على مرمى الأفق، والفنار الذي يلوِّنه بخطوط من نور أخضر تنساب عَبْر خصاص النوافذ كل ثلاثين ثانية، والأنفاس الطبيعية للحياة اليومية التي أخذت تعود إلى ما كانت عليه في حين يتحوَّل موته إلى مُجرَّد موتٍ آخر كغيره من ميتات الماضي الكثيرة كل الكثرة، وفيض الواقع المتواصل الذي يجرفه صوب أرض اللاأحد، أرض الشفقة والنسيان، سحقًا، اللعنة على الموت، صاح، وعند ذاك هجر مخبأه مأخوذًا بيقينه بأن ساعته الكبرى قد دقَّت، فاجتاز القاعات المنهوبة يجرجر قائمتي شبح متثاقلتيْن وسط حطام حياته السابقة تحت جنح الظلام العبق بعطور

الأزهار المحتضرة وذبالات الشموع الجنائزية، ثم دفع الباب المُؤدِّي إلى قاعة مجلس الوزراء، وعَبْر هواء الدخان ترامت إلى مسمعيْه أصواتٌ واهنة حول مائدة طويلة من خشب الجوز، ورأى عَبْر الدخان أن كل من أراد حضورهم قد حضروا، الليبراليين الذين باعوا الحرب الفيديرالية، والمحافظين الذين اشتروها، وجنرالات القيادة العليا، وثلاثة من وزرائه، ورئيس الأساقفة، فضلًا عن السفير شنونتنر، كلهم معًا في شرك واحد ينادون بوحدة الجميع في مواجهة الاستبداد الذي دام قرونًا بغرض تقسيم غنيمة موته في ما بين الجميع، وقد استغرقوا في هاويات الجشع حتى إن أحدًا منهم لم ينتبه إلى ظهور الرئيس الذي لم يوارِه التراب، الرئيس الذي ضرب المائدة براحة يده مرةً واحدة ليس إلَّا، وصاح، آها! ولم يكُن عليه أن يفعل أكثر مما فعل، ذلك أنه حين رفع راحة يده عن المائدة كانت موجة التدافع المذعورة قد انحسرت ولم يتبقَّ في القاعة الخاوية سوى منافض السجائر الطافحة بما فيها، وأقداح القهوة، والمقاعد المُلقاة أرضًا، ورفيقي، رفيق العمر كله، جنرال رودريغو دي أغيلار في زي القتال، ضئيلًا، غير آبه، يطرد الدخان بيده الوحيدة ليشير إليه قائلًا انبطحْ أرضًا سيدي الجنرال فالآن تبدأ الإثارة، وانبطح كلاهما أرضًا لحظةَ اندلع تهليل الموت آتيًا من المدفع الآلي قبالة البيت، وبدأ الحفل الدامي الذي أقامه الحرس الرئاسي بكل سرور وكل شرف سيدي الجنرال، نزولًا عند أمركم المُشدَّد بألّا يهرب أحد على قيد الحياة من مجلس الخيانة السرّي، فاكتسحوا أولئك الذين حاولوا الفرار عَبْر الباب الرئيسي بدفقات من نيران المدفع الآلي، واقتنصوا أولئك الذين تدلّوا من النوافذ كما تُقتنَص الطيور، وبقنابل الفوسفور الحيّ مزَّقوا أحشاء الذين تمكَّنوا من تجاوز الحصار واتَّخذوا

لأنفسهم ملاذًا في البيوت المجاورة، وأما الجرحَى فقد أجهزوا عليهم عملًا بالمعيار الرئاسي الذي ينصُّ على أن كلَّ ناجٍ يظلّ عدوًّا لدودًا مدى الحياة، في حين بقي هو مستلقيًا على وجهه أرضًا على مبعدة شبرَيْن من الجنرال رودريغو دي أغيلار، صامدًا تحت وابل من شظايا الزجاج والجِصّ التي أخذت تنهمر عَبْر النوافذ مع كل انفجار، وهو يتمتم بلا انقطاع وكأنه يتلو ابتهالًا، قُضِي الأمر يا رفيق، قُضِي الأمر، وانفضَّ الحفل، من الآن فصاعدًا سأحكم وحدي بغير كلاب تنبح عليّ، وفي الغد الباكر تصبح المسألة رهنًا بالتفريق بين ما يصلح وما لا يصلح في ظلّ هذه الفوضى العارمة، وإن دعت الحاجة فلنشترِ في تلك الأثناء ستة كراسٍ جلدية من الصنف الأبخس ثمنًا، ولنشترِ حصائر من القش ونبسطها هنا وهناك لسد الثغرات، ولنشترِ غيرها القليل من التوافه وكفى، فلا صحون ولا ملاعق ولا شيء، سأحضر كل ذلك من الثكنات، ومن الآن فصاعدًا لن تعود لي قوات، ولا ضباط، سحقًا، فلا شيء يُرجى من ورائهم إلّا زيادة استهلاك الحليب، أما في ساعة الجدّ فهم يبصقون في اليد التي تُطعِمهم، وها قد رأينا ما جرى، ولذا فأنا لن أحتفظ بأكثر من الحرس الجمهوري، فهم بواسل سمتهم الاستقامة، ولن أعاود تشكيل وزارة جديدة، سحقًا، إن هو إلّا وزير صحة كفء، وهذا كل ما يحتاج إليه المرء في الحياة، وربما وزير آخر حسن الخط يُعهَد إليه بالمكاتبات الضرورية، وبذا يمكن طرح الوزارات والثكنات للإيجار واستغلال ريعها في الخدمات، فلا حاجة بنا إلى الناس هنا بل إلى المال، ولنكترِ خادمتَيْن تمتازان بالكفاءة، واحدة للتنظيف وشؤون المطبخ وأخرى للغسيل والكيّ، ولسوف أتولّى بنفسي رعاية الأبقار والطيور يومَ نقتني أبقارًا وطيورًا، فلا مزيد من فوضى المومسات في دورات المياه، ولا مزيد

من البُرْص تحت شجيرات الورود ولا مزيد من الأساتذة المُتعلّمين المُطَّلعين على كل شيء ولا مزيد من الساسة الحكماء المُبصِرين كل شيء، فهذا بيت رئاسي في خاتمة المطاف وليس ماخور زنوج على حد قول الغرينغو طبقًا لما رواه پاتريسيو أراغونيس، أما أنا فتكفيني نفسي وتزيد عن حاجتي للاستمرار في الحكم حتى يمرَّ المُذنَّب من جديد، لا مرة واحدة بل عشر، فهكذا أنا ولستُ أفكِّر في الموت مرة أخرى، سحقًا، فليمُت الآخرون، مضى يقول من دون أن يتوقَّف للتفكير في ما هو قائل، وكأنه يتلو من الذاكرة، إذ كان يعرف منذ عهد الحرب أن التفكير بصوت مرتفع يطرد عنه الخوف من عبوات الديناميت التي يرتجّ لها البيت، وأخذ في وضع المُخطَّطات من أجل صباح اليوم التالي ومساء القرن المقبل، حتى كان أن دوَّت رصاصة الرحمة الأخيرة في الشارع فراح الجنرال رودريغو دي أغيلار يزحف ويتلوَّى، ثم أصدر أمره عَبْر النافذة بأن تُستدعَى عربات جمع القمامة لحمل جثث الموتى، ثم خرج من القاعة قائلًا طابت ليلتك سيدي الجنرال، وليلتك يا رفيق، شكرًا جزيلًا، أجابه مستلقيًا على وجهه فوق الرخام الجنائزي في قاعة مجلس الوزراء، ثم إنه توسَّد ذراعه اليمنى التي انثنت تحت رأسه وخلد إلى النوم من فوره، أشد عزلة من أي وقت مضى، على هدهدة حفيف الأوراق الصفر في خريفه، خريف الأسى الذي بدأ ليلتها وإلى الأبد في الأجساد التي انبعثت منها الأدخنة وفي بِرَك الأقمار الحمر التي خلَّفتها المذبحة. ولكنه لم يُضطرّ إلى اتخاذ أي من التدابير المُرتقَبة، ذلك أن الجيش قد تفكَّك من تلقاء نفسه، وتفرَّقت القوات، أما القلائل من الضباط الذين صمدوا حتى الساعة الأخيرة في ثكنات المدينة وست ثكنات سواها في باقي أنحاء البلد فقد أبادهم الحرس

الجمهوري عن آخرهم بمعاونة مُتطوِّعين مدنيين، وأما الناجون من الوزراء فقد هاجروا فجرًا ولم يتبقَّ منهم سوى اثنيْن هما الأكثر وفاءً وسطهم، أولهما طبيبه الخاص وثانيهما أبرع خطَّاطي الأمَّة، ولم يُضطرّ إلى الرضوخ لأي من القوى الخارجية لأن خزائن الحكومة فاضت بخواتم الزواج والأكاليل الذهب التي جمعها أنصاره غير المُتوقَّعين، ولا اضطرّ لشراء حصائر ولا كراسٍ جلدية من الصنف الأبخس ثمنًا لتعويض الأضرار التي أسفرت عنها الإطاحة بالأغراض من النوافذ، فقد رُمِّمت قاعة الاجتماعات وصارت أفخم من أي وقت مضى قبل تحقيق السلام في البلد، وانتشرت في كل أرجاء المكان أقفاص الطيور، بما فيها ببغاوات المَكاو سليطة اللسان، وببغاوات اللوري[1] الملكية التي كانت تتغنَّى على الأفاريز من أجل إسبانيا لا من أجل البرتغال، بينما حافظت نساء كتومات خدومات على البيت نظيفًا مُنظَّمًا مثله كمثل سفينة حربية، بينما تسلَّلت عَبْر النوافذ أنغام المجد نفسها، ومفرقعات البهجة نفسها، ونواقيس الفرح نفسها التي بدأت احتفالًا بموته وظلَّت تدوِّي احتفالًا بخلوده، ونُظِّمت تظاهرة مستمرة في ميدان السلاح حيث علت هتافات الوفاء الأبدي وارتفعت لافتات تقول حفظ الرَّبُّ الرجلَ العظيم الذي قام في اليوم الثالث من بين الأموات[2]، وأُقيمَت احتفالية بلا نهاية لم يُضطرّ إلى تمديدها بنفسه مستعينًا بمناورات سرية كما سبق أن فعل في مرات سابقة، إذ صارت شؤون الدولة تُدبَّر

---

(1) اللوري: سلالة من الببغاوات مُتسلِّقة الأشجار تتراوح أحجامها من الصغير إلى المُتوسِّط.

(2) إشارة إلى ما ورد في الكتاب المُقدَّس في غير موضع، مثال: «وَيَجْلِدُونَهُ، وَيَقْتُلُونَهُ، وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ يَقُومُ» (إنجيل لوقا 18: 33)

من تلقاء نفسها، والوطن يمضي قدمًا، وأصبح هو وحده الحكومة، فما عاد أحد يعترض سبيل مشيئته لا بالقول ولا بالفعل، ذلك أنه بقي وحيدًا في مجده حتى لم يتبقَّ له أحدٌ ولا حتى من الأعداء، وقد بلغ به الامتنان لرفيقي، رفيق العمر كله، جنرال رودريغو دي أغيلار حتى لم يعُد قلِقًا بشأن استهلاك الحليب بل أصدر أمره بأن يصطفَّ الجنود العاديين ممن أظهروا ضراوة وإحساسًا بالواجب في الباحة، ثم شرع يرقِّي كل واحد منهم إلى أعلى المناصب بإشارة من إصبعه وفق ما توحي به نزواته مُدركًا أنه يعيد بذلك تشكيل القوات المُسلَّحة التي سوف تعضُّ اليد التي تُطعِمها، أنت أرقِّيك إلى رتبة كابتن، وأنت رائد، وأنت كولونيل، ماذا أقول، إنما عنيتُ جنرال، أما الباقون فأرقِّيهم إلى رتبة ملازم، سحقًا يا رفيق، إليك جيشك، وبلغ منه التأثُّر بأولئك الذين تألَّموا لموته حتى إنه أمرَ بأن يمضوا به إلى الشيخ الذي أدَّى له التحية الماسونية والسيِّد النبيل المُتَّشِح بثياب الحداد الذي طبع قبلة على خاتمه وقلَّدهما نيشان السلام، وأمر بأن يمضوا به إلى بائعة الأسماك ومنحها الشيء الذي كانت في أمسِّ الحاجة إليه على حد قولها، إذ وهبها بيتًا كثير الحجرات تعيش فيه مع أبنائها الأربعة عشر، وأمر بأن يمضوا به إلى طالبة المدرسة التي أودعت زهرة على جثمانه ومنحها أكثر ما تصبو إليه نفسي في هذا العالم، فزوَّجها من بحَّار، وعلى الرغم من تلك الأعمال التي من شأنها التخفيف عن النفس فلم ينعم قلبه الذاهل بلحظة واحدة من الطمأنينة حتى رأى بعينيْه أفراد فرق الهجوم وقد شُدَّ وثاقهم وانهال عليهم البصاق في باحة ثكنة سان خيرونيمو، تلك الفرق التي اقتحمت البيت الرئاسي ونهبته، فتعرَّف عليهم واحدًا واحدًا بذاكرة الضغينة التي لا ردّ لها، وأخذ يقسِّمهم إلى مجموعات شتّى وفق فداحة

الجرم، فيأمر قائد الهجوم، أنت إلى هنا، أما أولئك الذين طرحوا بائعة الأسماك أرضًا، وهي التي حزنت عليه حزنًا بلا عزاء، فإلى هنا، وأما أولئك الذين أخرجوا الجثمان من النعش وجرجروه على الدَّرَج والأراضي الموحلة فإلى هنا، أما الباقون فإلى هذا الجانب، أوغاد، وإن لم يحفل بتوقيع العقاب في واقع الأمر بل أراد أن يثبت لنفسه أن لا انتهاك حرمة الجثمان ولا الهجوم على البيت كان عملًا شعبيًا عفويًا بل فعلة مشينة اقترفها مرتزقة، وهكذا فقد تولَّى التحقيق مع الأسرى بالصوت الحي والجسم الحاضر لكي يحملهم على الاعتراف بالحقيقة الوهمية بالتي هي أحسن، تلك الحقيقة التي كان قلبه في أمسِّ الحاجة إليها، بَيْد أنه لم ينَلها، فأمر بتعليقهم من عارضة أفقية كما تُعلَّق ببغاوات اللوري، وقد شُدَّ وثاق أقدامهم وأيديهم وتدلَّت رؤوسهم إلى الأسفل ساعات طوال، بَيْد أنه لم ينَلها، وأمر بأن يُلقَى أحدهم في خندق الباحة على مرأى من الآخرين الذين راقبوا التماسيح تمزِّقه إربًا وتلتهمه، بَيْد أنه لم ينَلها، واختار فردًا من المجموعة الرئيسية وأمر بسلخه حيًّا في حضور الجميع، فرأى الجميع جلده اللدن الأصفر كمشيمة جنين حديث الولادة، وأحسّوا بالغرق في حساء الدم الحار المنهمر من لحمه الحي وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ويتعثَّر على أحجار الباحة، عند ذاك اعترفوا بما أراد منهم الاعتراف به، وأقرّوا بأنهم قد تلقَّوا أربعمائة پيسو من الذهب مقابل سحل الجثمان حتى مكبِّ نفايات السوق، وبأنهم لم يرغبوا في ارتكاب تلك الفعلة لا عن حميّة ولا من أجل المال، فهم لم يضمروا ضده شيئًا، ولا سيما في أعقاب موته، إلَّا أن اثنيْن من جنرالات القيادة العليا قد اجتمعوا بهم في لقاء سري، فبثَّ الجنرالان في نفوسهم الرهبة بكل صنوف الوعيد، ولذا فعلنا ما فعلنا سيدي

الجنرال، وهذه كلمة شرف منا إليك، عند ذاك تنفَّس الصعداء، وأمر بأن يُقدَّم لهم الطعام ويُسمَح لهم بالراحة ليلتها، ثم يُلقَى بهم إلى التماسيح في الصباح الباكر، مساكين أولئك الفتيان ضحية الخداع، تنهَّد، ثم عاد إلى البيت الرئاسي وقد تحرَّرت نفسه من أغلال الريب، وجعل يغمغم ها قد رأيتم بأعينكم، سحقًا، ها قد رأيتم بأعينكم، فهذا الشعب يحبُّني. ولمَّا كان قد عقد النية على إخماد جمر التوجُّس الذي أضرمه پاتريسيو أراغونيس في قلبه، فقد اتَّخذ قراره بأن تكون تلك آخر أعمال التعذيب التي يضلع به نظامه، فقُتِلَت التماسيح، وتفكَّكت سراديب التعذيب المُجَّهَزة لطحن عظام الجسم واحدة تلو الأخرىِ من دون الإجهاز على الضحية، وأعلن هو العفو العام، واستبق المستقبل بفكرة سحرية مُفادها أن مشكلة هذا البلد تكمن في الوقت الطويل الزائد على الحاجة الذي يمضيه الناس في التفكير، وفيما هو يبحث عن الوسيلة لإبقائهم مُنشغلين أعلن عن استئناف مهرجان مارس للشعر ومسابقات ملكات الجمال السنوية، وشيَّد أضخم ملعب كرة عرفه الكاريبي، وجعل شعار فريقنا إما النصر وإما الموت، كما أصدر أمره بتأسيس مدرسة مجانية في كل مقاطعة لتعليم الكَنْس، فتحمَّس التلاميذ لتلك المنحة الرئاسية حتى إنهم فرغوا من كَنْس البيوت، فالشوارع، فالطرقات العمومية، فالدروب المجاورة، وأصبحت أكداس القمامة تُزاح من مقاطعة إلى أخرى ثم تُردُّ ثانيةً من دون أن يعرف أحد ماذا يفعل بها، في مواكب رسمية حيث ترفرف أعلام الوطن ولافتات ضخمة تقول حفظ الرَّبُّ الرجلَ الطاهر بلا دنس الذي يسهر على نظافة الأمَّة، بينما يجرجر هو قائمتَيْه الوئيدتَيْن، قائمتي الوحش المُتأمِّل، ويبحث عن وصفات جديدة الغرض منها إلهاء الشعب المدني، بينما يشقُّ طريقه وسط البُرْص

والعميان والمفلوجين الذين يتوسَّلون إليه أن يمنحهم ملحَ العافية بيديْه، وفي جرن المعمودية القائم في الباحة يعمِّد أبناء أبنائه بالمعمودية ويدعوهم باسمه هو وسط مُتملِّقين وقحين يبشِّرون به واحدًا ليس سواه، إذ لم يعُد في وسعه الاستعانة بنظيرٍ له وبات يتعيَّن عليه أن يؤدِّي دورَ الشبيه بنفسه في قصر السوق العمومية حيث بدأت تصل يوميًّا أقفاصٌ إثر أقفاص مُحمَّلة بالطيور المدهشة منذ وقف على سرٍّ مهنة أمه بينديسيون ألبارادو، وعرف أنها تعمل في تربية الطيور، ورغم أن بعض الأقفاص كان يُرسَل من باب التملُّق والبعض الآخر من باب السخرية، فبعد مضي زمن يسير لم يعُد ثمة مُتَّسع لتعليق المزيد من الأقفاص، ثم إنه أراد تولِّي عدد كبير من الشؤون العامة في آن حتى لم يعُد يمكن التمييز بين الخدم والمخدومين وسط الجماهير الغفيرة المُحتشِدة في الباحات والمكاتب، وقُوِّضت جدران كثيرة من أجل توسيع العالَم وفُتِحَت نوافذ كثيرة من أجل رؤية البحر، حتى صار مُجرَّد المرور من قاعة إلى أخرى أشبه بالمجازفة على متن قارب شراعي هائم في خريف متقاطع الرياح. كانت تلك رياح مارس التجارية[1] التي طالما هبَّت من نوافذ البيت دومًا، أما الآن فهم يقولون إنها رياح السلام سِيدي الجنرال، وكان الطنين الذي يدوِّي في طبلتي أذنيْه منذ أعوام هو نفسه، ولكن حتى طبيبه كان يقول إنه طنين السلام سيدي الجنرال، فمنذ عثروا عليه ميتًا لأول مرة أصبحت سائر الأشياء على اليابسة وفي السماء أشياء السلام سيدي الجنرال، فكان هو يصدِّق، ويبلغ به التصديق حدَّ الصعود مرة أخرى في شهر ديسمبر إلى بيت الشعاب

(1) الرياح التجارية: رياح دائمة تهبُّ في معظم المناطق الاستوائية. وسُمِّيت بهذا الاسم لاعتماد السفن التجارية الشراعية عليها في أسفارها.

الصخرية للتسرية عن نفسه بالتشفِّي من مصاب أخويَّة الطواغيت القدامى الذين غلبهم الحنين، أولئك الذين كانوا يقطعون مباريات الدومينو ليقصّوا عليه قائلين دعنا نقُلْ مثلًا إنني كنتُ في موضع قطعة الستة المزدوجة وإن المحافظين العقائديين كانوا في موضع قطعة الثلاثة المزدوجة، كل ما هنالك أنني لم أتحسَّب لأمر التحالف السري بين الماسونيين والقساوسة، سحقًا، من كان يخطر له أمر كهذا على بال، ومن دون أن يحفل بالحساء الذي يتجمَّد في الصحن يقول أحدهم شارحًا دعنا نقُلْ مثلًا إن البيت الرئاسي كان في موضع هذه السكّرية، هنا، أما العدو فلم يتبقَّ له سوى مدفع وحيد يبلغ مداه أربعمائة مترٍ إذا كانت الريح مواتية، هنا، وهكذا فأنتم لا ترونني هنا إلَّا بسبب اثنين وثمانين سنتيمترًا من سوء الحظ، وبعبارة أخرى، حتى أولئك الذين علقت بهم ريمورا[1] المنفى أكثر ممن عداهم كانوا يهدرون آمالهم في استشراف السفن الآتية من أوطانهم على مرمى الأفق، إذ كانوا يتعرَّفون عليها من لون الدخان، وصدأ الأبواق، فينزلون إلى المرفأ تحت رذاذ الأضواء الأولى بحثًا عن الصحف التي غلَّف بها طاقم البحَّارة الأطعمةَ ثم خرجوا بها من السفينة لاحقًا، إلى أن يعثروا عليها في صناديق القمامة ويقرأوها عن ظهر قلب حتى السطر الأخير، للتكهُّن بمستقبل أوطانهم من خلال أخبار من قضى نحبه، ومن تزوَّج، ومَنْ دعا مَنْ إلى حفل عيد ميلاده، ومَنْ لم يدعُ مَنْ، ويكشفون طلاسم أقدارهم وفقًا لمسار السحائب المُبارَكة الموشكة على الهطول فوق بلدانهم في عاصفة قيامية سوف تغمر الأنهار وتطيح بالسدود والخزَّانات وتكتسح الحقول وتنشر

(1) ريمورا: فصيلة من الأسماك تتميَّز بعدد من الممصَّات التي تلجأ إليها للالتصاق بكائنات أكبر حجمًا.

البؤس والطاعون في المدائن، وعند ذاك يأتون إليَّ مُتوسِّلين أن أخلِّصهم من الكارثة والأناركية، ولسوف ترون بأعينكم، ولكن فيما هم يترقَّبون الساعة الكبرى كانوا يُضطرّون للاستئذان في كلمة على انفراد مع المنفي الأصغر سنًّا كي يطلبوا إليه معروفًا سائلين هلا سَلَكْتَ لي الخيطَ في الإبرة حتى أرتق هذا البنطال الذي لا أودُّ أن ألقي به في القمامة نظرًا لقيمته العاطفية عندي، ويغسلون الثياب في الخفاء، ويشحذون أمواس الحلاقة التي استعملها القادمون حديثًا، ويختلون بأنفسهم في حجراتهم لتناول الطعام حتى لا يكتشف الآخرون أنهم يعيشون على الفضلات، وحتى لا تقع أنظارهم على خزي البنطال المُلطَّخ بسلس البول، إلى أن يكون يوم خميس هو الأبعد عن البال نزيِّن فيه صدرَ واحد منا بالأوسمةَ المُثبَّتة في آخر قميص له، ونلفُّ الجثمان بعلَمه، ونتغنَّى بنشيده الوطني ثم نرسله ليحكم غياهب النسيان عند سفح الجرف، وليس له ثقَّالة إلَّا قلبه المُتآكل، من دون أن يترك في هذا العالَم فراغًا إلَّا على كرسي الشاطئ الذي استقرَّ في الشرفة بغير أفق حيث كُنَّا نجلس للاقتراع على حوائج الراحل في ما بيننا، هذا في حال تركوا شيئًا وراءهم سيدي الجنرال، تخيَّلْ، أي حياة مدنية بعد كل ما حظوا به من المجد. وفي ديسمبر آخر بعيد، عند افتتاح البيت، كان قد رأى وهو على تلك الشرفة سيلًا من الجُزُر من نسج الهلوسة، جُزُر الأنتيل[1]، تلك التي

---

(1) جُزُر الأنتيل: أرخبيل يقع بين الكاريبي وخليج المكسيك. وتُعدُّ جُزُر الأنتيل أولى الأراضي التي بلغها كريستوف كولومبوس في العالم الجديد. وسُمِّيَتْ بهذا الاسم نسبة إلى أنتيليا، الجزيرة الأسطورية التي كان يُعتقَد بوجودها في المحيط الأطلنطي غربي إسبانيا والبرتغال. ومن الجدير بالذكر أن الأماكن الوارد ذكرها في هذا الجزء تقع في منطقة الكاريبي وخليج المكسيك: (مارتينيك، پاراماريبو، تاناغوارينا، غوايرا، ترينيداد، كوراساو، كارتاخينا دي إندياس، باربادوس، بيراكروس).

أطلعه أحدهم عليها مشيرًا بإصبعه إلى واجهة البحر، فرأى البركان المُعطَّر في جزيرة مارتينيك، هناك سيدي الجنرال، ورأى مستشفى السُّل، ورأى الزنجي العملاق في بلوزة من الدانتيل يبيع باقات أزهار الغاردينيا لزوجات حُكَّام المقاطعات في باحة البازيليكا، ورأى سوق پاراماريبو الجهنمية، هناك سيدي الجنرال، والسراطين تخرج من البحر عَبْر المراحيض وتتسلَّق طاولات مِحال المُثلَّجات، والماسات ترصِّع أسنان الجدَّات الزنجيات اللائي كن يبعن رؤوس الهنود وجذور الزنجبيل جالسات على عجيزاتهن الصحيحة المعافاة تحت حساء الأمطار المتساقطة، ورأى أبقارًا من ذهب مصمت نائمة على شاطئ تاناغوارينا سيدي الجنرال، وعرَّاف غوايرا الأعمى الذي يتقاضى رياليْن مقابل طرد شبح الموت المشؤوم بآلة كمان ذات وتر وحيد، ورأى أغسطس ترينيداد الحارق، والسيارات تمضي عكس السير، والهندوس الخضر الذين يقضون حاجتهم على قارعة الطريق أمام حوانيتهم حيث يبيعون أقمصة من حرير دود القزِّ الحيّ وثمار يوسفي منحوتة على ناب فيل كامل، ورأى كابوس هاييتي، وكلابها الزرق، ورأى العربة التي تجرُّها العجول وهي تلملم الموتى في الشارع فجرًا، وأزهار التوليب الهولندية تولد من جديد في خزانات البنزين في كوراساو، وبيوت طواحين الهواء ذات الأسقف الواقية من الثلوج، وعابرة المحيطات الغامضة التي راحت تجتاز وسط المدينة من بين مطابخ الفنادق، ورأى الأسوار الحجرية في كارتاخينا دي إندياس، وخليجها المقفل بسلسلة، والضياء الجامد في الشرفات، والخيول الضامرة التي تجرُّ عربات الأجرة وهي ما زالت تتثاءب حنينًا إلى عليق نوَّاب الملوك، ورائحة روثها سيدي الجنرال، ما أروعه، قُلْ لي، أليس العالَم كبيرًا، وقد كان العالَم في واقع الأمر

كبيرًا، وليس كبيرًا فقط بل وغَرُورًا أيضًا، ذلك أنه ما كان يصعد إلى بيت الشعاب في ديسمبر من أجل تجاذب أطراف الحديث مع أولئك الهاربين الذين يمقتهم بمقدار ما يمقت صورته هو نفسه في مرآة المصائب، وإنما ليكون هناك عندما تتحقَّق المعجزة ويتفجَّر ضياء ديسمبر جيَّاشًا، ويتراءى كَوْنُ جُزُرِ الأنتيل بأسره مرة أخرى، من باربادوس حتى فيراكروز، وعند ذاك ينسى من حصل على قطعة الثلاثة المزدوجة ويطلّ من المنظرة لتأمُّل شريط الجُزُر المجنونة كالتماسيح النائمة في بركة البحر، وفيما هو يتأمَّلها جعل يستحضر إلى ذاكرته مرة أخرى تلك الجمعة التاريخية من شهر أكتوبر ويعيشها مُجدَّدًا، يومَ غادر حجرته فجرًا ليجد أهل البيت الرئاسي جميعًا وقد اعتمروا القلانس الحمر، ويجد المحظيّات حديثات العهد يكنسن القاعات ويبدِّلن المياه في الأقفاص وقد اعتمرن القلانس الحمر، ويجد حالبي الأبقار في الحظائر والخَفَر في مواقعهم والمفلوجين على الدَّرَج والبُرْص تحت شجيرات الورود يجوبون المكان وقد اعتمروا قلانس آحاد الكرنفال الحمر، فعقد النية على التحقُّق مما دهَى العالَم في أثناء نومه حتى يتبختر أهل بيته وسكان المدينة في قلانس حمر ويجرجرون سلاسل من الأجراس في كل أرجاء المكان، وأخيرًا وجد من يحكي له الحقيقة سيدي الجنرال، فقد وصل إلى المكان نفرٌ من الأجانب يثرثرون بلسان عجيب[1]، فيؤنِّثون

---

(1) ابتداءً من هذه الفقرة، وحتى نهاية الفصل الأول، يعمد الكاتب إلى المزج بين مشهد إنزال مُشاة المارينز ومشهد وصول كريستوف كولومبوس (1451 - 1506) إلى العالم الجديد. فبالعودة إلى ما ورد في يوميات الرحلة الاستكشافية الأولى لكولومبوس كما دوَّنها بارتولوميه دي لاس كاساس (1484 - 1566)، نجد المُؤلِّف ينقل عبارات وأجزاء بحذافيرها من اليوميات المُشار إليها ويعيد صياغة أجزاء أخرى، ما يفسِّر الكثير من الإشارات العصية على الفهم بمعزل عن سياقها التاريخي.

البَحْر عوضًا عن تذكيره، أما ببغاوات المَكاو فيسمُّونها ببغاوات الپاپاجايُو، وأما القوارب فيسمُّونها أطوافًا، وأما الرماح فيسمُّونها حرابين، ولمَّا رأونا وقد خرجنا لاستقبالهم ورحنا نسبح حول سفنهم شرعوا يتسلَّقون الصواري ويتصايحون في ما بينهم قائلين انظروا أي هيئة حسنة، وأي قوام بديع، وأي مُحيًّا وسيم، وأي شعر غزير يشبه حرير الخيول، ولمَّا رأونا وقد طلينا بشرتنا لئلَّا تتقشَّر تحت أشعة الشمس انتفضوا كالببغاوات الصغيرة إذا ابتلَّت ريشاتها وطفقوا يتصايحون قائلين انظروا كيف يطلي البعض منهم بشرته بطلاء داكن، مع أنهم بلون طيور الكناري، فلا هم بيض ولا هم سود، أما نحن فلم نفهم سببًا لسخريتهم البالغة منا سيدي الجنرال، سحقًا، فلقد كنا على طبيعتنا كما ولدتنا أمهاتنا، أما هم فكانوا يلتحفون بثياب كثياب الولد السباتي على الرغم من القيظ، كما أنهم يؤنِّثون كلمة القيظ شأنهم في ذلك شأن المُهرِّبين الهولنديين، ولهم شعر مُصفَّف كشعر النساء وإن كانوا جميعًا من الرجال، أما نساؤهم فلم نرَ لهن أثرًا، وراحوا يهتفون ويقولون عنا إننا لا نفهم اللسان المسيحي[1] مع أنهم هم الذين لم يفهموا ما نهتف به، ثم أقبلوا نحونا على متن قواربهم التي يسمُّونها أطوافًا، كما قُلنا آنفًا، وعجبوا لأن رماحنا تنتهي بحسكة سمكة الشابل التي يسمُّونها سنَّ السمكة، وشرعوا يبادلوننا كل ما في حوزتنا بتلك القلانس الحمر، وتلك القلائد ذات الخرز البلّوري التي كنا نضعها حول أعناقنا لإدخال البهجة على نفوسهم، وبتلك الصنوج النحاسية التي تساوي مرابطيًّا[2] واحدًا، وتلك المباول

(1) اللسان المسيحي: تعبير دارج يُشار به أحيانًا إلى اللسان الإسباني أو الحديث المفهوم بوجه عام.
(2) المرابطي: اسم الدينار الذي سُكَّ إبان حكم الدولة المرابطية، وقد أُطلِق على عدة عملات معدنية في إسبانيا.

والنظّارات ودونها من البضائع التي جِيء بها من فلانذِرز، من الأصناف الأبخس ثمنًا سيدي الجنرال، ولمَّا رأيناهم خدومين حاضري البديهة فقد مضينا بهم صوب الشاطئ شيئًا فشيئًا من دون أن ينتبهوا إلى ذلك، ولكن بين هاتِ وخُذْ، وخُذْ وهات، اندلعت عملية مقايضة ابنة قحبة، وبمضي ردح من الوقت شرع الجميع يقايض ما له من الببغاوات اللورية، والتبغ، وكرات الشكولا، وبيض سحالي الإغوانا، وكل ما خلق الرَّب، فقد أخذوا من كل شيء وأعطوا من متاعهم عن طيب خاطر، حتى إنهم أرادوا مبادلة واحد منا مقابل سترة من المخمل لكي يعرضونا في البلدان الأوروبية، تخيَّلْ سيدي الجنرال، أي فوضى عارمة، أما هو فقد اشتدَّت به الحيرة حتى إنه لم يدرك ما إذا كان ذاك الشأن الجنوني من اختصاص حكومته أم لا، فعاد إلى مخدعه، وفتح النافذة المُطلَّة على البحر لعلَّه يفهم تلك الواقعة المُشوَّشة التي قُصَّت عليه في ضوء جديد، فرأى البارجة كعهدها أبدًا، تلك التي هجرها مُشاة المارينز عند المرسى، وفيما وراء البارجة، رأى سفن الكارافيل الثلاث[1] راسية في البحر المظلم.

---

(1) الكارافيل: السفن الشراعية التي استخدمها كريستوف كولومبوس في رحلته لاستكشاف العالم الجديد.

أما حين عُثِر عليه للمرة الثانية وقد نقرته العقبان في المكتب نفسه، وهو في الثياب نفسها، وعلى الوضع نفسه، فلم يكُن أحدنا مُتقدِّمًا في العمر بما يتيح له أن يذكر ما كان في المرة الأولى، وعلى الرغم من ذلك كنا نعرف أن ليس من دليل واحد قاطع على موته، فلطالما كانت ثمة حقيقة أخرى في ما وراء الحقيقة أبدًا. فلم يقنع بالمظاهر ولا حتى أولئك الأبعد عن التروِّي وسطنا، فكثيرًا ما سلَّم الناس بأنه قد خار تحت وطأة الصرع وبات يتهاوى من فوق عرشه خلال الاجتماعات المعقودة حيث يتلوَّى ويتشنَّج وزبد المرارة يسيل من شدقيْه، وبأنه فقد القدرة على الكلام من فرط ما تكلَّم حتى استعان بمُقلِّدي أصوات يتوارون خلف الأستار كيما يتظاهر هو بالكلام، وبأن قشور سمك الشابل قد غطَّت كل موضع في جسده عقابًا له على انحرافه، وبأن فتقه أصبح يتغنَّى بأغنيات البحَّارة في طراوة ديسمبر بينما هو عاجز عن السير من دون الاستعانة بعربة تقويم يحمل فوقها خصيته المصابة بالفتق، وبأن شاحنة عسكرية قد أحضرت نعشًا ذهبي الحواف أرجواني البطانة عند منتصف الليل عَبْر أبواب الخدم، وبأن أحدهم قد رأى ليتيسيا ناسارينو وقد نزف البكاء دموع عينيْها في حديقة الأمطار، وعلى الرغم من ذلك فكلَّما بدت إشاعات موته أقرب إلى الصحة عاود الظهور في المناسبة الأبعد عن البال، أكثر حياةً وطغيانًا، كي يفرض على قَدَرنا مسارات

أخرى عصية على التوقُّع. كان من أيسر ما يمكن أن يقتنع المرء بتلك الدلائل الأولية المُتمثِّلة في الخاتم ذي الختم الرئاسي أو حجم قدميْه الخارق للمألوف، قدمي المَشَّاء الذي لا يني، أو ذلك الدليل العجيب المُتمثِّل في خصيته المصابة بالفتق التي لم تجرؤ العقبان على نقرها، ومع ذلك فدائمًا ما كانت تحضُر أحدهم ذكرى دلائل أخرى مُماثِلة لموتى أقل أهمية قضوا في ما مضى. وحتى تفتيش البيت بدقَّة متناهية لم يسفر عن مُعطًى واحد يصلح لإثبات هويته. أما في مخدع بينديسيون ألبارادو، تلك التي لم نكُن نذكر من أمرها سوى أقصوصة تطويبها قديسةً بموجب مرسوم رئاسي، فقد عثرنا على بعض الأقفاص المُثلَّمة بما فيها من عظام الطيور الهزيلة التي تحجَّرت بمضي الأعوام، ورأينا الأريكة المضفورة من الخيزران وقد لاكتها الأبقار، ورأينا حقائب ألوان الماء وأقداحًا تحوي فُرَشًا من تلك التي كانت تستخدمها مُربِّيات الطيور في الپارامو لتلوين طيور الكالحة وبيعها في الكرنفالات على أنها أوروپيندولا[1]، ورأينا جرَّة تحوي شجيرة تُرُنجان ظلَّت تنمو في ظلِّ النسيان فصارت أغصانها تتسلَّق الحوائط وتطلُّ من أعين اللوحات وتبرز من النوافذ حتى انتهى بها المطاف وقد اشتبكت بالأيكة الجبلية في الباحات التالية، وإن كنا لم نجد أدنى أثر يدلُّ على أنه قد عرَّج على تلك الحجرة يومًا. أما ليتيسيا ناسارينو، تلك التي كانت صورتها المنطبعة لدينا أكثر صفاءً، ليس لمُجرَّد أنها قد ملكت في حقبة أحدث عهدًا بل يُعزَى الأمر إلى الدويّ الناجم عن تصرفاتها في العلن أيضًا، فلقد رأينا في مخدعها الزوجي فراشًا يليق بمداهمات الحُبِّ يعلوه سَتْرٌ

(1) أوروپيندولا: سلالة من الطيور لها مناقير مُدبَّبة وذيول طويلة زاهية اللون، موطنها الأصلي أمريكا الوسطى والجنوبية.

من نسيج مُطرَّز اتَّخذت منه الدجاجات عشًّا، ورأينا في الخزانات بقايا خلَّفَتها العثَّة من أوشحة فراء الثعالب الزرق، وهياكل التنانير السلكية، وغبار التنانير الداخلية الجليدي، وصديريات الدانتيل التي جيء بها من بروكسل، وأبواط الرجال المُستخدَمة في البيت والأخفاف الساتانية ذات الإبزيم والكعب العالي التي كانت تنتعلها لدى استقبال الزوار، ورأينا أردية بطول الجسم مُزيَّنة بأزهار بنفسج صوفية وأشرطة من حرير مصقول تعود إلى أيام رونقها الجنائزي بوصفها السيدة الأولى، وكذلك مسوح طالبات الرهبنة[1] المنسوجة من الكتان الرمادي، تلك المسوح الخشنة كإهاب الكبش التي كانت ترتديها حين جاؤوا بها من جامايكا مخطوفةً داخل صندوق كريستال الحفلات لتنصيبها على عرش الرئيسة المحجوبة، بَيْد أننا لم نعثر ولا حتى في تلك الحجرة على أدنى أثر يسمح لنا ولو بالتأكد من أن ذلك الاختطاف القرصاني قد ارتُكِب بوحي من الحب. أما في المخدع الرئاسي، أي الحجرة التي أمضى فيها الشطر الأعظم من أعوامه الأواخر، فلم نجد سوى فراش ثكنات لم يُستعمَل، ومرحاض مُتنقِّل من تلك المراحيض التي كان تُجَّار الآثار ينتزعونها من قصور هجرها مُشاة المارينز، وخزانة حديد حوت أوسمته الاثنيْن والتسعين، وزيٍّ من الكتان الخام مُجرَّد من الشارات، يشبه ذلك الذي كان يرتديه الجثمان، وقد اخترقته ستة مقذوفات من العيار الثقيل، نفذت من ظهره لتخرج من صدره مُخلِّفَةً أضرار حريق، ما دفعنا إلى التفكير بصحة الأسطورة الشائعة الزاعمة بأن رصاص

(1) طالب/ طالبة الرهبنة: مصطلح يُطلَق على الشباب أو الآنسات الذين يتركون حياتهم في العالم ويقصدون الدير طلبًا في الرهبنة. فيقضي الطالب فترة اختبار إلى أن يُرسَم راهبًا أو يترك الدير. والمسوح هي ثياب الرهبان.

الغدر يخترق ظهره فلا يؤذيه، أما الرصاص الذي يُطلَق عليه وجهًا لوجه فيرتدُّ عن جسمه ويعود صوب المعتدي، وبأنه ما كان يتأثَّر إلَّا برصاص الرحمة الذي يطلقه عليه شخصٌ يحبُّه إلى حدِّ الموت من أجله. كان كلا الزيَّيْن أصغر مما ينبغي بالقياس إلى الجثمان، وعلى الرغم من ذلك فلم نستبعد احتمال أن يكونا له، إذ قيل في زمن من الأزمان إنه ظلَّ ينمو حتى بلغ من العمر مائة عام وإنه سنَّن للمرة الثالثة وهو في عمر المائة والخمسين، رغم أن الجسد الذي نهشته العقبان لم يكُن أضخم من جسد متوسط القامة لرجل من هذا الزمان في حقيقة الأمر، أما أسنانه فكانت سليمة صغيرة مستوية حتى بدت كالأسنان اللبنية، وأما بَشَرته فكانت بلون المرارة، خالية من كل أثرٍ للندوب وإن ظهرت عليها بقع الشيخوخة وانتشرت الغضون على كل موضع فيها كما لو سبق له أن كان مفرط البدانة في زمن بعيد، أما عيناه اللتان غشيهما الصمت في ما مضى فما كاد يتبقَّى له منهما إلَّا محجريْن خاوييْن، وبخلاف خصيته المصابة بالفتق فلم يكُن في جسده ما لا يتناسب مع حجمه سوى قدميْه الهائلتيْن المُربَّعتيْن المفلطحتيْن بما لهما من مخالب صَقْر مُتحجِّرة معقوفة. وعلى عكس الثياب، كانت الأوصاف التي نسبها إليه مُؤرِّخوه أضخم مما ينبغي بالقياس إليه، ذلك أن النصوص الرسمية المُعتمَدة في رياض الأطفال كانت تصفه بأنه بطريرك أضخم من المألوف لا يغادر بيته أبدًا لأن الأبواب لا تتَّسع له، بَيْد أنه يحبُّ الأطفال وطيور السنونو، ويتقن ألسن بعض الحيوانات، ويقدر على استباق مُخطَّطات الطبيعة وسبر الخواطر بمُجرَّد النظر إلى العينيْن، ويعرف سرَّ ملحٍ يشفي من قروح البَرَص ويردُّ للمفلوجين القدرة على السير. وبرغم اختفاء كل أثر لأصله من النصوص، فقد ذهب الاعتقاد إلى أنه رجل من الپارامو

نظرًا لنهمه الهائل إلى السلطة، وطبيعة حكومته، ومسلكه الكئيب، والشرّ العصيّ على التصوُّر الذي سكن قلبه، الشرّ الذي حدا به إلى بيع البحر لواحدة من القوى الأجنبية ليقضي علينا بأن نعيش قبالة سهلٍ بغير أفق يكسوه غبار قمري خشن، سهل أغساقه بلا قرار تبعث الألمَ في نفوسنا. أما عدد الأبناء الذين أنجبهم مدى حياته فيُقدَّر بما يربو على الخمسة آلاف، كلهم مُسْبَع، أنجبهم بلا حب من عشيقات لا يُحصَى لهن عدد، توافدن تباعًا إلى الحريم الخاص به حتى تهيَّأت له الظروف كي يتلذَّذ بهن، غير أن أحدًا لم يحمل اسمه ولا لقبه، فيما عدا ابنه الذي أنجبه من ليتيسيا ناسارينو، ابنه الذي نُصِّب في لحظة ميلاده جنرالًا وقائد فرقة عسكرية، فهو كان يرى أن المرء ابن أمه ليس سواها، هي من دون غيرها. وبدا ذلك اليقين سليمًا حتى في حالته هو، لما عُرِف عنه من كونه رجلًا بلا أب مثله كمثل أشهرِ المُستبدِّين على مرِّ التاريخ، كما لم يُعرَف له أقرباء وربما لم يكُن له أقرباء في ما عدا أمه بينديسيون ألبارادو، يا روحي أنا، تلك التي نسبت إليها النصوصُ المدرسية معجزةَ الحمل به وهي ليست تعرف رجلًا[1]، ومعجزةَ تلقِّي المفاتيح الخفية لقَدَر المُخلِّص الذي ينتظره، ثم إنه نادى بها أمَّ الوطن بموجب مرسوم رئاسي مُستندًا إلى حجة بسيطة مفادها أن الأم واحدة ليس سواها، أمي أنا، وهي امرأة غريبة أصلها غير أكيد، كانت بساطة روحها بمثابة فضيحة عند أولئك المُتشدِّدين للوقار الرئاسي في مطلع حكمه، إذ لم يكُن في وسعهم القبول بأن تضع أمُّ زعيم الدولة في عنقها جرابًا من الكافور يقيها من

(1) إشارة إلى ما جاء على لسان مريم العذراء للملاك الذي بشَّرها بميلاد يسوع طبقًا للكتاب المُقدَّس: «فَقَالَتْ مَرْيَمُ لِلْمَلاَكِ: «كَيْفَ يَكُونُ هذَا وَأَنَا لَسْتُ أَعْرِفُ رَجُلاً؟» (لوقا 1: 34، 35).

العدوى بصنوفها كافة، ولا بأن تحاول غرز الشوكة في الكافيار أو تتمايل في سيرها بخفّيْن مطاطيْن من الجلد المصقول، ولا كان في وسعهم القبول بأن تقيم منحلًا في شرفة قاعة الموسيقى، ولا بأن تربِّي الديكة الرومية والطيور المُلوَّنة بألوان الماء في المكاتب العمومية، ولا بأن تبسط الملاءات لتجفيفها في شرفة الخطابة، ولا كان في وسعهم تحمُّل ما بدر عنها في حفل دبلوماسي إذ قالت لقد تعبتُ من الابتهال إلى الرَّب من أجل الإطاحة بابني، فالعيش في البيت الرئاسي يشبه إضاءة المصابيح في كل وقت يا سيدي، وقالتها بنبرة الحقيقة العفوية التي بها شقَّت طريقها وسط حرس التشريفات في إحدى المناسبات الوطنية وهي تحمل سلَّة من القوارير الفارغة فأدركت الليموزين الرئاسية على رأس موكب اليوبيل وسط دوي التصفيق والمارشات العسكرية وزوبعات الأزهار، وإذا بها تدسُّ السلَّة من نافذة السيارة وتصيح في ابنها قائلةً اغتنم الفرصة لردِّ هذه القوارير إلى الحانوت الذي على الناصية ما دُمتَ ذاهبًا إلى هناك، مسكينة هي أمي. أما افتقارها إلى الحسِّ التاريخي فقد بلغ أوجه ليلةَ الوليمة الرسمية التي أقمناها احتفالًا بإنزال مُشاة المارينز بقيادة الأميرال هيجينجسون، حين رأت بينديسيون ألبارادو ابنها في زي التشريفات بما له من نياشين ذهب، وقد وضع قفازه الساتاني الذي ظلَّ يستخدمه طوال البقية الباقية من حياته، فلم تملك أن تكبح جماح زهوها الأمومي وهتفت ملء صوتها أمام أعضاء السلك الدبلوماسي كافة قائلةً لو كنتُ أعرف أن ابني سيتولَّى رئاسة الجمهورية لألحقتُه بالمدرسة يا سيدي، ولك أن تتخيَّل مدى الخزي الذي أسفر عنه قولها علمًا أنها قد نُفِيَت إلى قصر الضواحي منذ ذلك الحين، وهو قصر له إحدى عشرة حجرة فاز به ذات ليلة مُوفَّقة من

ليالي النرد تحلَّق خلالها زعماء الحرب الفيديرالية حول طاولة اللعب ليتقاسموا في ما بينهم ذلك الحي السكني الرائع، حي المحافظين الهاربين، وحدها بينديسيون ألبارادو استخفَّت بالزينة الإمبراطورية التي تُشعِرني وكأنني زوجة قداسة البابا، وآثرت عليها حجرات الخدم برفقة الخادمات الحافيات الست اللائي عُهِد إليهن خدمتها، فنزلت ومعها آلة الحياكة وأقفاص الطيور المُلطَّخة بالألوان في عُلِّيَّة يغشاها النسيان ولا يصلها القيظ مطلقًا، هناك حيث يسهُل طرد بعوض الساعة السادسة، فكانت تجلس للحياكة أمام الضياء المتثاقل الآتي من الباحة الفسيحة وهواء شجر التمر الهندي العلاجي، بينما تهيم الدجاجات في القاعات، ويتربَّص جنود الحراسة بالنادلات في الحجرات الخاوية، كانت تجلس لتلوين طيور الأوروپيندولا بألوان الماء وتتحسَّر وهي برفقة الخادمات على مصاب ابني المسكين الذي نقله مُشاة المارينز إلى البيت الرئاسي، بعيدًا كل البُعد عن أمّه يا سيدي، وليس له زوجة تتفانى في رعايته وتمدُّ له يد العون إن قضَّ الألمُ مضجعَه في منتصف الليل، وهو الذي تورَّط في وظيفة رئاسة الجمهورية تلك براتب هزيل قدره ثلاثمائة پيسو شهريًّا، مسكين هو ابني. وكانت تعرف حق المعرفة ما تقول، ذلك أنه كان يزورها يوميًّا والمدينة تتمرَّغ في وحل القيلولة، فيحمل إليها الفاكهة المُحلَّاة بالسكر التي طالما راقت لها، ويغتنم الفرصة لينفِّس معها عن حاله المريرة وقد اتَّخذ منه مُشاة المارينز واجهةً يتوارون خلفها، ويحكي لها كيف يُضطرُّ لاختلاس البرتقال المُحلَّى بالسكر والتين المعقود وإخفائهما في المناديل لأن سلطات الاحتلال قد نصَّبت محاسبين يدوِّنون في دفاترهم حتى بقايا الغداء، فيتحسَّر على ما جرى منذ أيام حين أقبل قائد البارجة إلى البيت

الرئاسي برفقة نفر يشبهون علماء الفلك على الأرض الراسخة فأخذوا قياسات كل شيء من دون أن يتفضَّلوا عليَّ ولو بإلقاء التحية، بل طفقوا يمرِّرون شريط القياس من فوق رأسي وهم يجرون حساباتهم بالإنجليزية ويصيحون فيَّ مع المترجم قائلين تنحَّ جانبًا، فيتنحَّى جانبًا، ابتعدْ عن مصدر الضوء، فيبتعد، اذهبْ إلى حيث لا تقف عثرة في سبيلنا، سحقًا، فلا يعرف إلى أين يذهب حتى لا يقف عثرة في سبيلهم، ذلك أن المَسَّاحين كانوا هناك يقيسون حجم كل شيء حتى ضياء الشرفات، وإن لم يكُن ذلك أسوأ ما في الأمر يا أمي، فقد ألقوا إلى الشارع بمحظيتيْن هزيلتيْن كانتا آخر من تبقَّى له من المحظيات، إذ صرَّح الأميرال بأنهما لا تليقان برئيس، فبقي محرومًا من النساء بحق حتى أصبح يتظاهر في بعض الأمسيات بمغادرة قصر الضواحي بينما تحسُّ به أمُّه وهو يلاحق الخادمات في غَبَش المخادع، فبرح بها الأسى من أجله حتى إنها كانت تستثير الطيور في أقفاصها لئلَّا ينتبه أحدٌ إلى حرمان الابن، وتحملها على التغريد عنوة لئلَّا يحسَّ الجيران بجلبة المداهمة، وعار الاغتصاب، والتهديدات المكتومة القائلة ابقَ هادئًا وإلا أخبرت أمك سيدي الجنرال، وكانت تكدِّر على طيور التروپيال صفو قيلولتها فترغمها على الانفجار صادحةً لئلَّا يسمع أحدٌ لهاث الزوج المُتعجِّل الخالي من الروح، ولا مصاب العاشق الذي لم يخلع حتى ثيابه، ولا نحيب الكلاب الخافت الذي ينخرط فيه، ولا دموعه المنسابة في عزلتها وكأنها مُشرِفة على الغروب، وكأنها تتعفَّن من الأسى بينما تتردَّد قوقأة الدجاجات المهتاجة في المخادع على أثر الحُبِّ الطارئ في هواء البلّور السائل، في أغسطس الثالثة مساءً الذي لا ربّ له، مسكين هو ابني. واستمرّ ذلك الشُحّ إلى أن لاذت قوّات الاحتلال بالهرب

من البلد مفزوعة تحت وطأة الطاعون الذي ضربها، برغم الأعوام الطوال التي ما زالت تفصلهم عن انقضاء المُدَّة المُقرَّرة لاستمرار الاحتلال، فعمدوا إلى تفكيك مساكن الضباط إلى قطع مُرقَّمة ورصِّها في صناديق من الألواح الخشب، وأما المروج الزرق فقد انتزعوها عن آخرها وحملوها مطويَّة كالأبسطة، وأما الصهاريج المطاطية بما فيها من مياه مُعقَّمة مستجلبة من أراضيهم فقد أحاطوها بغلاف لئلَّا تأكلها ديدان روافدنا من الداخل، وأما المستشفيات البيض فقد فكَّكوا أجزاءها، وأما الثكنات فقد نسفوها بالديناميت لئلَّا يكشف أحدٌ كيفية بنائها، وأما بارجة الإنزال العتيقة فقد هجروها عند المرسى، تلك البارجة التي كان يتمشَّى على متنها شبح أميرال تائه في مهب العاصفة في ليالي يونيو، ولكنهم قبل أن يحملوا جنةَ الحروب المُتنقِّلة على متن قطاراتهم الطائرة قلَّدوه نيشان حُسْن الجوار، وكرَّموه بصفته رئيس الدولة صائحين بأعلى صوت حتى يسمع الجميع، هنا نتركك لماخور الزنوج الذي ترأسه ولنرَ كيف تتدبَّر أمورك من دوننا، بَيْد أنهم رحلوا يا أمي، سحقًا، لقد رحلوا، ولأول مرة منذ العهد الذي عاشه عِجْلًا مطأطأ الرأس وتابعًا للاحتلال ارتقى الدَّرَج وهو يحكم بالصوت الحي والجسم الحاضر وسط جلبة المطالبين باستئناف مصارعة الديكة، فكان يصدر أمره، مُوافَقة، والسماح بتحليق الطائرات الورقية مرة أخرى، وغيرها الكثير والكثير من وسائل ترفيه الفقراء المحظورة بأمر من مُشاة المارينز، فكان يصدر أمره، مُوافَقة، وقد اقتنع تمام الاقتناع بسيادته المطلقة على السلطة حتى إنه عَكَس ترتيب ألوان العَلَم واتَّخذ من تنِّين الغازي المُندحِر شعارًا بدلًا من القلنسوة الفَريجِيَّة[1]، فما نحن

(1) القلنسوة الفَريجِيَّة: شعار جمهوري فرنسي الأصل.

إلَّا كلاب أنفسنا يا أمي في خاتمة المطاف، عاش الطاعون. أما بينديسيون ألبارادو فلسوف تذكر طوال حياتها مخاوف السلطة، ودونها من مخاوف البؤس الأشد مرارةً وإيغالًا في القدم، وإن لم يحدث أن استحضرتها إلى الذاكرة قط بهذا القدر من الغمِّ كما فعلت عقب تمثيلية موته حين مضى هو يتمرَّغ في مستنقع الرخاء بينما ظلَّت هي تتحسَّر على مسمع كل من يودُّ الإنصات إليها وتقول إنه لا طائل يُرجَى من كونها أم الرئيس ما دامت لا تملك من حطام الدنيا سوى آلة الحياكة التعِسة تلك، وتتحسَّر قائلةً إن ذلك الذي ترونه هناك في مركبته ذات الزخارف المُذهَّبة هو ابني المسكين الذي لا يمتلك ولا حتى حفرة في الأرض يخرّ فيها ميِّتًا بعد كل هذه الأعوام التي أمضاها في خدمة الوطن يا سيدي، ما ذاك من العدل في شيء، وما كانت تسترسل في التحسُّر من باب العادة ولا على سبيل الخطأ بل لأنه ما عاد يشاركها في خيباته ولا يعجِّل بمشاطرتها خيرة أسرار السلطة كما في سابق عهده، ثم إنه قد تغيَّر كثيرًا منذ عهد مُشاة المارينز حتى بدا لبينديسيون ألبارادو أنه بات يكبرها عمرًا، وأنه قد تركها وراءه في الزمن، فغدت تحسُّ بأنه يتعثَّر في كلماته، ويختلط عليه الواقع، ويسيل لعابه في بعض الأحيان، فداهمها شعور بالشفقة خليق بابنة وليس بأم حين رأته يصل إلى قصر الضواحي مُحمَّلًا بلفائف أخذ يفضُّها باستماتة، كلها في آنٍ واحد، فطفق يمزِّق الأشرطة بأسنانه، وتكسَّرت أظفاره وهو يحلُّ الأربطة قبل أن تعثر هي على المقص في سلَّة أدوات الحياكة، ثم إنه شرع يستخرج كلَّ شيء بملء يديْه من أجمة الحطام تلك وهو غارق في لهفة طيرانه، انظري أي أشياء رائعة أحضرتُ يا أمي، مضى يقول، عروس بحر حيّة في حوض مائي، ملاك بالحجم الطبيعي يعمل بالزنبرك ويحلِّق

في أرجاء الحجرات ويدقُّ جرسه مُعلنًا عن الوقت، فوقعة عملاقة لا يُسمع في جوفها صوت الأمواج ولا رياح البحار بل أنغام النشيد الوطني، أي أشياء مدهشة يا أمي، أرأيتِ كم هو رائع ألَّا يكون المرء فقيرًا، مضى يقول، أما هي فلم تشجِّعه على حماسته بل جعلت تقرضِ فُرَش تلوين طيور الأوروپيندولا لئلَّا يلحظ الابن أن قلبها يتمزَّق أسًى وأنها تستحضر ماضيًا لم يعرفه أحدٌ كما عرفته هي، وتتذكَّر كم شقَّ عليه التشبُّث بالكرسي الذي تربَّع عليه، ليس في الزمن الراهن يا سيدي، ليس في هذا الزمن اليسير حيث غدت السلطة مادة ملموسة واحدة، كُرَيَّة من الزجاج في راحة اليد، على حد قوله، بل في زمن كانت السلطة خلاله سمكة شابل مُتملِّصة تسبح بلا ربّ ولا قانون في قصر بالجوار، ويطاردها قطيعٌ شره مُؤلَّف من آخر زعماء الحرب الفيديرالية الذين تعاونوا معي على الإطاحة بالجنرال الشاعر لاوتارو مونيوس، ذلك المُستبد المستنير الذي أدعو الرَّب أن يتغمَّده برحمته في ملكوته، هو وأسفاره المُقدَّسة اللاتينية التي كتبها سويتونيوس[1] وخيوله ذات الدم الأزرق الاثنين والأربعين، ولكنهم في مقابل خدماتهم المُسلَّحة استولوا على مزارع السادة القدامى المُبعدين بما فيها من ماشية، وقسَّموا البلد إلى مقاطعات مُستقلَّة مُتذرِّعين بحجة لا ردّ لها تقول إن تلك هي الفيدرالية سيدي الجنرال، ومن أجل ذلك أرَقْنَا الدماء من شراييننا، فنُصِّبوا ملوكًا مطلقين على أراضيهم، بما لهم من قوانين خاصة، وأعياد وطنية شخصية، وعملات ورقية وقَّعوها بأنفسهم، وأزياء رسمية وسيوف مُرصَّعة بأحجار كريمة وسترات مُوشَّاة بزخارف من

(1) سويتونيوس: مُؤرِّخ روماني يُرجَّح أنه وُلِد عام 69 وتُوفِّي في وقت لاحق على عام 125 بعد الميلاد. من مُؤلَّفاته «مشاهير الرجال» و«حيوات القياصرة».

ذهب وقُبَّعات مُثلَّثة الأركان مُزيَّنة بريشات الطواويس استُنسخت من لوحات مُلوَّنة عتيقة تصوِّر نوَّاب ملوك الوطن الذين جاؤوا من قبله، ولقد كانوا أجلافًا عاطفيين يا سيدي، فتراهم يدلفون إلى البيت الرئاسي عَبْر البوابة الكبرى من دون أن يأذن لهم أحد بذلك، فالوطن ملك الجميع سيدي الجنرال، ولذا ضحَّينا بحياتنا من أجله، وكانوا يخيِّمون في قاعة الحفلات مع نساء حريمهم النفساوات وحيوانات المزارع التي ينتزعونها على سبيل الإتاوة مقابل السلام أينما حلّوا، حتى لا يعوزهم الطعام قط، ويتَّخذون لأنفسهم مرافقين من المرتزقة الهمج، أولئك الذين يعصبون أقدامهم بالأسمال بدلًا من الأبواط، وبالكاد يفصحون عن أنفسهم باللسان المسيحي على ما لهم من معرفة واسعة بحيل النرد وضراوة ومهارة في استخدام أسلحة الحرب، وهكذا فقد تراءى بيت السلطة وكأنه مُخيَّم للغجر يا سيدي، وعبق برائحة فيضان النهر الكثيفة، وأما ضباط أركان الحرب فقد حملوا قطع أثاث الجمهورية إلى مزارعهم، وتراهنوا على امتيازات الحكومة في مباريات الدومينو غير آبهين بتوسلات أمه بينديسيون ألبارادو التي لم تنعم بلحظة واحدة من الراحة وهي تحاول أن تكنس كل ما خلَّفوا وراءهم من قمامة الكرنفالات، وتسعى لإرساء ولو قليل من النظام في حطام تلك السفينة الغارقة، ذلك أنها الوحيدة التي سعت للتصدِّي إلى ذلك الانحطاط العصيِّ على الإصلاح الذي طرأ على المأثرة الليبرالية، فوحدها سعت لطردهم ضربًا بعصا المكنسة حين وقعت عيناها على البيت وقد شاع فيه الانحلال بسبب أولئك الفَسَقة المنغمسين في حياة الرذيلة الذين يختصمون على كراسي القيادة العليا في مشاحنات ورق اللعب، ورأتهم ينغمسون في أفعال اللواط خلف البيانو، ورأتهم يقضون حاجتهم في

أمفورات[1] من المرمر رغم أنها قد نهتهم عن ذلك يا سيدي، فما تلك بمراحيض مُتنقِّلة بل أمفورات انتُشِلَت من بحار پانتيليريا[2]، فأصرّوا أن تلك مباول الأثرياء يا سيدي، وما كان لقدرة بشرية أن تثنيهم عن ذلك، ولا كان لقدرة إلهية أن تحول دون حضور الجنرال أدريانو غوسمان إلى الحفل الدبلوماسي الذي أُقيم احتفالًا بالذكرى العاشرة لصعودي إلى سدة الحكم، وإن لم يكُن أحدٌ يتخيَّل ما ينتظرنا حين ظهر في قاعة الرقص بزيٍّ مُتقشِّفٍ من الكتان الأبيض انتقاه خصيصًا من أجل تلك المناسبة، فأتى مُجرَّدًا من السلاح، وفاءً للعهد الذي قطعه لي قسمًا بشرفه العسكري، بصحبة مرافقيه من الهاربين الفرنسيين الذين حضروا في ثياب مدنية مُحمَّلين بأزهار فلامنغو من كايين[3] طفق الجنرال أدريانو غوسمان يوزِّعها على زوجات السفراء والوزراء واحدة تلو الأخرى بعد استئذان أزواجهن بانحناءة من رأسه، فقد أخبره مرتزقته بأنها لفتة يُنظَر إليها بعين الاستحسان في قصر ڤرساي[4]، فامتثل لقولهم بفطنة نبلاء نادرة، ثم لبث جالسًا في ركن من أركان الحفل وقد انصبّ انتباهه على الرقص فيما راح يومئ برأسه استحسانًا، حسنًا جدًّا، مضى يقول، إن أولئك المختالين من البلدان الأوروبية يتقنون الرقص، فكل امرئ وما أتقن، مضى يقول، وقد غشيه النسيان على أريكته حتى لم ينتبه أحدٌ سواي إلى مرافقه الذي يعاود ملء كأسه بالشامبانيا بعد كل رشفة،

(1) أمفورة (ج.) أمفورات: جرَّة من الخزف طويلة العنق، شاع استخدامها قديمًا في بلاد الإغريق وغيرها لتخزين الزيوت والنبيذ وكذلك لأغراض الزينة.
(2) پانتيليريا: جزيرة إيطالية في البحر المتوسط، تقع بين جزيرة صقلية وتونس.
(3) كايين: عاصمة غويانا الخاضعة للحكم الفرنسي، وتقع في أمريكا الجنوبية.
(4) قصر ڤرساي: من أهم القصور الملكية في فرنسا.

وإذا هو مع مضي الساعات يغدو أشد توتُّرًا ودمويَّة من المعتاد، وإذا هو كلما صعد إلى عينيْه الضغطُ الناجم عن جشأة مكتومة يحلُّ واحدًا من أزرار سترته العسكرية المُخضَّبة بالعرق، وينشج من فرط النعاس يا أمي، وإذا هو يقف بغتةً بمشقَّة بالغة خلال استراحة ما بين رقصة وأخرى ثم حلَّ آخر أزرار السترة العسكرية وفتح سحَّاب البنطال على مصراعيْه وبخرطوم النسر الذابل أخذ يرشُّ الصدور المُعطَّرة التي انحسرت عنها ثياب زوجات السفراء والوزراء، وببَوْله الحامض الخليق بسكِّير حرب أخذ يغرق الأفخاذ البضَّة التي اكتست بنسيج الموسلين، والصديريات المُقصَّبة بالذهب، ومراوح ريش النعام، وفي غمرة الذعر طفق يتغنَّى بلا اكتراث ويقول أنا العاشق المهجور أسقي ورود بستانك، آه من ورودك الخلَّابة، مضى يتغنَّى، ولكن أحدًا لم يجرؤ على محاولة السيطرة عليه، ولا حتى هو، علمًا مني أن لي من السلطة أعظم مما لكل واحد منهم على حدة ولكن أقل كثيرًا مما لاثنيْن منهم متواطئَيْن في ما بينهما، كان لا يزال غافلًا عن قدرته على رؤية الآخرين كما هم في حين لم يتمكَّن الآخرون من سبر خواطره المحجوبة قط، خواطر الشيخ الغرانيتي بما له من رصانة لا يدانيها إلَّا حصافته التي لا يعترض سبيلها شيء وقدرته غير المحدودة على الترقُّب، لم نرَ سوى العينيْن اللتيْن غشيتهما الكآبة، والشفتيْن المُتيبِّستيْن، ويد العذراء الخجلَى، تلك اليد التي لم ترتجف ولا حتى على مقبض السيف عند منتصف النهار المُروِّع حين أقبلوا عليه بالخبر القائل بأن العرق والعشب الأخضر قد لعبا برأس القائد نارسيسو لوپيس سيدي الجنرال، فاقتحم دورة المياه على عريف من الحرس الرئاسي حيث أخذ يثيره وفق هواه على طريقة النساء الجامحات ثم أمره قائلًا أدخلْه كلَّه، سحقًا، هذا أمر،

كلَّه يا حبيبي، حتى كُرَيَّتيْك الذهبيتيْن، فيما جعل ينتحب ألمًا وحنقًا، إلى أن وجد نفسه يتقيَّأ خزيًا وقد ارتمى على أربع وزجَّ برأسه في أبخرة المرحاض النتنة، ثم إنه رفع العريفَ الأدونيسي[1] في الهواء وعلَّقه كالفراشة على رمح من رماح ساكني السهول فوق البساط الربيعي المُوشَّى في قاعة الاجتماعات فلم يجرؤ على إنزاله أحدٌ طوال ثلاثة أيام، مسكين ذاك الرجل، أما هو فما كان منه إلا أن ظلَّ يراقب رفاق السلاح القدامى خشية أن يتواطأوا في ما بينهم وإن لم يجرؤ على التعرُّض لحياتهم، اقتناعًا منه بأنهم سيفتكون ببعضهم بعضًا قبل أن يُقبلوا عليه بالخبر القائل بأن مرافقي الجنرال خيسوكريستو سانتشيس قد اضُطرّوا إلى قتله ضربًا بالكراسي إذ انتابته نوبة سعار من جراء عضة قط سيدي الجنرال، مسكين ذاك الرجل، وما كاد يسهو عن مباراة الدومينو حتى همسوا في مسمعيْه بالخبر القائل بأن الجنرال لوتاريو سيرينو قد غرق إثر نفوق جواده بغتةً وهو يخوض النهر سيدي الجنرال، مسكين ذاك الرجل، وما كادت عيناه تطرفان حتى أقبلوا عليه بالخبر القائل بأن الجنرال نارسيسو لوپيس قد دسَّ إصبع ديناميت في مُؤخِّرته ونسف أحشاءه خزيًا من داء اللواط بالغلمان الذي لازمه سيدي الجنرال، فكان هو يقول مسكين ذاك الرجل وكأن لم تكُن له يدٌ في تلك الميتات الشائنة ثم يأمر بتكريم الموتى جميعًا بموجب مرسوم رئاسي، وينادي بهم شهداء سقطوا في أثناء تأدية الخدمة، ويدفنهم في جنائز رائعة على ارتفاع واحد بالضريح الوطني لأن وطنًا بلا أبطال بيتٌ بلا أبواب، كان يقول، وحين لم يتبقَّ في أنحاء البلد كافة ما يربو على ستة

(1) أدونيسي: نسبة إلى أدونيس، الذي كان من الوسامة حتى شُغِفَتْ به أفروديت ربة الحب والمتعة والجمال في الميثولوجيا الإغريقية.

جنرالات حرب دعاهم إلى حفل صاخب يجمع شمل الرفاق في البيت الرئاسي بمناسبة عيد ميلاده، كلهم معًا يا سيدي، بمن فيهم الجنرال خاسينتو ألغارابيا، أشدهم قتامةً ودهاءً، ذلك الذي يتباهى بإنجابه ابنًا من أمه، ولا يحتسي إلَّا كحول الخشب ممزوجًا بالبارود، فلن يكون في قاعة الحفلات سوانا كما في الأيام الخوالي سيدي الجنرال، كلنا مُجرَّدٌ من السلاح كما الإخوة في الرضاعة وإن يكُن في حضور المرافقين المحتشدين في القاعة الملحقة، وكلنا مُحمَّلٌ بروائع الهدايا من أجل الوحيد وسطنا الذي عرف كيف يفهمنا جميعًا، قالوا، وهم يعنون بذلك أنه الوحيد الذي عرف كيف يسوسهم، الوحيد الذي أفلح في انتزاع الجنرال الأسطوري ساتورنو سانتوس من جوف عرينه النائي في الپارامو، وساتورنو سانتوس هندي قُحّ، غامض، يمشي كما ولدته أمه العاهرة على الدوام ويخطو بقائمتيْه فوق الأرض سيدي الجنرال، ذلك أننا نحن البواسل من الرجال نعجز عن التنفُّس إلَّا أن نحسَّ الأرضَ تحت أقدامنا، وقد وصل مُتلفِّعًا بغطاء مطبوع بنقوش حيوانات نادرة ألوانها زاهية، جاء وحيدًا، كعهده أبدًا، بلا مرافقين، تسبقه هالة قاتمة، وهو ليس يحمل معه من السلاح إلا ساطور الحصاد الذي أبى أن ينزعه من غمده لأنه ليس سلاح حرب وإنما سلاح عمل، وأهداني نسرًا مُدرَّبًا على القتال في حروب الرجال، كما حمل إليَّ قيثارة يا أمي، تلك الآلة الموسيقية المُقدَّسة التي تبدِّد أنغامها العواصف وتسرِّع دورات الحصاد، والتي ينقر الجنرال ساتورنو سانتوس أوتارها ببراعة نابعة من القلب أيقظت فينا جميعًا الحنين إلى ليالي الحرب المُروِّعة يا أمي، وأزكمت أنوفنا برائحة جرَب الكلاب التي تفوح من الحرب، وذوَّبت في نفوسنا

نشيد الحرب، نشيد القارب الذهب الذي ينبغي أن يحملنا[1]، فاشتركوا في الغناء من كل قلوبهم يا أمي، من الجسر عدتُ غارقًا في أدمعي[2]، مضوا يتغنّون، وهم يأكلون ديكًا بالبرقوق ونصف خِنَّوْص، وراح كلٌّ يحتسي من زجاجته الخاصّة، ومن شرابه الخاصّ، كلٌّ سواه هو والجنرال ساتورنو سانتوس، ذلك أنهما لم يتذوَّقا قطرة واحدة من العرق مدى الحياة، ولا نفسًا واحدًا من الدخان، ولا أصابا من الطعام إلَّا ما يسدّ الرمق، ثم إنهم وبصوت واحد طفقوا ينشدون على شرفي أغنية مزامير باكر التي أنشدها الملك داوُد[3]، وبأعين مغرورقة بالدموع مضوا ينشدون كل أغنيات عيد الميلاد التي كان يتغنَّى بها الناس قبل أن يأتينا القنصل هانمان بتقليعة الفونوغراف ذي البوق مرفقًا بأسطوانة happy birthday سيدي الجنرال، مضوا يتغنّون أشباه نيام، أشباه موتى، تحت وطأة السُّكر، فما عادوا مشغولين بالشيخ الصموت الذي ما إن دقَّت الساعة معلنةً تمام الثانية عشرة حتى أنزل المصباح وراح يتفقَّد البيت قبل أن يخلد إلى النوم كعادته التي اكتسبها في الثكنة العسكرية، وفي طريق العودة

---

(1) مقطع من أغنية للشاعر المكسيكي أركاديو سونبيغا إي تيخيدا (1858 – 1892) بعنوان القارب الذهب. وقد اقترنت الأغنية بالثورة المكسيكية، علمًا بأنها تروي رحيل رجل خلال الثورة. وكلماتها كما يلي: «ها أنا ذاهب إلى المرفأ، هناك حيث يرسو القارب الذهب الذي ينبغي أن يحملنا. ها أنا ذاهب. ما جئتُ إلا كي أقول وداعًا، وداعًا يا امرأة، وداعًا إلى الأبد، وداعًا».

(2) مقطع من أغنية للشاعر والمُؤلِّف المكسيكي مانويل ماريا پونسيه كوييَّار (1882 – 1948) بعنوان مع بزوغ الشمس. ومطلعها كما يلي: «مع بزوغ الشمس، قلتُ وداعًا في مهبِّ النسيم، وهناك ذكرتُكِ في سبيلي إلى الجسر، ومن الجسر عدتُ غارقًا في أدمعي، تلك التي ذرفتُها من أجلك».

(3) أغنية تقليدية تُنشَد احتفالاً بأعياد الميلاد، ومطلعها كما يلي: «تلك مزامير باكر التي أنشدها الملك داوُد، اليوم أنشدها لك بمناسبة عيد ميلادك».

عرَّج على قاعة الحفلات حيث رأى الجنرالات الستة مرةً أخيرة وقد تكوَّموا أرضًا، رآهم متعانقين، عُزَّلًا، آمنين، في كنف مرافقيهم الخمسة الذين جعلوا يراقبون أحدهم الآخر، ذلك أنهم حتى وهم نيام متعانقون كانوا يخشون بعضهم البعض تقريبًا بقدر ما يخشاه كلُّ واحد منهم وبقدر ما يخشى هو اثنيْن منهم متواطئَيْن في ما بينهما، ثم إنه علَّق المصباح على عارضة الباب المُؤدِّي إلى مخدعه مرة أخرى وأوصد المغاليق الثلاثة، والأقفال الثلاثة، والمزاليج الثلاثة، ثم ارتمى على وجهه أرضًا، وثنى ساعده الأيمن ليتَّخذ منه وسادة، في اللحظة نفسها حين ارتجَّت أساسات البيت تحت وطأة الانفجار الشديد الذي أسفر عنه انطلاقُ أسلحة المرافقين كافة في آن واحد، انطلقت مرةً، سحقًا، من دون أن يتخلَّل دويَّها صوتٌ ولا أنين، فتلتها مرَّة ثانية، سحقًا، ثم قُضِي الأمر، وانفضَّ الحفل، فلم يبقَ سوى الندى المُشبَّع بالبارود في صمت العالَم، لم يبقَ سواه هو وقد أَمِنَ همومَ السلطة إلى الأبد حين رأى أفراد الخدمة العسكرية يتمرَّغون في مستنقع من الدماء في قاعة الحفلات على أولى خيوط الفجر الأرجوانية، ورأى أمه بينديسيون ألبارادو ترتجف من دوَّار الذعر الذي انتابها، إذ تأكَّد لها أن الجدران ما برحت تنضح دمًا مهما جفَّفوها بالكلس والرماد يا سيدي، والأبسطة ما برحت تقطر دمًا مهما عصروها، وسيول الدماء تشتدُّ هطولًا عَبْر الأروقة والمكاتب كلَّما استماتوا في تنظيفها لمداراة حجم المذبحة التي أودت بحياة ورثة حربنا الأواخر حيث اغتالهم مرافقوهم الذين أصابهم مسٌّ من الجنون طبقًا لما ورد في البلاغ الرسمي، وأما جثامينهم الملفوفة بالعلم الوطني فقد غصَّ بها ضريح الأبطال في الجنائز الأسقفية التي أُقيمَت لهم، ذلك أن فردًا واحدًا من المرافقين لم ينجُ بحياته من ذلك

الشرك الدامي، لا أحد سيدي الجنرال، فيما عدا الجنرال ساتورنو سانتوس الذي يتدرَّع بمسابح من التمائم ويعرف أسرار الهنود التي بها يتمكَّن من تبديل طبيعته وفق هواه، اللعنة، كان في وسعه أن يتحوَّل إلى حيوان مُدرَّع أو بِرْكة أو هزيم رعد سيدي الجنرال، أو يتحوَّل إلى رعد، فأدرك هو أنها حقيقة لأن أدهى رجاله من مُقتصِّي الأثر فقدوا أثره منذ أعياد الميلاد الأخيرة، وحتى كلاب صيد النمور الأفضل تدريبًا راحت تبحث عنه في الاتجاه المعاكس، أما هو فرآه مُتجسِّدًا على ورق عرَّافاته في هيئة ملك البستوني، كان على قيد الحياة، ينام نهارًا ويسافر ليلًا عَبْر مضائق على اليابسة وفي الماء، ولكنه مضى تاركًا خلفه أثرًا من الابتهالات التي شوَّشت مدارك مطارديه وثبَّطت عزيمة أعدائه، أما هو فلم يتخلَّ عن البحث لحظة واحدة ليلًا أو نهارًا، طوال أعوام وأعوام، حتى كان يومٌ بعد مضي أعوام طوال رأى فيه من نافذة القطار الرئاسي جمعًا من الرجال والنساء مع أطفالهم وحيواناتهم وآنيتهم كغيره من الجموع الكثيرة التي كان يراها في ما وراء قوَّات الحرب، رآهم سائرين في موكب تحت الأمطار وهم يحملون مرضاهم على أسِرَّة مُعلَّقة من قوائم الخشب ويتبعون رجلًا بالغ الشحوب مُتلفِّعًا برداء من الخيش ويزعم أنه مبعوث سيدي الجنرال، فصفع جبينه براحة يده قائلًا ها هو، سحقًا، وقد كان هو الجنرال ساتورنو سانتوس يستجدي الصدقة من الحجيج بسحر قيثارته منزوعة الأوتار، كان تعِسًا مُتجهِّمًا، يعتمر قبعة صوفية بالية ويرتدي عباءة مهترئة بلا أكمام، ولكن على الرغم من حاله التي يُرثَى لها فلم يكُن قتله يسيرًا بقدر ما ظنَّ هو، بل إن الجنرال ساتورنو سانتوس بتر رؤوس ثلاثة من خيرة رجاله بالساطور، كما واجه أشرس رجاله بكل شجاعة ومهارة حتى إنه

أصدر أمره بإيقاف القطار أمام مقابر الپارامو الحزينة حيث يبشِّر المبعوث، فنأى الجميع بأنفسهم في موجة من التدافع حين وثب رجال الحرس الرئاسي من المقطورة المطليَّة بألوان العلم الوطني مُدجَّجين بأسلحتهم المُعدَّة للإطلاق، فلم يبقَ واحدٌ على مرمى البصر، فيما عدا الجنرال ساتورنو سانتوس الذي تشبَّثت يده بمقبض الساطور قرب قيثارته الأسطورية، فكأنه مفتون لمرأى العدو الفاني الذي شَخَص عند حافة المقطورة بثوب من الكتان مُجرَّدًا من الشارات العسكرية ومن السلاح، أشد هرمًا وبعدًا مما سيكون لو أننا لم نلتقِ منذ مائة عام سيدي الجنرال، بدا لي تعِبًا وحيدًا، وقد ضرب لونُ بشرته إلى الصفرة مُتأثِّرًا بعلة في الكبد ومالت عيناه إلى سكب الدموع، وإن أطلَّ منه بريقٌ شاحب، بريق رجل ليست له سيادة على سلطته وحسب، بل وعلى السلطة المُتنازَع عليها مع موتاه أيضًا، ولذا فقد هيَّأتُ نفسي للموت في غير مقاومة، إذ بدا له من غير المجدي مواجهة شيخ أتى من أقاصي المعمورة وليس له ما يدفعه أو يؤهِّله سوى نهمه الوحشي إلى الحكم، فأبدى له راحة يدٍ كسمكة شيطانِ البحر قائلًا فليحفظك الرَّب، أيها الفحل، إن الوطن يستحقُّك. إذ كان يعرف منذ الأزل أن الصداقة هي السلاح الوحيد في مواجهة رجل لا يُقهَر، ثم خرَّ الجنرال ساتورنو سانتوس على الأرض يقبِّل التراب الذي وطأه هو بقدميْه ويتوسَّل إليه أن يتكرَّم بالسماح لي بخدمتك والامتثال لأوامرك سيدي الجنرال ما دمتُ أمتلك المهارة اللازمة لجعل الساطور يغنِّي بهاتيْن اليديْن، فأبدى هو قبوله، مُوافَقة، ونصَّبه حارسًا شخصيًا له بشرط واحد فحسب، ألَّا تقف خلفي أبدًا، فاتَّخذ منه شريكًا في الدومينو، وبأيديهما الأربع تعاونا على نزع ريشات الكثير من المُستبدِّين المنكوبين، وسمح له

بأن يستقلَّ العربة الرئاسية معه حافي القدميْن واصطحبه إلى حفلات الاستقبال الدبلوماسية بما له من أنفاس نمر تثير الكلاب وتصيب رؤوس زوجات السفراء بالدوَّار، وأمره بالنوم قبالة باب مخدعه للحيلولة دون بلوغه حتى يهوِّن على نفسه ذلك الخوف من النوم الذي بات يعتريه حين بلغت قسوة الحياة مبلغًا جعله يرتعد أمام فكرة أن يجد نفسه وحيدًا وسط شخوص أحلامه، واستبقاه لأعوام طوال على مبعدة عشرة أشبار من ثقته حتى أصابه حمضُ البوليك بخَدَرٍ في مهارة جعل الساطور يغنِّي فتوسَّل إليه قائلًا أسدِ إليَّ معروفًا واقتلني بنفسك سيدي الجنرال لئلَّا ينال آخرٌ لذَّةَ قتلي بغير وجه حق، أما هو فقد أرسله ليموت بدرب لصوصِ المواشي في الپارامو الذي وُلِد فيه، وعيَّن له معاش تقاعد ملائم وقلَّده نيشان الامتنان، بَيْد أنه لم يقوَ على كبح دموعه عندما نحَّى الجنرال ساتورنو سانتوس خفره جانبًا ليقول وقد غصَّ بالدموع كما ترى سيدي الجنرال فحتى نحن الفحول الأكثر بسالة يدركنا يومٌ نصبح فيه مُخنَّثين، يا للهول. ما كان أحدٌ يتفهَّم فرحَه الصبياني خيرًا من بينديسيون ألبارادو، ذلك الفرح الصبياني الذي به يعوِّض نفسه عن الزمن العصيب الذي عاشه وتلك الرعونة التي يبذِّر بها مكاسب السلطة ليحظى في شيخوخته بما حُرِم منه طفلًا، وإن كان يثير حنقها أن يستغلّوا براءته السابقة على أوانها ليبيعوه توافه الغرينغو التي لم تكُن زهيدة الثمن إلى تلك الدرجة، ولا كانت تستلزم القدر نفسه من النبوغ الذي تتطلَّبه الطيور الزائفة، تلك التي لم تفلح يومًا في بيعها لأكثر من أربعة زبائن، فكانت تقول لا بأس أن تستمتع بها، ولكن فكِّرْ في المستقبل، فأنا لا أودُّ رؤيتك تستجدي الصدقة بقُبَّعة على بوابة إحدى الكنائس لو حدث وخلعوك عن كرسيك غدًا أو في وقت لاحق لا قدَّر الرَّب،

فلو كنتَ على الأقل تتقن الغناء، أو كنتَ رئيس أساقفة، أو بحّارًا، ولكنك لا تعدو أن تكون جنرالًا، ولذا فأنت لا تصلح سوى للحكم، كانت تسدي إليه النصح بقولها ادفنْ ما يفيض عن حاجة الحكومة من المال في مكان آمن، حيث لا يتمكّن أحدٌ سواك من العثور عليه، تحسُّبًا للاضطرار إلى الهرولة إلى الخارج كرؤساء اللامكان المساكين الذين يجترّون النسيان ويستجدون الوداعات من السفن العابرة وهم في بيت الشعاب، انظرْ إلى نفسك في تلك المرآة، كانت تقول، فلا يعيرها انتباهًا، بل يطمئنها بالوصفة السحرية قائلًا هدِّئي من روعكِ يا أمي، فهذا الشعب يحبُّني. أما بينديسيون ألبارادو فلسوف تعيش أعوامًا طوالًا وهي تشكو الفقر، وتتشاجر مع الخادمات بسبب حسابات السوق بل وتمسك عن تناول بعض وجبات الغذاء بقصد التوفير، من دون أن يجرؤ شخص على البوح إليها بأنها من أثرى النساء على وجه الأرض، وبأنه يودع باسمها كل ما يكدِّسه من صفقات الحكومة، وبأنها ليست صاحبة أراضٍ أوسع من أن تُقاس ومواشٍ أكثر من أن تُعَدّ وحسب، بل إنها تمتلك عربات الترام المحلِّية أيضًا، وكذلك البريد والتلغراف ومياه الأمَّة، ولذا فكلما أبحرت سفينة عَبْر الروافد الأمازونية أو المياه الإقليمية تعيَّن عليها أن تؤدِّي رسم عبور ظلَّت غافلةً عنه حتى الممات، كما ظلَّت لأعوام طوال تجهل أن ابنها ليس معوزًا كما تخاله حين يصل إلى قصر الضواحي حيث ينغمس في دهشة ألعاب الشيخوخة، ذلك أنه بخلاف الضرائب الشخصية التي يجبيها عن كل رأس ماشية يُذبَح في البلد، وعلاوة على الثمن الذي يتقاضاه عن خدماته والهدايا التي يُرسلها إليه أنصاره مراعاةً لمصالحهم، فقد تفتَّق ذهنه عن منظومة لا تخيب ليربح جائزة اليانصيب بنفسه، ودأب على استغلالها منذ وقت

طويل. كان ذلك الزمن الآتي بعد ميتته الزائفة، زمن الصخب يا سيدي، وعلى عكس ما ظنَّ الكثيرون وسطنا فإن زمن الصخب لم يُدعَ بهذا الاسم نسبةً إلى الدويّ الآتي من تحت الأرض، ذلك الذي أحسَّ به الناس في أرجاء الوطن كافةً عشية عيد الشهيد سان إراكليو من دون أن يُعرَف له تفسير أكيد قط، وإنما بسبب الضجيج المستمر الناجم عن المشاريع الجارية التي أُعلِن عنها منذ البدء بوصفها الأضخم في العالَم بأسره رغم أنها لم تُنجَز قط، وتلك حقبة هادئة كان يدعو خلالها إلى عقد اجتماعات مجلس الوزراء بينما هو يأخذ القيلولة بقصر الضواحي، فيستلقي في سريره المُعلَّق ويروِّح عن نفسه بالقبعة تحت الأغصان العذبة لشجر التمر الهندي، وينصت مغمض العينيْن إلى الأساتذة من أصحاب الكلمات المسترسلة والشوارب المُضمَّخة بالدهان الذين يجلسون مُتحلِّقين حول السرير المُعلَّق للنقاش، شاحبين من فرط القيظ بستراتهم الرسمية وياقاتهم المصنوعة من السيلولويد، فضلًا عن الوزراء المدنيين الذين يمقتهم كل المقت وإن عاود تنصيبهم مراعاةً للمنفعة، الوزراء الذين ينصت إلى نقاشهم حول شؤون الدولة في خضم الجلبة العارمة التي تحدثها الديكة وهي تطارد الدجاجات في الباحة، وطنين الزيزان المتواصل والغرامافون الأرِق الذي يتغنَّى في الجوار بأغنية سوسانا تعالي يا سوسانا[1]، ثم يلزمون الصمت فجأة، صمتًا، فالجنرال قد استغرق في النوم، أما هو فيهدر من دون أن يفتح عينيْه، ومن دون أن يكفَّ عن الغطيط، لستُ نائمًا أيها الحمقى، استمرّوا، فيستمرّون، إلى أن

---

(1) أغنية للفنانة الأرجنتينية ليبيرتاد لاماركيه (1908 – 2008). ومطلع الأغنية كما يلي: «سوسانا تعالي، معكِ أتعلَّم الحب. سوسانا تعالي، سوسانا تعالي، أودُّ أن أدرك حبك».

يُقبِل مُترنِّحًا من بين خيوط العنكبوت التي خيَّمت على القيلولة، ثم يصدر حكمه بأن وحده رفيقي وزير الصحة نطق بالصواب وسط كل هذه الحماقات، سحقًا، قُضِي الأمر، فيُقضَى الأمر، كان يتجاذب أطراف الحديث مع مساعديه الشخصيين ويمضي بهم رائحًا غاديًا بينما هو يأكل سائرًا والصحن في إحدى يديْه والملعقة في الأخرى، ثم يصرفهم على الدَّرَج في غير اكتراث بقوله افعلوا ما شئتم، فأنا الآمر الناهي في خاتمة المطاف، سحقًا، ولقد برِئ من هوس السؤال عن حبهم له من عدمه، سحقًا، ومضى يقصُّ أشرطة افتتاح، ويظهر على الملأ وهو بكامل هيئته مُتحمِّلًا أخطار السلطة كما لم يفعل في أزمنة أخرى كانت أكثر هدوءًا، سحقًا، ويلعب مباريات دومينو لا تنتهي مع رفيقي، رفيق العمر كله، الجنرال رودريغو دي أغيلار ورفيقي وزير الصحة، وهما الوحيدان اللذان نالا من ثقته ما يكفي لطلب إطلاق سراح سجين أو العفو عن محكوم بالإعدام، والوحيدان اللذان تجرَّآ وطلبا منه استقبال ملكة جمال الفقراء في جلسة استثنائية، وهي كائن مدهش آتٍ من مستنقع البؤس الذي كنا ندعوه حي مشاجرات الكلاب نسبةً إلى المشاجرات الدائرة بين سائر كلاب الحي في الشارع منذ أعوام طوال لم تتخلَّلها لحظة هدنة واحدة، كان معقلًا مميتًا حيث لا تدخل دوريات الحراسة الوطنية وإلا جُرِّد أفرادها من ثيابهم وتُرِكوا كما ولدتهم أمهاتهم ونُزِعت قطع السيارات الأصلية بحركة يد واحدة، هناك حيث تدخل الحمير الضالة المسكينة من أحد طرفي الحي سيرًا على القوائم لتخرج من الطرف الآخر في جوال من العظام، وحيث يُؤكَل أبناءُ الأثرياء بعد شيِّهم سيدي الجنرال، فيُباعون في السوق وقد تحوَّلوا إلى نقانق، تخيَّلْ، هناك وُلِدت وهناك عاشت مانويلا سانتشيس، يا حظي العاثر،

تلك الأعجوبة المطمورة في مكبِّ النفايات التي أدهشت الوطن بأسره بما لها من جمال عجيب سيدي الجنرال، أما هو فقد استأثر ذلك الكشف باهتمامه حتى إنني لو صحَّ ما تزعمون فلن أستقبلها في جلسة استثنائية فحسب بل وسأراقصها على أنغام الفالس الأول، سحقًا، فليُكتَب الخبر في الصحف، أصدر أمره، فالفقراء يعشقون تلك الأمور. وعلى الرغم من ذلك، ففي الليلة التالية على الاجتماع، بينما هما يلعبان الدومينو، أفضى إلى الجنرال رودريغو دي أغيلار قائلًا بشيء من المرارة إن ملكة الفقراء لا تستحقُّ عناء الرقص معها، وإنها عادية كغيرها الكثيرات من المانويلات في المناطق العشوائية، بثوب الحورية ذي الأهداب الموسلين والتاج المُذهَّب والحلي الزائفة والوردة التي استقرَّت في راحة يدها، ومراقبة الأم التي ترعاها وكأنها من ذهب، وهكذا فقد منحها كل ما ترغب وإن لم ترغب هي في أكثر من إضاءة كهربائية ومياه جارية من أجل حيّها، حي مشاجرات الكلاب، ومع ذلك فقد حذَّر بقوله إن تلك آخر مرة يتلقَّى فيها بعثة توسُّلات، سحقًا، فأنا لن أعاود الحديث إلى الفقراء، قال، ومن دون أن يختتم المباراة صفق الباب من خلفه، ورحل، سمع الدقات المعدنية تعلن تمام الثامنة، ثم وضع العليق للأبقار في الحظائر، وأمر بحمل أقراص الروث إلى الأعلى، وتفقَّد البيت بأسره وهو يأكل سائرًا والصحن في يده، كان يأكل يخنة اللحم مع الفاصوليا والأرز الأبيض وشرائح الموز الأخضر، ومضى يحصي عدد الخفراء من بوابة الدخول حتى المخادع، كانوا في مواقعهم جميعًا، أربعة عشر، ورأى باقي أفراد الحرس الشخصي وهم يلعبون الدومينو بمقرهم في الباحة الأولى، ورأى البُرْص وقد استلقوا تحت شجيرات الورود، والمفلوجين على الدَّرَج، كانت التاسعة، فوضع صحن

الطعام الذي لم يفرغ منه بعد على حافة إحدى النوافذ ثم وجد نفسه يتحسَّس طريقه عَبْر الأجواء الموحلة بمهاجع المحظيات اللائي يخلدن إلى النوم بأعداد تصل إلى ثلاث محظيات مع صغارهن المُسْبَعين في فراش واحد، وإذا هو يعتلي كومة علقت بها رائحة يخنة البارحة وينحِّي رأسيْن من هنا وست سيقان وثلاث أذرع من هناك، فلم يسائل نفسه عمّا إذا كان سيعرف يومًا مَنْ هي مَنْ، أو مَنْ تلك التي أرضعته في النهاية من دون أن تفيق من سباتها، ومن دون أن تحلم به، ولم يسائل نفسه عمّا إذا كان سيعرف يومًا صاحبة الصوت الذي همس نائمًا من على فراش آخر وقال دَعْ عنك هذه العجلة سيدي الجنرال وإلا فزع الأطفال، عاد إلى داخل البيت، وتفقَّد مزاليج النوافذ الثلاث وعشرين، ثم راح يضرم النار في قرص من أقراص الروث كل خمسة أمتار، من الردهة حتى المخادع الخاصة، تنشَّق رائحة الدخان، وتذكَّر طفولة بعيدة الاحتمال قد تكون هي طفولته التي لا يتذكَّرها سوى لحظة انطلاق الدخان ثم ينساها إلى الأبد، عاد أدراجه وهو يطفئ الأنوار في الاتجاه المعاكس من المخادع حتى الردهة، ويغطِّي أقفاص الطيور النائمة التي يحصي عددها قبل أن يغطِّيها بمزق الكتان، ثمانية وأربعون، ومرة أخرى اجتاز البيت من أوله إلى آخره وهو يحمل مصباحًا في يده، ورأى نفسه واحدًا واحدًا بإجمالي أربعة عشر جنرالا يسيرون حاملين مصابيح مُضاءة في المرايا، كانت العاشرة، وكل شيء تحت السيطرة، عاد إلى مخادع الحرس الرئاسي حيث أطفأ الأنوار قائلًا طابت ليلتكم أيها السادة، ثم فتَّش المكاتب العمومية بالطابق الأرضي، وقاعات الانتظار، والمراحيض، وخلف الأستار، وأسفل الطاولات، لم يكُن أحد هناك، أبرز حلقة المفاتيح التي يستطيع تمييزها واحدًا

واحدًا بمُجرَّد اللمس، ثم أوصد المكاتب، وصعد إلى الطابق الرئيسي وهو يفتِّش الحجرات واحدة تلو الأخرى ويوصد أبوابها بالمفتاح، ثم أخرج إناء عسل النحل من مخبئه خلف إحدى اللوحات وتناول ملعقتي ما قبل النوم، وجعل يفكِّر في أمه النائمة بقصر الضواحي. بينديسيون ألبارادو المستغرقة في نعاس الوداعات وسط أشجار التُرُنجان والمردقوش، صاحبة يد مُربِّية الطيور الخالية من الحياة ورسَّامة طيور الأوروپيندولا، وكأنها أم قضت مستلقيةً على جانبها، طابت ليلتكِ يا أمي، قال، طابت ليلتك يا بني، أجابته بينديسيون ألبارادو النائمة في قصر الضواحي، ثم إنه علَّق المصباح من خطَّاف على مدخل المخدع، ذلك المصباح الذي يتركه مُعلَّقًا على الباب في أثناء نومه مصدرًا أمره الصارم بألَّا تطفئوه أبدًا لأنه الضياء اللازم إن دعت الحاجة إلى الهرولة إلى الخارج، دقَّت الساعة معلنةً تمام الحادية عشرة، فراح يتفقَّد البيت مرةً أخيرة، تحت جنح الظلام، تحسُّبًا لأن يكون أحدهم قد تسلَّل إلى المكان ظنًّا بأنه مستغرق في النوم، كان يمضي تاركًا آثار نجوم مهماز الذهب على الغبار تحت خيوط الفجر الخاطفة التي تتخلَّلها دفقات خضر من الضياء الذي يبثُّه الفنار في دورانه، وبين بارقة وأخرى تراءى له أبرصٌ يسير نائمًا على غير هدى، فما كان منه إلَّا أن اعترض سبيله واقتاده عَبْر الظلال من دون أن يمسَّه، وهو ينير الطريق بأضواء يقظته، ثم أودعه تحت شجيرات الورود، ومرة أخرى أحصى عدد الخفراء في العتمة، ثم عاد أدراجه إلى المخدع، وكان كلما عرَّج على نافذة رأى البحر نفسه، الكاريبي في إبريل، تأمَّله ثلاثًا وعشرين مرة بلا انقطاع، ليجده كل مرة كعهده في إبريل دومًا، وكأنه بركة مُذهَّبة، سمع دقات الثانية عشرة، ومع آخر طرقات نواقيس الكاتدرائية أحسَّ

بالتواء صفير خافت آتٍ من الفتق الرهيب، فما عاد صوتٌ يُسمَع في العالَم سواه، أما هو فكان وحده الوطن، أوصد المغاليق الثلاثة، والأقفال الثلاثة، والمزاليج الثلاثة في مخدعه، وتبوَّل جالسًا على مرحاض مُتنقِّل، تبوَّل قطرتيْن، أربع قطرات، سبع قطرات مضنية، وارتمى على وجهه أرضًا، فخلد إلى النوم من فوره، بَيْد أنه لم يحلم، كانت الثالثة إلا ربع حين استيقظ يتفصَّد عرقًا، ويرتجف موقنًا بأن هنالك من أخذ يراقبه في أثناء نومه، هنالك من يمتلك القدرة على التسلُّل إلى الداخل بغير حاجة لإزاحة المزاليج الثلاثة، من هناك، سأل، فما كان أحدًا، أغمض عينيْه، ثم أحسَّ مرة أخرى بأن هنالك من يراقبه، فتح عينيْه مفزوعًا ليرى، فرأى، سحقًا، كانت هي مانويلا سانتشيس وقد راحت تجوب الحجرة بغير حاجة إلى إزاحة المغاليق الثلاثة لأنها تنفذ عَبْر الجدران دخولًا وخروجًا وفق هواها، مانويلا سانتشيس، يا ساعتي المشؤومة، وقد ارتدت ثوبًا من الموسلين وقبضت على جمرة الوردة في راحة يدها، وعطر نبتة السوس الطبيعية يتضوَّع من أنفاسها، قولي إن ذاك الهذيان ليس حقًّا، مضى يقول، قولي إنكِ لستِ أنتِ، قولي إن إغماءة الموت هذه ليست عطر نبتة السوس الجامد الذي يتضوَّع من أنفاسك، بَيْد أنها كانت هي، كانت وردتها، كانت أنفاسها الدافئة التي عطَّرت أجواء المخدع كنغمة باسُّو أوستيناتو[1] أكثر إيغالاً في القدم من لهاث البحر وأشد منه سطوةً، مانويلا سانتشيس، يا كارثتي أنا، وأنتِ التي لم تُكتَبي على راحة يدي، ولا في بقايا قهوتي، ولا حتى على صفحة مياه

(1) باسُّو أوستيناتو Basso Ostinato: خط لحني خفيض الطبقة يتكرَّر بإلحاح ويصحبه نسيج موسيقي مختلف. وتعني حرفيًّا لحن الباص العنيد أو المُلِحّ. كما تُترجَم أحيانًا بعبارة باص الأرضية.

الطاس، مياه موتي أنا، لا تستهلكي هواء أنفاسي، ولا نعاس سباتي، ولا أجواء العتمة في هذه الحجرة حيث لم ولن تدخل امرأةٌ يومًا، أخمدي تلك الوردة، مضى يئنّ، وفيما هو يزحف على أربع بحثًا عن مفتاح النور عثر بدلًا منه على مانويلا سانتشيس، يا جنوني أنا، سحقًا، ما عثوري عليكِ ما دمتُ لم أفقدكِ، إن شئتِ فخذي بيتي، خذي وطني بأسره وبتنّينه، ولكن دعيني أضيء النور، يا عقرب لياليَّ، يا مانويلا سانتشيس، يا فتقي أنا، يا ابنة القحبة، صاح، ظنًّا منه بأن النور سيبرّئه من سحرها، وجعل يصيح قائلًا أخرجوها من هنا، أبعدوها عني، ألقوا بها إلى سفح الجرف واربطوا في عنقها مرساة لئلّا يشقى أحدٌ بألق وردتها مرة أخرى، فمضى عَبْر الأروقة وقد بحَّ صوته رهبةً، وغاصت قدماه في لطخ الروث تحت جنح الظلام، وجعل يسائل نفسه ذاهلًا عمّا يجري في هذا العالَم، فالساعة تكاد تدقُّ الثامنة بينما الكل نيام في بيت الصعاليك هذا، أفيقوا أيها الأوغاد، جعل يصيح، فأُضيئَت الأنوار، وانطلق بوق الثالثة، ثم تكرَّر في حصن المرفأ، وحامية سان خيرونيمو، وباقي الثكنات العسكرية في أرجاء البلد، وسُمِع دوي أسلحة مذعورة، وتفتَّحت ورودٌ وما زالت تفصل بينها وبين تساقط ندى الليل ساعتان، وراحت المحظيات المُسرنَمات ينفضن الأبسطة تحت النجوم ويزحن الأغطية عن أقفاص الطيور النائمة ويضعن أزهار الليلة بدلًا من تلك الذاوية في المزاهر، وطفق حشدٌ من البنَّائين يشيِّدون جدرانًا للطوارئ ويبعثون الحيرة في أزهار عبَّاد الشمس إذ يلصقون على زجاج النوافذ شموسًا من الورق المُذهَّب لئلَّا يبدو أنه ما زال ليلًا في السماء، وما زال الأحد الخامس والعشرين في البيت، وما زال إبريل في البحر، وقد اندلعت فوضى عارمة تسبَّب فيها عُمَّال غسيل

صينيون إذ طفقوا يلقون بآخر النيام من فوق أسرَّتهم حتى يأخذوا الملاءات، وعميان مُتنبِّئون يبشِّرون بالحب حيث لم يكُن له وجود، ومُوظَّفون فاسدون يعثرون على دجاجات تضع بيضها يوم الإثنين في حين ما زال بيض البارحة داخل جوارير الملفّات، واندلعت جلبة مصدرها الحشود الذاهلة ومشاجرات الكلاب الدائرة في اجتماعات مجلس الوزراء التي عُقِدت بصفة عاجلة، أما هو فراح يشقُّ طريقه وقد أغشى النهارُ المُباغِتُ بصرَه، حيث مضى وسط مُتملِّقين وقحين يبشِّرون به مُبدِّدَ الفَجْر، وقائد الزمان، ونبع الضياء، حتى تجرَّأ أحد ضباط القيادة العليا واستوقفه في الردهة مُتَّخذًا وضع الانتباه أمامه ليطلعه على الخبر القائل بأن الساعة لم تتجاوز الثانية وخمس دقائق سيدي الجنرال، ثم جاء صوتٌ آخر قائلًا بل إنها الثالثة وخمس دقائق فجرًا سيدي الجنرال، فما كان منه إلا أن صفع وجه بظاهر يده صفعة شرسة وطفق يعوي مذعورًا بملء صدره حتى يسمعه العالَم بأسره، إنها الثامنة، سحقًا، الثامنة قلت، وهذا أمر إلهي. أما بينديسيون ألبارادو فما كادت تراه داخلًا إلى قصر الضواحي حتى سألته من أين أتيت بهذه السحنة، تبدو وكأن عنكبوتًا من فصيلة الرُّتيلاء قد لدغك، ولمَ تضع يدك على قلبك، سألت، أما هو فقد تهاوى على الأريكة المضفورة من الخيزران ولم يحِر جوابًا، وإنما بدَّل موضع يده، ذلك أنه كان قد نسيها مرة أخرى حين أشارت إليه أمه بفرشاة تلوين طيور الأوروپيندولا وسألته دهشةً إن كان يحسب نفسه قلب يسوع[1] حقًّا بهاتيْن العينيْن الخاملتيْن وتلك اليد التي وضعها على صدره، فأخفى يده مرتبكًا، سحقًا يا أمي، وصفق الباب، ثم رحل، ظلَّ يحوم داخل

(1) قلب يسوع: أيقونة تجسِّد يسوع واضعًا إحدى يديْه قرب موضع قلبه الذي يظهر في الصورة زاهيًا مُضيئًا.

البيت واضعًا يديْه في جيبيْه لئلَّا تتحرَّكا عفويًّا إلى حيث لا يجدر بهما، جعل يتأمَّل الأمطار عَبْر النافذة، ورأى المياه تنساب على نجوم من أغلفة الكعك وأقمار من المعدن المُفضَّض كانوا قد ألصقوها على الزجاج حتى تبدو وكأنها الثامنة ليلًا في الثالثة مساءً، رأى جنود الحراسة ترتعد فرائصهم من البرد في الباحة، ورأى البحر حزينًا، وأمطار مانويلا سانتشيس في مدينتك التي خلت منها، والقاعة الخاوية الرهيبة، والمقاعد المُتراصَّة رأسًا على عقب فوق الطاولات، والعزلة التي لا مهرب منها، عزلة الظلال الأولى في سبت آخر عابر وليلة أخرى خلت منها، سحقًا، لو يأخذون مني الرقص الذي رقصتُ على الأقل، ذلك أنه أشد ما يؤلمني، مضى يتنهَّد، شعر بالخزي من حاله، تفحَّص كل موضع في جسده حيث يمكن وضع يده التائهة شريطة ألَّا يكون القلب، وفي خاتمة المطاف وضعها على الفتق الذي سكَّنته الأمطار، ليجده كعهده، بالشكل نفسه، والثِقَل نفسه، والألم نفسه، وإذا بالأمر أشد فظاعة، كأن يطبق المرء راحة يده على لحم قلبه الحيّ، وعند ذاك فقط أدرك ما رمى إليه الكثيرون في سالف الزمان بقولهم إن القلبَ خصيةُ المرء الثالثة سيدي الجنرال، سحقًا، تنحَّ عن النافذة، جعل يحوم في قاعة الاجتماعات بلهف لا يزول، لهف رئيس أبدي اخترقت حسكةُ سمكٍ روحَه، وجد نفسه في قاعة مجلس الوزراء يسمع ما يُقال فلا يفهم ولا يسمع، كعهده أبدًا، بينما هو يعاني من تقرير باعث على النعاس حول الوضع المالي، وبغتةً طرأ شيءٌ على الهواء، فقد أطرق وزير المالية، أما هو فقد صار محط أنظار الآخرين ممن جعلوا يرمقونه عَبْر شقوق دِرْعٍ تصدَّع تحت وطأة الألم، فرأى نفسه أعزل وحيدًا على طرف مائدة خشب الجوز، وإذا بقسمات وجهه تختلج، فقد انكشف أمره

في وضح النهار وهو على تلك الحال المُحزِنة التي آل إليها، حال الرئيس الأبديّ الذي يضع يده على صدره، واحترقت حياته بنيران جذوتيْن جليديتيْن هما عينا الصائغ الدقيقتيْن اللتيْن جعل يرمقه بهما رفيقي وزير الصحة فبدتا وكأنهما تتفرَّسان في دخيلة نفسه، بينما أخذ هو يدير سلسلة ساعته الذهب الدقيقة المُدلَّاة من الصدار، حذار، قال أحدهم، لا ريب أن وخزة قد أصابته، أما هو فقد وضع يده على مائدة خشب الجوز، يد الحورية المُتيبِّسة من فرط الحنق، ثم استردَّ لونه، ومع الكلمات الخارجة من فمه بصق دفقةً مميتة من السلطة، كم وددتم لو كان ما بي وخزة، أوغاد، استمرّوا، فاستمرّوا، بَيْد أنهم طفقوا يتكلّمون ولا ينصتون إلى أحدهم الآخر اعتقادًا منهم بأن أمرًا جسيمًا قد ألمَّ به ولا ريب ما دام حانقًا إلى هذا الحد، تهامسوا بذلك، فسرت الإشاعة، راحوا يشيرون إليه، انظروا إليه كم تملَّك الحزن منه حتى اضطرّ للتشبُّث بقلبه الذي قد انفطر، مضوا يهمهمون، فذاعت الرواية القائلة بأنه قد طلب استدعاء وزير الصحة على وجه السرعة، فالتقاه الأخير ليجده واضعًا ذراعه اليمنى على مائدة خشب الجوز وكأنها قائمة حَمَلٍ، ثم أمره قائلًا ابترها يا رفيق، وهو شاعر بالمهانة من الحال التي آل إليها، حال الرئيس الغارق في دموعه، فأجابه الوزير بقوله كلا سيدي الجنرال، لا أمتثل لهذا الأمر ولو أعدمتَني رميًا بالرصاص، قال، إنها مسألة عدل سيدي الجنرال، وأنا أبخس قدرًا من ذراعك. أما تلك الروايات، ودونها الكثير مما قيل عن حاله، فقد أخذت تزيد حدَّةً بينما هو يكيِّل الحليب في الحظائر لتوزيعه على الثكنات ويراقب ثلاثاء رماد مانويلا سانتشيس إذ يرتفع في السماء، ويطلب إقصاء البُرْص عن شجيرات الورود لئلَّا يفسدوا رائحة ورود وردتكِ، ويبحث عن الأمكنة المنعزلة في البيت

حتى يتغنَّى بأول فالس لكِ بصفتكِ ملكة، من دون أن يسمعه أحد، حتى لا تنسيني[1]، كان يغنِّي، حتى تحسِّي بالموت لو نسيتِني، ويغنِّي، ويغوص في مستنقع حجرات المحظيات بحثًا عن الراحة من شقائه، وانطلق عنان غرائزه لأول مرة في حياة العاشق الخاطف طويلة الأمد التي عاشها، فبات يستغرق طويلًا في دقائق التفاصيل، وينتزع الآهات من أعماق النساء الأشد وضاعة، مرة تلو الأخرى، ويضحكهن دهشةً تحت جنح الظلام، ألا يحزنك ذلك سيدي الجنرال وأنت في مثل عمرك، أما هو فكان يعرف حقَّ المعرفة أن تلك الرغبة في المقاومة لا تعدو أن تكون حيلة يخدع بها ذاته إضاعةً للوقت، وأن كل خطوة يخطوها في عزلته، كل عثرة تقع فيها أنفاسه، تُدنيه بلا رجعة إلى قيظ الثانية من مساء لا مهرب منه حين ذهب مُتوسِّلًا لوجه الرَّب ولوجه مانويلا سانتشيس في قصر مكبِّ النفايات بمملكتك الوحشية وفي حيِّكِ، حي مشاجرات الكلاب، ذهب في ثياب مدنية، بلا مرافق، فاستقلّ سيارة أجرة أخذت تُطلِق دويًّا من ماسورة العادم وهي تنسلّ عَبْر أبخرة البنزين الزنخة التي غشيت المدينة المستغرقة في سبات القيلولة، ثم تملَّصت من الضجيج الآسيوي الذي يغلِّف طرقات السوق الوعرة، وإذا هو يرى البحر مترامي الأطراف، بحر مانويلا سانتشيس، يا تيهي أنا، وقد خاضته بجعة وحيدة على مرمى الأفق، ورأى عربات الترام الهرمة المُتَّجهة إلى بيتكِ فأمر بأن تُستبدَل بها عربات ترام صفر لها زجاج مُغبَّش وعرش مخمليّ من أجل مانويلا سانتشيس، ورأى شطآن آحادكِ

---

(1) يُرجَّح أن تكون إشارة إلى أغنية للفنان الإسباني لورينثو سانتا ماريا (1946)، مطلعها كما يلي: «حتى لا تنسيني، حتى تذكريني يوم تبعدين، من أجل هذا أهديتُكِ الربتات والعناق والقبلات».

البحرية مهجورة فأمر بتنصيب كبائن لتبديل الثياب ورفع علم يتبدَّل لونه بما يوافق أهواء الطقس وحجز شاطئ كامل وإحاطته بسياج فولاذي من أجل مانويلا سانتشيس، ورأى فيلات الأُسَر الأربعة عشر التي أثراها بما أسدى إليها من خدمات، رأى فيلاتها بما فيها من الشرفات الرخامية والمروج المُتأمِّلة، ثم إنه رأى فيلا أعظم رحابة بما فيها من مرشَّات المياه الدوَّارة وشرفات الزجاج المُعشَّق، هناك حيث أودُّ رؤيتكِ تعيشين من أجلي، فانتُزِعَت ملكية الفيلا قسرًا، بينما يبتُّ هو في مصير العالَم ويحلم فاتحًا عينيْه على المقعد الخلفي داخل السيارة ذات الصفائح المُفكَّكة، إلى أن تلاشت نسائم البحر وتلاشت المدينة، فتسلَّل عَبْر كوَّات النوافذ الضجيجُ الشيطاني الآتي من حيِّكِ، حي مشاجرات الكلاب، حيث رأى نفسه غير مُصدِّق وهو يفكِّر قائلًا لنفسه يا أمي بينديسيون ألبارادو انظري أين أنا من دونكِ، مدِّي لي عونكِ، ولكن في غمرة الجلبة لم يتعرَّف أحد على العينيْن القاتمتيْن، والشفتيْن الواهنتيْن، واليد المرتخية على الصدر، وصوت الحديث النائم الذي به ينطق الجَدُّ الأكبر المُطلّ من وراء الزجاج المُهشَّم في ثوب الكتان الأبيض وقبعة الخَوْليّ بينما هو يسعى للتحقُّق من محلِّ إقامة مانويلا سانتشيس، يا خزيي أنا، ملكة الفقراء، يا سيدتي، تلك القابضة على الوردة براحة يدها، ويسائل نفسه مذعورًا أين لكِ أن تعيشي في تلك الفوضى من الفقرات الناتئة في الظهور والنظرات الشيطانية والأنياب الدامية وسيل العواء الهارب والأذناب التي اندسَّت بين القوائم وسط مذبحة الكلاب التي أخذت تمزِّق أحدها الآخر نهشًا في الأراضي الموحلة، أين عساه أن يكون عطر نبتة السوس الذي ينساب مع أنفاسكِ في ظل هزيم الرعد المتواصل الآتي من مُكبِّرات الصوت القائلة يا ابنة

القحبة لسوف تكونين أنتِ شقاء العمر وصخب السكارى المطرودين ركلًا بالأقدام من مجزرة الحانات، أين عساكِ أن تكوني قد تهتِ في ذلك الحفل الصاخب اللانهائي المفعم بالمارانغوانغو والبوروندانغا[1] والغوردولوبو[2] ولفائف الماريجوانا المُلوَّنة بألوان العلَم والنقانق الرهيبة المُدلَّاة من بين السيقان التي تنتهي أطرافها بثقوب دقيقة والسِّنْت الأسود فوق البيعة في الهذيان الأبدي للجنة الأسطورية، جنة آدم الأسود[3] وخوانسيتو تروكوبي[4]، سحقًا، في أي بيت تعيشين في صخب الجدران التي تقشَّر طلاؤها، تلك الجدران الصفر بلون اليقطين، ذات الأفاريز البنفسجية بلون أردية الأساقفة والنوافذ الخضر بلون الببغاوات الصغيرة والآجُر الأزرق السماوي والأعمدة الوردية بلون الوردة المُستقرَّة في راحة يدكِ، كم عسى أن تكون الساعة في حياتكِ ما دام أولئك المُنحطُّون يجهلون أمري بأن تكون الساعة الآن الثالثة، وليست الثامنة من ليلة البارحة

(1) المارانغوانغو والبوروندانغا: شرابان تُعزَى إليهما قوى سحرية وآيروسية طبقًا لمعتقدات بعض الجماعات ذات الأصول الإفريقية-الأمريكية على الساحل الأطلنطي. والمارانغوانغو شراب يفضي إلى الوقوع في الحب. أما البوروندانغا فشراب يلحق الأذى بشاربه.

(2) غوردولوبو: غالب الظن أن يكون المقصود بها عشبة ذات خواص علاجية.

(3) آدم الأسود (إل نيغرو آدان): بطل أسطورة شعبية من مدينة بارَّانكيًّا الكولومبية، نُسِبَ إليه الكثير من النوادر وذاع صيته لما عُرِف عنها من طرافة وحسن الرقص والطهو والغناء. وقد جمع الكاتب خوليو أولاسيريغي طائفة من نوادره ووضعها في كتاب بعنوان الحياة الثانية لآدم الأسود.

(4) خوانسيتو تروكوبي: عنوان أغنية تندرج تحت موسيقى الغواراتشا الشعبية في كوبا، غنَّتها الفنانة ذات الأصول الكوبية سيليا كروس (1925 – 2003)، ومطلعها كما يلي: «خوانسيتو تروكوبي يقول إنه سيقيم حفلًا، كيما يدقَّ الطبول عند مطلع الفجر. خوانسيتو تروكوبي هو الفتى، هو الرجل ذو الشعبية».

كما يبدو في هذا الجحيم، أي امرأة أنتِ وسط هاتيك النساء اللائي يهوِّمن في قاعات خاوية ويروِّحن عن أنفسهن بالتنانير مباعدات بين سيقانهن على الكراسي المُتأرجِحة ويتنشَّقن القيظ من بين أفخاذهن، بينما هو يسأل عَبْر خصاص النافذة أين تعيش مانويلا سانتشيس، يا غضبي أنا، تلك التي لها ثوب من الزبَد تضيئه الماسات وإكليل من الذهب المصمت كان قد أهداه لها في ذكرى التتويج الأولى، عرفتُ من تكون هي يا سيدي، قال أحدهم وسط اللغط، إنها امرأة بارزة النهديْن والأرداف تخال نفسها أم الغوريلا، وتعيش هناك يا سيدي، هناك، في بيت ككل البيوت، مَطْليّ بالصراخ، هناك حيث تبدو آثار حديثة تركها أحد المارة إذ وطأ براز كلب فزلَّت قدماه على حافة الرصيف المُطعَّم بالفسيفساء، بيت فقراء شتَّان بينه وبين مانويلا سانتشيس الجالسة على كرسي نوَّاب الملوك، حتى كان يشقُّ على المرء التصديق بأنها هي، وإن كانت هي، يا أمي بينديسيون ألبارادو، يا حشاي أنا، هبي لي القوة كي أدخل يا أمي، ذلك أنها كانت هي، ثم إنه حام حول المُربَّع السكني عشر مرات ريثما يلتقط أنفاسه، وبمفاصل أصابعه طرق الباب ثلاثًا فكأنما هو يتوسَّل ثلاثًا، وجعل يترقَّب تحت الظلال الحارقة التي غشيت الطُّرْقة وهو ليس يعرف إن كان الهواء الفاسد الذي يتنشَّقه قد فسد تحت وطأة اللهف أو وهج الشمس، راح يترقَّب وهو ليس يفكِّر ولا حتى في حاله إلى أن سمحت له أمُّ مانويلا سانتشيس بأن يدلف إلى الغَبَش البارد المُشبَع برائحة بقايا السمك في الردهة الفسيحة البسيطة في بيت نائم أكثر اتساعًا من الداخل مقارنةً به من الخارج، جعل يتفحَّص أجواء إحباطه على كرسي من الجلد حيث جلس ريثما تذهب أم مانويلا سانتشيس لإيقاظ ابنتها من القيلولة، رأى الجدران وقد بدت عليها

آثار نشع تركتها أمطار عتيقة، ورأى أريكة مُهشَّمة، وكرسييْن آخريْن من الجلد، وبيانو بلا أوتار في الركن، لا أكثر، سحقًا، كل العناء الذي تجشَّمتُ من أجل هذا الشيء، مضى يتنهَّد، في حين عادت أم مانويلا سانتشيس حاملةً سلَّة أدوات الحياكة وجلست تطرِّز الدانتيل ريثما تضع مانويلا سانتشيس ثيابها، وتصفِّف شعرها، وتنتعل أفضل أحذيتها لتستقبل بالوقار اللائق ذلك الشيخ العصي على التوقُّع الذي جعل يسائل نفسه حائرًا أين عسى أن تكوني يا مانويلا سانتشيس، يا ويلي أنا، جئتُ أفتِّش عنكِ فلم أجدكِ في بيت الشحاذين هذا، أين عسى أن يكون عطر نبتة السوس وسط عفَن بقايا الغداء هذا، أين عسى أن تكون وردتكِ، أين حبُّكِ، أطلقي سراحي من هذه الزنزانة المفعمة بشكوك الكلاب، مضى يتنهَّد، عند ذاك رآها وقد ظهرت عند الباب الداخلي كما تتبدَّى صورةُ حلم منعكسة على مرآة حلم آخر، كانت في ثوب من نسيج الإيتامين الباردة الواحدة منه بربع ريال، وقد عقصت شعرها بمشط على عجل، وانتعلت حذاء مهترئًا، بَيْد أنها كانت أجمل نساء الأرض وأعظمهن تيهًا بوردتها المُتوهِّجة في راحة يدها، كانت الرؤيا من الإبهار حتى إنه بالكاد تمكَّن من السيطرة على نفسه بما يسمح له بالانحناء أمامها عندما بادرته هي بالتحيّة مرفوعة الرأس، حفظ الرَّب سيادتكم، ثم جلست على الأريكة، قبالته، حيث لا تدركها انبعاثات إبطيْه الكريهة، ثم إنني ولأول مرة جرؤتُ على النظر إليه وجهًا لوجه فيما رحتُ أُدير جمر الوردة باثنتيْن من أصابعي لئلَّا يبدو عليَّ الهلع الذي تملَّك مني، وفي غير رحمة أخذتُ أتفرَّس في شفتي الوطواط، والعينين الخرساوَيْن اللتيْن بدتا وكأنهما تنظران إليَّ من أعماق بِرْكة مياه، والبشرة الجرداء كحبيبات التربة المعجونة بزيت المرارة إذ تشتدُّ

توتُّرًا وكثافةً عند يده اليمنى التي تحمل الخاتم ذا الختم الرئاسي، يده اليمنى التي استقرَّت فوق ركبته في إرهاق، والبدلة الهزيلة التي بدت وكأنها خاوية، وحذاء الميِّت هائل الضخامة الذي انتعله، وخواطره الخفية، وسلطته المحجوبة، وهو الشيخ الأكثر إيغالًا في القِدَم على وجه الأرض، والأكثر مهابة، والأبغض، والأقل حظًّا من الشفقة في الوطن بأسره، ذلك الذي أخذ يروِّح عن نفسه بقبعة الخَوْليّ فيما هو يتأمَّلني مطرقًا من على ضفته الأخرى، رباه، كم حزين هو ذاك الرجل، رحتُ أفكِّر مذعورة، ثم إنها سألت في غير شفقة فيمَ أستطيع مساعدة سيادتكم، أما هو فأجابها بمظهر ينمُّ عن الوقار قائلًا لم آتِ سوى لطلب معروف واحد من جلالتكم، أن تتلقي زيارتي. فراح يزورها بلا انقطاع طوال شهور وشهور، كل يوم، في ساعات القيظ الهامدة التي دَرَج على زيارة أمه خلالها كي تظنَّ الأجهزة الأمنية بأنه في قصر الضواحي، فلم يكن أحدٌ سواه يجهل ما يعرفه الجميع من أن رُماة بنادق الجنرال رودريغو دي أغيلار يحمونه مُتربِّصين فوق الأسطح، ويقلبون حركة المرور رأسًا على عقب، ويخلون الشوارع التي سوف يمرُّ منها بضربات من أخامص بنادقهم، ويحظرون السير فيها كيما تبدو مهجورة من الثانية حتى الخامسة مع أمر بإطلاق النار على كل من تبدر منه أي محاولة للإطلال من الشرفات، ولكن حتى أقل الناس فضولًا كانوا يتدبَّرون أمرهم من أجل اختلاس نظرة على الليموزين الرئاسية المَطليَّة بألوان سيارة أجرة في مرورها الخاطف، السيارة التي استقرَّ في داخلها الشيخ القائظ مُتخفِّيًا في ثياب مدنية وقد ارتدى بدلة بريئة من الكتان، فرأوا شحوب اليتامى باديًا عليه، وسحنةً تشي بأنه قد رأى الشمس تشرق أيامًا كثيرة، وبأنه قد بكى في الخفاء، وبأنه ما عاد يلقي بالًا إلى ما

يجول بخواطرهم بشأن يده التي يضعها على صدره، ورأوا ذلك الحيوان الصامت الموغل في القِدَم الذي مضى تاركًا خلفه أثرًا من الأوهام، انظروا إليه كيف لم يعُد يقوى على الاحتمال في هواء القيظ البلّوري الذي خيَّم على الشوارع المحظورة، إلى أن تعدَّدت مزاعم إصابته بأمراض نادرة وعلا صخبها حتى انتهى بها المطاف وقد اصطدمت بحقيقة أنه لم يكُن في بيت أمه، بل في الردهة المُغبَّشة حيث الملاذ السرّي لمانويلا سانتشيس، الخاضع لمراقبة لا تلين شملته بها أمُّها التي انكبَّت على الحياكة بأنفاس مكتومة، ومن أجلها كان يشتري تلك الآلات المبتكرة التي كثيرًا ما أحزنت بينديسيون ألبارادو، وحاول إغواءها بغموض الإبر المُمغنَطة، وعواصف يناير الأسير، تلك العواصف الثلجية المُتمثِّلة في ثقَّالات الورق الكوارتزية، وأجهزة الفلكيين والصيادلة، وأجهزة الپيروغراف والمانومتر والمترونوم والچيروسكوپ[1] التي ظلَّ يشتريها من كل من يرغب في بيعها بما يخالف رأي أمه، ويخالف تقتيره الشديد، ليس لشيء سوى الاستمتاع بها مع مانويلا سانتشيس، فكان يلصق بأذنها القوقعة الوطنية التي لا يتردَّد في جوفها لهاث البحر بل مارشات عسكرية تبجِّل نظامه، ويقرِّب شعلة عود ثقاب من الترمومترات كيما ترين زئبق الأفكار التي تعتمل في سريرتي إذ يعلو ويهبط، وكان يتأمَّل مانويلا سانتشيس فلا يطلب منها شيئًا، أو يفصح لها عن نياته، بل يغمرها مطرقًا بتلك الهدايا الجنونية في محاولة منه

(1) الپيروغراف: جهاز يُستخدَم في النقش على الخشب بتقنية الحرق.
المانومتر: جهاز يُستخدَم في قياس ضغط السوائل والغازات.
المترونوم: جهاز يُستخدَم في ضبط وقياس الزمن أو الإيقاع الموسيقي.
الچيروسكوپ: جهاز يُستخدَم في حفظ التوازن وتحديد الاتجاهات.

ليقول بالهدايا ما يعجز عن قوله، فما كان يعرف كيف يفضي بأشواقه الأكثر حميمية إلا من خلال رموز مرئية تدلّ على سلطته المفرطة كما فعل في عيد ميلاد مانويلا سانتشيس، يومَ طلب منها أن تفتح النافذة، فامتثلت هي لطلبه، وإذا بي أتحجّر في مكاني رهبةً حين رأيتُ ما قد فعلوا بحيِّي المسكين، حي مشاجرات الكلاب، فرأيتُ البيوت الخشب بيضاء اللون بنوافذها ذات الستائر وشرفاتها ذات الأزهار، ورأيتُ المروج الزرق بما فيها من مرشّات المياه الدوّارة، والطواويس، وريح المبيدات الجليدية، كانت تلك نسخة شائنة من مساكن ضباط الاحتلال القديمة التي استُنسخَت ليلًا في صمت، وأما كلاب الحي فقد نُحرَت، وأما البيوت فقد أُخليَت من ساكنيها القدامى الذين لا يحقُّ لهم مجاورة ملكة وأُلْقِي بهم في مكبٍّ نفايات آخر حتى يتعفّنوا، وهكذا شُيِّد حي مانويلا سانتشيس الجديد على مدى ليالٍ سرية طوال كيما ترينه أنتِ من نافذتكِ يوم عيدكِ، إليكِ يا ملكتي، لتعيشي أعوامًا طوالًا مفعمة بالسعادة، ولنرَ إن كانت تلك الاستعراضات السلطوية ستفلح في إضفاء شيء من الرقّة على مسلككِ المُهذَّب رغم مناعته، لا تقترب أكثر مما ينبغي يا صاحب الفخامة، فها هي ذي أمي تملك مقاليد شرفي، أما هو فيغوص في لهفه، ويزدرد غضبه، وبرشفات الجَدِّ البطيئة يرتشف عصير فاكهة الغوانابانا[1] الطازجة الذي تُعدُّه بدافع الرأفة كي تسقي الظمآن، ثم يتحمَّل وخزة الجليد في صدغيْه لئلَّا يكتشفوا ما قد ألَمَّ به من مثالب الشيخوخة، لئلَّا تقعي في حبي عن شفقة بعد أن استنفد هو كل الطرق لحملها على الوقوع في حبه عن حب، وكانت تتركه في عزلة

(1) غوانابانا: فاكهة تنمو في المناطق ذات المناخ الاستوائي كبلدان الكاريبي، ولها مذاق لاذع.

بالغة الشدَّة وأنا معكِ حتى لا تعود لديَّ رغبة ولا حتى في البقاء، وينازع سكرات الموت رغبةً في لمسها ولو بأنفاسه قبل أن يحلِّق رئيس الملائكة ذو الحجم البشري في أرجاء البيت ويدقّ جرسه مُعلنًا ساعة موتي أنا، ويفوز برشفة أخيرة من الزيارة ريثما يضع الألعاب في علبها الأصلية لئلَّا يحيلها سوس البحر ترابًا، دقيقة واحدة يا ملكتي ليس إلَّا، ثم ينهض الآن حتى يعود غدًا، عمر بأسره، يا للهول، فلا يتبقَّى له أكثر من لحظة بالكاد ليلقي نظرة أخيرة إلى تلك العذراء العصية على المساس التي ما كاد رئيس الملائكة يمرّ حتى لبثت في مكانِها بلا حراك، وقد ذوت الوردة على حجرها بينما هو ذاهب، ثم ينسلُّ من بين الظلال الأولى وهو يحاول مداراة خزيه الذي شاع أمره وتطرَّق إليه الجميع في الشارع، كما ذاع أمر خزيه بسبب أغنية لمؤلِّف مجهول عرفها كل واحد في أنحاء البلد كافة إلَّا هو، بل وحتى الببغاوات كانت تنشدها في الباحات قائلةً تنحَّيْنَ جانبًا أيتها النساء فهوَذا الجنرال آتٍ يذرف الدمع غزيرًا ويده على صدره، انظرن كيف يمضي وهو لا يملك زمام سلطته، كيف يحكم نائمًا، وهو المصاب بجرح لا يندمل، تعلَّمتها الببغاوات البرّيّة من فرط ما سمعت الببغاوات الأسيرة تتغنَّى بها، ثم تعلَّمتها منها الببغاوات الصغيرة وطيور القيق التي حملتها أسرابًا إلى ما وراء تخوم مملكته الموحشة مترامية الأطراف، وفي سماوات الوطن كافة دوَّى عند المساء ذلك الصوت الجماعي، صوت الحشود الهاربة التي راحت تتغنَّى وتقول هوَذا جنرال حُبِّي آتٍ، من فمه يُطلِق خراءً ومن مُؤخِّرته يُصدِر قوانين، أغنية بلا نهاية راح الجميع بمن فيهم الببغاوات يزيدون عليها مقاطع جديدة استهزاءً بأجهزة الدولة الأمنية التي سعت لتقييدها، فكانت الدوريات العسكرية المُدجَّجة بعتاد

الحرب تقتحم الأبواب المُفضية إلى الباحات حيث تعدم الببغاوات المُخرِّبة فوق مجاثمها بالبنادق، وتلقي بحفنات من ببغاوات الدَّرَّة الحية إلى الكلاب، وتعلن حالة الحصار في محاولة لاستئصال الأغنية المعادية لئلَّا يكتشف أحدٌ ما يعرفه الناس جميعًا من كونه هو الذي يتسلَّل كالهاربين عند المغيب عَبْر أبواب الخدم المُؤدِّية إلى البيت الرئاسي، ثم يجتاز المطابخ ويتلاشى وسط الدخان المتصاعد من أقراص الروث المُضرَمة في الحجرات الخاصة حتى الرابعة من اليوم التالي، يا ملكتي، حتى الساعة نفسها من كل يوم، ساعةَ يصل إلى بيت مانويلا سانتشيس مُحمَّلًا بقدر هائل من الهدايا العجيبة، حتى إنهم اضطرّوا للاستيلاء على البيوت المجاورة وهدم الجدران الفاصلة لتوفير مكان يتَّسع لهداياه، وهكذا تحوَّلت الردهة الأصلية إلى عنبر شاسع قاتم يحوي ساعات لا يُحصَى لها عدد من كل الحقب الزمنية، وأجهزة غرامافون بكل صنوفها، ابتداءً من الغرامافون البدائي ذي البوق وحتى ذلك الذي يعمل بقرص ذي مرآة، وآلات حياكة كثيرة من تلك التي تعمل بذراع التدوير أو الدواسة أو المُحرِّك، في حين اكتظَّت مخادع كاملةً بأجهزة غلڤانومتر[1]، ومستحضرات طب تجانسي[2]، وصناديق موسيقى، وأجهزة خدع بصرية، وأُطُر من الزجاج تحوي فراشات مُحنَّطة، ونباتات آسيوية مُجفَّفة، ومختبرات علاج طبيعي وتربية بدنية، وآلات مستخدمة في مجال الفَلَك وتقويم

(1) غلڤانومتر: أداة تُستخدَم في قياس التيار الكهربائي.

(2) الطب التجانسي: منظومة علاجية بديلة وضع أسسها الطبيب الألماني صامويل هانيمان (1755 - 1843) وتقوم على مبدأ مفاده أن: «المثل يبرئ المثل». بمعنى أن المادة التي تفضي إلى إصابة الأصحاء بمرض بعينه من شأنها علاج المصابين بالمرض نفسه عند تناولها بكميات ضئيلة.

العظام والعلوم الطبيعية، وعالَم بأسره من دمى تتحرَّك بأنظمة آلية خفية عن الأعين ولها سمات بشرية، وحجرات محظورة لا يدخلها أحد ولا حتى بغرض كنسها، ذلك أن كل شيء يبقى حيث أُودِع يومَ جيء به، فليس هنالك من يودُّ أن يعرف عنه شيئًا ولا سيما مانويلا سانتشيس لأنها لم تعُد ترغب في معرفة شيء عن الحياة منذ السبت الأسود الذي ابتُليتُ فيه أنا بتتويجي ملكة، فقد انتهى العالَم في وجهي ذاك المساء، وقضى خُطَّابُها القدامى نحبهم واحدًا تلو الآخر في اعتداءات مرَّت من دون عقاب وتحت وطأة أمراض لا تُصدَّق، وأما صديقاتها فقد اختفين بلا أثر، وأما هي فقد حملوها إلى حي أغراب من دون أن تغادر بيتها، كانت وحيدة، تخضع نياتها الأكثر حميمية للمراقبة، وهي أسيرة شراك القَدَر حيث لا تملك الشجاعة الكافية لتقول كلا، ولا الشجاعة الكافية لتقول نعم لخاطب بغيض يترصَّدها بحبٍّ خليق بدار المُسنِّين، ويتأمَّلها بصنف من الذهول التوقيري فيما يروِّح عن نفسه بقبعته البيضاء، ويتفصَّد عرقًا، وهو بعيد كل البعد عن ذاته حتى إنها تساءلت عمَّا إذا كان ينظر إليها حقًّا أو إنها مُجرَّد رؤيا مُروِّعة، ولقد رأته مُتردِّدًا في وضح النهار، ورأته يلوك عصير الفاكهة، ورأته يهوِّم ناعسًا على أريكة الخيزران ممسكًا بالقدح وطنين الزيزان النحاسي يزيد من كثافة الغَبَش الذي خيَّم على الردهة، رأته وهو يغطّ، حذار يا صاحب الفخامة، قالت له، أما هو فقد أفاق مذعورًا يهمهم بقوله كلا يا ملكتي، فأنا لم أستغرق في النوم، وإنما أغمضتُ عينيَّ فحسب، مضى يقول، وهو لا يدرك أنها قد أخذت القدح من يده لئلَّا يسقط في أثناء نومه، ثم إنها ألهته بحيل مرهفة حتى ذلك المساء العصي على التصديق حين وصل إلى البيت لاهثًا يحمل إليها خبرًا يقول إنني قد أحضرتُ لكِ اليوم أعظم هدية

في الكون بأسره، معجزة من معجزات السماء تمرُّ الليلة في الحادية عشرة وست دقائق كي ترينها يا ملكتي، كي ترينها أنتِ وحدك، فكان المُذنَّب. كانت تلك واحدة من كبرى لحظات الخذلان التي عشناها، فقد سرت منذ زمن إشاعة كغيرها من الإشاعات الكثيرة تزعم بأن توقيت حياته لا يخضع لقوانين الزمن البشري وإنما لدورات المُذنَّب، وبأنه قد تكوَّن في بطن أمه حتى يرى المُذنَّب مرة واحدة لا ثانية لها برغم البشائر المكابرة التي يزعمها مُتملِّقوه، وكمن يترقَّب يوم الميلاد هكذا رحنا نترقَّب تلك الليلة التي لا تأتي سوى مرة واحدة كل قرن، ليلة نوفمبر التي من أجلها أُعِدَّت موسيقى البهجة، ونواقيس الفرح، ومفرقعات الحفلات التي لن تدوِّي تبجيلًا لمجده هو للمرة الأولى منذ قرن من الزمان بل ترقُّبًا للدقَّات المعدنية الإحدى عشرة المزمع انطلاقها في تمام الحادية عشرة لتعلن انقضاء سنيّ عمره، واحتفالًا بالحدث السار الذي جعل يترقَّبه فوق سطح بيت مانويلا سانتشيس، جالسًا بينها وبين أمها، حيث جعل يتنفَّس بقوة لئلَّا يبدو عليه الكدر الذي غشي قلبه تحت سماء ترتعد مُحمَّلةً بنُذُر الشؤم، ويتنشَّق أنفاس مانويلا سانتشيس الليلية لأول مرة، وكثافة خَلائها، وهوائها الطلق، ويسمع طبول التعويذة الآتية لملاقاة الكارثة على مرمى الأفق، ويسمع النواح النائي، وضوضاء الوحل البركاني التي أحدثتها جماهير كانت تخرُّ جاثيةً من فرط الهلع أمام كائن غريب عن سلطته التي سبقت سني عمره وسوف تمتدُّ إلى ما بعدها، أحسَّ بثِقَل الزمن، وللحظة تجشَّم بؤس أن يكون فانيًا، عند ذاك رآه، ها هو ذا، قال، وقد كان، فهو يعرفه، ولقد رآه يومَ مرَّ في طريقه إلى الجانب الآخر من الكون، كان هو نفسه يا ملكتي، أشد

هرمًا من العالَم، ميدوسا[1] أليمة من الوهج بحجم السماء تطوي مليون عام مع كل شبر تقطعه في مسار العودة إلى أصلها، سمعوا حفيف قصاصات الورق المُفضَّض، ورأوا الوجه المُعذَّب، والعينيْن اللتيْن غمرتهما الدموع، وخيوط السموم المُثلَّجة التي انسابت مع خصلات الشعر الأشعث في مهب رياح الفضاء، تلك التي مضت تاركةً في العالَم سحابة غبار مُشِعّ من أنقاض فلكية ونهارات طلعت مُتأخِّرةً بسبب أقمار القطران ورماد فوَّهات المحيطات التي سبقت أول الزمان على الأرض، ها هو ذا يا ملكتي، أخذ يهمهم، أنعمي النظر إليه، فلن نعود لرؤياه إلَّا بعد مرور قرن من الزمان، فما كان منها إلَّا أن رسمت إشارة الصليب مذعورة، وإذا هي أجمل من أي وقت مضى على بريق فوسفور المُذنَّب وقد اكتسى رأسها بنُدَف رذاذ مرهَف من أنقاض النجوم والرواسب السماوية، وعند ذاك جرى ما جرى يا أمي بينديسيون ألبارادو، فقد رأت مانويلا سانتشيس في السماء هاوية الأبدية، وفيما هي تحاول التشبُّث بالحياة مدَّت يدها في الخواء فلم تجد ما تتشبَّث به سوى اليد الدافئة اللامعة غير المرغوبة ذات الخاتم الرئاسي، يد الطير الكاسر التي نضجت على جمر نيران السلطة الهادئة. قلائل هم الذين تأثَّروا بميدوسا الوهج في مرورها التوراتي الذي بثَّ الذعر في أيائل السماء ودخَّن الوطن بسحابة غبار مُشِعّ من الأنقاض الفلكية، فحتى أولئك الأكثر تشكيكًا وسطنا كانوا قد تعلَّقوا بتلك الميتة الجسيمة التي من شأنها تقويض دعائم المسيحية وإرساء أصول العهد الثالث، فترقَّبنا حتى بزوغ

(1) ميدوسا: في الميثولوجيا الإغريقية، كانت الميدوسا مسخًا على هيئة امرأة تغطِّي رأسها الثعابين. ثم بتر پيرسيوس رأس الميدوسا واتَّخذ منه سلاحًا لأنه ظلَّ محتفظًا بالقدرة على تحويل الناظر إليه حجرًا.

الفجر سدًى، ثم عدنا أدراجنا إلى البيت وقد أعيانا الترقُّب بأكثر مما أعيانا السهر في شوارع ختام الحفل حيث أخذت نساء السَّحَر يكنسن النفايات السماوية وبقايا المُذنَّب، فلم نسلِّم ولا حتى آنذاك بأن شيئًا لم يجرِ، بالعكس، فقد سلَّمنا بأننا ضحايا خدعة تاريخية جديدة، ذلك أن الصحف الرسمية أعلنت عن مرور المُذنَّب بوصفه نصرًا للنظام على قوى الشر، واغتُنِمَت الفرصة لتكذيب مزاعم إصابته بأمراض نادرة من خلال مشاركة رجل السلطة في فعاليات مفعمة بالحياة على نحو لا تخطئه عين، كما اتُّخِذَت شعارات جديدة، وأُذيعَت رسالة مهيبة أعربتُ فيها أنا عن قراري السيادي الأوحد بأن أكون في منصبي وفي خدمة الوطن حين يمرُّ المُذنَّب من جديد، بَيْد أنه سمع أصوات الموسيقى والمفرقعات وكأنها لم تكُن من صنع نظامه، وفي غير تأثُّر سمع هتاف الجماهير التي احتشدت في ميدان السلاح رافعة لافتات ضخمة تبشِّر بالمجد الأبدي لصاحب الجدارة والاستحقاق الذي سيعيش ليروي مجده، ثم إنه لم يُلقِ بالًا إلى عراقيل الحكومة، بل كان يفوِّض سلطته إلى مُوظَّفين صغار بينما هو يشقى بذكرى جمرة يدِ مانويلا سانتشيس حين تشبَّثت بيده، ومضى يحلم بأن يعيش تلك اللحظة السعيدة مُجدَّدًا ولو حادت الطبيعة عن مسارها وخرب الكون، الحلم الذي تاقت إليه نفسه بقوة حتى انتهى به المطاف وهو يتوسَّل إلى فلكييه أن يخترعوا من أجله مُذنَّبًا من الألعاب النارية، أو شهابًا، أو تنِّينًا من قَبَسٍ، أي ابتكار فلكيّ على أن يكون من الهول حتى يصيب امرأة رائعة الجمال بدوَّارٍ من الأبدية، فلم تُفضِ معادلاتهم إلى شيء سوى كسوف شمس كلّي يوم الأربعاء من الأسبوع المقبل في الرابعة مساء سيدي الجنرال، فأبدى قبوله، مُوافَقة، وكان ليلًا حقيقيًّا في وضح النهار

حتى إن النجوم قد سطعت، وأما الأزهار فقد ذوت، وأما الدجاجات فقد أوت إلى أقنانها، وأما أرهف الحيوانات غريزةً فقد أُخِذَت على حين غرة، وأما هو فقد جعل يتنشَّق أنفاس مانويلا سانتشيس الليلية الغاربة بينما تتراخى في راحة يدها الوردة التي انطلى عليها خداع الظلال، ها هو ذا يا ملكتي، قال، إنه كسوفكِ، أما مانويلا سانتشيس فلا أحارت جوابًا، ولا مسَّت يده، ولا تنفَّست، بل تراءت له على درجة من اللاواقعية حتى إنه لم يقوَ على تحمُّل لهفه ومدَّ يده في العتمة يتلمَّس يدها، فلم يعثر عليها، فتَّش عنها بأنامله حيث طفت رائحتها، فلم يعثر عليها هناك أيضًا، وظلَّ يفتِّش عنها بيديْه كلتيْهما في أرجاء البيت المترامي الأطراف، وتحت جنح الظلام أخذ يلوِّح بيديْه فاتحًا عينيْه، عيني المسرنم، وهو يسائل نفسه مُتألِّمًا أين عسى أن تكوني يا مانويلا سانتشيس، يا ويلي أنا، وأنا الذي أفتِّش عنكِ فلا أجدكِ في ليلة كسوفكِ التعِسة، أين عسى أن تكون يدكِ القاسية، أين وردتكِ، وراح يسبح كغوَّاص شارد في بركة مياه خفية طفا بحجراتها جراد البحر، جراد الغلفانومتر الذي يرجع إلى عصور ما قبل التاريخ، وسرطان ساعات الموسيقى، وهُمَّار[1] آلات أشغالك الوهمية، بَيْد أنه لم يجد ولا حتى أنفاسكِ التي علق بها عطر نبتة السوس، وبينما تتبدَّد ظلال الليل العابر أخذ ضياء الحقيقة يسطع في روحه شيئًا فشيئًا وأحسَّ بأنه أشد هرمًا من الرَّب، وفي غَبَش فجر السادسة مساءً داخل البيت المهجور، أحسَّ بأنه أشد حزنًا وعزلةً من أي وقت مضى في ظلِّ عزلة العالَم الأبدية، من دونكِ يا ملكتي، وأنتِ التي قد تهتِ في لغز الكسوف إلى الأبد، إلى أبد الآبدين، ذلك أنه لم يعثر قط على مانويلا سانتشيس على مدى الأعوام بالغة الطول المُتبقِّية له

(1) الهُمَّار: جنس من جراد البحر.

في السلطة، مانويلا سانتشيس، يا تيهي أنا، لم يعثر عليها في متاهة بيتها، تبخَّرت في ليلة الكسوف سيدي الجنرال، فقيل له إنها قد شُوهدت وهي ترقص البلينا في پورتوريكو، هناك حيث جرحوا إيلينا[1] سيدي الجنرال، بَيْد أنها لم تكُن هي، وإنها قد شُوهدت في حفل صاخب بمناسبة عزاء پاپا مونتيرو، اللعوب الصعلوك راقص الرومبا[2]، فلم تكُن هي أيضًا، وإنها قد شُوهدت ترقص على صوت التيكيكيتاكي في بارلوبينتو، على قرع طبول المينا[3]، وترقص الكومبيامبا في قرية آراكاتاكا[4]، وفي مهب الريح الجميلة على قرع

---

(1) البلينا: لون من ألوان الفنون الشعبية الموسيقية والراقصة في پورتوريكو، يعود ظهوره إلى مطلع القرن العشرين. أما عبارة «جرحوا إيلينا» فعنوان أغنية للفنان مانويل خيمينيس، المعروف أيضًا بلقب إل كاناريو (1895 - 1975)، والذي يُعدُّ رمزًا من رموز فن البلينا. ومطلع الأغنية كما يلي: «جرحوا إيلينا، جرحوا إيلينا، وحملوها إلى المستشفى. كان أمرًا مؤلمًا يدعو إلى البكاء. جرحوا إيلينا، وحملوها إلى المستشفى».

(2) پاپا مونتيرو: بطل أسطورة شعبية من الفولكلور الكوبي، عُرِف عنه حبه للحياة والحفلات وفن الرومبا. ويُقال إنه حين أشرف على الموت طلب تشييع جثمانه بالموسيقى والطبول بدلًا من الحزن والنحيب. خلَّده الفنانون في أغنياتهم وقصائدهم، مثال أغنية الفنان الكوبي إليسيو غرينيت سانتشيس (1893 - 1950)، حيث يقول: «بنا نبكِ پاپا مونتيرو، اللعوب الصعلوك راقص الرومبا»، وهو المقطع الذي استعاره الكاتب في هذه الفقرة.

(3) بارلوبينتو: منطقة في ولاية ميراندا بفنزويلا. وأما المينا فهي طبول ضخمة يعود أصلها إلى المنطقة نفسها. ونجد أن الكاتب قد استعار العبارة الواردة في هذه الفقرة من أغنية للفنان الفنزويلي إدواردو سيرَّانو (1911 - 2008)، بعنوان «بارلوبينتو، بارلوبينتو، يا أرض الوهج والحب» وتحديدًا من المقطع التالي: «ما أجمل أن تتثنَّى ابنة بارلوبينتو بقوامها عند المسير، ما أحسن صوت التيكيكيتاكي على قرع طبول المينا».

(4) الكومبيامبا: لون من ألوان الفنون الشعبية الموسيقية والراقصة في كولومبيا. وجدير بالذكر أن قرية آراكاتاكا هي مسقط رأس غارسيا ماركيز، وتقع في المنطقة الكاريبية من كولومبيا.

التامبوريتو البنمي[1]، بَيْد أنها لم تكُن أيًّا منهن سيدي الجنرال، فلقد ذرتها رياح الجحيم، وإن لم يترك نفسه تحت رحمة الموت حينها فليس لأن السخط القاتل قد أعوزه، بل علمًا منه أنه محكوم حكمًا لا ردّ له بألَّا يموت حبًّا، الأمر الذي كان يعلمه منذ تلك الأمسية في مطلع إمبراطوريته حين التجأ إلى عرّافة لتقرأ له على صفحة مياه الطاس مفاتيح قَدَره التي لم تُكتَب على راحة يده، ولا على ورق اللعب، ولا في بقايا القهوة، ولا بأي طريقة أخرى من طرائق العِرافة، وإنما على مرآة المياه التنبُّؤية ليس إلَّا، هناك حيث رأى نفسه وقد لقي ميتةً طبيعية وهو نائم في المكتب الملحق بقاعة الاجتماعات، ورأى نفسه وقد ارتمى على وجهه أرضًا كعادته في النوم كل ليلة من ليالي عمره منذ مولده، بالزيّ الكتاني المُجرَّد من الشارات، والطماق، ومهماز الذهب، فيما توسَّد ذراعه اليمنى التي انثنت تحت رأسه، وهو في عمر غير مُحدَّد يتراوح ما بين المائة وسبعة أعوام والمائتين واثنين وثلاثين عامًا.

(1) التامبوريتو (وتعني حرفيًّا الطبل الصغير): لون من ألوان الفنون الشعبية الموسيقية والراقصة في بنما. وفي هذا الموضع يقتبس الكاتب من أغنية شعبية تندرج تحت هذا اللون من الفنون، مطلعها كما يلي: «أيّ ريح جميلة مواتية للإبحار».

هكذا عُثِر عليه عشيةَ خريفه، لمَّا كان الجثمان لپاتريسيو أراغونيس في واقع الأمر، وهكذا عثرنا عليه مرةً أخرى بعد أعوام طوال في حقبة كثرت فيها الشكوك حتى لم يتمكَّن أحد من التسليم بأن ذلك الجثمان له هو على نحو جلي، ذلك الجثمان الهرم الذي نقرته العقبان واستشرت فيه طفيليات أعماق البحر. أما اليد المنتفخة كالنقانق تحت وطأة العفن فلم يبقَ فيها أدنى أثر يدلُّ على أنها قد استقرَّت على صدره ذات مرة بعد الجفاء الذي لقيه من عذراء بعيدة الاحتمال في زمن الصخب، ولا عثرنا على أدنى أثر من حياته قد يهدينا إلى هويته بما لا يدع مجالًا للخطأ. وبطبيعة الحال، لم يبدُ لنا غريبًا أن يجري ما جرى على مدى أعوام حياتنا، ذلك أن الدوافع الباعثة على الشك في وجوده قد شاعت حتى في الأعوام التي تربَّع فيها على قمة مجده، بل إن قتلته المأجورين أنفسهم لم يعرفوا كم يبلغ من العمر على وجه التحديد، فقد جاءت حِقَب مفعمة بالحيرة حيث كان يبدو في الثمانين خلال سحب اليانصيب الخيري، وفي الستين خلال الاجتماعات المدنية، بل ويظهر دون الأربعين في احتفاليات الأعياد العمومية. أما السفير پالمرستون، وهو من أواخر الدبلوماسيين الذين قدَّموا له أوراق اعتمادهم، فقد روى في مذكراته الممنوعة أنه لضرب من المحال أن يتصوَّر المرء شيخوخة طاعنة كتلك التي بلغها هو، أو حالًا من الفوضى والهجران كتلك التي غرق

فيها بيت الحكومة حيث اضطرّ لأن يشقَّ طريقه وسط مكبٍّ نفايات من الأوراق المُمزَّقة وروث الحيوانات وبقايا طعام الكلاب النائمة في الأروقة، ولكنّ أحدًا لم يفسِّر لي شيئًا في نقاط التفتيش أو المكاتب، فلجأتُ مرغمًا إلى البُرْص والمفلوجين الذين اجتاحوا أولى الحجرات الخاصة، فأرشدوني إلى طريق قاعة الاجتماعات حيث كانت الدجاجات تنقر حقول القمح الوهمية على لوحات النسيج فيما راحت بقرة تمزِّق كتانَ صورة رئيس أساقفة لتلتهمه، فأدركتُ من فوري أنه أشد صممًا من الجماد ليس لمُجرَّد أنني رحتُ أسأله عن أمر فيجيبني عن سواه، ولكن لأنه فوق ذلك راح ينعى سكوت الطيور عن الشدو برغم صعوبة التنفُّس في غمرة صخب الطيور حتى وكأن المرء يعبر الجبل فجرًا، ثم إنه قاطع مراسم تقديم أوراق الاعتماد فجأةً بنظرة يقِظة باسطًا راحته خلف أذنه مشيرًا عَبْر النافذة إلى سهل الغبار، حيث كان البحر في ما مضى، وقال بصوت خليق بأن يوقظ النيام أصْغِ إلى دبيب قطعان البغال الآتي من هناك، أصْغِ إليه يا عزيزي ستيتسون، فهوذا البحر عائد. وقد صَعُب الجزم بأن ذلك الشيخ العصيّ على الإصلاح هو نفسه الرجل المُخلِّص الذي كان خلال مطلع حكمه يظهر في القرى في الساعة الأبعد عن البال وليس معه من المرافقين سوى رجل من هنود الغواخيرو[1] حافي القدميْن ومُسلَّح بساطور الحصاد إلى جانب حاشية صغيرة مُؤلَّفة من نوَّاب وأعضاء في البرلمان كان ينصِّبهم شخصيًّا بإشارة من إصبعه وفقًا لأهوائه الهضمية، فكان يستخبر عن ريع المحاصيل وحالة الحيوانات الصحية ومسلك الناس، ويجلس على الكرسي

(1) الغواخيرو: مجموعة عرقية من السكان الأصليين تعيش في شمال كولومبيا وفنزويلا.

المُتأرجِح المضفور من الخيزران تحت ظلال أغصان المانغو في الساحة وهو يروِّح عن نفسه بقبعة الخَوْليّ التي كان يعتمرها آنذاك، وبرغم النعاس البادي عليه تحت وطأة القيظ ما كان يترك تفصيلة واحدة بلا إيضاح في حديثه مع الرجال والنساء الذين يستدعيهم كي يتحلَّقوا حوله، إذ يناديهم بأسمائهم وألقابهم وكأنما في رأسه قائمة بسُكَّان البلد وإحصاءاته ومشكلاته، وهكذا فقد ناداني من دون أن يفتح عينيْه، تعالي هنا يا خاسينتا موراليس، قال، احكي لي ماذا كان من أمر الصبي الذي سبق أن كبَّل حركته بنفسه في العام الماضي لمناولته قارورة من زيت الخروع، وماذا عنك يا خوان پرييتو، سألني، كيف حال ثورك، ثور الحراثة الذي سبق أن عالجه بنفسه بابتهالات واقية من الطاعون لإسقاط الديدان من أذنيْه، وماذا عنك يا ماتيلديه پيرالتا، فلنرَ ماذا تعطيني إن رددتُ لكِ زوجكِ الهارب قطعةً واحدةً، ها هو زوجكِ، مسحوبًا بحبل من عنقه وقد حذَّره شخصيًّا من محاولة هجران زوجته الشرعية مرة أخرى وإلَّا تعفَّن على خشبة التعذيب، وبحسِّ الحكم المباشر نفسه أصدر أمره للجزار بأن يبتر يدي أمين خزانة في مشهد علني جزاءً له على إهدار المال، وكان ينتزع حبات الطماطم من بستان خاص ويلتهمها بخيلاء الخبير في حضرة مهندسيه الزراعيين، قائلًا إن هذه التربة ما زال ينقصها قدر كبير من روث حمار فحل، انثروا الروث في التربة على نفقة الحكومة، كان يصدر أمره، ثم إنه قاطع النزهة المدنية صارخًا فيَّ عَبْر النافذة وهو يكاد يموت ضحكًا، آها، يا لورينسا لوپيس، كيف تسير آلة الحياكة، تلك التي قد أهدانيها بنفسه منذ عشرين عامًا خلت، فأجبتُه بأنها قد أسلمت الروح إلى بارئها سيدي الجنرال، تخيَّلْ، فلا الأشياء تُصنَع لتدوم العمر كله، ولا الناس أيضًا، أما هو فأجابني

قائلًا بالعكس، فالعالَم أبدي، ثم شرع يفكِّك الآلة بمفكٍّ ومِزْيَتة غير مكترث بالموكب الرسمي الذي يترقَّبه على قارعة الطريق، فأخذ يأسه يتجلَّى من آن إلى آخر في أنفاس الثور التي يلهث بها، كما أنه لطَّخ وجهه بزيت المُحرِّك، وعلى الرغم من ذلك فبعد مضي ما يقرب من ثلاث ساعات عادت آلة الحياكة تعمل كالجديدة، ذلك أنه في تلك الأوقات ما كان يترك صعوبة واحدة من مصاعب الحياة اليومية مهما بلغت من التفاهة إلَّا وأولاها القدر نفسه من الأهمية مثلها كمثل أخطر شؤون الدولة، وكان بقلبه الطيب يؤمن بإمكانية توزيع السعادة ورشوة الموت مستعينًا على ذلك بحيل الجنود. ولقد صَعُب الجزم بأن ذلك الشيخ العصي على الإصلاح هو كل ما تبقَّى من رجل كانت سلطته تبلغ من العظمة حتى إنه سأل ذات مرة عن الساعة فأجابوه بأنها الساعة التي تأمر بها سيدي الجنرال، وقد كان، فهو لم يكُن يغيِّر ساعات اليوم بما يناسب أعماله على أكمل وجه فحسب بل كان فوق ذلك يبدِّل الأعياد المفروضة بما يلائم مشاريعه للترحال عَبْر أرجاء البلد من كرنفال إلى كرنفال في ظل الهندي الحافي وأعضاء البرلمان ذوي المظهر الكئيب، وأقفاص الديكة الرائعة التي كان يدفع بها لمواجهة الديكة الأكثر شراسة في كل ساحة من الساحات، حيث يسجِّل الرهانات بنفسه ويجعل أساسات حلبة مصارعة الديكة ترتجُّ من الضحك شعورًا منا بأننا مرغمون على الضحك كلما أطلق قهقهاته العجيبة المُدوِّية كالطبول الطاغية على الموسيقى والمفرقعات، كنا نشقى بصمته، وننفجر في التصفيق ارتياحًا إذا أجهزت ديوكه على ديوكنا المُدرَّبة على الخسارة تدريبًا بلغ من الإتقان حتى إن واحدًا منها لم يخذلنا قط، فيما عدا ديك ديونيسيو إغواران المأسوف عليه، ذلك الذي أجهز على ديك السلطة

الرمادي بهجمة واحدة نظيفة مُوفَّقة، حتى إنه كان أول من اجتاز الحلبة بنفسه ليشدَّ على يد الفائز، إنك لفحل، قال له عن طيب خاطر، مُمتنًّا لكون أحدهم قد أسدى إليه ذلك المعروف وألحق به هزيمة لا ضرر منها أخيرًا، كم كنت أبذل حتى أقتني ذلك الديك الأحمر، قال له، فأجابه ديونيسو إغواران مرتجفًا إنه لك سيدي الجنرال، ولي جزيل الشرف، ثم انصرف عائدًا إلى بيته وسط تصفيق الشعب المهتاج وصخب الموسيقى والمفرقعات، فراح يبدي للجميع الديكة الستة الأصيلة التي قد أهداها له بنفسه مقابل الديك الأحمر الذي لا يُقهَر، ثم أقفل دونه باب المخدع ليلتها وشرب ملء قَرْعة من عرق قصب السكر ثم شنق نفسه بحبل السرير المُعلَّق، مسكين ذاك الرجل، أما هو فما كان يعلم بسيل الكوارث المنزلية التي تسفر عنها ظهوراته المفعمة بالفرح، ولا بصفوف الموتى الذين يتركهم في طريقه على غير رغبته، ولا بالحكم الأبدي الصادر في حقٍّ أنصاره التعساء الذين ناداهم بأسماء خاطئة في حضرة قتلته المأجورين المجتهدين الذين كانوا يفسِّرون الخطأ على أنه إشارة مُتعمَّدة تشي بنفوره منهم، وكان يطوي البلد طولًا وعرضًا بمشية حيوان المُدرَّع الغريبة التي يتهادى فيها، وأثر عرقه الهائج، ولحيته المُؤجَّل تهذيبها، ثم يظهر من دون سابق إنذار في أي مطبخ بمظهر الجَدِّ عديم النفع الذي يبعث الرعدة في أهل البيت من فرط الخوف، ويغترف الماء من الجرَّة بالقَرْعة، ويأكل من القِدْر حيث يلتقط قطع الطعام بأصابعه، وهو أكثر جذلًا مما ينبغي، وأكثر بساطةً مما ينبغي، فلا يرتاب في أن وصمة زيارته عالقة بذلك البيت إلى الأبد، وما كان يتصرَّف على هذا النحو طبقًا لحسبة سياسية ولا تلبيةً لحاجته إلى الحب كما فعل في زمن آخر، بل لأنها كانت طريقته في التصرُّف بعفوية قبل أن تغدو

السلطة مستنقعًا موحلًا بغير ضفافٍ في أوج الخريف، بل حين كانت فيضًا من الحُمَّى نراه بأعيننا يتفجَّر من ينابيعه البكر، وهكذا كانت إشارة من بنانه كافية لتثمر الأشجار وتنمو الحيوانات وينجح الرجال، ولقد أصدر أمره بمنع الأمطار حيثما أضرَّ بالمحصول ومن ثم إنزالها على الأرض اليابسة، وقد كان يا سيدي، فلقد رأيتُ بعيني، ذلك أن أسطورته قد بدأت قبل وقت طويل من إيمانه بسيادته المطلقة على سلطته، حين كان لا يزال تحت رحمة نُذُر الشؤم ومُفسِّري الكوابيس، وكان يتَّخذ قراره فجأةً بقطع رحلة بمُجرَّد البدء فيها إثر سماعه شدو طائر البيغوا المنذر بالموت فوق رأسه، ويغيِّر موعد ظهوره علنًا إثر عثور أمه بينديسيون ألبارادو على بيضة لها صفاران، كما حلَّ حاشيته المُؤلَّفة من أعضاء البرلمان والنوَّاب المجتهدين الذين كانوا يصحبونه أينما ذهب ويلقون عنه الخطب التي لم تواتِه الجرأة على إلقائها قط، فتخلَّى عنهم إثر حلم مشؤوم رأى فيه نفسه داخل البيت الكبير الخاوي وقد تحلَّق حوله رجال شاحبون في سترات رسمية رمادية اللون، راحوا يخزِّونه بسكاكين الجزار باسمين ويطاردونه في هياج شديد، حتى إنه كان يجد شفرة مُتحفِّزة لجرح وجهه وعينيْه أينما ولَّى بصره، ورأى نفسه كالوحش يحاصره القتلة الصامتون الباسمون الذين أخذوا يتنازعون على امتياز المشاركة في تقديم القربان والتلذُّذ بدمائه، بَيْد أنه لا أحسَّ غضبًا ولا خوفًا بل ارتياحًا هائلًا جعل يزداد عمقًا والحياة تنسلُّ منه، أحسَّ بانعدام الوزن والنقاء، وهكذا فقد افترَّ ثغره عن ابتسامة وهم يردونه قتيلًا، وراح يبتسم لهم ولنفسه في أجواء بيت الحلم حيث اصطبغت جدران الكلس الحيّ برذاذ من دمي أنا، حتى كان أن سدَّد إليه أحد أبنائه في الحلم طعنة عند ملتقى الفخذيْن من حيث لفظتُ آخر أنفاسي

المُتبقِّية، وعند ذلك سجَّى رأسه بغطاء مُضرَّج بدمائه لئلَّا يتعرَّف إليه ميِّتًا أولئك الذين عجزوا عن التعرُّف عليه حيًّا، ثم خرَّ ينتفض تحت وطأة حشرجة الموت الذي بلغ من الحقيقية حتى إنه لم يقوَ على كتم حاجته الماسّة للإفضاء به إلى رفيقي وزير الصحة الذي انتهت به الحال وقد بثَّ الذعر في نفسه، كاشفًا له أن تلك الميتة قد وقعت ذات مرة في تاريخ البشر سيدي الجنرال، ثم قرأ له الواقعة في واحد من مُجلَّدات الجنرال لاوتارو مونيوس الثخينة المُصفَرَّة، فإذا هي نسخة طبق الأصل يا أمي، حتى إنه تذكَّر في أثناء القراءة تفصيلة بعد أن نسيها لدى استيقاظه من نومه، فتذكَّر أن نوافذ البيت الرئاسي قد انفتحت كلها بغتةً وهم يردونه قتيلًا مع أنه لم تكن هناك ريح، تلك النوافذ التي كان عددها في الواقع يطابق عدد جراحه في الحلم، ثلاثًا وعشرين، مصادفة مُروِّعة بلغت ذروتها حين وقع هجوم شنَّه القراصنة في الأسبوع نفسه على البرلمان ومحكمة العدل وسط اللامبالاة المتواطئة التي أبدتها القوات المُسلَّحة، فاقتلعوا البيت المهيب من الجذور، بيت أبطالنا الأصليين حيث شُوهِدَت ألسنة اللهب تتأجَّج حتى ساعة مُتأخِّرة من ساعات الليل عَبْر الشرفة الرئاسية، بَيْد أنه لم يحفل بالخبر القائل بأنهم قد أتوا على كل شيء ولم يُبقوا حتى على حجارة الأساس سيدي الجنرال، بل إنه تعهَّد لنا بأن ينزل عقابًا نموذجيًّا بمقترفي الهجوم الذين لم يظهر لهم أثر قط، وتعهَّد لنا بأن يُشيِّد نسخة طبق الأصل من بيت الأبطال الذي ظلَّت أنقاضه المُتفحِّمة باقية حتى أيامنا، إلَّا أنه لم يفعل شيئًا لمداراة التعويذة المُروِّعة التي التجأ إليها اتقاءً للحلم المشؤوم وإنما اغتنم الفرصة لتصفية الجهاز التشريعي والقضائي للجمهورية القديمة، وأغدق الثروات وآيات التكريم على أعضاء البرلمان والنوَّاب

وقضاة المحاكم الذين لم تعُد به حاجة إليهم حفاظًا على المظاهر التي بها تميَّز مطلع حكمه، ثم نفاهم إلى سفارات هانئة بعيدة حتى لم يعُد له من الحاشية سوى ذلك الظلِّ الوحيد، ظلِّ الهندي صاحب الساطور الذي لم يفارقه لحظةً واحدة، فكان يسبقه إلى تذوُّق الطعام والشراب، ويحافظ على المسافة بينهما، ويراقب الباب في أثناء تواجده في بيتي حيث يعزِّز الرواية القائلة بأنه عشيقي السري، وإن كان في حقيقة الأمر يزورني مرة أو مرتيْن شهريًا كي أقرأ له ورق اللعب على مدى تلك الأعوام الطوال، وهو لا يزال يحسب نفسه فانيًا ويتحلَّى بفضيلة الشك، ويعرف كيف يخطئ ويثق في ورق اللعب بأكثر مما يثق في غريزته الجبلية، فكان يصل مذعورًا هرمًا كعهده حين جلس أمامي لأول مرة ومدَّ لي هاتيْن اليديْن من دون أن ينبس بكلمة، باسطًا راحتيْه الناعمتيْن المشدودتيْن كبطن الضفدع، راحتيْه اللتيْن لم أكُن قد رأيتُ قط ولن أرى مرة أخرى أبدًا طوال حياتي بالغة الطول التي عشتُها قارئةً أقدار الآخرين، ثم إنه وضعهما على الطاولة في آن واحد في ما يشبه الرجاء الشريد الصامت وبدا لي من اللهف وخيبة الأمل حتى إن راحتيْه القاحلتيْن لم تؤثِّرا في نفسي بقدر ما فعل شجنه الذي لا يلين، ووهن شفتيْه، وقلب الشيخ المسكين الذي نخره الريب، ذلك القلب الذي لم تتعذَّر قراءة قَدَره في يديْه فقط، بل وكذلك عَبْر جميع طرائق العِرافة التي كنا على دراية بها آنذاك، فهو لا يكاد يقطع ورق اللعب حتى يغدو آبارًا عكرة، وتتشوَّش بقايا القهوة في قاع الفنجان الذي يرتشف منه، وتتلاشى المفاتيح من كل ما يمتُّ بصلة لمستقبله الشخصي وسعادته ومصير أفعاله، حتى وإن تجلَّى قَدَرُ كل من يمتُّ له بصلة، وهكذا فقد رأينا أمه بينديسيون ألبارادو وهي تلوِّن طيورًا أسماءها أجنبية وقد طعنت

في العمر حتى كادت تعجز عن التمييز بين الألوان في الهواء المُلوَّث بالأبخرة الكريهة، مسكينة هي أمي، ورأينا مدينتنا وقد دكَّها إعصار بلغ من الهول حتى ما عاد يستحقُّ اسم المرأة الذي سُمِّي به، ورأينا رجلًا يضع قناعًا أخضر اللون ويحمل سيفًا فسأل هو مُغتمًّا أين موقع ذلك الرجل في العالَم، فأجاب ورق اللعب بأنه يغدو أقرب إليه أيام الثلاثاء مقارنةً بباقي أيام الأسبوع، فقال آها، وسأل ما لون عينيْه، فأجاب الورقُ بأن له عينًا بلون عصير القصب المُشرَّب بالضياء وعينًا بلون عصير القصب الغارق في الظلام، فقال آها، وسأل ما النية التي يضمرها ذلك الرجل، فكانت تلك آخر مرة أكشف له فيها عن حقيقة الورق حتى النهاية حين أجبتُه بأن القناع الأخضر إنما هو قناع الغدر والخيانة، فقال آها، في نبرة انتصار، ها قد عرفتُ من يكون، سحقًا، صاح، فكان ذلك الرجل هو الكولونيل نارسيسو ميرابال، واحدًا من أقرب مساعديه إليه، أنهى حياته بعد يوميْن برصاصة من مسدسه أطلقها في أذنه بلا أدنى تفسير، مسكين ذاك الرجل، وهكذا كان يُدبَّر مصير الوطن ويُستبَق تاريخه بما يوافق تنبُّؤات ورق اللعب، حتى سمع بأمر عرَّافة لا نظير لها تكشف طلاسم الموت على مياه الطاس التي لا تخيب، فذهب يفتِّش عنها سرًّا عَبْر مضائق البغال وليس معه من الشهود سوى الملاك صاحب الساطور، حتى بلغ كوخًا في البارامو حيث استقرَّ المقام بالعرَّافة مع ابنة حفيدتها التي كانت أمًّا لثلاثة أطفال ومشرفةً على ولادة آخر من زوج قضى نحبه الشهر الماضي، فألفاها كسيحةً شبه عمياء في خلفية مخدع يكاد يغشاه الظلام، ولكن حين سألته أن يضع يديْه فوق الطاس التمعت المياه بألقٍ داخلي ناعم صافٍ، وعند ذاك رأى نفسه، طبق الأصل، مستلقيًا على وجهه أرضًا، في الزي الكتاني المُجرَّد من الشارات، والطماق،

ومهماز الذهب، فسأل أين يقع ذلك المكان، فأجابته المرأة وهي تتفرَّس في المياه النائمة بأنها حجرة لا تزيد حجمًا على هذه، ويبدو على صفحة المياه أن بها عَلَمًا يحمل شعار التنِّين، ونافذة تطلُّ على البحر ومكتبًا ومروحة كهربائية زِدْ عليها تلك الجدران البيض بما عليها من لوحات الخيول، أما هو فقد أعاد قوله آها، ذلك أنه قد تعرَّف على المكتب الملحق بقاعة الاجتماعات بما لا يدع مجالًا للشك، وسأل بقوله أيكون موتي مُتأثِّرًا بالخُبْث أم بالمرض الخبيث، فأجابته نافيةً، بل إنه سيكون في أثناء النوم بغير ألم، فقال آها، وسألها مرتجفًا متى، فأجابته بأن ينام هانئًا، فلن يكون قبل أن تبلغ عمري، أي مائة وسبعة أعوام، ولكن ليس بعد مرور مائة وخمسة وعشرين عامًا أخرى، فقال آها، وعند ذاك اغتال العجوزَ المريضة على السرير المُعلَّق لئلَّا يعرف أحد سواه ملابسات موته، فخنقها بسير مهماز الذهب، بغير ألم، بغير تنهيدة واحدة، كالجلَّاد المُحنَّك، فكانت هي الكائن الوحيد في العالَم بأسره الذي أنعم عليه بشرف قتله بيديْه، الكائن الوحيد بين البشر والحيوانات، في الحرب أو السلم، مسكينة تلك المرأة. وما كانت أمثال تلك الذكريات تخز ضميرَه في ليالي الخريف، ذكريات أيامه الحافلة بالخزي، بالعكس، بل إنه كان يتَّخذ منها أقاصيص نموذجية ويستشهد بها على ما كان ينبغي له أن يكون فلم يكُن، ولا سيما حين تبخَّرت مانويلا سانتشيس تحت ظلال الكسوف، فأراد هو الإحساس بأنه في أوج وحشيته مرة أخرى ليجتثَّ الغضب المُتَّقد في أحشائه بعد الاستهزاء الذي لقيه، فكان يستلقي على السرير المُعلَّق تحت جلاجل ريح التمر الهندي، حيث يفكِّر في مانويلا سانتشيس بضغينة تعكِّر صفو نومه في حين تفتِّش عنها قوَّات البرِّ والبحر والجوّ فلا تعثر لها على أدنى أثر ولا حتى

علي تخوم صحارى ملح البارود المجهولة، في أي موضع لعين تخفّيتِ، مضى يسائل نفسه، في أي موضع لعين خطر لك التخفّي حيث لا تطولكِ ذراعي، لسوف تعرفين من هو الآمر الناهي، وفوق صدره ارتجفت القبعة على وقع زخم القلب، فكان ينتشي بثورته العارمة وهو لا يأبه لإلحاح أمه التي سعت إلى الوقوف على حقيقة سكوتك عن الكلام منذ أمسية الكسوف، وما تأمُّلك داخل نفسك، فما كان يحير جوابًا، بل إنه رحل، سحقًا يا أمي، مضى يجرجر قائمتَي اليتيم اللتيْن يخطو بهما نازفًا قطرات المرارة وقد جُرِح كبرياؤه بعلقم لا دواء له، علقم الخطوب التي أتجشَّمها من جرَّاء حماقتي، ولأني لم أعُد حَكَمًا على قَدَري كما في سابق عهدي، ولأني دخلتُ بيت مومس بإذن من أمها وليس كما دخلتُ مزرعة فرانسيسكا لينيرو الساكنة المفعمة بالهواء المنعش في ضيعة سانتوس إيغيرونيس، حين كان لا يزال هو من يكشف عن وجه السلطة بشخصه وليس پاتريسيو أراغونيس، فدلف إلى المزرعة وفقَ هواه من دون أن يمسَّ حتى مطرقة الباب على وقع دقَّات الحادية عشرة الآتية من الساعة ذات البندول، ثم إني سمعتُ الرنين المعدني، رنين مهماز الذهب آتيًا من الشرفة المُطلَّة على الباحة، فأدركتُ أن دقَّات يد الهاون المفعمة بالسلطة فوق بلاط الأرضية لا يمكن أن تكون سوى خطواته هو، أحسستُ به حاضرًا بكامل هيئته قبل رؤياه وقد شَخَص عند مدخل الشرفة الداخلية حيث طفق الكروان يشدو معلنًا عن تمام الحادية عشرة وسط أزهار الچيرانيوم الذهب، كما راحت طيور التروپيال تشدو وقد خدَّرها الأسيتون النفَّاذ الآتي من سباطات الموز المُدلَّاة من الإفريز، أما ضياء الثلاثاء المشؤوم من شهر أغسطس فقد جعل يُسرِّي عن نفسه وسط أوراق الموز الجديدة في الباحة، وجسد

صغير الأيل الذي اقتنصه زوجي پونسيو داسا فجرًا وتركه ينزف دماءه ما زال مُدلًّى من قوائمه على مقربة من سباطات الموز المترع بالعسل حتى بات أرقش اللون، رأيتُه أضخم وأشد قتامة مما لو كان في حلم، رأيتُه ينتعل البوط الموحل والسترة الكاكي المُخضَّبة بالعرق وهو ليس يحمل في نطاقه سلاحًا، وإن شمله بظلِّه الهندي الحافي الذي لبث جامدًا بلا حراك خلفه ويده على مقبض الساطور، رأيتُ العينيْن اللتيْن ليس منهما فكاك، ويد العذراء النائمة التي انتزع بها موزة من السباطة الأقرب إليه فأكلها في لهف ثم أتبعها بأخرى فأخرى، وراح يلوكها بملء فمه مُتلهِّفًا وهو يهدر كالمستنقع من دون أن يحوِّل ناظريْه عن فرانسيسكا لينيرو المثيرة التي كانت ترنو إليه فلا تدري ماذا تفعل بخفرها الخليق بعروس، ذلك أنه قد جاء نزولًا عند مشيئته هو وما كان لقدرة أعظم من قدرته أن تحول دون ذلك، بالكاد أحسستُ بأنفاس زوجي الخائفة إذ جلس إلى جواري، فلبثنا جامدَيْن بلا حراك وقد أخذ كلٌّ منا بيد الآخر، وفي الوقت نفسه دبَّ الذعر في قلبيْنا اللذيْن يشبهان قلوب البطاقات البريدية تحت النظرة العنيدة التي بها حدَّق فينا الشيخ الذي لا يُسبَر له غور، ذلك الذي ما زال على مبعدة خطوتيْن من الباب يأكل موزة تلو الأخرى ويلقي بالقشور في الباحة من فوق كتفه من دون أن يرفَّ له جفن ولا حتى مرة واحدة منذ بدأ يحدِّق فيَّ، فأتى على سباطة الموز عن آخرها تاركًا الساق عاريةً قرب الأيل النافق، وعند ذاك فقط أشار إلى الهندي الحافي ثم أمر پونسيو داسا أن يذهب في صحبة رفيقي ذي الساطور لحظةً فلديه بعض الأمور لتسويتها معك، ورغم أني كنت أحتضر خوفًا فلقد احتفظتُ بما يكفي من صفاء الذهن لأدرك أن سبيلي الوحيد إلى الخلاص يكمن في السماح له بأن يفعل بي كل ما تهفو إليه نفسه

فوق مائدة الطعام، بل إنني ساعدتُه في العثور عليَّ وسط دانتيلا التنانير الداخلية بعد أن خنق أنفاسي برائحة الأمونياك العالقة به وانتزع سروالي الداخلي بضربة واحدة من مخالبه وراح يفتِّش عني بأنامله حيث لم أكُن، بينما رحت أفكِّر مأخوذةً وأقول لنفسي أي خزي وحق سر القربان المُقدَّس، أي حظ عاثر، فأنا لم أجد من الوقت مُتَّسعًا للاغتسال صبيحة ذلك اليوم لانشغالي بالأيل، وهكذا فقد نفَّذ مَشِيئَته أخيرًا بعد كل هذه الأشهر من الحصار الذي فرضه عليَّ، بَيْد أنه أتاها باستعجال وعلى نحو رديء، وكأنه أشد هرمًا، أو أكثر شبابًا بكثير، فكان مأخوذًا للغاية حتى إنني بالكاد انتبهتُ حين فرغ من أداء واجبه بخير ما في وسعه، ثم أجهش في البكاء بدموع من بول سخين، دموع يتيم كبير وحيد، يبكي في أسى بالغ العمق حتى إنني لم آسف له فحسب وإنما لجميع الرجال في العالَم بأسره، وشرعتُ أحكُّ رأسه بأطراف أناملي وأواسيه قائلةً إن الأمر لا يستحقُّ سيدي الجنرال، فالعمر مديد، وفي تلك الأثناء كان صاحب الساطور قد أخذ پونسيو داسا واقتاده مُتوغِّلًا في حقول الموز حيث مزَّقه شرائح بلغت من الرقَّة أن تعذَّر لمُّ أشلاء جسده التي بعثرتها الخنازير، مسكين ذاك الرجل، وإن لم يكُن أمامه حل آخر، قال هو، وإلَّا انقلب عدوًّا لدودًا مدى الحياة. كانت تلك صورًا تتجلَّى فيها سلطته وتصله من على بعد سحيق فتهيِّج المرارة التي استحوذت عليه، فإلى أي مدى خفَّت ملوحة سلطته ما دامت لا تسمح له ولا حتى باتقاء شر لعنات الكسوف، وكان خيطٌ من المرارة السوداء يبعث فيه رجفةً على طاولة الدومينو في مواجهة السيطرة الجليدية التي يفرضها الجنرال رودريغو دي أغيلار، الرجل العسكري الوحيد الذي أمَّن له على حياته منذ تيبَّست مفاصل الملاك حامل الساطور

مُتأثِّرًا بحمض البوليك، وبرغم ذلك فقد راح يسائل نفسه إن لم يكُن السبب في مصيبته كل هذا القدر من الثقة والسلطة اللتيْن أودعهما في شخص واحد، ويسائل نفسه إن لم يكُن رفيقي، رفيق العمر كله، هو الذي جعل منه عِجْلًا وحاول سلخ جلده الطبيعي، جلد زعيم الضيعة، حتى يحوِّله إلى عاجز قَصْرٍ لا يتفتَّق ذهنه عن أمر ما لم يكُن قد نُفِّذ سلفًا، والسبب يرجع إلى ذلك الاختراع الوخيم حيث يظهر وجه غير وجهه على الملأ، في حين أن هندي الأيام الخوالي حافي القدميْن يكفيه ويفيض عن حاجته لشقِّ طريقه وسط الجماهير ضربًا بالساطور صائحًا تنَّحوا جانبًا أيها الأوغاد، فهوذا الأمر الناهي آتٍ، فيما هو عاجز عن التمييز بين مواطني الوطن الصالحين والأدهياء وسط عاصفة التصفيق، إذ لم نكُن قد اكتشفنا بعد أن أولئك الأشد قتامة هم الأعلى هتافًا قائلين عاش الفحل، سحقًا، عاش الجنرال، أما الآن فما عادت سلطة سلاحه كافيةً للعثور على ملكته التعِسة بعد أن اخترقت الحصار المنيع الذي فرضه عليها، حصار شهوات الشيخوخة، سحقًا، فألقى بقطع الدومينو أرضًا، وكان يترك المباريات قبل انتهائها لغير سبب واضح مكتئبًا من جرَّاء الكشف المباغت الذي توصَّل إليه ومفاده أن الكل يهتدي إلى مكانه في العالَم عاجلًا أم آجلًا، إلَّا هو، مدركًا لأول مرة أن قميصه مُخضَّب بالعرق في مثل هذا الوقت المبكر، منتبهًا إلى نتن الجيفة المتصاعد مع أبخرة البحر وصفير الناي العذب الآتي من الفَتْق الملتوي تحت وطأة رطوبة القيظ، إنه الحرّ الخانق، قال لنفسه في غير اقتناع، وعَبْر النافذة أخذ يحاول كشف طلاسم الحالة الغريبة التي استحوذت على ضياء المدينة الجامدة التي بدا وكأنها خلت من الكائنات الحيَّة جميعًا سوى أسراب العقبان التي فرَّت مذعورةً من أفاريز مستشفى

المعوزين ومن أعمى ميدان السلاح الذي أحسَّ بذلك الشيخ يرتعد في نافذة البيت المدني فلوَّح إليه بإشارة مُلحَّة من عكازه وصاح فيه بشيء لم يتمكَّن من فهمه، فما كان منه إلَّا أن فسَّره على أنه إشارة أخرى تعزِّز إحساسه الطاغي بأن شيئًا على وشك الوقوع، وعلى الرغم من ذلك فقد ردَّد قوله في نهاية ذلك الإثنين الطويل الذي يثبِّط الهمم، إنه الحرّ الخانق، قال لنفسه، وإن لم تكُن تلك هي المرة الثانية، ثم خلد إلى النوم من فوره على هدهدة خدوش الرذاذ المتساقط فوق زجاج غشيته أستار الوَسَن، ولكنه أفاق فجأةً مذعورًا، مَنْ هناك، صاح، كان ذلك قلبه هو وقد أثقل عليه صمت الديكة الغريب فجرًا، أحسَّ بأن سفينة الكَوْن قد رست في المرفأ بينما هو نائم يسبح في حساء من البخار، وأما حيوانات اليابسة والسماء القادرة على رؤية الموت في ما وراء نُذُر الشؤم الخرقاء والعلوم البشرية الأعظم رسوخًا فقد خرست رعبًا، وأما الهواء فقد تلاشى، وأما الزمان فقد بدَّل مساره، وأما هو فقد استوى في جلسته شاعرًا بأن قلبه يتورَّم أكثر فأكثر مع كل خطوة يخطوها، وبأن طبلتي أذنيْه تتفجَّران، وبأن مادة مغليَّة تسيل من طاقتي أنفه، إنه الموت، جال بخاطره وسترته العسكرية مُخضَّبة بالدماء، قبل أن يدرك أنه ليس الموت سيدي الجنرال، وإنما الإعصار، الأشد فتكًا بين كل الأعاصير التي قسَّمت مملكة الكاريبي المتماسكة القديمة وأحالتها سيلًا من الجزر المتفرقة، وتسلَّلت الكارثة خلسة حتى إنه كان هو الوحيد الذي اكتشفها بغريزته التنبُّؤية قبل أن يدبّ الهلع في الكلاب والدجاجات بوقت طويل، وبلغت الكارثة من المباغتة حتى إنه ما كاد يجد من الوقت مُتَّسعًا ليختار اسمَ امرأة للإعصار وسط فوضى الموظفين المفزوعين الذين أقبلوا عليَّ بالخبر القائل بأننا الآن تأكَّدنا

أن هذا البلد قد انفتحت عليه أبواب الجحيم حقًّا سيدي الجنرال، بَيْد أنه أصدر أمره بتدعيم الأبواب والنوافذ بعوارض عالية، فشُدّ وثاق الخفراء في الأروقة، وأُوصِدَت الأبواب على الدجاجات والأبقار في مكاتب الطابق الأول، وثُبِّت كل شيء في مكانه بالمسامير ابتداءً من ميدان السلاح حتى آخر تخوم مملكته الموحشة المذعورة، فلبث الوطن راسيًا في مكانه مع أمر لا ردّ له بإطلاق النيران في الهواء مرتيْن أولًا، تتبعهما مرة ثالثة على الهدف مباشرة عند أدنى بادرة هلع، وعلى الرغم من ذلك فإن شيئًا لم يصمد في وجه الرياح الدوَّارة ذات النصل الرهيب الذي شقَّ بوَّابات الفولاذ المُصفَّحة المؤدِّية إلى المدخل الرئيسي شقًّا واحدًا نظيفًا وحمل الأبقار في الهواء، ولمَّا كان هو واقعًا تحت سحر الصدمة فإنه لم يدرك من أين جاء دويُّ الأمطار الأفقية التي نثرت في مجالها بَرَدًا بركانيًّا من حطام الشرفات ووحوش الغابات الكائنة في أعماق البحر، ولم يجد من صفاء الذهن ما يكفي للتفكير في أبعاد الكارثة الرهيبة بل إنه مضى في مهب الطوفان وقد ترسَّب في حلقه مذاق مِسْك الضغينة متسائلًا أين عسى أن تكوني يا مانويلا سانتشيس، يا ريقي المرير، سحقًا، أين عسى أن تكوني قد تخفَّيتِ لئلَّا تدركك مصيبة ثأري. وفي غمرة السكون الذي تلا الإعصار وجد نفسه يبحر وحيدًا مع أقرب مساعديه على متن زورق تجديف في حساء حطام قاعة الاجتماعات، فخرجوا من باب المرأب يجدِّفون بلا تعثُّر وسط جذوع النخيل وأعمدة الإنارة التي جرفها الإعصار في ميدان السلاح، ثم خاضوا بحيرة الكاتدرائية الميتة حيث تكبَّد للحظة ذلك الوميض الاستشرافي مرة أخرى، فتراءى له أنه لم ولن يكون صاحب سيادة مطلقة على سلطته يومًا، وظلَّ يشقى بندى ذلك اليقين المرير

والزورق يتعثَّر عَبْر فضاءات تتباين كثافتها بحسب التغيُّرات الطارئة على لون ضياء الزجاج المُعشَّق المُطعَّم بأوراق الذهب المصمت وعناقيد الزمرد، في مذبح الكنيسة الرئيسي وعلى شواهد قبور نوَّاب الملوك الذين دُفِنوا أحياء ورؤساء الأساقفة الذين أودى الخذلان بحياتهم، وعلى مرتفع الغرانيت حيث استقرَّ الضريح الخاوي لأميرال البحر المحيط[1] المُزيَّن بنقش جانبي يصوِّر سفن الكارافيل الثلاث التي أصدر هو أمره ببنائها على سبيل الاحتياط، فلربما أراد أن تستريح عظامه وسطنا، وخرجنا عَبْر قناة مذبح الكنيسة إلى باحة داخلية كانت قد تحوَّلت إلى حوض مائي يشعُّ نورًا هامت في قاعه الخزفي أسراب سمك الموغارات[2] بين أعواد الناردين وعبَّاد الشمس، ولقد شققنا طريقنا عَبْر الجداول المظلمة حيث دير راهبات بيثكايا، فرأينا الزنازين مهجورة، ورأينا آلة الكلافيكور الموسيقية هائمة في البِرْكة الحميمية لقاعة الإنشاد، ورأينا جماعةَ العذارى غارقات في أعماق المياه النائمة التي غمرت قاعة الطعام، فرأينا كلًّا منهن في مكانها أمام المائدة الطويلة بما قُدِّم فوقها من طعام، ثم إنه خرج إلى الشرفات فرأى تحت السماء المشرقة الفضاء البُحَيْري الرحيب حيث كانت المدينة في ما مضى، وعند ذاك فقط صدَّق بصحة الخبر القائل بأن تلك الكارثة لم تضرب العالَم بأسره إلَّا من أجل خلاصي من شقائي بمانويلا سانتشيس سيدي الجنرال، سحقًا، كم وحشية هي سبل الرَّب إذا ما قُورِنَت بسبلنا، جعل يفكِّر في رضى،

(1) أميرال البحر المحيط: يُقصَد به كريستوف كولومبوس، وهو اللقب الذي خلعه عليه ملكًا إسبانيا عام 1492.

(2) الموغارات: فصيلة من الأسماك تعيش في المناطق الاستوائية والكاريبي وخليج المكسيك.

وهو يتأمَّل المستنقع العكر حيث كانت المدينة في ما مضى، ذلك المستنقع الذي طفا على صفحته عالَمٌ من الدجاجات الغارقة، حيث لم يبرز شيء عدا أبراج الكاتدرائية، والفنار، والشرفات المشمسة في القصور المُشيَّدة في حي نوَّاب الملوك، والجُزُر المتناثرة على تلال مرفأ الرقيق القديم التي خيَّم فيها غرقى الإعصار، آخر الناجين المُشكِّكين، نحن الذين رحنا نتأمَّل الزورق المطلي بألوان العلم الوطني في مروره الصامت ما بين طحالب جثث الدجاجات الهامدة، ورأينا العينيْن المحزونتيْن، والشفتيْن الذاويتيْن، واليد المُتأمِّلة التي جعلت ترسم إشارة صليب البَرَكة حتى تنقطع الأمطار وتسطع الشمس، ثم إنه بعث الحياة في الدجاجات الغارقة، وأمر بأن ينخفض منسوب المياه فانخفض منسوب المياه. وفي غمرة نواقيس الفرح، ومفرقعات الأعياد، وموسيقى المجد التي دوَّت احتفالًا بوضع حجر الأساس في مشروع إعادة التعمير، وفي غمرة هتافات الجماهير المحتشدة في ميدان السلاح تمجيدًا لصاحب الاستحقاق والجدارة الذي طرد تنين الإعصار، جذبه أحدهم من ذراعه ليخرج به إلى الشرفة لأن الشعب في أمسِّ الحاجة إلى كلمة تشجيع منك الآن أكثر من أي وقت مضى، وقبل أن يتمكَّن من الإفلات سمع صخبًا جماعيًا يتسلَّل إلى أحشائه كرياح البحر الهائج، عاش الفحل، ذلك أنه منذ أيام حكمه الأولى عرف الهجران الناجم عن الوقوف على مرأى من المدينة بأسرها في آن واحد، تحجَّرت كلماته، وأدرك في ومضة من صفاء الذهن المميت أنه لم ولن يمتلك الشجاعة يومًا ليطلَّ بكامل هيئته على شفا هاوية الجماهير، وهكذا فلم نرَ في ميدان السلاح إلَّا صورته العابرة المعهودة أبدًا، لم نرَ سوى لمحة من شيخ لا يُمَسّ في ثياب كتانية، فإذا هو يمنحنا بَرَكته الصامتة من الشرفة الرئاسية ثم

يختفي من فوره، بَيْد أننا اكتفينا بتلك الرؤيا الخاطفة لتعزيز ثقتنا بأنه هناك، يسهر على يقظتنا وسباتنا تحت أشجار التمر الهندي التاريخية في باحة قصر الضواحي، كان مستغرقًا على الكرسي المُتأرجِح المضفور من الخيزران، وفي يده قدح عصير ليمون لم يرتشف منه قطرة واحدة، بينما هو ينصت إلى وقع حبات الذرة التي كانت أمه بينديسيون ألبارادو تنثرها في القَرْعة لتهويتها، فيراها عَبْر ذبذبات قيظ الثالثة وقد أحكمت قبضتها على دجاجة رمادية اللون، ثم تأبّطتها ولوت عنقها بشيء من الرقة فيما هي ترنو إلى عينيّ وتقول بصوت مفعم بالأمومة، لقد أوشكتَ على الإصابة بداء السل من فرط التفكير وسوء التغذية، ابقَ لتناول الطعام الليلة، توسَّلت إليه محاولةً إغواءه بالدجاجة المخنوقة التي قبضت عليها بيديْها كلتيْهما لئلَّا تفلت منها وهي تحشرج في النزع الأخير، فقال هو حسنًا يا أمي، سأبقى، فكان يبقى إلى أن يرخي الليل سدوله مغمض العينيْن على الكرسي المُتأرجِح المضفور من الخيزران، فلا يذوق للنوم طعمًا، على هدهدة الرائحة الناعمة، رائحة الدجاجة المغلية في القدر، منصرفًا إلى مسار حيواتنا، فما كان شيء على وجه الأرض يبعث الطمأنينة في نفوسنا عدا اليقين بأنه هناك، معصوم من الطاعون والإعصار، معصوم من استهزاء مانويلا سانتشيس، معصوم من الزمن، وقد نذر نفسه لغَبطَة المُخلِّص المُتمثِّلة في التفكير من أجلنا، عارفًا أننا نعرف أنه لن يتَّخذ عنا قرارًا إلَّا وكان ملائمًا لمقاسنا، ذلك أنه لم ينجُ من كل ما جرى بفضل شجاعته العصية على التصوُّر ولا رصانته اللامتناهية بل لأنه هو الوحيد وسطنا الذي عرف الحجم الواقعي لقَدَرنا، ثم إنه وصل إلى هناك يا أمي، فجلس يستريح بعد رحلة شاقة على آخر صخرة تاريخية على الحدود الشرقية النائية،

حيث نُقِش اسم وتاريخ آخر جندي مات دفاعًا عن سلامة الوطن، فرأى المدينة الكئيبة الجليدية في البلد المجاور، ورأى الرذاذ الأبدي، وضباب الصباح المُحمَّل برائحة السخام، ورأى الرجال بثياب المراسم في عربات الترام الكهربائية، وجنائز النبلاء في مركبات قوطية تجرُّها خيول بيض مُكلَّلة بالريشات من سلالة بيرتشيرون، ورأى الأطفال النيام وقد التحفوا بورق الجرائد في باحة الكاتدرائية، سحقًا، أي ناس غريبي الأطوار، صاح، يبدون شعراء، غير أنهم لم يكونوا سيدي الجنرال، بل إنهم القوط[1] في السلطة، قالوا، أما هو فقد عاد من تلك الرحلة مأخوذًا بالكشف الذي اهتدى إليه، ومفاده أن شيئًا لا يضاهي تلك الريح المفعمة برائحة الجوافة العفنة ولا ذلك الضجيج السوقي ولا ذلك الشعور الدفين بالكدر ساعة الأصيل في هذا الوطن البائس الذي لن يذهب إلى ما وراء تخومه أبدًا، ليس لأنه يخشى مفارقة الكرسي الذي عليه قد تربَّع، طبقًا لما تناقلته ألسن الأعداء، ولكن لأن الرجل كالشجرة الجبلية يا أمي، كالحيوانات الجبلية التي لا تبرح عرينها إلَّا من أجل الطعام، كان يقول، وبالصفاء الذهني المميت الذي يغشى وَسَن القيلولة جعل يستحضر إلى الذاكرة ذلك الخميس الباعث على النعاس من شهر أغسطس منذ أعوام طوال خلت، يومَ واتته الجرأة على الاعتراف بأنه يعرف حدود طموحه، الأمر الذي كشف عنه لمحارب من أرض غير الأرض وزمن غير الزمن، المحارب الذي استقبله هو على انفراد في غَبَش المكتب الحارق، كان شابًا خجِلًا، مأخوذًا بالكبرياء

(1) القوط: شاع استخدامها في كولومبيا للإشارة إلى المحافظين، وإن كان القوط في الأصل قبائل جرمانية يُعتقَد بأنها جاءت من إسكندنافيا. وتتكرَّر الكلمة بالمعنى المتعارف عليه في كولومبيا في غير موضع.

ويحمل سيمة العزلة منذ الأزل، ظلَّ جامدًا بلا حراك عند الباب فلم يعقد العزم على اجتيازه حتى أَلِفت عيناه الغَبَش المُعطَّر بأبخرة نبتة الوستارية المتصاعدة من المجمرة في غمرة القيظ، فاستطاع أن يميِّزه جالسًا على الكرسي الدوَّار واضعًا قبضته الجامدة على الطاولة العارية، وقد بلغ من الرتابة والشحوب حتى إنه ما كان يمتُّ لصورته العمومية بأدنى صلة، جلس هناك بلا مرافقين، مُجرَّدًا من السلاح، في قميص مُخضَّب بعرق رجل فانٍ، وقد ألصق على صدغيْه أوراق نبتة السالڤيا للتداوي من الصداع، وفقط حين اقتنعتُ بتلك الحقيقة العصيّة على التصديق القائلة بأن ذلك الشيخ الصدئ هو نفسه معبود طفولتنا والتجسيد الأنقى لأحلام المجد التي راودتنا، حينها فقط دلف المحارب إلى المكتب وقدَّم نفسه باسمه مُتحدِّثًا بالصوت الواضح الحازم، صوت رجل يأمل التميُّز بفضل أعماله، أما هو فقد شدَّ على يدي بيد عذبة خبيثة، يد أسقف، ثم أولاه انتباهًا مشوبًا بالدهشة من تلك الأحلام الرائعة، أحلام الأجنبي الذي يريد السلاح والتضامن دفاعًا عن قضية هي قضية فخامتكم أيضًا، ويريد الدعم اللوجستي والدعم السياسي لخوض حرب بلا ثكنات من شأنها أن تمحو كل الأنظمة المحافظة إلى الأبد من آلاسكا وحتى باتاغونيا، أما هو فتأثَّر كل التأثُّر بحماسته المُتَّقدة، حتى إنه سأله ما لكَ ولتلك الأمور، سحقًا، ما رغبتك في الموت، فأجابه الأجنبي بلا أدنى أثر للخجل قائلًا إنه لا مجد يسمو على الموت من أجل الوطن يا صاحب الفخامة، أما هو فابتسم في شفقة قائلًا لا تكُن أحمق يا فتى، فالوطن أن يبقى المرء على قيد الحياة، قال، ها هو ذا، قال، ثم بسط قبضته المُتَّكئة على الطاولة، وأبدى له تلك الكُرَيَّة الزجاج التي استقرَّت في راحة يده، وذلك شيء إما تملكه وإما لا تملكه، وليس

يملكه سوى مالكه يا فتى، ذلك هو الوطن، قال، مُودِّعًا إياه بربتات على ظهره من دون أن يمنحه شيئًا، أو حتى يواسيه بعهد، ثم أمر المرافق الذي أقفل الباب ألَّا يعاودوا مضايقة هذا الرجل الذي خرج من فوره، وألَّا يهدروا وقتهم ولا حتى في مراقبته، قال، فهو مصاب بالحُمَّى في منابت الريش، ولا نفع يُرجَى من ورائه. لم نسمعه يكرِّر تلك العبارة حتى كان يومٌ بعد الإعصار أعلن فيه عن عفو جديد من أجل السجناء السياسيين، وسمح بعودة سائر المنفيين في ما عدا الأدباء، بالطبع، كلهم إلَّا هؤلاء، أبدًا، قال، فهم مصابون بالحُمَّى في منابت الريش، كالديكة الأصيلة إذا بدَّلت ريشاتها، ولذا فلا نفع يُرجَى من ورائهم إلَّا حين يُرجَى من ورائهم نفع، قال، فأولئك شرّ من السياسيين، وشرّ من الكهنة، تخيَّلوا، أما الآخرون فليأتوا من دون تمييز على أساس اللون لتكون إعادة تعمير الوطن مهمة يشترك فيها الجميع، حتى لا يبقى شخص واحد إلَّا وتأكَّد أنه قد استعاد سيادته المطلقة على سلطته مرة أخرى بدعم ضارٍ مُقدَّم من القوات المُسلَّحة التي عادت إلى سابق عهدها مرة أخرى بعد أن عمد هو إلى تقسيم شحنات المؤن والأدوية ومواد الإغاثة العامة التي توفِّرها المساعدات الخارجية بين جنرالات القيادة العليا، ومنذ أصبحت أُسَر وزرائه تقضي أيام الآحاد على الشاطئ في خيام الصليب الأحمر وفي مستشفيات قابلة للفكِّ والتركيب، وأصبحت شحنات بلازما الدم وأطنان الحليب المُجفَّف تُباع لوزارة الصحة فتعاود الوزارة بيعها مرة أخرى لمستشفيات الفقراء، وأما ضباط أركان الحرب فقد بدَّلوا بطموحاتهم عقود المشاريع العمومية وبرامج إعادة التأهيل التي باشروا العمل عليها بفضل القرض العاجل المُقدَّم من السفير ڤارِن مقابل الحق في الصيد داخل مياهنا الإقليمية بلا قيود لصالح سفن

بلده، سحقًا، ذلك شيء ليس يملكه سوى مالكه، كان يقول لنفسه، وهو يتذكَّر الكُرَيَّة المُلوَّنة التي أبداها لذلك الحالم المسكين الذي انقطع خبره إلى الأبد، ثم إنه بلغ من نشوته بمهمة إعادة التعمير حتى إنه شرع يباشر أدق التفاصيل بالصوت الحي والجسم الحاضر كما في مطلع زمن السلطة، فمضى يتمرَّغ في مستنقعات الشوارع وقد اعتمر قبعة صيَّادي البطِّ وانتعل بوطه لئلَّا تُقام مدينة أخرى سوى المدينة التي تفتَّق عنها ذهنه من أجل مجده في أحلامه، أحلام الغريق في عزلته، فكان يأمر المهندسين بقوله أزيلوا تلك البيوت من هنا وضعوها هناك حيث لا تقف عثرة في سبيلنا، فيزيلونها، وزيدوا ارتفاع ذلك البرج بمقدار متريْن لرؤية السفن في أعالي البحار، فيزيدون ارتفاع البرج، واعكسوا اتجاه مجرى هذا النهر من أجلي، فيعكسونه، بخطًى لا تتعثَّر، وبلا أدنى أثر لضعف الهمّة، فمضى مأخوذًا بعملية الترميم المحمومة، ومستغرقًا في مهمته، ومنصرفًا عن دونها من شؤون الدولة الأقل أهمية، حتى اصطدم بالواقع رأسًا حين أخبره مرافقٌ شارد البال بمشكلة الأطفال على سبيل الخطأ، فسأل من مكانه في السديم الفلكي قائلًا عن أي أطفال تتحدَّث، الأطفال سيدي الجنرال، ولكن أي أطفال، سحقًا، فلقد أخفوا عنه حتى ذلك الحين أن الجيش يحتجز في السر أولئك الأطفال الذين عُهِد إليهم بسحب أرقام اليانصيب خشية أن يبوحوا بالسبب وراء فوز بطاقة الرئيس دومًا، وأما من أعرب عن احتجاجه من الآباء فكانوا يجيبونه بأن تلك مزاعم تفتقر إلى الصحة ريثما يتفتَّق ذهنهم عن إجابة خير منها، ويقولون له إنها أكاذيب مغرضة ينشرها من لا وطن لهم، وافتراءات اختلقتها المعارضة؛ وأما أولئك الذين أعلنوا العصيان أمام إحدى الثكنات فقد فرَّقوهم بقذائف الهاون، ما أسفر

عن مذبحة جماعية أخفينا أمرها عنكم أيضًا لئلَّا نتسبَّب لكم في أي إزعاج سيدي الجنرال، فالحقيقة أن الأطفال كانوا سجناء في أقبية حصن المرفأ، حيث هيَّأنا لهم أفضل الظروف الممكنة، فمعنوياتهم مرتفعة وصحتهم ممتازة، كل ما هنالك أننا لا نعرف ماذا نفعل بهم الآن سيدي الجنرال، وهم قرابة ألفي طفل. أما الطريقة التي لا تخيب لربح جائزة اليانصيب فقد تفتَّق عنها ذهنه من دون أن يضطرّ للبحث عنها، فيما هو يراقب الأرقام المُطعَّمة بها كرات البلياردو، وكانت الفكرة من البساطة والإبهار حتى إنه لم يصدِّق نفسه حين رأى الجماهير المُتلهِّفة وقد فاض بها ميدان السلاح ابتداءً من منتصف النهار وراحت تدلي بتوقُّعاتها في انتظار المعجزة تحت الشمس الحارقة وسط هتافات الامتنان واللافتات المنادية بالمجد الأبدي للمعطاء الذي يفرِّق السعادة، وسط عازفي الموسيقى والبهلوانات، والمقاصف والمقالي، وألعاب الروليت الكالحة التي عفا عليها الزمن، وبطاقات اليانصيب المُزيَّنة برسوم الحيوانات، وحطام عالَم غير العالَم وزمن غير الزمن يحوم على مشارف الحظ في محاولة للإثراء بفتات كل هذه الأوهام، ثم انفتحت الشرفة في الثالثة، وأُمِر بالصعود إليها ثلاثة أطفال تقلُّ أعمارهم عن سبعة أعوام اختارتهم الجماهير بنفسها عشوائيًّا بما لا يدع مجالًا للشك في نزاهة الطريقة المُتَّبعة، ثم تسلَّم كل طفل جوالًا بلون مختلف بعد التأكُّد من احتواء كل جوال على عشر كرات بلياردو مُرقَّمة من واحد إلى صفر على مرأى من شهود كاملي الأهلية، يُرجَى الانتباه، سيداتي سادتي، فحبس الجمهور أنفاسه، سوف يلتقط كل طفل كرةً واحدة من جواله وهو معصوب العينيْن، الطفل ذو الجوال الأزرق أولًا، يليه ذو الجوال الأحمر، وأخيرًا ذو الجوال الأصفر، واحدًا تلو الآخر، فكان

كلٌّ من الأطفال الثلاثة يدسّ يده ويتحسَّس في قاع الجوال تسع كرات متطابقة بينها كرة واحدة مُثلَّجة، فيلتقط الكرة المُثلَّجة نزولًا عند الأمر الذي أمليناه عليهم سرًّا، ويظهرها على مرأى من الجمهور، ثم يُقرأ الرقم عاليًا، وهكذا يلتقط الأطفال الكرات الثلاث المتطابقة أرقامها وأرقام البطاقة التي يحتفظ بها لنفسه بعد وضع الكرات في الثلج عدة أيام، وإن لم يدُر في خلدنا يومًا أن الأطفال قد يبوحون بالسرِّ سيدي الجنرال، فتأخَّرنا في إدراك الأمر حتى لم تعُد أمامهم وسيلة أخرى سوى إخفاء الأطفال ثلاثة ثلاثة، ثم خمسة خمسة، ثم عشرين عشرين، تخيَّل سيدي الجنرال، فراح هو يتتبَّع خيوط المكيدة حتى انتهى به المطاف وقد اكتشف تورُّط جميع ضباط القيادة العليا لقوَّات البرِّ والبحر والجوِّ في السحب الإعجازي على جائزة اليانصيب الوطنية، كما اكتشف أن أول دفعة من الأطفال قد صعدوا إلى الشرفة بموافقة آبائهم الذين درَّبوهم على تلك العلوم الوهمية بأنفسهم أيضًا، علوم التعرُّف باللمس على الأرقام العاجية المُطعَّمة بها الكرات، وأما أولئك الذين لحقوا بهم من الأطفال فقد أُرغِموا على الصعود إلى الشرفة عنوة بعد أن سرت إشاعة تزعم بأن كل من يصعد إلى الشرفة من الأطفال لا يعاود النزول، فأصبح الآباء يخفون أبناءهم، ويدفنونهم أحياء ريثما تمرُّ دوريات الهجوم التي تفتِّش عنهم في منتصف الليل، أما قوات الطوارئ فلم تطوِّق ميدان السلاح للسيطرة على الهذيان الجماعي، كما زعموا له، وإنما لكبح جماح الجماهير المندفعة مثل قطعان الماشية تحت التهديد بالقتل، وأما الدبلوماسيون الذين تقدَّموا بطلب عقد اجتماع من أجل التوسُّط في حل النزاع فقد اصطدموا بذلك العبث المُتمثِّل في تأكيد المُوظَّفين أنفسهم على صحة الأساطير المنسوجة حول أمراضه النادرة،

زاعمين بأنه لا يقوى على استقبالهم بسبب الضفادع المتكاثرة في بطنه، ولا يتمكَّن من النوم إلَّا واقفًا على قدميْه حتى لا يجرح نفسه بأشواك سحالي الإغوانا الناتئة من فقرات ظهره، هذا وقد أُخفِيَت عنه رسائل الاحتجاج والرجاء الواردة من أنحاء العالَم كافة، كما أُخفِيَت عنه برقية واردة من قداسة البابا أعرب فيها عن قلقنا البابوي الرسولي بشأن مصير الأبرياء، ولم يعُد في السجون مُتَّسع للمزيد من الآباء المُتمرِّدين سيدي الجنرال، ولم يعُد هنالك أطفال لإجراء سحب الإثنين، سحقًا، في أي ورطة زججنا بأنفسنا. وعلى الرغم من كل شيء، فهو لم يدرك العمق الحقيقي للهاوية حتى رأى الأطفال في الباحة الداخلية بحصن المرفأ مُكدَّسين كما الأغنام في المجزر، رآهم خارجين من الأقبية كموجة من العنزات المتدافعة وقد أبهرتهم أشعة الشمس بعد شهور طوال من الرعب الليلي، ثم شرد الأطفال في الضياء، كانوا من الكثرة في آن واحد حتى إنه لم يرَهم ألفي طفل على حدة وإنما رآهم حيوانًا هائلًا بلا هيئة يفوح من جلده الذي لفحته الشمس عفن مبهم، حيوانًا يهدر كالمياه العميقة وقد أمن على نفسه من الإبادة بفضل طبيعته التعدُّدية، إذ يستحيل القضاء على كل هذه الحياة إلَّا وأسفر ذلك عن أثر مُروِّع من شأنه أن يطوف حول الأرض بأسرها، سحقًا، ليس هنالك ما يمكن عمله، ولمَّا كان مقتنعًا بذلك فقد دعا لاجتماع القيادة العليا، أربعة عشر قائدًا مرتجفًا، أشد هولًا من أي وقت مضى لأنهم لم يبلغوا تلك الدرجة من الفزع في أي وقت مضى، أما هو فقد أخذ كل ما يلزمه من الوقت ليتفرَّس في عينيّ كل واحد منهم، واحدًا تلو الآخر، وعند ذاك أدرك أنه وحده ضد الجميع، فظلَّ مرفوع الرأس، وغلَّظ صوته، ثم جعل يحثُّهم على الوحدة الآن أكثر من أي وقت مضى إعلاءً لشرف القوات المُسلَّحة

واسمها، ثم أحلَّهم من كل آثامهم بقبضة محكمة فوق الطاولة لئلّا يلاحظوا عليه رعشة الحيرة وأمرهم بالبقاء في مواقعهم وأداء واجباتهم بالقدر نفسه من الهمّة والسطوة كعهدهم أبدًا، فقد اتّخذتُ قرارًا ساميًا لا ردّ له بأن شيئًا لم يحدث هنا، رُفِعَت الجلسة، وأتحمَّل كامل المسؤولية بنفسي. وكمُجرَّد إجراء احترازي أخرج الأطفال من حصن المرفأ وأرسلهم على متن شاحنات ليلية إلى المناطق الأقل ازدحامًا بالسكان في البلد ريثما يتصدَّى للعاصفة التي أثارها تصريح رسمي خطير بعدم صحة المزاعم، فالسلطات لم تحتجز أطفالًا، بل إن سجينًا واحدًا من أي فئة لم يعُد خلف أسوار السجون، وما تلك الأكاذيب المغرضة حول الاختطاف الجماعي سوى ادعاءات خسيسة اختلقها من لا وطن لهم بغرض إثارة القلاقل، وهاكم أبواب البلد مشرعة من أجل تقصِّي الحقيقة، تعالوا وفتِّشوا عنها بأنفسكم، فجاؤوا، إذ جاءت لجنة من عصبة الأمم فحرَّكت الأحجار الأبعد عن الأنظار في البلد وحقَّقت بدقة متناهية مع كل من أرادت كما أرادت، حتى إن بينديسيون ألبارادو سألت من يكون أولئك الدخلاء الذين جاؤوا في ثياب الوسطاء الروحيين واقتحموا بيتها مُفتِّشين عن ألفي طفل تحت الأسِرَّة، وفي سلَّة أدوات الحياكة، وداخل أواني فُرَش التلوين، ثم شهدوا على الملأ في خاتمة المطاف بأنهم قد وجدوا السجون مقفلة، والوطن في سلام، وكل شيء في موقعه، فلم يعثروا على مُؤشِّر واحد قد يؤكِّد ما ذهبت إليه الظنون العامة من انتهاك مبادئ حقوق الإنسان بالأعمال أو بالنيات، بالفعل أو بالسهو، نَمْ هانئًا سيدي الجنرال، فها قد رحلوا، ومن النافذة لوَّح لهم مُودِّعًا بمنديل مُطرَّز الحواشي، شاعرًا بالارتياح من شيء قد انتهى إلى الأبد، وداعًا أيها الحمقى، بحرًا هادئًا ورحلة سعيدة، ندَّت

عنه تنهيدة، قُضِي الأمر، بَيْد أن الجنرال رودريغو دي أغيلار ذكَّره بأن كلَّا، الأمر لم يُقضَ بعد، فما زال الأطفال باقين سيدي الجنرال، فصفع جبينه براحة يده، سحقًا، كان قد نسي الأمر برمَّته، ماذا نحن فاعلون بالأطفال. وفيما هو يحاول صرف تلك الفكرة المزعجة ريثما يخطر له حلٌّ جذري أصدر أمره بإخراج الأطفال من مخبئهم في الأدغال والمضي بهم في الاتجاه المعاكس، إلى قرى الأمطار الدائمة حيث لا تهبُّ رياح قد تفشي السر وتذيع أصواتهم، هناك حيث تتعفَّن الحيوانات البرية في سيرها وتنمو الزنابق على الكلمات وتسبح الأخطبوطات وسط الأشجار، فأمر بنقلهم إلى مغارات جبال الأنديز[1] التي يغشاها الضباب الدائم لئلاً يُعرَف لهم مكان، أمر بنقلهم من أشهر نوفمبر العكِرة العفنة إلى أشهر فبراير ذات الأيام الأفقية لئلَّا يُعرَف لهم مكان، وأرسل إليهم أقراص الكينا[2] والأغطية الصوفية إذ نما إلى علمه أنهم ينتفضون تحت وطأة الحُمَّى بعد أن قضوا أيامًا وأيامًا مُتخفِّين في حقول الأرز، وقد غاصوا في الوحل حتى أعناقهم لئلَّا ترصدهم طائرات الصليب الأحمر، ثم إنه أمر بصبغ أشعة الشمس وبريق النجوم باللون الأحمر لشفائهم من الحُمَّى القرمزية، وأمر برشِّهم من الجو بمساحيق المبيدات الحشرية لئلَّا تأكلهم آفات حقول الموز، وكان يرسل إليهم أمطارًا من الحلوى وعواصف من المُثلَّجات بالقشدة على متن طائرات ومظلَّات مُحمَّلة بألعاب أعياد الميلاد لإدخال السرور إلى نفوسهم ريثما يتفتَّق ذهنه عن حلٍّ سحري، وهكذا فقد أمن على نفسه من لعنة ذكراهم،

---

(1) الأنديز: سلسلة جبال تمتدُّ على طول الساحل الغربي من أمريكا الجنوبية مرورًا بسبعة بلدان بما فيها كولومبيا.

(2) كينا: مُركَّب يُستخدَم في علاج الملاريا والالتهاب والحمَّى.

فنسيهم، وغاص في ذلك المستنقع الموحش حيث الأرق المنزلي والليالي المتشابهة التي لا يُحصَى لها عدد، ثم إنه سمع الدقّات المعدنية تعلن تمام التاسعة، فأخرج الدجاجات النائمة على أفاريز البيت المدني ومضى بها إلى قن الدجاج، ولم يكُن قد فرغ من إحصاء عدد الحيوانات النائمة على السقالات حين دلفت خادمة خلاسية لتجمع البيض، فأحسَّ بوهج شبابها، وسمع حفيف صديريتها، فما كان منه إلّا أن انقضّ عليها، حذار سيدي الجنرال، همست إليه مرتجفة، حذار وإلّا تهشَّم البيض، دعيه يتهشَّم، سحقًا، قال، ثم طرحها بضربة واحدة من مخالبه من دون أن يجرِّدها أو يجرِّد نفسه من الثياب، وقد تكدَّر صفوه من فرط اللهف على الإفلات من المجد العصي على المساس، مجد ذلك الثلاثاء الذي اكتسى بالخراء الأخضر للحيوانات النائمة، زلَّت قدماه، فسقط في هوة من الدوَّار الوهمي صنعتها خطوطٌ شاحبة من التملُّص وإفرازات العرق وتنهُّدات امرأة حانقة وتهديدات خادعة بالنسيان، وفي سقوطه مضى تاركًا منعطف الرنين المُتلهِّف الآتي من شهاب مهماز الذهب، مضى تاركًا أثرًا من حصى لهاث الزوج المُتعجِّل، ونحيب الكلاب الخافت، وفزعه من الوجود عَبْر شرارة انفجار الموت المباغت ودويّه الصامت، ولكن عند سفح الجرف استقرَّ الهشيم مرة أخرى بما تساقط عليه من خراء، وأرق الدجاجات، وأسى الخلاسية التي استوت في جلستها وثوبها مُلطَّخ بدِبْس صفار البيض فراحت تتحسَّر قائلةً ها أنت ترى ما قلتُ لك يا جنرال، فلقد تهشَّم البيض، أما هو فجعل يدمدم محاولًا كظم غيظه من حبٍّ آخر بلا حب، دوِّني عدد البيض المُهشَّم، قال لها، وسأقتطع الثمن من أجركِ، ثم رحل، كانت العاشرة، مضى يتفحَّص لثات الأبقار واحدة تلو الأخرى في

الحظائر، ورأى إحدى نسائه تتمزَّق ألمًا على أرض المهجع، ثم رأى القابلة تنتزع من أحشائها وليدًا تغشاه الأبخرة وقد التفّ حبله السري حول عنقه، كان ذكرًا، ماذا نسمّيه سيدي الجنرال، كما يحلو لكما، أجاب، كانت الحادية عشرة، وكدأبه في كل ليلة من ليالي نظامه شرع يحصي عدد الخفراء، ثم تفقَّد الأقفال، وغطّى أقفاص الطيور، وأطفأ الأنوار، كانت الثانية عشرة، والوطن في سلام، والعالم في سباته، ثم اتَّجه صوب المخدع في البيت الغارق تحت جنح الظلام عَبْر دفقات ضياء النهارات الخاطفة التي يبثُّها الفنار في دورانه، وعلَّق مصباح الهرولة إلى الخارج، وأوصد المزاليج الثلاثة، والمغاليق الثلاثة، والأقفال الثلاثة، ثم جلس على المرحاض المُتنقِّل، وفيما هو يعتصر بوله الشحيح أخذ يربت على الخصية المصابة بالفتق، تلك الصغيرة القاسية، حتى استقام الالتواء ونامت الصغيرة في يده، تلاشى الألم، غير أنه عاد من فوره مصحوبًا بصاعقة من الهلع حين مرقت عَبْر النافذة دفقة ريح آتية من ما وراء تخوم صحارى ملح البارود وبعثرت في أرجاء المخدع نثار أغنية الجماهير الحانية المتسائلة عن الفارس الذي شدَّ الرحال إلى الحرب وتتنهَّد أي ألم أي أسى، ثم إنهم ارتقوا برجًا لرؤيته آتيًا، فرأوه وقد أقبل عائدًا، هوذا قد عاد، ما أحسن ذلك، عاد في صندوق من المخمل، أيُّ ألم أي أسى[1]، وكانت أصوات

---

(1) الفقرة مقتبسة من أغنية أطفال شعبية وردت فيها المقاطع التالية: «مامبرو شدَّ الرحال إلى الحرب، أي ألم، أي ألم، أي أسى! مامبرو شدَّ الرحال إلى الحرب، ولست أدري متى يقبل عائدًا». «إني ارتقيتُ البرج، أي ألم، أي ألم! إني ارتقيتُ البرج، لرؤيته إن هو أقبل عائدًا»، «مامبرو قضى نحبه، أي ألم، أي ألم، أي جورا مامبرو قضى نحبه، ولسوف يدفنونه». «في صندوق من المخمل، أي ألم، أي ألم، أي أسى! في صندوق من المخمل، يعلوه غطاء من الزجاج». ومن الجدير بالذكر أن تلك هي النسخة الإسبانية من أغنية فرنسية الأصل تعود إلى القرن الثامن عشر.

الجوقة من الكثرة والبُعد حتى إنه كان سيخلد إلى النوم مُتوهِّمًا أنه غناء النجوم، ولكنه استوى في جلسته حانقًا، كفى، سحقًا، صرخ، إما هم وإما أنا، صرخ، فكانوا هم، ذلك أنه أصدر أمره قبل الفجر بأن يُوضَع الأطفال على متن زورق مُحمَّل بالإسمنت، فحُمِلوا على متن الزورق وهم يتغنّون حتى بلغوا حدود المياه الإقليمية، وهناك نُسِفوا بعبوة ديناميت وهم ما زالوا يتغنّون، فلم يُتْرَك لهم من الوقت مُتَّسعًا للشعور بالمعاناة، أما وقد نفَّذ الضباط الثلاثة جريمتهم فإنهم وقفوا أمامه في وضع الانتباه حاملين إليه الخبر القائل بأن أمركم قد نُفِّذ بنجاح سيدي الجنرال، فما كان منه إلَّا أن رقَّاهم درجتيْن وقلَّدهم نيشان الوفاء، ثم أمر بإعدامهم رميًا بالرصاص بلا تكريم، شأنهم في ذلك شأن عامة المجرمين لأن هنالك من الأوامر ما يصدر ولا يُنفَّذ، سحقًا، مساكين أولئك الأطفال. وكانت التجارب شديدة القسوة من هذا القبيل تُرسِّخ يقينه الموغل في القدم بأن ألدّ أعداء المرء يكمن في داخله، أي في ائتمان القلب، وبأن الرجال الذين يسلِّحهم ويرقّيهم لمساندة نظامه هم أنفسهم الذين يبصقون في اليد التي تطعمهم في خاتمة المطاف، عاجلًا أم آجلًا، فكان هو يسحقهم بضربة واحدة من مخالبه، ويأتي بآخرين من العدم، فيرقّيهم إلى أرفع المراتب بإشارة من إصبعه وفق ما توحي به نزواته، أنت أرقّيك إلى رتبة كابتن، وأنت كولونيل، وأنت جنرال، أما الباقون فأرقّيهم إلى رتبة ملازم، سحقًا، ثم يراهم وهم يتضخَّمون داخل الزيّ العسكري إلى أن يتفتَّق نسيجه، فيغيبون عن ناظريْه، وإذا بمصادفة من قبيل الكشف عن ألفي طفل مخطوف تكشف له أنه لم يكُن رجلًا واحدًا ذلك الذي خذله، وإنما خذله جميع جنرالات القيادة العليا في قوات مُسلَّحة لا يُرجَى من ورائها إلَّا زيادة استهلاك الحليب أما في ساعة

الجدِّ فهي تتغوَّط في الصحن الذي فرغت من الأكل فيه لتوها، وأنا الذي أنجبتُهم جميعًا، سحقًا، أنا الذي صنعتهم من أضلعي، وفاز بالاحترام والخبز من أجلهم، وبرغم ذلك فهو لم يهنأ بلحظة واحدة من الطمأنينة في مسعاه ليأمن على نفسه من طموحاتهم، فكان يُبقِي أشدهم خطورة على مقربة منه لمراقبتهم عن كثب، وأما أقلهم جرأة فيبعثهم إلى حاميات الحدود، وبسببهم وافق على احتلال مشاة المارينز يا أمي، وليس من أجل مكافحة الحُمَّى الصفراء، كما كتب السفير تومسون في البيان الرسمي، ولا من أجل حمايته من المعارضة الشعبية، كما ادَّعى السياسيون المنفيون، وإنما وافقتُ حتى يعلِّموا رجالنا العسكريين كيف يكونوا أناسًا بحق، وقد كان يا أمي، فكل امرئ وما أتقن، إذ علَّمهم مشاةُ المارينز كيفية السير بالحذاء، وتنظيف أنفسهم بورق المرحاض، واستخدام الواقي الذكري، وهم الذين علَّموني سرَّ الحفاظ على الأجهزة المتوازية لتأجيج الخصومات وإلهاء العسكريين، كما اخترعوا مكتب أمن الدولة من أجلي، والوكالة العامة للاستخبارات، والدائرة الوطنية للنظام العام وغيرها الكثير والكثير، حتى إني لم أعُد أذكرها أنا نفسي، أجهزة متطابقة يجعلها تبدو كما لو كانت متباينة ليحكم بقدر أكبر من الطمأنينة في مهب العاصفة، حيث يحمل البعض على الاعتقاد بأنهم يخضعون لمراقبة البعض الآخر، ويخلط البارود في ثكناتهم برمال الشاطئ ويغلِّف حقيقة نياته بصور زائفة تظهر فيها الحقيقة المضادة، وإذا هم يتمرَّدون على الرغم من ذلك، فيقتحم الثكنات وهو يلوك زبَد المرارة، ويصرخ قائلًا تنحّوا جانبًا أيها الأوغاد فهوذا الآمر الناهي آتٍ وسط ذعر الضباط الذين يتدرَّبون على الرماية بالاستعانة بصوري أنا، جرِّدوهم من السلاح، أمر وهو ماضٍ لا يريم غير أنه

أملى أمره بنبرة غضبَى مفعمة بقدر هائل من السلطة حتى إنهم جرَّدوا أنفسهم من السلاح بـأنفسهم، اخلعوا عنكم ثياب الرجال، أصدر أمره، فخلعوها، لقد تمرَّدت قاعدة سان خيرونيمو سيدي الجنرال، فما كان منه إلَّا أن دلف عَبْر البوابة الكبرى يجرجر قائمتي الشيخ المُتألِّم الضخمتيْن وسط صفَّيْن من الحرس المُتمرِّدين الذين قدَّموا له تحيَّة الجنرال الزعيم الأعلى، وظهر في قاعة القيادة المُتمرِّدة، بلا مرافقين، مُجرَّدًا من السلاح، وإن طفق يصرخ في وقدة من السلطة المُتفجِّرة قائلًا انبطحوا أرضًا فقد وصل القادر على كل شيء، انبطحوا أرضًا يا أولاد القحاب، فانبطح على الأرض تسعة عشر ضابط أركان حرب، على وجوههم، فسُحِلوا على الأرض وسفّوا التراب في أنحاء القرى الساحلية لتروا كم يساوى العسكري من دون زيّه، يا أولاد القحاب، سمع بنفسه أوامره التي لا ردّ لها تعلو فوق الصيحات في الثكنة المضطربة، اعدموا المُحرِّضين على التمرُّد رميًا بالرصاص من الخلف، ثم عُرِضَت الجثث مُعلَّقةً من كواحلها تحت أشعة الشمس في العراء لئلَّا يبقى شخص واحد إلَّا وعرف مصير أولئك الذين يبصقون على الرَّب، أيها المحتالون، ومع ذلك ما كانت تلك الحملات التطهيرية الدامية تضع حدًّا للأمر، فعند أدنى بادرة سهو من جانبه كان يجد نفسه مرة أخرى أمام تهديد ذلك الكائن الطفيلي ذي المجسَّات الذي حسب أنه قد اقتلعه من الجذور، ولكنه عاود التكاثر في مهب عواصف السلطة العاتية وفي ظلال الامتيازات القسرية وفتات السطوة والثقة القائمة على المصلحة التي كان يضطرّ لمنحها إلى الضباط الأكثر بسالة رغمًا عن مشيئته مدفوعًا بعجزه عن الاستمرار من دونهم أو حتى معهم، محكومًا إلى الأبد بأن يعيش حياته وهو يتنفَّس الهواء الذي يخنقه، سحقًا، ما ذاك من العدل في

شيء، كما استحال عليه العيش في ذعر دائم من نقاء رفيقي الجنرال رودريغو دي أغيلار الذي دلف إلى مكتبي بوجه رجل ميِّت مُتلهِّفًا لمعرفة مصير الألفي طفل، أطفال جائزتي الكبرى في اليانصيب الذين يقول الجميع إننا قد أغرقناهم في البحر، فقال له في غير تأثُّر ألَّا يصدِّق تلك الأكاذيب المغرضة التي ينشرها من لا وطن لهم يا رفيق، فالأطفال يكبرون في سلام الرَّب، قال، وأنا أسمعهم بنفسي يتغنّون كل ليلة في تلك الأنحاء، قال، راسمًا بيده دائرة واسعة تشير إلى مكان مبهم في الكون، بل إنه ترك السفير إيڤانز محاطًا بهالة من الشكوك حين أجاب عن سؤاله في غير اكتراث قائلًا لستُ أدري عن أي أطفال تحدِّثني ما دام مبعوث دولتكم نفسه قد شهد علانيةً أمام عصبة الأمم بأن الأطفال في مدارسهم، وهم في تمام الصحة والعافية، سحقًا، قُضِي الأمر، وعلى الرغم من ذلك فهو لم يستطِع منعهم من إيقاظه في منتصف الليل حاملين إليه الخبر القائل بأن تمرُّدًا قد اندلع في أضخم حاميتيْن في البلد، علاوة على ثكنة إل كونديه الواقعة على بعد مُربَّعيْن سكنييْن من البيت الرئاسي سيدي الجنرال، عصيان من أشد صنوف العصيان هولًا بزعامة الجنرال بونيبِنتو باربوسا المُرابِط في الخنادق مع ألف وخمسمائة من رجال القوَّات المُدجَّجين بالسلاح والعتاد المُهرَّب على أيدي قناصل موالين للمعارضة السياسية، ولذا فالوضع لا يسمح بأن يقف المرء عاقدًا ذراعيْه سيدي الجنرال، فالآن قد انفتحت علينا أبواب الجحيم حقًّا. في زمن غير الزمن، كان سيتعامل مع ذلك التمرُّد البركاني باعتباره حافزًا يشعل شغفه بالأخطار، ولكنه خير من يعلم العبء الحقيقي الذي يمثِّله عمره، وخير من يعلم أن إرادته لا تكاد تكفيه للصمود في وجه خراب عالمه السرّي، وأنه يعجز عن النوم في ليالي

الشتاء إلّا بعد تهدئة الصفير الناجم عن ألم خصيته المصابة بالفتق التي يحيطها براحة يده ويهدهدها في حنان قائلًا نامي يا صغيرتي نامي، وأن معنوياته تنسلّ منه وهو جالس على المرحاض يدفع روحه قطرة قطرة وكأنها تترقرق عَبْر مصفاة سدَّتها طحالب الليالي الطوال التي أمضاها وهو يتبوَّل في عزلته، وأن ذكرياته تتبخَّر، وأنه ما عاد يدري على وجه التحديد مَنْ هو مَنْ، أو مَنْ مُرسَل من طرف مَنْ، تحت رحمة قَدَر لا مهرب منه في ذلك البيت المفعم بالحسرة الذي كان يودُّ لو بدَّل به آخر منذ زمن مضى، بعيدًا عن هنا، في أيٍّ من خرائب الهنود حيث لا أحد يدري أنه الوحيد الذي تولّى رئاسة الوطن لأعوام بلغت من الطول والكثرة حتى إنه هو نفسه لم يحصِ لها عددًا، وعلى الرغم من ذلك، فحين عرض الجنرال رودريغو دي أغيلار خدماته للوساطة من أجل التوصُّل إلى تسوية لائقة مع المُتمرِّدين لم يجد نفسه في حضرة الشيخ الخرِف الذي يستغرق في النوم خلال الاجتماعات، وإنما في حضرة الثور القديم الذي أجابه من دون تفكير لحظة وقال دعْ عنك تلك الترّهات، فهو لن يرحل، وإن لم تكُن المسألة مسألة رحيل من عدمه، فالجميع يقف ضدنا سيدي الجنرال، حتى الكنيسة، فقال هو كلا، فالكنيسة تقف مع الآمر الناهي، قال، أما جنرالات القيادة العليا المجتمعون منذ ثمانٍ وأربعين ساعة فلم يفلحوا في التوصُّل إلى اتفاق، لا يهمّ، قال هو، وسترى كيف يتّخذون قرارهم بمُجرَّد أن يعرفوا من يدفع أكثر، أما زعماء المعارضة المدنية فقد أماطوا اللثام عن وجوههم أخيرًا وأصبحوا يتآمرون على قارعة الطريق، هكذا أفضل، قال هو، علِّقْ واحدًا منهم على كل عمود من أعمدة الإنارة في ميدان السلاح حتى يعرفوا من هو القادر على كل شيء، إن ذاك لضرب من المحال

سيدي الجنرال، فالناس معهم، كذب، قال هو، الناس معي أنا، ولن يخرجني أحد من هنا إلَّا جثة هامدة، عقد العزم، وضرب على الطاولة بيد العذراء القاسية كما لا يفعل إلَّا في القرارات الحاسمة، ثم خلد إلى النوم حتى ساعة حلب الأبقار وعند ذاك وجد قاعة الاجتماعات وقد تحوَّلت إلى مكبٍّ نفايات، ذلك أن مُتمرِّدي ثكنة إل كونديه قد رشقوا البيت بالحجارة حتى لم يتركوا نافذة واحدة سليمة في الرواق الشرقي، ثم قذفوا كرات اللهب التي انهالت عَبْر النوافذ المُهشَّمة وبثَّت الهلع في قلوب أهل البيت طوال الليل، لو أنك رأيتَ بعينيْك سيدي الجنرال، لم يغمض لنا جفن ونحن نركض جيئة وذهابًا حاملين الأغطية وغالونات المياه لإخماد آبار النيران المُتأجِّجة في الأركان الأبعد عن البال، أما هو فلم يكَد يعيرهم انتباهه، قلتُ لكم ألَّا تلقوا إليهم بالًا، مضى يقول، وهو يجرجر قائمتيْن كالمقبرتيْن عَبْر أروقة الرماد ومزق الأبسطة ولوحات النسيج الشائطة، ولكنهم مستمرون، قالوا له، فقد بعثوا برسالة فحواها أن كرات اللهب ما هي إلَّا تحذير، وبعدها تجيء التفجيرات سيدي الجنرال، فاجتاز الحديقة غير عابئ بأحد، وتحت الظلال الأخيرة تنسَّم حفيف الورود الوليدة، وفوضى الديكة في مهب ريح البحر، ماذا نحن فاعلون سيدي الجنرال، قلتُ لكم ألَّا تلقوا إليهم بالًا، سحقًا، ثم ذهب لمراقبة حلب الأبقار كدأبه في الساعة نفسها من كل يوم، وهكذا فقد رأى مُتمرِّدو ثكنة إل كونديه العربةَ التي تجرّها البغال مُحمَّلةً بستة أقساط من الحليب آتيةً من الحظيرة الرئاسية كدأبها في الساعة نفسها من كل يوم، وعلى حافة العربة استقرّ الحوذي المعهود حاملًا رسالة شفوية تقول هاكم الحليب الذي أرسله إليكم سيدي الجنرال رغم أنكم ما زلتم تبصقون في اليد التي

تطعمكم، صرخ فيهم ببراءة غامرة حتى إن الجنرال بونيينتو باربوسا أمر بتسلُّم الحليب شريطة أن يتذوَّقها الحوذي أولًا للتأكُّد من خلوه من السموم، وعند ذاك انفتحت البوابات الحديد فدخلت العربة وبلغت منتصف الباحة المرصوفة على مرأى من المُتمرِّدين الألف وخمسمائة الذين أطلّوا من الشرفات الداخلية، ثم إنهم رأوا فرد الخدمة العسكرية الذي صعد إلى حافة العربة حاملًا الإبريق والمغرفة ليذيق الحوذي الحليب، فرأوه يرفع غطاء قسط الحليب الأول، ورأوه طافيًا في بِرْكة عابرة من وهج يخلب الأبصار، ثم لم يروا شيئًا سواه إلى أبد الآبدين في غمرة القيظ البركاني الذي خيَّم على بناية الجِصِّ الأصفر الكئيبة حيث لم تكُن زهرةٌ قط، البناية التي ظلَّ حطامها مُعلَّقًا في الهواء لحظةً على أثر انفجار أقساط الديناميت الستة انفجارًا مُدوِّيًا. قُضِي الأمر، ندت عنه تنهيدة في البيت الرئاسي، وهو يرتجف تحت وطأة الأنفاس الزلزالية التي أطاحت بأربعة بيوت أخرى حول الثكنة وهشَّمت كريستال الأعراس في جميع الخزائن حتى ما كان يقع منها خارج أسوار المدينة، قُضِي الأمر، تنهَّد، وعند ذاك خرجت عربات جمع القمامة من حصن المرفأ مُحمَّلة بجثث ثمانية عشر ضابطًا أُعدِموا رميًا بالرصاص وقد اصطفّوا اثنيْن اثنيْن توفيرًا للذخيرة، قُضِي الأمر، تنهَّد، وعند ذاك وقف القائد رودريغو دي أغيلار أمامه في وضع الانتباه حاملًا إليه الخبر القائل بأن لم يعُد في السجون مُتَّسعًا للمزيد من السجناء السياسيين مرة أخرى سيدي الجنرال، قُضِي الأمر، تنهَّد، وعند ذاك دقَّت نواقيس الفرح ودوَّت مفرقعات الحفلات وعزفت موسيقى المجد إعلانًا عن مجيء مائة عام أخرى من السلام، قُضِي الأمر، سحقًا، وانفضَّ الحفل، قال، وبلغ به الاقتناع والسهو عن حاله والتهاون في أمنه الشخصي حتى

إن غريزته قد خذلته صبيحةَ اجتاز الباحة عائدًا بعد حلب الأبقار فلم يرَ في الوقت المناسب ذلك الأبرص الزائف الذي هبَّ من بين شجيرات الورود كالشبح معترضًا سبيله تحت رذاذ أكتوبر الوئيد، ولم يرَ إلَّا بعد فوات الأوان ذلك الوميض المفاجئ، وميض مُسدَّس من الفولاذ المسقي، والسبابة المرتعشة التي بدأت تضغط على الزناد حين طفق هو يصرخ باسطًا ذراعيْه وفاتحًا صدره، أتحدَّاك أيها الوغد، أتحدَّاك، مضى يصرخ مبهوتًا لأن ساعته قد أزفت، على عكس ما ذهبت إليه تنبُّؤات الطاس الأكثر جلاءً، أطلقْ عليَّ النار لو أنك رجل ولك خصيتين بحقّ، صرخ، وفي لحظة تردُّد عصية على الإدراك تألَّقت نجمة شاحبة في سماء عيني المعتدي، وذبلت شفتاه، وارتعشت إرادته، أما هو فقد انهال على صدغَيْ المعتدي بمطرقتي قبضتَيْه، وطرحه أرضًا، ثم أفقده وعيه بركلة على فكِّه وكأنها ضربة بيد الهاون، وسمع من العالم الآخر جلبة الحرس الذين هرعوا إليه مُلبِّين صرخاته، ومرق عَبْر الوهج الأزرق والرعد المتواصل الآتي من الانفجارات الخمسة التي أحدثها الأبرص الزائف وهو يتلوَّى في بِرْكة من الدماء إذ أطلق على نفسه خمس رصاصات في البطن لئلَّا يقع حيًّا بين أيدي رجال التحقيق المُروِّعين في جهاز الحرس الرئاسي، ثم إنه سمع بنفسه أوامره التي لا ردّ لها تعلو فوق صرخات أخرى في البيت المضطرب، مزِّقوا الجثة إربًا لتكون عبرةً لمن يعتبر، فمُزِّقت الجثة إربًا، وعُرِض رأسه مُقدَّدًا بالملح الصخري في ميدان السلاح، وساقه اليمنى على التخوم الشرقية لسانتا ماريا دِل ألتار، وساقه اليسرى في الغرب اللامحدود من صحارى ملح البارود، وذراع في الپارامو، والأخرى في الأدغال، كما عُرِضَت نُتَفٌ من جذعه مقلية بدهن الخنزير تحت أشعة الشمس في العراء حتى لم

يتبقَ منه سوى عظام عارية في ماخور الزنوج بطوله وعرضه وخطورته وصعوبته، لئلَّا يبقى شخص واحد إلَّا وعرف كيف تنتهي الحال بمن يرفع يده في وجه أبيه، ثم إنه مضى يتوغَّل وسط شجيرات الورود وهو لا يزال يستشيط غضبًا، بينما الحرس الرئاسي يمشِّطون المكان بأسنة السناكي بحثًا عن البُرّص لعلّهم يكشفون عن وجوههم، أيها المحتالون، وصعد إلى الطابقِ الرئيسي وهو يزيح المفلوجين عن طريقه ركلًا بقدميْه لعلّهم يتعلَّمون أخيرًا من هو الرجل الذي منه حبلت أمهاتهم، يا أولاد القحاب، وطوى الأروقة صارخًا تنحّوا جانبًا، سحقًا، فهوذا الآمر الناهي آتٍ، وسط هلعِ المُوظَّفين والمُتملِّقين الوقحين الذين بشَّروا به خالدًا، ومضى تاركًا خلفه سيلًا من أحجار لهاثه الحارق على امتداد البيت، وغاب في قاعة الاجتماعات كالبرق المُتملِّص ماضيًا صوب الحجرات الخاصّة، ودلف إلى المخدع، ثم أوصد المزاليج الثلاثة، والأقفال الثلاثة، والمغاليق الثلاثة، وبأطراف أصابعه خلع بنطاله الغارق في الخراء. لم يهنأ بلحظة راحة وهو يتشمَّم من حوله بحثًا عن العدو الخفي الذي سلَّح الأبرص الزائف، فقد حدَّثه هاجس بأنه شخص في متناول يده، قريب من حياته إلى درجة تسمح له بمعرفة مخابئ عسل النحل الخاص، له عيون في ثقوب الأبواب وآذان في الجدران في كل أوان وكل مكان، مثله كمثل صوري الشخصية، كان ذلك الشخص حضورًا مُتقلِّبًا يصفر في مهب رياح يناير التجارية فيتعرَّف عليه هو من مكانه وسط جمر الياسمين في ليالي القيظ، ويطارده شهورًا وشهورًا في غمرة الأرق الرهيب وهو يجرجر قائمتي الشبح المُروِّعتيْن عَبْر أرجاء الحجرات الأبعد عن الأنظار في البيت الغارق تحت جنح الظلام، حتى كانت ليلة من ليالي الدومينو رأى فيها نذير

الشؤم وقد تجسَّد على هيئة يد مُتأمِّلة أقفلت المباراة بقطعة الخمسة المزدوجة، فكأن صوتًا داخليًا يكشف له أن تلك هي يد الخيانة، سحقًا، ها هو ذا، قال لنفسه حائرًا، وعند ذاك رفع بصره ناظرًا عَبْر خيط من ضياء المصباح المُدلَّى فوق منتصف الطاولة، فالتقى بالعينيْن الجميلتيْن لرجل المدفعية ورفيق الروح الجنرال رودريغو دي أغيلار، يا للهول، إنه ساعده القوي، شريكه المُقدَّس، غير معقول، دار في خلده، وإذا بألمه يتفاقم كلَّما تكشَّفت له خيوط الحقائق الزائفة التي بها راحوا يلهونه على مدى الأعوام الماضية لإخفاء الحقيقة الصادمة وراء رفيقي، رفيق العمر كلّه، ذلك الذي وضع نفسه في خدمة أثرياء الساسة بعد أن انتشلهم هو بنفسه من قاع الحرب الفيديرالية الأشد دكنة مراعاةً لمصلحته، فأثراهم وأغدق عليهم الامتيازات الرائعة، وسمح لهم باستغلاله، وتحمَّل ما بدر منهم إذ تسلَّقوا كتفيْه حتى بلغوا قممًا لم تحلم بها الأرستقراطية القديمة التي ذرتها دفقات الرياح الليبرالية الكاسحة، وما زالوا يطمعون في المزيد، سحقًا، يطمعون في مكان الرَّب المختار الذي خصَّ هو به نفسه، يريدون أن يكونوا أنا، أولاد القحاب، وقد أضاء طريقهم ذلك الصفاء الجليدي والتروِّي اللامتناهي للرجل الذي أفلح في الاستحواذ على أعظم قدر من الثقة والسطوة في ظلِّ نظامه منتهزًا حظوته التي سمحت له بأن يكون الشخص الوحيد الذي يقبل هو أن يوقِّع له المستندات، فكان يأمره بأن يقرأ بصوت مرتفع الأوامر التنفيذية والقوانين الوزارية التي لا يقدر على إصدارها غيري أنا، ويشير عليه بالتعديلات، ثم يذيِّلها ببصمة الإبهام ويختمها بالخاتم الرئاسي الذي كان يحتفظ به آنذاك في خزانة لا يعرف أرقامها السرية أحد سواه، في صحتك يا رفيق، ويسلِّمه المستندات المُذيَّلة بتوقيعه

وهو يقول كعهده أبدًا تفضَّل كي تمسح بها نفسك، يقولها ضاحكًا، وهكذا أفلح الجنرال رودريغو دي أغيلار في إرساء منظومة سلطة داخل السلطة، منظومة شاسعة مثمرة بقدر تلك التي وضعتُها أنا، ولأنه لم يكتفِ بذلك فقد شرع يتحرَّك في الظلِّ بغية التحريض على تمرُّد ثكنة إل كونديه بتواطؤ السفير نورتون ودعمه غير المشروط، شريكه في المومسات الهولنديات، وأستاذه في المبارزة، والسفير الذي مرَّر الذخيرة المُهرَّبة في براميل سمك القد التي جيء بها من النرويج في حماية الحصانة الدبلوماسية، بينما هو يداهنني على طاولة الدومينو بكلام كالشموع المُعطَّرة، ويقول إن ما من حكومة تفوق حكومتي ودّية ولا عدالة ولا نموذجية، وأولئك هم أنفسهم الذين أودعوا في يد الأبرص الزائف مُسدَّسًا وخمسين ألف پيسو أوراقها مشطورة نصفيْن عثرنا على نصف مدفون في بيت المعتدي، وأما النصف الآخر فكان من المزمع أن يتسلَّمه بعد ارتكاب الجريمة من رفيقي شخصيًّا، رفيق العمر كله يا أمي، أي مرارة، ومع ذلك فهم لم يستسلموا للإخفاق وإنما تفتَّق ذهنهم في خاتمة المطاف عن الضربة المثالية من دون إراقة قطرة دم واحدة، ولا حتى من دمكم سيدي الجنرال، فكان أن جمع الجنرال رودريغو دي أغيلار شهادات على أرفع مستوى من المصداقية تقول إنني أقضي ليالي من دون أن يغمض لي جفن وأتجاذب أطراف الحديث مع المزاهر واللوحات الزيتية لأبطال الوطن ورؤساء الأساقفة في البيت الغارق تحت جنح الظلام، وإنني أقيس درجات حرارة الأبقار بالترمومتر وأناولها الفيناسيتين لتخفيف الحُمَّى، وإنني قد أمرتُ بإقامة ضريح تكريمًا لأميرال البحر المحيط الذي لم يكُن له وجود سوى في مخيلتي المحمومة رغم سفن الكارافيل الثلاث التي رأيتُها بعيني الرحيمتيْن

راسية أمام نافذتي، وإنني قد بدَّدتُ الأموال العامة مدفوعًا بآفة شراء الأجهزة المبتكرة التي لا أملك السيطرة عليها، بل وإنني قد سعيتُ لدى الفلكيين وطلبتُ إليهم الإخلال بالنظام الشمسي مرضاةً لملكة جمال لم يكُن لها وجود إلَّا في رؤى هذيانه، وإنني قد أمرتُ بوضع ألفي طفل على متن زورقٍ مُحمَّلٍ بالإسمنت في واحدة من نوبات جنون الشيخوخة، ثم أمرتُ بنسفه بالديناميت في عرض البحر يا أمي، تخيَّلي، يا لهم من أولاد قحاب، وبالاستناد إلى تلك الشهادات الخطيرة اتَّخذ كلٌّ من الجنرال رودريغو دي أغيلار ومجلس أركان الحرس الرئاسي المنعقد بكلِ أعضائه قرارًا بإيداعه في دار مُسنِّين للشخصيات المرموقة على الشِّعاب الصخرية، وذلك في الأول من مارس المقبل عند منتصف الليل خلال العشاء السنوي المُقام بمناسبة عيد الملاك الحارس، شفيع الحرس الشخصي، أي بعد ثلاثة أيام سيدي الجنرال، تخيَّل، وبرغم أبعاد المؤامرة وقرب تنفيذها فهو لم يأتِ بلفتة واحدة قد تفضي إلى الشك في معرفته بحقيقة ما يُحاك له، بل إنه استقبل المدعوين من الحرس الشخصي في الساعة المرتقبة كدأبه في كل عام ودعاهم إلى الجلوس حول مائدة الوليمة لتناول المُشهِّيات ريثما يصل الجنرال رودريغو دي أغيلار لشرب نخب الشرف، تجاذب معهم أطراف الحديث، وضحك معهم، واحدًا تلو الآخر، وفي لحظات الشرود المختلسة كان الضباط ينظرون إلى ساعاتهم، ويضعونها على آذانهم، ويديرون الزنبرك، كانت الثانية عشرة إلَّا خمس دقائق ولكن الجنرال رودريغو دي أغيلار لم يصل بعد، خيَّمت على الأجواء حرارةُ مِرجَلِ سفينةٍ مُعطَّرة بالأزهار، فانتشر عطر أزهار الدَّلبوث والتوليب، وعبقت القاعة الموصدة بعطر الورود، ثم فتح أحدهم نافذة، فالتقطنا أنفاسنا،

ونظرنا إلى ساعاتنا، وأحسسنا بدفقة بحرية رقيقة مُحمَّلة بعبق يخنة الأعراس الناعمة، أخذ الجميع يتفصَّد عرقًا إلَّا هو، وتجشَّمنا جميعًا قيظ اللحظة الخانق على تلك النيران البكر، نيران الحيوان الموغل في القِدم الذي يرمش بعينيْن مفتوحتيْن في فضاء يخصُّه وحده عالقًا في زمن آخر من أزمنة العالَم، في صحتكم، قال، رافعًا يد الزنبقة الذاوية التي لا ردّ لها مرة أخرى وهو ما زال ممسكًا بالكأس التي ظلَّ يقرعها طوال الليل نخب هذا وذاك من دون أن يرتشف منها قطرة واحدة، وفي صمت الهاوية الختامية ترامى إليهم صخب مُحرِّكات الساعات، كانت الثانية عشرة، بَيْد أن الجنرال رودريغو دي أغيلار لم يصل بعد، حاول أحدهم أن يهبّ واقفًا، من فضلك، قال، في حين جمَّده هو في مكانه بنظرة مميتة ولسان حاله يأمر بألَّا يتحرَّك أحد، وألَّا يتنفس أحد، وألَّا يعيش من دون إذني أحد، وهكذا إلى أن سكتت دقات الثانية عشرة، وعند ذاك رُفِعَت الأستار ودلف إلى المكان الجنرال المُبجَّل قائد الفرقة رودريغو دي أغيلار مُمدَّدًا بطوله على صينية من الفضة مُزيَّنة بالقنَّبيط وورق الغار، مُقدَّدًا بالتوابل، مُحمَّرًا في الفرن، ومُتبَّلًا بزيٍّ المناسبات المهيب ذي اللوزات الذهب الخمس، وأشرطة الشجاعة غير المحدودة على ردنه الواصل إلى المرفق، زِدْ على ذلك أربعة عشر رطلًا من النياشين استقرَّت على صدره وحزمة من البقدونس في فمه، وكان الجنرال رودريغو دي أغيلار مُعدًّا ليقدِّمه الجزَّارون الرسميون في وليمة الرفاق تحت أنظارنا نحن المدعوين وقد تحجَّرنا من فرط الهول ورحنا نشاهد مراسم التقطيع والتوزيع بأنفاس مكتومة، فما كادت تستقرُّ في كل صحن حصةٌ متساوية من وزير الدفاع محشوًا بالصنوبر والأعشاب العطِرة حتى أصدر هو أمره بالبدء، هنيئًا مريئًا أيها السادة.

ولقد تلافى الكثير والكثير من صخور الفوضى الأرضية والكسوفات المشؤومة وكرات اللهب المُحلِّقة في السماء حتى بدا من المحال أن يكون هنالك من لا يزال واثقًا في تنبُّؤات ورق اللعب حول قَدَره في زمننا. وعلى الرغم من ذلك، فبينما سارت الإجراءات قدمًا من أجل تهيئة الجثة وتحنيطها، كان حتى الأقل سذاجة وسطنا ما زالوا يأملون في تحقُّق التنبُّؤات القديمة من دون أن يقرّوا بذلك، مثال تلك التنبُّؤات الزاعمة بأنه متى قضى نحبه عاد وحْلُ المستنقعات إلى منابعه عَبْر الروافد، وأمطرت السماء دمًا، ووضعت الدجاجات بيضًا مُخمَّس الأضلاع، وخيَّم الصمت والظلام على الكون مرة أخرى، فلسوف تكون تلك نهاية الخليقة. كان ضربًا من المحال ألَّا يصدِّق المرء بذلك، فالصحف القلائل التي ما زالت تصدر ظلَّت تسخِّر كل جهودها للمناداة بخلوده وتزييف جلاله بمواد من الأرشيف، فيصوِّرونه لنا يوميًّا في زمن ثابت وهو يتصدَّر الصفحات الأولى في زيِّه العنيد بشموسه الخمس الحزينة الراجعة إلى زمن مجده، ويصوِّرونه أعظم سطوةً ومثابرةً وأفضل صحةً من أي وقت مضى رغم أننا ما عدنا نعرف حساب سني عمره منذ أعوام طوال، فكان يظهر في الصور المألوفة دومًا وهو يعيد افتتاح الصروح المعروفة أو منشآت الخدمات العامة التي لم يعرفها أحد على أرض الواقع، ويترأَّس لقاءات مهيبة يُقال إنها عُقِدَت أمس وإن كانت تعود

إلى القرن الماضي في واقع الأمر، وبرغم علمنا بأنها أمور عارية من الصحة، وأن أحدًا لم يرَه على الملأ منذ الميتة المُروِّعة التي لقيتها ليتيسيا ناسارينو، لمَّا بقي وحيدًا في بيت اللاأحد ومضت شؤون الحكومة اليومية تسير من تلقاء نفسها مدفوعةً بلا شيء سوى القصور الذاتي لسلطته الهائلة التي استمرَّت كل تلك الأعوام، وإذا هو ينزوي على نفسه حتى الموت في القصر المتداعي من حيث رحنا نتأمَّل بقلوب منقبضة ذلك الليل الكئيب يرخي سدوله، إذ رحنا نتأمَّل عَبْر نوافذ القصر العليا ذلك الليل الذي لا شك في أنه قد رآه مرارًا وهو جالس على عرش الأوهام، ورأينا ضياء الفنار المُتقطِّع يغمر أطلال القاعات بمياهه الخضراء الرخوة، ورأينا مصابيح الفقراء داخل الهيكل المُتهدِّم الذي كانت تشغله الوزارات ذات الزجاج الشمسي في ما مضى، قبل أن تجتاحها جحافل المعوزين لمَّا هبَّ إعصارٌ آخر من أعاصيرنا الكثيرة فاكتسح الأكواخ المُلوَّنة فوق الرُّبَى المشرفة على المرفأ، وفي الأسفل رأينا المدينة مبعثرةً تتصاعد منها الأبخرة، ورأينا الأفق المباغت مفعمًا بالبروق الشاحبة، مترامِيًا على مدى فُوَّهة رماد البحر المُباع، فكانت تلك الليلة الأولى من دونه، ورأينا إمبراطوريته الشاسعة كالبحيرة، إمبراطورية شقائق البحر الموبوءة بالملاريا، ورأينا قُراه الحارّة في دلتا روافد الوحل، والأسوجة الشرهة ذات الأسلاك الشائكة التي أحاطت بأقاليمه الخاصة، هناك حيث أخذت تتكاثر بأعداد لا تُعدُّ ولا تُحصى سلالةٌ جديدة من الأبقار الرائعة تولد موسومةً بالختم الرئاسي وراثيًّا. وفي النهاية لم يكفنا التصديق بأنه قد وُلِد ليبقى على قيد الحياة بعد مرور المُذنَّب للمرة الثالثة فحسب، وإنما بثَّت تلك القناعة في نفوسنا أمانًا وطمأنينة خِلنا أننا نداريهما بكل صنوف الدعابات الساخرة من الشيخوخة،

فكنا نعزو إليه سمات السلاحف المُعمِّرة وعادات الأفيال، ونروي في الحانات أن أحدهم قد زفَّ خبر موته إلى مجلس الحكومة فما كان من الوزراء إلّا أن تبادلوا النظرات في ذعر متسائلين والآن من يزفُّ إليه الخبر، ها، ها، ها، رغم أنه في واقع الأمر ما كان سيهتمُّ بمعرفة الخبر أو حتى يتبيَّن صحة تلك الدعابة الشارعية من بطلانها، فما كان أحدٌ سواه يعرف حينذاك أن كلَّ ما تبقَّى له بين طيَّات الذاكرة مُجرَّد مِزَق متناثرة من آثار الماضي، كان وحيدًا في العالَم، أصمّ كالمرآة، يجرجر قائمتيْه الثقيلتيْن الهرمتيْن في أرجاء مكتب موحش حيث لوَّح إليه بمنديل أبيض شخصٌ يرتدي سترة رسمية ذات ياقة مُنشَّاة في إشارة ملغزة، وداعًا، قال، وإذا بتلك الزَّلة تغدو قانونًا، فأصبح لزامًا على مُوظَّفي البيت الرئاسي أن يهبّوا وقوفًا مُلوِّحين بالمناديل البيض لدى مروره، فصار الخفراء في الأروقة والبُرْص تحت شجيرات الورود يودِّعونه بالمناديل البيض لدى مروره، وداعًا سيدي الجنرال، وداعًا، أما هو فلا يسمعهم، ذلك أنه ما عاد يسمع شيئًا منذ الحداد الغارِب الذي أُقيم على ليتيسيا ناسارينو حين خطر على باله أن صوت الطيور الحبيسة في أقفاصها يتلاشى من فرط ما غرَّدت فبات يسقيها من عسل النحل الخاص لتغرِّد بصوت أعلى، ويناولها في مناقيرها قطرات من منقوع الكانتورينا المُحفِّز على التغريد، ويتغنَّى لها بأغنيات من زمن غير الزمن، يا قمر يناير الوضَّاح، ويتغنَّى، فلم يدرك أنها لم تكُن الطيور التي أخذت تفقد قوة صوتها بل إنه هو الذي راح يفقد سمعه شيئًا فشيئًا، وذات ليلة تهشَّم الطنين المُدوِّي في طبلتي أذنيْه إلى شظايا، قُضِي الأمر، وإذا بالطنين يغدو هواءً من الجِصِّ لا تكاد تتخلَّله أنَّات الوداع الآتية من السفن الوهمية في ظلمات السلطة، وإن تخلَّلته رياح خيالية، وجلبة طيور داخلية

صارت تواسيه في هاوية الصمت حيث كانت طيور الواقع في خاتمة المطاف. وأما القلائل الذين سُمِح لهم بالدخول إلى البيت المدني آنذاك فكانوا يرونه على الكرسي المُتأرجح المضفور من الخيزران وهو يتكبَّد الحرَّ الخانق في الثانية مساءً تحت ظلال عريشة الجهنميات، وقد حلَّ أزرار السترة العسكرية، وتجرَّد من سيفه ونطاقه المُلوَّن بألوان العلم الوطني، وتجرَّد من البوط رغم أنه لم يخلع الجورب الأرجواني الذي أرسله إليه قداسة البابا ضمن اثنتي عشرة دزينة من جواربه التي يصنعها من أجله خياطوه الخصوصيون، وأما صبايا المدرسة المجاورة فكن يتسلَّقن الأسوجة الخلفية حيث كانت الحراسة أخفّ صرامة ويباغتنه مرارًا وتكرارًا في نعاسه الأرِق، فيجدنه شاحبًا، وقد ألصق بصدغَيْه أوراقًا علاجية، وبرَكُ الضياء المنساب من خلال العريشة تنثر عليه خطوطها بينما هو مستغرق في نشوة وكأنه سمكة شيطان بحر مستلقية على ظهرها في قاع المستنقع، أيها الشيخ المُخرِّف، كنّ يصحن به، فيرى صورتهن مُشوَّشةً بفعل ذبذبات القيظ، ويبتسم لهن، ويحيِّيهن بيده المُجرَّدة من القفاز الساتاني، بَيْد أنه ما كان يسمعهن، بل يحسُّ نسائم البحر مُحمَّلةً بعفن وحل الجمبري، ويحسُّ نقر الدجاجات على أصابع قدمَيْه، أما برق الزيزان الساطع فلا يحسُّ به، ولا يسمع الصبايا، ولا يسمع شيئًا. وعند ذاك لم يبقَ له من وسائل الاتصال بواقع هذا العالَم غير أسمال متناثرة من ذكرياته العظمى، فوحدها أبقته حيًّا بعد أن نفض يديْه عن شؤون الحكومة وطفق يسبح على حافة السلطة في حالة من البراءة، ووحدها سمحت له بالصمود في وجه دفقة الرياح الكاسحة، رياح أعوام عمره المفرطة، هائمًا في أرجاء البيت المهجور والليل يرخي سدوله، فكان يتوارى في المكاتب المطفأة، ويمزِّق حواشي

العرائض حيث يسطر بخطه المزخرف بقايا ذكرياته الأخيرة التي ما زالت تعصمه من الموت، ذات ليلة كتب اسمي ساكَرياس[1]، وعاود تلاوة الاسم على بريق الفنار الخاطف، عاود تلاوته مرة إثر مرة حتى بدا له نائيًا غريبًا في خاتمة المطاف، سحقًا، قال لنفسه، وهو يمزِّق قصاصات الورق، إِنِّي أَنَا هُوَ، قال لنفسه، ثم كتب على قصاصة أخرى أنه قد أتمّ عامه المائة حين عاود المُذنَّب المرور وإن لم يكُن مُتأكِّدًا آنذاك من عدد المرَّات التي رأى فيها المُذنَّب، ومن الذاكرة أخذ يكتب على قصاصة أطول من سابقتها المجد للجرحى والمجد للجنود الأوفياء الذين قُتِلوا بأيدٍ أجنبية، ذلك أنه مرَّ بأوقات كان يكتب فيها كل ما يخطر له على بال، وكل ما يعرف، فكان أن كتب على ورق مُقوّى ممنوع ممارصة الأفعال الوصخة في ضورات المياه[2] وثبَّت الورق بالإبر على الباب الذي كان قد فتحه ذات مرة على سبيل الخطأ ليُفاجأ بضابط ذي رتبة رفيعة يستمني وقد أقعى على المرحاض، كان يكتب الأمور القليلة التي يذكرها لضمان ألَّا ينساها أبدًا، ليتيسيا ناسارينو، كان يكتب، زوجتي الشرعية الوحيدة التي لقَّنته القراءة والكتابة وهو في أوج الشيخوخة، ويسعى جاهدًا لاستحضار صورتها العامة إلى الذاكرة، كان يودُّ لو رآها مرة أخرى بمظلتها المُلوَّنة بألوان العلَم المنسوجة من الحرير المصقول،

---

(1) باستثناء أسماء المشاهير والأمكنة المعروفة الوارد ذكرها في الرواية، روعي نقل معظم الأسماء بأقرب ما يكون من الأصل طبقًا للنظام الصوتي للهجة الكولومبية، بدلًا من ردها إلى ما يقابلها في الثقافة العربية أو نقلها بما يوافق النظام الصوتي للهجات أو لغات أخرى. فبدلًا من استخدام زكريا في هذا الموضع، على سبيل المثال، وجدنا من الأفضل الحفاظ على موسيقى النص الأصلي ونقل الاسم كما يُنطَق في بلد الكاتب.

(2) تنطوي العبارة الأصلية على ركاكة وأخطاء مُتعمَّدة.

وبعنقها المُحاط بوشاح من أذناب الثعالب المُفضَّضة، وشاح السيدة الأولى، غير أنه لم يذكرها إلَّا عاريةً في الثانية مساء على ضياء الناموسية المُنساب كما الطحين، وتذكَّر الراحة الوئيدة التي كان يستغرق فيها جسمكِ الوادع الشاحب على طنين المروحة الكهربائية، وأشعر بنهديْكِ المفعميْن بالحياة، ورائحة الكلبة العالقة بكِ، والصخب الأكَّال الآتي من يديْك الضاريتيْن، يدي طالبة الرهبنة اللتيْن تمسَّان الحليب فيفسد، والذهب فيصدأ، والأزهار فتذبل، على الرغم من براعتهما في الحب، وحدها ليتيسيا ناسارينو حقَّقَت ذلك النصر العصي على التصوُّر وأمرته بقولها اخلعْ عنك البوط وإلَّا لوَّثتَ ملاءاتي القطنية، فيخلع البوط، واخلعْ عنك الأحزمة وإلَّا جرحتَ قلبي بالإبزيم، فيخلعها، واخلعْ عنك السيف، وحزام الفتق، والطماق، واخلعْ كل شيء عنك يا حياتي فأنا لا أحسُّك، ومن أجلكِ أنتِ كان يخلع كل شيء كما لم ولن يفعل أبدًا مع امرأة بعد ليتيسيا ناسارينو، حبي الشرعي الوحيد، ويتنهَّد، ويسطر تنهيداته على قصاصات العرائض المُصفَرَّة التي يطويها كما السجائر ليخفيها داخل الشقوق الأبعد عن البال في البيت حيث لا يتمكَّن من العثور عليها سواه ليتذكَّر من هو نفسه حين يعجز عن تذكُّر أي شيء، هناك حيث لم يعثر عليها أحد قط ولا حتى عندما انسلَّت صورة ليتيسيا ناسارينو عَبْر مجارير الذاكرة في خاتمة المطاف ولم تبقَ له سوى ذكرى أمه بينديسيون ألبارادو التي لا تمّحي في أمسيات الوداع بقصر الضواحي، أمه المحتضرة التي كانت تهزُّ القَرْعة بما حوت من حبَّات الذرة لجمع الدجاجات حتى لا يدرك هو أنها مشرفة على الموت، أمه التي ظلَّت تحمل إليه عصائر الفاكهة وهو مُستلقٍ على السرير المُعلَّق بين شجرتي التمر الهندي حتى لا يشكّ أنها لا تكاد تقوى

على التقاط أنفاسها من فرط الألم، أمه التي حبلت به وحدها، وولدته وحدها، وظلَّت تتعفَّن وحدها إلى أن بلغ ألم العزلة من الشدَّة حتى طغى على كبريائها فاضطرَّت لسؤال ابنها قائلةً هلا فحصتَ ظهري لمعرفة السبب في إحساسي بذلك الجمر المُتَّقِد الذي لا يسمح لي بالعيش، وخلعت قميص النوم لتريه ظهرها الذي راح هو يتأمَّله في هلع صامت، ظهرها المُهترئ بفعل قروح يتصاعد منها البخار وعفن لبِّ الجوافة وبثور دقيقة تتفجَّر كاشفةً عن يرقات الديدان الأولى. كانت أوقات عصيبة سيدي الجنرال، فلم يبقَ سرٌّ من أسرار الدولة إلَّا وانكشف، ولم يعُد ثمة أمر واحد يمكن التأكُّد من تنفيذه على وجه اليقين منذ قُدِّمَت جثة الجنرال رودريغو دي أغيلار الشهيّة على مائدة الوليمة، أما هو فلم يلقِ بالًا، لم يلقِ بالًا لزلَّات السلطة في الأشهر المريرة التي راحت أمه تتعفَّن خلالها على نيران هادئة في حجرة ملحقة بمخدعه بعد أن بتَّ في مرضها الأطباء الأوسع علمًا بالآفات الآسيوية وأدلوا بأنه ليس الطاعون، ولا الجرب، ولا الداء العُلَّيقي، ولا دون ذلك من ضربات المشرق، بل إنها لعنة من صنع الهنود لا يقدر على علاجها إلَّا من رماها بها، فأدرك هو أنه الموت وانزوى على نفسه لرعاية أمه بتفاني أمٍّ، ومكث يتعفَّن برفقتها لئلَّا يراها أحد وهي تُطهَى في حساء يرقاتها، وأصدر أمره بأن تُحمَل إليها دجاجاتها في البيت المدني، كما حُمِلت إليها الطواويس، والطيور المُلوَّنة التي راحت تجوب القاعات والمكاتب وفق هواها، لئلَّا تفتقد أمه الحركة الريفية لقصر الضواحي، فكان يضرم بنفسه جذوع البكسة[1] في مخدعها لئلاً ينتبه أحد إلى عفن الموت العالق بأمه

(1) البكسة: شجيرة موطنها الأصلي المكسيك والمناطق الاستوائية في كل من أمريكا الجنوبية والوسطى، ولثمارها بعض الاستخدامات العلاجية.

المحتضرة، ويسرِّي بنفسه عن جسدها بالدهانات المبيدة للجراثيم، جسدها المُحمَرّ بفعل المركيروكروم، المُصفَرّ بفعل الپيكريك[1]، المُزرَقّ بفعل الميثيلين[2]، وأما قروحها التي يتصاعد منها البخار فكان يضمِّخها بصنوف البلسم التركي بما يخالف رأي وزير الصحة الذي ترتعد فرائصه خوفًا من اللعنات، سحقًا يا أمي، خير لنا أن نموت معًا، كان يقول، ولكن بينديسيون ألبارادو أدركت أنها تحتضر وحدها فحاولت أن تكشف لابنها أسرار العائلة التي لم تُرِد أن تأخذها معها إلى القبر، فروت له كيف أُلقِيَت مشيمتها إلى الخنازير يا سيدي، وكيف أنني لم أستطِع تحديد هوية أبيك قط من بين كل هاربي الضِّياع الذين عرفتُهم، وحاولت البوح إليه من أجل التاريخ بأنها قد حبلت به واقفةً على قدميْها ومن دون أن تخلع عن رأسها القبعة اتقاءً لإزعاج الذباب المعدني المتطاير حول قِرَب الدِّبْس المُتخمِّر في مخزن إحدى الحانات، ثم ولدته ولادة مُتعسِّرة فجرَ يوم من أيام أغسطس في دهليز أحد الأديرة، وتعرَّفت عليه تحت ضياء قياثير أزهار الجيرانيوم الشجيَّة حيث كانت خصيته اليمنى بحجم ثمرة تين وكان يفرغ معدته كالمنفاخ ويتنهَّد كمزمار القربة مع كل نفس من أنفاسه، أما هي فكانت تجرِّده من الأسمال المُهداة إليها من طالبات الرهبنة وتعرضه على الملأ بالساحات في أثناء الكرنفال عسى أن يكون هنالك من يعرف دواء أنجع من عسل النحل، ولا سيما أرخص منه، علمًا بأنه الدواء الوحيد الذي أوصاها به الناس

---

(1) پيكريك: مُركَّب عضوي كان يُستخدَم في مطلع القرن العشرين للتداوي من الحروق والملاريا والجدري.

(2) ميثيلين: صبغة ودواء يُستخدَم للتداوي من بعض الأمراض مثال ارتفاع نسبة الميتهيموغلوبين في الدم والتهاب المسالك البولية.

لعلاج تكوين الطفل المُشوَّه، وكانوا يلهونها بكلمات العزاء، فلا ينبغي للمرء استباق القَدَر، كانوا يقولون، وعلى الرغم من ذلك فهذا الطفل يصلح لكل شيء سوى العزف على آلات النفخ، كانوا يقولون، ولكن وحدها عرَّافة السيرك أدركت أن راحة يد الوليد خالية من الخطوط، ما يعني أنه وُلِد ليكون ملكًا، وقد كان، بَيْد أنه لم يلقِ بالًا لما تقول أمه، بل كان يرجوها أن تخلد إلى النوم وألَّا تنقِّب في الماضي، فأهون عليه التصديق بأن تلك الزلَّات التي مُنِي بها تاريخ الوطن لا تعدو أن تكون هذيان الحُمَّى، نامي يا أمي، كان يرجوها، ويلفّها من قمة رأسها إلى أخمص قدميْها بإحدى الملاءات الكتانية الكثيرة التي أمر بصناعتها خصيصًا لئلَّا تتأذَّى جروحها، ثم يمدِّدها على جنبها لترقد ويدها على قلبها، ويواسيها بقوله دعي تلك الذكريات الحزينة عنكِ يا أمي، فإنِّي أَنَا هُوَ على كل حال، نامي هانئة. ولقد باءت بالفشل تلك المساعي الرسمية الدؤوب المضنية التي بُذِلَت من أجل تهدئة الصخب العام الزاعم بأن أمَّ الوطن تتعفَّن على قيد الحياة، فنُشِرَت شهادات طبية مُختلَقة وإن أكَّد حملة الإعلان على حقيقة الأخبار التي يكذِّبونها بأنفسهم، إذ كانت أبخرة العفن المنتشرة في مخدع المرأة المحتضرة من الشدة حتى نفر منها الجميع بمن فيهم البُرْص، فكانت الكباش تُنحَر لتطهيرها بالدماء الحية، والملاءات تُسحَب من فراشها غارقةً في مادة مُتقزِّحة تسيل من الجروح فلا تستردُّ زهوها الأصلي مهما غُسِلَت، أما هو فلم يعاود أحدٌ رؤيته في حظائر حلب الأبقار ولا في حجرات المحظيات بعد أن كانوا يرونه هناك عند بزوغ الفجر دومًا حتى في الأوقات الأشد عسرًا، ولقد عرض رئيس الأساقفة خدماته لإقامة طقوس الأسرار المُقدَّسة مرةً أخيرة من أجل المحتضرة فما كان منه إلَّا أن

تركه واقفًا عند الباب، لا أحد يحتضر هنا يا أبت، لا تصدِّق الإشاعات، قال، وكان يشاطر أمه الطعام في صحن واحد بملعقة واحدة على الرغم من هواء مستوصف الطاعون العالق في الحجرة، ويحمِّمها بصابون الكلب المُمتنّ[1] قبل أن يمدِّدها على الفراش بقلب ساكت عن الخفقان من فرط الألم وهو ينصت إلى التعليمات التي تلقيها عليه بنُسَالات صوتها الأخيرة، إذ توصيه برعاية الحيوانات بعد موتها، لا تنتفوا ريشات الطواويس لصنع القبعات، حسنًا يا أمي، كان يقول، ويمسح جسدها كاملًا بمحلول الكريولين[2]، لا ترغموا الطيور على التغريد في الأعياد، حسنًا يا أمي، ويلفّ جسدها بملاءة النوم، وعليكم بإخراج الدجاجات من أعشاشها إذا أرعدت السماء لئلَّا تفرخ أفاعي الباسيليسك[3]، حسنًا يا أمي، ثم يمدِّدها على الفراش ويدها على قلبها، حسنًا يا أمي، نامي هانئة، فيطبع قبلة على جبينها، وينام الساعات القلائل المُتبقِّية وهو مُستلقٍ على وجهه قرب الفراش، تحت رحمة تقلُّبات النوم، تحت رحمة هذيان لا ينتهي وإنما يصفو أكثر فأكثر كلَّما اقترب الموت، وبفضل غضبه المتراكم كل ليلة تعلَّم كيف يحتمل غضبة الإثنين الأليم، يومَ أيقظه الصمت المهول الذي خيَّم على العالَم فجرًا، يومَ لفظت أنفاسها الأخيرة أمُّه بينديسيون ألبارادو، حياتي أنا، وعند ذاك عرَّى جسدها المُنفِّر وعلى البريق الخافت الذي انساب مع الديكة الأولى رأى جسدًا آخر مطابقًا

---

(1) الكلب المُمتنّ: اسم علامة تجارية لصنف من الصابون يُستخدَم في تطهير الكلاب وإبادة البراغيث والحشرات العالقة بها.

(2) كريولين: مُطهِّر قوي المفعول يُستخدَم أحيانًا لأغراض التنظيف أو تطهير الحيوانات، وإن كان لا يُنصَح بذلك نظرًا لكونه شديد السُّميَّة.

(3) باسيليسك: حيوان خرافي جاء ذكره الميثولوچيا الإغريقية، وهو يشبه الأفعوان الصغير وله سمّ زعاف، نظرة واحدة منه تكفي لقتل الفريسة.

مرسومًا على الملاءة في وضع جانبي ويده على قلبه، ورأى الجسد المرسوم صحيحًا مُعافًى من قروح الطاعون ومثالب الشيخوخة، بل إنه كان محكمًا صافيًا وكأنه مرسوم بالزيت على جانبي الكفن، فتضوَّع منه عطر الأزهار الطبيعية النضرة مُطهِّرًا أجواء المستشفى التي غشيت الحجرة، وعبثًا راحوا يفركون الجسد المرسوم بالحصى ويغلون الملاءة في مُبيِّض الثياب عاجزين عن طمسه لأنه قد اتَّحد بنسيج الكتان على الجانبيْن، وإذا به قد صار كتانًا أبديًا، أما هو فلم يتحلَّ بالهدوء اللازم لتقدير حجم المعجزة بل إنه غادر المخدع وصفق الباب غاضبًا حتى جاء صوته مُدوِّيًا كرصاصة اخترقت أجواء البيت، وعند ذاك شرعت تدقُّ نواقيس الحداد في الكاتدرائية ثم في باقي الكنائس ثم في باقي أرجاء البلد حيث ما برحت تقرع بلا انقطاع طوال مائة يوم، أما أولئك الذين استيقظوا من سباتهم على قرع النواقيس فلم تراودهم الأوهام بل أدركوا أنه قد استعاد سيادته المطلقة على سلطته مرة أخرى، وأن قلبه الملغز المنقبض تحت وطأة غضب الموت يتمرَّد على نزوات العقل والكرامة والغفران بقوة أشد من أي وقت مضى، لأن أمه بينديسيون ألبارادو، حياتي أنا، قضت نحبها فجرَ الإثنين الثالث والعشرين من فبراير، وجاء إلى العالَم مطلعُ قرن جديد من الحيرة والخزي. لم يكُن أحدنا مُتقدِّمًا في العمر بما يتيح له أن يدلي بشهادته حول موتها، غير أن دوي الجنازة قد بلغ زمننا، ووصلتنا أخبار موثوقة بأنه لم يعُد إلى ما كان عليه في سابق عهده طوال البقية الباقية من حياته، ولفترة تجاوزت المائة يوم من الحداد الرسمي بكثير لم يحظ شخص واحد بالحق في مقاطعة أرق اليتيم الذي استحوذ عليه، ثم إنه لم يُرَ مرة أخرى في بيت الألم الذي جاشت أجواؤه بأصداء النواقيس الجنائزية الهائلة،

تلك التي ما عادت تدقُّ إلَّا في ساعات الحداد، وإذا الحديث يغدو تنهُّدات، والحرس يجوبون البيت حفاة كما في مطلع نظامه، وحدها الدجاجات استطاعت أن تفعل ما يحلو لها في البيت المحظور الذي اختفى مَلِكُه عن الأنظار، ذلك أنه راح يدمي غضبًا على الكرسي المُتأرجح المضفور من الخيزران بينما أمه بينديسيون ألبارادو، يا روحي أنا، تجوب پارامو القيظ والبؤس داخل نعش ملؤه نشارة الخشب والثلج المجروش لئلَّا تتعفَّن بأكثر مما تعفَّنت وهي على قيد الحياة، إذ طافوا بالجثمان في موكب مهيب وصولًا إلى تخوم مملكته الأقل حظًّا من الاستكشاف لئلَّا يبقى شخص واحد إلَّا ونال شرف تكريم ذكراها، ومضى الجثمان وسط تراتيل رياح أشرطة الحداد وصولًا إلى محطات الپارامو حيث استقبلته الموسيقى الجنائزية نفسها، والجماهير الصامتة نفسها التي سبق أن جاءت في زمن مجد آخر للتعرُّف على السلطة المحجوبة في غَبَش المقطورة الرئاسية، ثم عُرِض الجثمان في الدير الخيري حيث سبق أن وضعت مُربِّيةُ الطيور الرحَّالة جنينها بعد ولادة مُتعسِّرة في أوَّل الزمان، فولدت ابنًا بلا أب صار ملكًا، وهكذا فقد انفتحت بوابات ذاك الحَرَم لأول مرة منذ قرن من الزمان، وأغار جنودٌ من سلاح الفرسان على الهنود في قراهم، فساقوهم مُختطَفين، وبأخامص البنادق دفعوا بهم إلى صحن الكنيسة المترامي الذي لفحته شموس مُثلَّجة من الزجاج المُعشَّق، هناك حيث أخذ تسعة أساقفة يترنَّمون بتراتيل شعائر الظلمات[1] وهم في أرديتهم الاحتفالية، ارقدي في مجدكِ بسلام،

(1) شعائر الظلمات: كانت تُقام قديمًا في الكنيسة الغربية خلال الأيام الثلاثة الأخيرة من أسبوع الآلام حزنًا على صلب المسيح طبقًا للعقيدة المسيحية. وتميَّزت الشعائر المذكورة بمظاهر الحداد والإضاءة الخافتة التي تبلغ حدَّ الظلام الدامس قرب النهاية.

أخذ الشمامسة وخُدَّام المذبح يترنَّمون، ارقدي في رمادكِ بسلام، ويترنَّمون، أما في الخارج فانهمرت الأمطار فوق أزهار الچيرانيوم بينما راحت طالبات الرهبنة يوزِّعن عصير القصب مع خبز الموتى، وهناك كانت أضلاع الخنزير والمسابح وقوارير المياه المباركة تُباع أسفل الطاقات الحجرية في الباحات، وتردَّدت الموسيقى في حانات الضِّياع، ودوَّى البارود، ورقص الناس في الدهاليز، كان يوم أحد، الآن وإلى الأبد، وكانت أعوامًا احتفالية في دروب الهاربين ومضائق الضباب حيث مرَّت أمُّه بينديسيون ألبارادو، يا موتي أنا، فاجتازتها على قيد الحياة في أثر ابنها الذي جرفته رياح الحماسة الفيديرالية، وهي التي اعتنت به في الحرب، ومنعت بغال الجنود من دهسه حين خرَّ على الأرض ملتحفًا بالغطاء، فاقد الوعي، هاذيًا بلَغْوِ الكلام تحت وطأة الملاريا، كما حاولت أن تغرس فيه خوفها الوراثي من الأخطار المحيقة بأهل الپارامو إذا نزلوا بمدائن البحر المظلم، كانت تخشى نوَّاب الملوك، والتماثيل، والسرطانات التي تنهل من دموع الولدان، وهي التي ارتعدت فرائصها رهبةً أمام جلال بيت السلطة الذي تعرَّفت عليه تحت الأمطار ليلة الهجوم، فلم تتخيَّل حينئذ أنها سوف تقضي نحبها هناك، في بيت العزلة حيث كان هو يسائل نفسه في قيظ الغضب مستلقيًا على وجهه أرضًا ويقول في أي موضع لعين زججتِ بنفسك يا أمي، في أي بِرْكة مُعْشَوْشِبة علق جسدكِ، ومن يطرد الفراشات عن وجهكِ، ثم يتنهَّد طريح الألمِ وأمه بينديسيون ألبارادو تبحر وسط الأبخرة المُنفِّرة وتحت مظلَّة من أوراق الموز في المستنقعات لعرض جثمانها في مدارس الضِّياع العمومية، وفي ثكنات صحارى ملح البارود، وفي حظائر الهنود، وكذلك في البيوت الرئيسية حيث عُرِض جثمانها مع صورة لها وهي

في عمر الشباب، فبدت في الصورة نحيلة، رائعة الجمال، وقد زيَّنت جبينها بإكليل، وأحاطت عنقها بطوق من الدانتيل رغمًا عنها، وسمحت بوضع مسحوق التَّلْك على وجهها وطلاء شفتيْها بالأحمر تلك المرة وحسب، كما أُودِعَت في يدها زهرة توليب من الحرير لتمسك بها هكذا، ما هكذا يا سيدتي، بل هكذا، ملقاةً على الفخذ في غير اكتراث، وعند ذاك التقط مُصوِّرُ ملوك أوروبا الآتي من فينيسيا الصورةَ الرسمية للسيدة الأولى، تلك المعروضة قرب الجثمان بوصفها دليلًا دامغًا يفنِّد أي اشتباه في انتحال الشخصية، إذ بدت صورة طبق الأصل منها، لأن شيئًا لم يُترَك للصدفة، فلقد أُجريَت عمليات سرية لإعادة تكوين الجثمان الذي بدأت تزول عنه آثار مستحضرات التجميل وتنصهر بشرته الشمعية المُتشقِّقة تحت وطأة القيظ، أما الطحالب فكانت تُزال عن جفنيْها في مواسم الأمطار، كما اعتنت خيَّاطات القوات المُسلَّحة بثوب الموت حتى وكأنها قد وضعته البارحة، وحافظن على رونق تاج أزهار البرتقال وطرحة العروس العذراء التي لم تتزيَّن بها مدى حياتها، لئلَّا يتجرَّأ يومًا شخصٌ واحد في هذا الماخور الحافل بعُبَّاد الأوثان على ترديد المزاعم القائلة بأنكِ تبدين مختلفة عن صورتكِ يا أمي، لئلَّا ينسى شخصٌ واحد من هو الآمر الناهي إلى أبد الآبدين، وحتى في الضِّياع الأشد تعاسة على كثبان الأدغال، تلك الضِّياع التي رأى سُكَّانُها الباخرةَ النهرية العتيقة ذات الدولاب الخشب وقد أقبلت عائدة بعد أعوام طوال، فرأوها عند منتصف الليل وقد أُضيئَت أنوارها كافة، واستقبلوها بطبول الفصح ظنًّا بأن زمن المجد قد عاد من جديد، عاش الفحل، راحوا يهتفون، مُبَارَكٌ الآتِي بِاسْمِ الحَقّ، ويهتفون، ويلقون بأنفسهم في المياه حاملين حيوانات المُدرَّع المُسمَّنة وثمار

اليقطين الضخمة بحجم العجل، ويتسلَّقون درابزين أدراج الخشب المنقوشة ليقدِّموا آيات الولاء إلى السلطة الخفية التي تقرِّر مصير الوطن بالنرد، ثم يقفون بأنفاس مُتقطِّعة أمام النعش بما فيه من ثلج مجروش وملح صخري وقد انعكست صورته وتكرَّرت على تلك الأقمار المشدوهة، أقمار مرايا قاعة الطعام الرئاسية، حيث عُرِض الجثمان على الرأي العام تحت المراوح ذات الأجنحة للباخرة الترفيهية العتيقة التي أبحرت شهورًا وشهورًا بين الجزر العابرة في الروافد الاستوائية حتى ضلَّت سبيلها في عصر كابوسي اكتسبت أزهار الغاردينيا خلاله قدرات عقلية وحلَّقت سحالي الإغوانا تحت جنح الظلام، أما العالَم فقد انتهى، وأما دولاب الخشب فقد جَنَح وتهشَّم على الرمال الذهب، وأما الجليد فقد ذاب، وأما الملح فقد فسد، وأما الجسد المُتورِّم فقد طفا هائمًا على صفحة حساء من نشارة الخشب، وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يتعفَّن، بالعكس تمامًا سيدي الجنرال، فقد رأيناها عند ذاك تفتح عينيْها ورأينا حدقتيْها صافيتيْن وقد اكتسَتا بلون أزهار الأقونيطن في يناير وألق الصخور القمرية، حتى إن أولئك الأكثر تشكيكًا وسطنا رأوا بأعينهم غطاء النعش الزجاج مُغبَّشًا بفعل بخار أنفاسها، ورأينا مسام بشرتها تنضح عرقًا عَطِرًا مفعمًا بالحياة، ورأيناها باسمة. ليس لك أن تتخيَّل ما جرى سيدي الجنرال، كان ذلك حَدَثًا مشهودًا، فلقد رأينا البغلات تضع صغارها، ورأينا الأزهار تنمو في ملح البارود، ورأينا الصُّمّ والبُكم مأخوذين بالمعجزة التي ردَّت لهم القدرة على الهتاف قائلين معجزة، معجزة، ثم إنهم هشَّموا زجاج النعش حتى صار غبارًا سيدي الجنرال، بل وكادوا يمزِّقون الجثمان إربًا ليتقاسموا الرفات المُقدَّسة في ما بينهم، وهكذا فقد اضطررنا إلى الدفع بكتيبة من رُماة القنابل

اليدوية لكبح جماح تلك الحماسة الجارفة التي استحوذت على الجماهير المحمومة الآتية في صخب عارم من شتلات جُزُر الكاريبي مأخوذةً بالخبر القائل بأن الرَّب قد أنعم على روح أمه بينديسيون ألبارادو ووهبها القدرة على تحدِّي قوانين الطبيعة، فكانت تُباع نسالات من كفنها، وقلائد تحمل صورتها، وماء من ذلك الذي خَرَجَ مِنْ جَنْبِها، وبطاقات تحمل صورتها على هيئة ملكة، بَيْد أن الحشد كان من الضخامة والتهوُّر حتى بدا وكأنه بالأحرى سيل من العجول الجامحة التي اكتسحت أظلافها كل شيء في طريقها وأحدثت دويًا زلزاليًا يمكنك سماعه إن أنت أرهفت السمع سيدي الجنرال، أنصتْ إليه، فبسط راحته خلف أذنه التي كان يتردَّد فيها الطنين بقدر أقل من الأخرى، وأرهف السمع، عند ذاك سمع يا أمي بينديسيون ألبارادو، سمع هزيم الرعد اللامتناهي، ورأى المستنقع يهدر بالجماهير الغفيرة التي انتشرت حتى بلغت أفق البحر، ورأى فيضًا من الشموع المضاءة يجرُّ خلفه نهارًا آخر أعظم إشراقًا في الوهج المشرق ظهرًا، ذلك أن أمه بينديسيون ألبارادو، يا روحي أنا، عادت إلى مدينة مخاوفها القديمة كما دخلتها لأول مرة والحرب على أشدّها، ورائحة اللحم النيء التي تفوح من الحرب تخيِّم على الأجواء، في حين تحرَّرت هي من أخطار العالَم إلى الأبد لأنه أمر بنزع الصفحات المُتعلِّقة بنوَّاب الملوك من الكتب المدرسية حتى لا يعود لهم في التاريخ وجود، كما حظر التماثيل التي تؤرِّق نومكِ يا أمي، وهكذا فقد عادت من دون مخاوفها الفطرية، محمولةً على أكتاف الجماهير المسالمة، عادت بغير نعش، تحت السماء المفتوحة، في هواء محظور على الفراشات، وهي ترزح تحت ثقل التقديمات الذهب التي أودعها الناس على رفاتها في رحلتِها

اللانهائية من تخوم الأدغال وعَبْر مملكته المتقلقلة الموحشة مترامية الأطراف، محجوبةً عن الأعين تحت كومة من العكَّازات الذهب التي أودعها المفلوجون على رفاتها إثر شفائهم، ونجوم الغرقى الذهب، وأطفال من الذهب نذرتهم أمهات عواقر مُشكِّكات اضطررن لوضع صغارهن على عجل خلف آجام الأشجار[1]، كما في زمن الحرب سيدي الجنرال، ومضت تبحر هائمة في سيل جارف من الهجرة التوراتية، هجرة أمَّة بأسرها لم تجد مكانًا لوضع آنيتها، وحيواناتها، والبقية الباقية من حياة خلت من كل أمل في الخلاص عدا الابتهالات السرية التي كانت بينديسيون ألبارادو تتلوها إبان المعارك لتحويل مسار الرصاص المُصوَّب إلى ابنها، وهو الذي جاء في معمعة الحرب وقد اعتمر خرقة حمراء على رأسه وراح يصرخ في هُدَن الهذيان المحموم قائلًا عاش الحزب الليبرالي، سحقًا، عاشت الفيديرالية المنتصرة، أيها القوط السفلة، وإن كان في واقع الأمر منجرفًا بفضوله الوراثي للتعرُّف على البحر، ولكن الجماهير البائسة التي اجتاحت المدينة حاملةً جثمان أمه كانت أشد شغبًا وهياجًا من كل الحشود الغفيرة التي خرَّبت البلد في مغامرة الحرب الفيديرالية، وأشد شراهة من الجحافل، وأشد فظاعة من الهلع، وأهول ما رأت عيناي طوال أيام وأعوام حكمه التي لا يُحصَى لها عدد، هوذا العالَم بأسره سيدي الجنرال، انظرْ، ما أروعه. ولمَّا بات مقتنعًا بوضوح ما يجري فقد خرج من ضباب حداده أخيرًا، خرج

---

(1) طبقًا لبعض المعتقدات المسيحية، ولا سيما الكاثوليكية منها، جرت العادة على أن يفي المؤمنون بنذورهم عن طريق التبرُّع بتقدمة ترمز إلى المصاب الذي ألَمَّ بهم. فعلى سبيل المثال، يتبرَّع المفلوج بالعكاز بعد شفائه أو تتبرَّع المرأة العاقر بدلاية ذهب على شكل طفل بعد أن تُرزَق بطفل.

شاحبًا، قاسيًا، وقد أحاط ذراعه بشريط أسود، عاقد العزم على الاستعانة بكلِ وسائل السلطة من أجل تطويب أمه بينديسيون ألبارادو قديسةً بالاستناد إلى الدلائل الدامغة على فضائلها الخليقة بالقديسين، فبعث وزراءه المُتعلِّمين إلى روما، ودعا السفير البابوي الرسولي مرة أخرى لتناول الكعك والشكولا في آبار الضياء تحت عريشة الجهنميات، فاستقبله في لقاء عائلي، مستلقيًا على السرير المُعلَّق، بلا قميص، وهو يروِّح عن نفسه بالقبعة البيضاء، أما السفير البابوي الرسولي فجلس أمامه ممسكًا بقدح الشكولا الحارقة، منيعًا على القيظ والغبار في هالة الخزامى التي أحاطه بها رداء الآحاد الكهنوتي، منيعًا على الفتور الاستوائي، منيعًا على روث طيور الأم الفقيدة التي حلَّقت طليقةً في آبار المياه الشمسية تحت العريشة، فجعل يتناول رشفات معدودة من الشكولا بالفانيليا، ويلوك الكعك بخفر عروس في محاولة منه لإرجاء سمِّ الرشفة الأخيرة الذي لا مفرّ منه، مُتخشِّبًا على الكرسي المضفور من الخيزران الذي لا يتنازل عنه هو لأحد سواك أنت يا أبتِ، كما في أمسيات زمن المجد الأرجوانية لمَّا حاول أن يهديه إلى إيمان المسيح سفيرٌ بابوي آخر ساذج طاعن في العمر، مستعينًا على ذلك بأحجيات كلامية للقديس توما الأكويني[1]، أما الآن فأنا الذي أدعوك بنفسي لهدايتك يا أبتِ، كم تدور الدوائر في هذا العالَم، فأنا الآن مؤمن يا أبت، قال، وردَّد قوله من دون أن يرفَّ له جفن، أنا الآن مؤمن، وإن كان في واقع الأمر لا يؤمن بشيء في هذا العالَم ولا في غيره، إن هو إلَّا حق أمه في التمجيد على المذابح، أمه بينديسيون ألبارادو، يا حياتي أنا، ذلك

(1) القديس توما الأكويني (1224 - 1274): من أهم علماء اللاهوت وفلاسفة المسيحية وأعظمهم أثرًا.

التمجيد الذي تستحقّه بجدارة عن رسالة التضحية والتواضع المثالي التي حملتها، حتى إنه لم يؤسِّس طلبه على شطحات العامة الزاعمة بأن النجم القطبي يسير أينما سار الموكب الجنائزي، وأن الآلات الوترية تعزف داخل الخزائن من تلقاء نفسها بمُجرَّد أن تحسَّ بالجثمان يمرُّ قريبًا، وإنما أسَّس طلبه على معجزة هذه الملاءة التي بسطها كالشراع المفرود على ألق أغسطس ليرى السفير البابوي الرسولي ما رآه بالفعل مطبوعًا على نسيج الكتان، فرأى صورة أمه بينديسيون ألبارادو صحيحة معافاة من آثار الشيخوخة ومن الطاعون، رآها راقدةً في وضع جانبي ويدها على قلبها، وبأنامله أحسَّ برطوبة العرق الأبدي، وتنسَّم عطر الأزهار الحية وسط فوضى الطيور المهتاجة في مهب نسائم المعجزة، ها أنت ترى الأعجوبة بعينيْك يا أبت، قال، مُبديًا له جانبي الملاءة، حتى الطيور تعرفها، فما كان من السفير البابوي الرسولي إلَّا أن استغرق في تأمُّل النسيج بتركيزه الحاد الذي سمح له في الماضي بالكشف عن شوائب الرماد البركاني في المواد المشغولة بأيدي أساتذة المسيحية العظام، وبرصد نقائص الطباع وشكوك الإيمان بالحكم على درجة كثافة اللون، وهو الذي انتشى بكروية الأرض مُمدَّدًا على ظهره تحت قبة المُصلَّى المنعزل في مدينة لاواقعية حيث الزمن لا يمضي وإنما يطفو، وبعد تأمُّل عميق تحلَّى بالشجاعة اللازمة ليشيح بناظريْه عن الملاءة ثم أدلى بحكمه في نبرة عذبة وإن تكُن قاطعة، فقال إن طباعة الأجساد على الكتان ليست من الطرائق التي تتبعها العناية الإلهية لتقدِّم إلينا دليلًا جديدًا على رحمتها اللانهائية، حاشا وكلَّا يا صاحب الفخامة، بل إنها من صنع رسَّامٍ بَرَع في فنون الخير والشر واستغلّ قلبكم النبيل يا صاحب الفخامة، فما تلك بألوان زيتية وإنما طلاء بيتي من أردأ

الصنوف مُخصَّص لدهان النوافذ يا صاحب الفخامة، فما برحت اللزوجة المُهجَّنة لزيت التربنتين قابعة تحت عطر الأصماغ الطبيعية المُذوَّبة في الطلاء الذي لم تزُل عنه قشرة الجِصّ، ولا الرطوبة المُتشبِّثة به، تلك التي لم تكُن عرق رجفة الموت الأخيرة كما أقنعوه وإنما رطوبة صناعية نضح بها النسيج المُشبَّع بزيت بذور الكتان والمُخبَّأ في أمكنة معتمة، صدِّقني إن أعربت لك عن أسفي، ختم السفير البابوي الرسولي حديثه في كدر مشروع، وإن لم يتسنَّ له أن يزيد كلمة واحدة أمام الشيخ الغرانيتي الذي جعل يراقبه من دون أن يرفّ له جفن مستلقيًا على السرير المُعلَّق، الشيخ الذي أنصت إليه غارقًا في وحل صمته الآسيوي الموحش من دون أن يحرِّك حتى شفتيْه لمخالفة السفير البابوي الرسولي في ما ذهب إليه، رغم أن أحدًا لم يكُن يعرف الحقيقة وراء سر معجزة الملاءة خيرًا منه، تلك الملاءة التي بها سجَّيتُ جثمانكِ بيدي يا أمي، ولقد هالني صمتُ موتكِ الأول حتى وكأن العالَم أفاق من سباته في أعماق البحر، ورأيتُ المعجزة بنفسي، سحقًا، وعلى الرغم من يقينه فهو لم يقاطع الحكم الذي أدلى به السفير البابوي الرسولي، بل إنه بالكاد رَمَش مرتيْن من دون أن يغمض عينيْه كما تفعل سحالي الإغوانا، وبالكاد افترّ ثغره عن ابتسامة، حسنًا يا أبت، ندَّت عنه تنهيدة أخيرًا، فليكُن حسب قولك، ولكن دعني أحذِّرك، فأنت من يحمل وزر كلماتك، وأكرِّرها على مسمعَيْك حرفًا حرفًا لئلَّا تنساها طوال البقية الباقية من عمرك المديد، فأنت من يحمل وزر كلماتك يا أبت، أما أنا فلا أُسأل عنها. وظلَّ العالَم ناعسًا على مدى ذلك الأسبوع الحافل بنُذُر الشؤم الذي لم يفارق خلاله السرير المُعلَّق ولا حتى لتناول الطعام، بل إنه راح يطرد الطيور الداجنة التي كانت تجثم على جسده بمروحة اليد،

ويطرد خيوط الضياء المنسابة عَبْر الجهنميات ظنًّا منه بأنها الطيور الداجنة، فلا استقبل أحدًا، ولا أصدر أمرًا واحدًا، أما قوّات الأمن العام فلم تُبدِ أدنى تأثُّر حين هجمت شراذم المُتطرِّفين المأجورين على قصر السفارة البابوية الرسولية حيث نهبوا متحف رفات القديسين التاريخية، كما باغتوا السفير البابوي الرسولي وهو يأخذ القيلولة في رحاب الحديقة الداخلية، فاقتادوه إلى الشارع عاريًا، وتغوَّطوا فوقه سيدي الجنرال، تخيَّل، أما هو فلم يبرح سريره المُعلَّق، بل إن جفْنًا لم يرفّ له حين أقبلوا عليه بالخبر القائل بأنهم يطوفون بالسفير البابوي الرسولي عَبْر شوارع السوق محمولًا على ظهر حمار تحت وابل من مياه غسيل الصحون القذرة التي يفرغونها فوقه من الشرفات سيدي الجنرال، ويصيحون به أيها اللوطي، يا ملكة جمال الفاتيكان، دَعُوا الأَوْلاَدَ يَأْتُونَ إِلَيَّ[1]، أما هو فلم يبرح السرير المُعلَّق إلَّا حين تركوا السفير البابوي الرسولي مشارفًا على الموت في مكبٍّ نفايات السوق العمومية، فقام يطرد الطيور صفعًا براحة يده، وإذا هو يظهر في قاعة الاجتماعات بعينيْن مُتورِّمتيْن من فرط الأرق وقد وضع شريط الحداد على ساعده وطفق يزيح الخيوط التي نسجتها العناكب في أثناء الحداد، وعند ذاك أصدر أمره بوضع السفير البابوي الرسولي على متن طوفٍ لإنقاذ الغرقى وتزويده بمؤن تكفيه ثلاثة أيام ثم تركه هائمًا في مسار العبَّارات الأوروبية حتى يعرف العالَم بأسره كيف ينتهي أولئك الأجانب الذين يرفعون يدهم في وجه جلالة الوطن، حتى يتعلَّم البابا نفسه من الآن وإلى

---

(1) إشارة إلى الآية التالية من الكتاب المُقدَّس: «أَمَّا يَسُوعُ فَدَعَاهُمْ وَقَالَ: «دَعُوا الأَوْلاَدَ يَأْتُونَ إِلَيَّ وَلاَ تَمْنَعُوهُمْ، لأَنَّ لِمِثْلِ هؤُلاَءِ مَلَكُوتَ اللهِ»». (إنجيل لوقا 18: 16)

الأبد أنه ربما كان هو بابا روما المُعظَّم بخاتمه وكرسيه الذهب، أما هنا فإنِّي أَنَا هُوَ، سحقًا، أيها الجُبناء الملاعين. فأثبتت الوسيلة التي لجأ إليها فعاليتها، إذ بدأت إجراءات تطويب أمه بينديسيون ألبارادو قديسةً قبل نهاية العام الجاري وعُرِض جثمانها صحيحًا معافًى لتمجِّده العامة بالصحن الرئيسي في البازيليكا الكبرى، وتعالت أناشيد المجد على المذابح، وعُلِّقَت حالة الحرب التي أعلنها هو على الكرسي البابوي، عاش السلام، هتفت الجماهير في ميدان السلاح، عاش الرَّب، مضوا يهتفون، وفي اجتماع مهيب استقبل بنفسه مستشارَ المحفل المُقدَّس للشعائر، الداعية المسؤول عن التطويب، مونسِنيور[1] ديميتريو ألدوس، المعروف باسم الإريتري، ذلك الذي عُهِد إليه بمهمة تقصِّي حياة بينديسيون ألبارادو حتى لا يبقى أدنى شكّ في حقيقة قداستها الجلية، افعلْ ما بدا لك يا أبت، قال وهو ما زال يشدُّ على يد المونسِنيور بيده، فلقد أحسَّ من فوره بالاطمئنان إلى ذلك الحبشيّ المائلة بشرته إلى الصفرة، ذلك الذي يحبّ الحياة فوق كل شيء، ويأكل بيض سحالي الإغوانا سيدي الجنرال، بل ويعشق مصارعة الديكة، ومزاح الخلاسيات، والكومبيا[2]، مثله كمثلنا سيدي الجنرال، فنحن وإياه سواء، وهكذا فقد انفتحت الأبواب الأشد حراسة بلا أي قيود نزولًا عند أمر أصدره بنفسه حتى لا تعترض سبيل محامي الشيطان عقبة واحدة من أي نوع، فلا شيء في مملكته الموحشة مترامية الأطراف، خفيًّا كان أو

---

(1) مونسِنيور: لقب فخري يُطلَق على بعض رجال الكنيسة الكاثوليكية من ذوي المكانة الرفيعة من أمثال الأساقفة، ومعناه الحرفي «سيدي».

(2) الكومبيا: لون من ألوان الفنون الشعبية الموسيقية والراقصة في كولومبيا. وتُعدُّ الكومبيامبا المُشار إليها في خاتمة الفصل الثاني من أشكال الكومبيا.

محجوبًا، إلَّا وكان دليلًا دامغًا يثبت أن التمجيد على المذابح هو قَدَر أمه بينديسيون ألبارادو، يا روحي أنا، إليك الوطن يا أبت فهو لك، تفضَّل، فما كان منه إلَّا أن تفضَّل، بطبيعة الحال، أما القوَّات المُسلَّحة فقد استعادت النظام في قصر السفارة البابوية الرسولية الذي كانت تصطفُّ أمامه عند بزوغ الفجر طوابير لا عدّ لها من البُرْص الذين تمَّ لهم الشفاء فجاءوا ليرى الناس بشرتهم الوليدة فوق القروح، وأما المرضى القدامى بداء رقاص القديس ڤيتوس[1] فقد جاءوا لوخز أطرافهم بالإبر على مرأى من المُشكِّكين، وأما الذين كنزوا ثروات من لعبة الروليت بعد أن كشفت لهم بينديسيون ألبارادو عن الأرقام الرابحة في المنام فقد جاءوا لإظهار ثرواتهم، كما جاء أولئك الذين بلغتهم أخبار ذويهم المفقودين، وأولئك الذين عثروا على غرقاهم، وأولئك الذين ما كانوا يملكون شيئًا فصاروا الآن يملكون كل شيء، جاءوا، واصطفّوا بلا هوادة في المكتب المُتوهِّج المُزيَّن بالقربينة[2] المُستخدَمة في قتل أكلة لحوم البشر وبسلاحف ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ كانت للسير والتر رالي في ما سبق، المكتب حيث جعل ينصت الإيريتري الذي لا يعرف التعب إلى كل شيء من دون أن يطرح سؤالًا واحدًا، أو يتدخَّل في الحديث، غارقًا في عرقه المُتفصِّد، بمنأى عن عفن البشرية المُتحلِّلة الذي أخذ يتراكم في المكتب حيث تلوَّث الهواء بدخان سجائره التي كانت من الصنف الأبخس ثمنًا، فراح يدوِّن تصريحات الشهود بمنتهى الدقة ثم يطلب منهم توقيعها،

(1) رقاص القديس ڤيتوس (ويُعرَف أيضًا باسم رقاص سيدنهام): مرض ينجم عن التهاب في الجهاز العصبي المركزي من جرَّاء الإصابة بالحمَّى الرثوية، حيث تصدر عن المريض حركات لا إرادية قد تصل إلى حد القفز والرقص.

(2) القربينة: بندقية من طراز عتيق.

بالاسم الكامل، أو بعلامة الصليب، أو ببصمة الإبهام كما تفعل بنفساك سيدي الجنرال، بطريقة أو بأخرى، إلَّا أنهم كانوا يوقِّعون، ثم يدلف التالي إلى المكتب، نسخة طبق الأصل من سابقه، فيقول كنتُ مريضًا بالسلِّ يا أبت، كنتُ مريضًا بالسلّ، فيدوِّن الإيريتري، أما الآن فانصتْ كيف صرتُ أغنِّي، كنتُ مصابًا بالعجز الجنسي يا أبت، أما الآن فانظرْ كيف صرتُ نشيطًا طوال اليوم، كنتُ مصابًا بالعجز الجنسي، ويدوِّن الإيريتري بحبر لا يُمحَى كي تبقى كتاباته متناهية الدقة في مأمن من التعديلات حتى فناء البشرية، كان يعيش في بطني حيوان يا أبت، كان يعيش في بطني حيوان، فيدوِّن الإيريتري بلا هوادة، وقد سرى إليه سمُّ القهوة المُرَّة، وسمُّ التبغ الزنخ في السيجارة التي يشعلها من عقب سابقتها، فاتحًا صدره كما البحَّار سيدي الجنرال، أي كاهن فحل، أجل يا سيدي، كان هو يقول، فحل جدًّا، وكل امرئ وما أتقن، كان يعمل بلا هوادة، فلا يذوق من الطعام شيئًا تجنُّبًا لإهدار الوقت حتى ساعة مُتأخِّرة للغاية من ساعات الليل، فلا يستريح ولا حتى عند ذاك، بل يقصد حانات المرسى وقد اغتسل من فوره ووضع رداء الكهنوت الكتاني المرفوء برقع مُربَّعة، كان يصل وهو يتضوَّر جوعًا، فيجلس إلى المائدة الطويلة ليتقاسم يخنة السانكوتشو بسمك الأبراميس مع عمَّال الشحن والتفريغ، فيمزِّق السمك بأصابعه، بل وحتى الحسك يطحنه بتلك الأسنان الشيطانية المُتألِّقة بضياء نابع منها في قلب العتمة، ويعبُّ الحساء من حافة الصحن كما الأجلاف سيدي الجنرال، لو أنك رأيتَه وقد اختلط بتلك الفوضى البشرية في المراكب الشراعية الرثَّة التي كانت تبحر مُحمَّلةً بالدمى والموز الأخضر، مُحمَّلةً بشحنات من المومسات اللائي لم ينضجن بعد من أجل الفنادق البلّورية في كوراساو، وإلى

غوانتانامو[1] يا أبت، وإلى سانتياغو دي لوس كاباِّيروس[2] التي ليس لها ولا حتى بحر يمكن بلوغها عَبْره يا أبت، وإلى أجمل الجُزُر وأحزنها في العالَم بأسره، تلك التي ظللنا نحلم بها حتى بعد خيوط الفجر الأولى يا أبت، تذكَّرْ كم كانت تتبدَّل حالنا ساعة رحيل المراكب الشراعية، تذكَّر الببغاء المُتكهِّن بالمستقبل في بيت ماتيلديه أريناليس، والسرطانات الزرق التي كانت تسير خارجةً من صحون الحساء، وريح القروش، والطبول النائية، الحياة يا أبت، الحياة اللعينة أيها الفتيان، فهو يتكلَّم بمثل ما نتكلَّم سيدي الجنرال، وكأنه قد وُلِد في حي مشاجرات الكلاب، فيلعب الكرة على الشاطئ، بل إنه تعلَّم عزف الأكورديون أفضل من أهل بايِيدوپار[3]، وتفوَّق عليهم في الغناء، وتعلَّم اللغة المزهرة التي بها يتكلَّم بحَّارة السفن البخارية، وكان يسبّهم باللسان اللاتيني ناعتًا إياهم بالفروج، ويسكر معهم في أكواخ المُخنَّثين بالسوق، بل إنه اشتبك مع أحدهم لأنه قد عاب في الذات الإلهية، فأوسع كلٌّ منهما الآخر لكمًا، ماذا نحن فاعلون، أما هو فأصدر أمره بألَّا يفضّ الاشتباك أحد، فتحلَّق الحضور حولهما في دائرة، وكان النصر حليف الكاهن، انتصر الكاهن سيدي الجنرال، كنتُ أعرف، قال هو راضيًا، إنه لفحل، وليس على هذا القدر من الطيش الذي تصوَّره الجميع، ذلك أنه في تلك الليالي المفعمة بالاضطرابات كشف من الحقائق بقدر ما فعل في الأيام الشاقة بقصر

(1) غوانتانامو: مدينة تقع جنوب شرقي كوبا.

(2) سانتياغو دي لو كاباِّيروس: مدينة تقع في المنطقة الشمالية الوسطى من جمهورية الدومينيكان وتطلّ على الكاريبي.

(3) بايِيدوپار: مدينة في شمال شرقي كولومبيا تشتهر بذلك اللون الشعبي من الشعر الغنائي المعروف باسم باِيِيناتو، والذي تأثَّر به المُؤلِّف كثيرًا في حياته.

السفارة البابوية الرسولية، وأكثر بكثير مما فعل بقصر الضواحي القاتم الذي شرع يستكشفه من دون إذن في أمسية غزيرة الأمطار ظنًّا منه أنه قد زاغ من مراقبة أجهزة الأمن الرئاسي التي لا تنام، فراح يفتِّش القصر حتى آخر ثغرة غارقًا تحت أمطار داخلية تتساقط من رُقَع النشع المنتشرة في السقف، عالقًا في مستنقعات القلقاس والكاميليا السامّة داخل المخادع الرائعة التي هجرتها بينديسيون ألبارادو من أجل سعادة الخادمات، لأنها كانت صالحة يا أبت، ومتواضعة، فكانت تسمح لهن بالنوم على الملاءات القطنية في حين تنام هي على سرير ثكنات مفروش بحصيرة عارية، وتسمح لهن بوضع ثياب الآحاد الخاصة بالسيدة الأولى، فكن يتطيَّبن بأملاح الحمام، ويلهين عاريات مع أفراد الخدمة العسكرية في الرغوة المُلوَّنة داخل مغاطس مصنوعة من البيوتر[1] وترتكز على قوائم أسد، كن يعشن حياة الملكات في حين تنسلّ حياتها منها وهي تلوِّن الطيور، وتطهو حساء الماساموزًّا[2] بالخضروات على موقد الحطب وتزرع النباتات العلاجية تحسُّبًا لطوارئ الجيران الذين كانوا يوقظونها في منتصف الليل بدعوى أنني أشعر بمغص في معدتي يا سيدتي، أما هي فتناوله بذور الرَّشاد[3] حتى يلوكها، أو بدعوى أن ابني بالمعمودية يعاني من انحراف في إحدى عينيه، أما هي فتناوله طاردًا للديدان من أوراق الأثينة العطرية[4]، أو بدعوى أنني مشرف

(1) بيوتر: مزيج من القصدير والنحاس والرصاص ودونها من المعادن.
(2) الماساموزًّا: حساء تقليدي من مُكوِّناته الرئيسية الذرة.
(3) الرَّشاد: نبتة لها خواص علاجية تُستخدَم للتداوي من الإمساك ومشكلات صحية أخرى.
(4) الأثنية العطرية: نبات بري ذو رائحة عطرية له خواص علاجية ويُستخدَم بوصفه مساعدًا على الهضم وطاردًا للديدان.

على الموت يا سيدتي، فلا يموتون لأنها كانت تملك العافية في راحة يدها، كانت قديسة على قيد الحياة يا أبت، قديسة تجوب فضاءها النقي في أرجاء قصر الغبطة الذي سكنت، حيث انهمرت الأمطار بلا هوادة منذ حملوها عنوةً إلى البيت الرئاسي، فسالت على أزهار اللوتس فوق البيانو، وعلى الطاولة المرمرية في حجرة الطعام الفخمة حيث لم تأكل بينديسيون ألبارادو قط وإلَّا كنتُ كمن يتناول الطعام جالسًا في المذبح، تخيَّل يا أبت، أي حدس خليق بقديسة، وبرغم الشهادات المحمومة التي أدلى بها الجيران فقد وجد محامي الشيطان من آثار الخجل ما طغى على آثار التواضع وسط الأنقاض، كما وجد من الدلائل على كونها مسكينة بالروح ما طغى على دلائل إنكار الذات وسط تماثيل الإله نبتون[1] الأبنوسية وحطام الشياطين المحلية والملائكة العسكرية المُحلِّقة في بِرْكة قاعات الرقص العتيقة، بَيْد أنه لم يجد أدنى أثر لذلك الرَّب الآخر العسير، الواحد الثالوث، الرَّب الذي أرسله من سهول الحبشة الحارقة بحثًا عن الحقيقة حيث لم يكُن لها وجود قط، فلم يجد شيئًا سيدي الجنرال، لا شيء البتة، يا للهول. وعلى الرغم من ذلك، فلم يقنع مونسِنيور ديميتريو ألدوس بتقصِّي الحقائق الذي أجراه في المدينة وإنما تسلَّق حواف الپارامو الجليدية على ظهر بغلة محاولًا العثور على بذور قداسة بينديسيون ألبارادو هناك حيث لم يكُن بريق السلطة قد أفسد صورتها بعد، فكان ديميتريو ألدوس ينبثق من قلب الضباب ملتحفًا بوشاح قُطَّاع الطرق، منتعلًا بوط الفراسخ السبعة[2]، كما لو كان طيفًا

---

(1) نبتون: إله البحار والمياه العذبة في الميثولوجيا الرومانية.

(2) بوط الفراسخ السبعة: أسطورة من الفولكلور الأوروبي ورد ذكرها في شتَّى الحكايات الخرافية. وطبقًا لما جاء في الأسطورة فإن البوط المشار إليه يسمح لمن ينتعله بقطع سبعة فراسخ مع كل خطوة يخطوها.

شيطانيًّا يشيع الخوف في بادئ الأمر ثم يثير العجب، وأخيرًا يحرِّك فضول ساكني الپارامو الذين لم تقع أبصارهم على بشر بهذا اللون قط، غير أن الإيريتري الداهية كان يشجِّعهم على مسِّ بشرته لإقناعهم بأنه لا ينضح قطرانًا، ويُظهِر لهم أسنانه تحت جنح الظلام، ويسكر معهم وهو يتناول الجبن ويحتسي عرق الذرة من القَرْعة نفسها للفوز بثقتهم في حوانيت الضِّياع الموحشة، هناك حيث عرفوا مُربِّية الطيور الوقور تحت خيوط الفجر الأولى في قرون غابرة، فعرفوها وهي ترزح تحت ذلك الحمل الجنوني، حمل أقفاص الأفراخ المُلوَّنة بألوان العنادل، وطيور الطوقان المُذهَّبة، وطيور الجواتشاراكا المُتنكِّرة بهيئة الطواويس لخداع الأجلاف خلال أيام الآحاد الجنائزية في كرنفالات الپارامو، هناك كانت تجلس يا أبت، قرب وهج المواقد، تترقَّب أن يحسن إليها أحدهم بأن يضاجعها على قِرَب الدِّبْس في المخزن، لتجد ما يسدّ الرمق يا أبت، لتجد ما يسدّ الرمق ليس إلَّا، ذلك أن أحدًا لم يكُن من الجلافة حتى يشتري منها تلك السخافات الزائفة التي تبهت ألوانها تحت قطرات المطر الأولى وتخرّ على الأرض إذا سارت، وحدها كانت على هذا القدر من السذاجة يا أبت، إنها بينديسيون قديسة الطيور، أو قديسة الپارامو، كل امرئ وما رأى، فلا أحد يعلم علم اليقين بما كانت تُدعَى آنذاك ولا متى دُعِيَت بينديسيون ألبارادو لأول مرة، فلا يمكن أن يكون ذلك اسمها الأصلي لأنه ليس بالاسم الشائع في تلك الأنحاء وإنما هو يليق بسُكَّان السواحل، يا للهول، حتى هذا الأمر تحقَّق منه نائب الشيطان المُراوِغ الذي يكشف عن كل شيء ويميط اللثام عن كل شيء رغمًا عن القتلة المأجورين من أفراد الحرس الرئاسي، أولئك الذين تعمَّدوا تعقيد خيوط الحقيقة ووضع العقبات الخفية في

سبيله، ما رأيك سيدي الجنرال، ينبغي لنا أن نطارده على الجرف كالأيائل، وأن نجعل بغلته تكبو، فحال هو دون ذلك وأصدر أمرًا شخصيًّا بوضعه تحت المراقبة مع الحفاظ على سلامته البدنية، أكرِّر الحفاظ على سلامته البدنية توفير مطلق الحرية جميع التسهيلات إتمام المهمة بموجب أمر واجب الطاعة واجب التنفيذ لا ردّ له صادر عن هذه السلطة العليا[1]، التوقيع أنا، ثم أردف بإصرار، أنا بنفسي، مُدركًا أن قراره ينطوي على مخاطرة فظيعة علمًا أنه قد يترتَّب عليه كشف الصورة الحقيقية التي كانت عليها أمّه بينديسيون ألبارادو في الزمن المحظور وهي لا تزال شابة، نحيلة، رثة الثياب، حافية القدميْن، مُضطرَّة لكسب قوتها بأسفل بطنها، إلَّا أنها كانت جميلة يا أبت، وبلغت من السذاجة حتى إنها كانت تطعِّم ريشات الببغاوات الأبخس ثمنًا بأذيال الديوك الأصيلة لبيعها على أنها ببغاوات المكاو، وترمِّم الدجاجات الكسيحة بمراوح اليد المصنوعة من ريشات الديكة الرومية لبيعها على أنها طيور الجنة، فما كان أحد يصدقِّها، بطبيعة الحال، ما كان أحد من سلامة النية حتى يقع في شراك مُربِّية الطيور التي كانت تهمس في عزلتها وسط ضباب أسواق الآحاد لعلَّها تجد من يشتري مستعدة لتقديم نفسها فوق البيعة، فالجميع يذكرها في أنحاء الپارامو ساذجةً مسكينةً، وعلى الرغم من ذلك فقد بدا الوقوف على هويتها الحقيقية ضربًا من المحال، إذ لم يُعثَر لها على شهادة ميلاد في أرشيف الدير حيث عُمِّدَت، بينما عُثِر على ثلاث شهادات ميلاد مختلفة للابن حيث كان هو مختلفًا في كل مرة من المرات الثلاث، فتكوَّن في بطن أمه ثلاث مرات في ثلاث مناسبات متباينة، ثم وُلِد ثلاث ولادات مُتعسِّرة، والفضل يرجع في

(1) تنطوي الفقرة الأصلية على عبارات مبتسرة وغير مترابطة.

ذلك لصُنَّاع تاريخ الوطن الذين عقَّدوا خيوط الواقع لئلَّا يتمكَّن أحد من كشف طلاسم أصله، السرّ الخفي الذي لم ينجح في تتبُّع خيوطه سوى الإريتري، ذلك الذي أزاح الكثير من الأكاذيب المُركَّبة عن طريقه، وتبيَّن مكنون السرّ سيدي الجنرال، السرّ الذي كان في متناول يده حين دوَّت الطلقة الهائلة التي ظلَّ صداها يتردَّد فوق النتوءات الرمادية والوهدات العميقة في سلسلة الجبال، لمَّا سُمِع صوت عواء مذعور بلا نهاية صَدَر عن البغلة التي زلَّت وراحت تهوي في دوَّار بلا قرار من أعلى قمة الثلوج الدائمة عَبْر المناخات المتعاقبة الآنية الظاهرة على رسوم العلوم الطبيعية، رسوم الجرف والمنبع الضيق حيث تتفجَّر المياه الغزيرة التي يُمكِن الإبحار فيها، والأطناف الوعرة التي كان الأساتذة الحكماء أفراد البعثة العلمية النباتية يتسلَّقونها محمولين على كواهل الهنود، بما في حوزتهم من نباتات مُجفَّفة سرِّية وتلال أزهار المَغنوليا البرية حيث ترعى النعاج ذات الصوف الدافئ، التي كانت تزوِّدنا بالغذاء الوفير والأغطية والنموذج الذي يُحتذى به، فضلًا عن قصور حقول القهوة بزينتها المُعلَّقة في الشرفات المنعزلة ومرضاها الذين لا ينتهون، والهدير الأبدي الآتي من الأنهار الهائجة عند التخوم حيث يبدأ القيظ وتهبُّ دفقات عفِنة ساعةَ الأصيل مبعثها ميِّت هرم قُتِل غدرًا ومات وحيدًا في حقول الكاكاو ذات الأوراق الضخمة الدائمة والأزهار القانية، والثمار التي تمثِّل بذورها مُكوِّنًا رئيسيًّا في صناعة الشكولا، والشمس الجامدة والغبار الحارق واليقطين والشمَّام والأبقار الهزيلة الحزينة في مقاطعة أتلانتيكو بالمدرسة الخيرية الوحيدة في دائرة يمتدّ محيطها مائتي فرسخ، والرائحة المنبعثة من البغلة التي ما زالت على قيد الحياة بعد أن تفجَّرت أحشاؤها كما تتفجَّر ثمرةُ غوانابانا مكتنزة

وسط حقول الموز والأفراخ المذعورة في قاع الهاوية، سحقًا، فلقد طاردوه كالأيائل سيدي الجنرال، واقتنصوه ببندقية مُعدَّة لصيد النمور فسقط في مضيق الروح الوحيد[1] على الرغم من حماية سلطتي التي بها شملتُه، يا أولاد القحاب، وعلى الرغم من برقياتي القاطعة، سحقًا، الآن سيعرفون من هو من، راح يزمجر، وهو يلوك زبد مرارته، وإن لم يكُن ما به حنقًا من جرَّاء عصيان أوامره بقدر ما كان يقينًا بأنهم يخفون عنه أمرًا جسيمًا ما دموا قد تجرَّأوا على مخالفة صواعق سلطته، وهكذا فقد جعل يراقب أنفاس أولئك الذين منهم يستقي الأخبار علمًا أنّه وحده من يعرف الحقيقة قد يجرؤ على الكذب، وأخذ يتفرَّس في النيّات الخفية للقيادة العليا حتى يكشف الخائن بينهم، أنت يا من صنعتُك من العدم، وأنت يا من سمحتُ لك بالنوم على فراش من الذهب بعد أن وجدتُك مُلقًى على الأرض، وأنت يا من أنقذتُ حياتك، وأنت يا من اشتريتُك بأغلى مما اشتريتُ سواك، وأنتم جميعًا، يا أولاد القحاب، فليس هنالك من يجرؤ على ازدراء برقية مُوقَّعة باسمي ومُصدَّقة بالشمع الأحمر وبخاتم السلطة إلَّا واحد منهم، وهكذا فقد تولَّى قيادة مهمة الإنقاذ شخصيًّا وأصدر أمره القاطع بضرورة العثور عليه في مهلة أقصاها ثمانٍ وأربعين ساعة، اعثروا عليه حيًّا واحضروه إليَّ، وأما إذا عثرتم عليه ميّتًا فاحضروه إليَّ حيًّا، وأما إذا لم تعثروا عليه فأحضروه إليَّ على كل حال، وكان الأمر الذي أصدره من الوضوح والهول حتى إنهم أقبلوا عليه قبل انقضاء المهلة المُحدَّدة بالخبر القائل بأنهم قد عثروا عليه

---

(1) الروح الوحيد: أيقونة معروفة تصوِّر روح امرأة في المطهر طبقًا لطقوس الكنيسة الكاثوليكية.

وسط آجام الجرف جريحًا وإن عقّمت أزهارُ الفريليخون الذهب[1] جروحه سيدي الجنرال، فعثروا عليه أكثر حياةً منا جميعًا سيدي الجنرال، سليمًا مُعافًى ببرَكَة أمك بينديسيون ألبارادو التي أرتنا دليلًا جديدًا على رحمتها ومقدرتها في الشخص الذي حاول الإساءة إلى ذكراها، ثم إنهم حملوه على سرير مُعلّق من قائم خشب ونزلوا به عَبْر دروب الهنود يرافقهم رُماة البنادق اليدوية ويتقدَّمهم ضابط تنفيذ أحكام من سلاح الفرسان أخذ يقرع جلاجل قداس العيد ليحيط سائر الناس علمًا بأن المسألة تخصُّ الآمر الناهي، فأنزلوه في حجرة ضيوف الشرف بالبيت الرئاسي تحت مسؤولية وزير الصحة مباشرةً إلى أن تسنّى له إتمام التقرير الرهيب الذي دوَّنه بخط يده، حيث أشَّر بحروف اسمه الأولى على الهامش الأيمن من كل ورقة في المُجلَّدات السبعة التي يقع كلٌّ منها في ثلاثمائة وخمسين صفحة وها أنا أوقِّع التقرير بالاسم والرسم وأصدِّق عليه بخاتمي في الرابع عشر من شهر إبريل من العام الجاري الذي أنعم به الرَّب علينا، أنا، ديميتريو ألدوس، مستشار المحفل المُقدَّس للشعائر، الداعية المسؤول عن التطويب، بموجب الدستور الأعظم ومن أجل العدالة البشرية على الأرض والمجد الإلهي في الأعالي أقرُّ أنا وأشهد أن تلك هي الحقيقة الوحيدة، كاملة غير منقوصة، الحقيقة وليس سواها يا صاحب الفخامة، هنا أودعها بين يديْك. وهناك كانت الحقيقة، حبيسةَ سبعة أسفار ومختومةً بالشمع الأحمر، فكانت من الحتمية والقسوة حتى لم يجرؤ على استعراضها عاريةً بين يديْه إلَّا رجل منيع

(1) الفريليخون: أزهار من عائلة عبَّاد الشمس تنمو في كولومبيا وفنزويلا والإكوادور. ولأزهار الفريليخون استخدامات طبية شتَّى نظرًا لما تتميَّز به من خواص علاجية.

على لعنات المجد وغريب عن مصالح سلطة الشيخ الفاتر الذي راح ينصت إليه من دون أن يرفَّ له جفن وهو يروِّح عن نفسه جالسًا على الكرسي المُتأرجح المضفور من الخيزران، حيث يتنهَّد بالكاد إثر كل كشف مميت، وبالكاد يقول آها كلما رأى نور الحقيقة يُضاء، آها، ويعيدها، بينما يطرد بقبعته ذباب إبريل المهتاج حول بقايا الغداء، ويزدرد حقائق كاملةً، مريرةً، حقائق كالجمر ظلَّت مستعرة في ظلمات قلبه، فالأمر برمته كان مهزلة يا صاحب الفخامة، تمثيلية ألَّفها بنفسه عن غير عمد حين قرَّر عرض رفات أمه في نعش مفعم بالثلج لتمجِّده العامة قبل أن يفكِّر أحد في أحقيتك في التقديس بوقت طويل ولمُجرَّد تفنيد الافتراءات الزاعمة بأنكِ تعفَّنتِ قبل الموت، حيلة من حيل السيرك انطلت عليه وهو لا يدري حين أقبلوا عليه بالخبر القائل بأن أمك بينديسيون ألبارادو كانت تصنع المعجزات سيدي الجنرال، فأصدر أمره بالطواف برفاتها في موكب جليل حتى أقاصي الأركان المجهولة في بلده الشاسع الخالي من التماثيل لئلَّا يبقى شخص واحد إلَّا وعرف ثواب فضائلك بعد كل هذه الأعوام من العذاب المجدب، بعد كل هذه الطيور التي لوَّنتها بلا نفع يُرجَى، يا أمي، بعد كل هذا الحب الخالي من الهناء، وإن ما كان ليخطر يومًا على بالي أنها ستغدو طرفة يتندَّر بها مرضى الاستسقاء الزائفين الذين كانوا يتقاضون مقابل التبوُّل على أنفسهم علانيةً، هذا بخلاف الميِّت الزائف الذي تلقَّى مائتي پيسو مقابل القيامة من قبره والتجلِّي زحفًا على ركبتيْه بكفنه المهترئ وفمه الذي غصَّ بالتراب وسط الجماهير المذعورة، والغجرية التي تلقَّت ثمانين پيسو مقابل التظاهر بالولادة على قارعة الطريق حيث وضعت مسخًا له رأسيْن جزاءً لها على ادعائها بأن تلك المعجزات تجارة

تمارسها الحكومة، وذلك ما كانت، فما من شهادة واحدة إلّا وكانت مدفوعة الأجر، كانت مؤامرة مشينة وإن لم ينسجها مُتملِّقوه من أجل الغاية البريئة المُتمثِّلة في مرضاته كما ظنَّ مونسِنيور ديميتريو ألدوس خلال تحرّياته الأولى، كلا يا صاحب الفخامة، بل إنها كانت تجارة قذرة مارسها أتباعه، تجارة هي الأكثر دنسًا والأشد مدعاة للخزي بين كل صنوف التجارة التي ازدهرت في ظل سلطته، لأن أولئك الذين اختلقوا المعجزات واشتروا الشهادات الكاذبة هم أنفسهم أعوان نظامه الذين صنعوا الآثار المُقدَّسة من ثوب العروس الميِّتة الذي كان لأمه بينديسيون ألبارادو ثم باعوها، آها، هم أنفسهم الذين طبعوا البطاقات وسكّوا النياشين المنقوشة بصورتها على هيئة ملكة، آها، هم أنفسهم الذين كنزوا الثروات من بيع خصلات شعرها، آها، وقوارير الماء الذي خَرَجَ مِنْ جَنْبِها، آها، والأكفان ذات الخيوط المتقاطعة حيث كانوا يرسمون بطلاء الأبواب رفات العذراء المرهفة راقدة في وضع جانبي ويدها على قلبها، ثم يبيعونها بالياردة في مخازن بازارات الهندوس، كانت أكذوبة فادحة تقوم على الافتراض بأن جثمانها ما زال صحيحًا على مرأى من العيون النهمة، عيون الجماهير الغفيرة المُصطفَّة داخل الصحن الرئيسي في الكاتدرائية بلا نهاية، أما الحقيقة فكانت تختلف أيما اختلاف يا صاحب الفخامة، ذلك أن جثمان أمه لم يُحفَظ بفضل مناقبها ولا الرتوق الشمعية ولا خدع مستحضرات التجميل التي قرَّر هو الاستعانة بها مدفوعًا بكبرياء الابن ليس إلّا، وإنما عُولِج الجثمان بأردأ فنون التحنيط التي بها تُعالَج الحيوانات النافقة في متاحف العلوم كما تأكَّدتُ بيديّ يا أمي، فأزحتُ غطاء النعش الزجاج الذي تهاوت شاراتُه الجنائزية مُتأثِّرةً بالأنفاس، وخلعتُ تاج أزهار البرتقال عن

جمجمتكِ المُغطَّاة بالعفن، تلك التي انتُزِعَت خصلاتها الكثيفة كشعر المهرة خصلة تلو الأخرى لبيعها على أنها من الآثار المُقدَّسة، وانتشلتُكِ من بين الخيوط العطِنة التي انسلَّت من أسمال العروس والبقايا المجدبة التي خلَّفتها الأصائل المضنية، أصائل ملح البارود والموت، فما كاد وزنكِ يزيد على وزن ثمرة قرع تحت أشعة الشمس وقد علقت بكِ رائحةُ قاع صندوق عتيقة، وسرى بداخلكِ جزَعٌ محموم بدا وكأنه حفيف روحكِ وإن لم يكُن سوى رفيف العُثَّة التي راحت تنخركِ من الداخل، وأما أعضاؤكِ الداخلية فقد تهتَّكت من تلقاء نفسها حين أردتُ حملكِ بين ذراعيَّ لأنهم قد أفرغوا جوفكِ من كل ما كان يبقي جسدكِ حيًّا كما يليق بأم سعيدة راقدة ويدها على قلبها، ثم أعادوا حشوكِ بالأسمال حتى لم يبقَ مما كنتِ سوى قشرة من العجين المُغبَّر الذي تفتَّت بمُجرَّد رفعه في الهواء الفوسفوري الحافل بيراعات عظامك في حين لم يكَد أحدٌ يسمع وقع وثبات البراغيث ذات الأعين البلّورية فوق بلاط الكنيسة الغاربة، وإذا هي عَدَمٌ، حفنةٌ من حطام أمٍّ مُتهدِّمة لملمها ضباط تنفيذ الأحكام من فوق الأرض بالمجرفة لنثرها مرة أخرى كيفما اتَّفق داخل الصندوق أمام الجمود الحجري البادي على ذلك المرزبان[1] الذي لا يُسبَر له غور بعينيه اللتين لم تشفَّا عن أي عاطفة كأعين سحالي الإغوانا، ولا حتى عندما بقي وحده في العربة المُجرَّدة من الشارات مع الرجل الوحيد الذي تجرَّأ على مواجهته بمرآة الحقيقة في العالَم بأسره، وعَبْر ضباب الأستار جعل كلاهما يتأمَّل جحافل الشحاذين وهم يستريحون من تلك الأمسية الدافئة في ظلّ رطوبة الليل عند البوابات حيث كانت تُباع في ما مضى قصص الجرائم المُروِّعة وقصص

(1) المرزبان: الرئيس من الفُرْس.

الحُبِّ الخائبة والأزهار آكلة اللحوم فضلًا عن الثمار العصية على التصوُّر التي تسلب الإرادة، هناك حيث لا يُسمَع الآن سوى ضجة تصمُّ الآذان مبعثها حركة بيع الآثار المُقدَّسة الزائفة من ثياب أمه بينديسيون ألبارادو ورفاتها بثمن بخس، أما هو فقد شقي بذلك الانطباع الصافي الذي حدَّثه بأن مونسِنيور ديميتريو ألدوس قد قرأ خواطره لمَّا أشاح بناظريْه عن شراذم العَجَزة وهمس إليه بأن تحرياته الصارمة لم تخلُ من جانب مُشرِق في خاتمة المطاف، ألا وهو يقينه بأن أولئك المساكين يحبّون فخامتكم بقدر ما يحبّون الحياة نفسها، فلقد لمح مونسِنيور ديميتريو ألدوس الغدر داخل البيت الرئاسي نفسه، ورأى الجشع في التملُّق والخنوع الماكر وسط أولئك الذين كنزوا الثروات في كنف السلطة، وعلى الرغم من ذلك فقد عرف لونًا جديدًا من ألوان الحب وسط قطعان المعوزين الذين لا ينتظرون منه شيئًا لأنهم لا ينتظرون من أحد شيئًا، بل إنهم قد آمنوا به إيمانًا أرضيًّا يمكن لمسه براحة اليد، وأخلصوا له إخلاصًا لا تشوبه الأوهام، كُنَّا نودُّ مثله لوجه الرَّب يا صاحب الفخامة، أما هو فلم يرفّ له جفن في غمرة الدهشة، التي أسفر عنها ذلك الكشف الذي كان سيعتصر أحشاءه لو كان في زمن غير الزمن، بل إن تنهيدةً واحدة لم تندّ عنه، إذ جعل يتأمَّل قائلًا لنفسه في جزع خفي هذا ما كان ينقصنا يا أبت، كان ينقصنا ألّا يحبّني أحدٌ في هذه اللحظة وأنت على وشك أن تتمرَّغ في نعيم مصيبتي تحت القباب الذهب في عالَمك الغَرُور في حين يبقى هو رازحًا تحت أثقال الحقيقة المجحفة وليست له أمٌّ مُحِبَّة تساعده على تحمُّلها، وهو أشدّ وحدةً من نبتة في الصحراء، في هذا الوطن الذي لم أختَره بإرادتي وإنما أعطوه لي جاهزًا كما رأيتَه بعينيْك على حاله المعهودة دومًا، بما فيه من إحساس

باللاواقعية، ورائحة الخراء، وأولئك الناس الذين لا تاريخ لهم ولا إيمان بشيء سوى الحياة، ذلك هو الوطن الذي فُرِض عليَّ من دون أن يسألني أحد يا أبت، بحرارته التي تبلغ الأربعين درجة ورطوبته التي تبلغ الثماني والتسعين درجة تحت ظلال العربة الرئاسية المُبطَّنة، أتنفَّس الغبار، وأشقى بغدر الفتق الذي يصدر صفيرًا خافتًا كصفير آلة القهوة في الاجتماعات، وليس له من يخسر مباراة دومينو أمامه هو، وليس له من يصدِّق الحقيقة من فمه هو، ضعْ نفسك في مكاني، بَيْد أنه لم يقُلها، وإنما بالكاد ندَّت عنه تنهيدة، بالكاد رفَّ جفناه مرة واحدة على حين غرة ثم طفق يتوسَّل إلى مونسِنيور ديميتريو ألدوس ألَّا يفضي لأحد بالمحادثة القاسية التي دارت بيننا مساء ذلك اليوم، فلا أنت قلتَ لي شيئًا ولا أنا أعرف الحقيقة يا أبت، عدني بذلك، أما مونسِنيور ديميتريو ألدوس فقد وعده قائلًا بالطبع يا صاحب الفخامة، فأنت لا تعرف الحقيقة، لك مني كلمة رجل. عُلِّقَت قضية بينديسيون ألبارادو لعدم كفاية الأدلة، أما الحُكم الصادر عن روما فقد أُذيع على المنابر بتصريح رسمي وسط حرص من جانب الحكومة على قمع أي احتجاج أو محاولة لنشر الفوضى، وإن لم تتدخَّل قوَّات الأمن العام حين أقدمت جحافل الحُجَّاج الساخطين على إضرام حلقات النيران في ميدان السلاح باستخدام بوابات البازيليكا الكبرى وهشَّموا زجاج السفارة البابوية الرسولية رميًا بالحجارة، ذلك الزجاج المُعشَّق المُزخرَف بالملائكة والمصارعين، وأتوا على كل شيء سيدي الجنرال، أما هو فلم يبرح سريره المُعلَّق، ثم إنهم حاصروا دير راهبات بيثكايا لقطع المؤن عنهن حتى الموت، ونهبوا الكنائس، وبيوت الإرساليات التبشيرية، وهشَّموا كل ما يمتّ للكهنة بصلة سيدي الجنرال، أما هو فقد ظلَّ

في غَبَش الجهنميات المنعش مستلقيًا على السرير المُعلَّق لا يحرِّك ساكنًا حتى أعلن قادة أركان الحرب مجتمعين عجزهم عن تهدئة النفوس واستعادة النظام من دون إراقة الدماء طبقًا للاتفاق، عند ذاك فقط استوى في جلسته وظهر في المكتب بعد كل هذه الشهور من التواني ثم تولَّى المسؤولية المهيبة المُتمثِّلة في ترجمة الإرادة الشعبية بالصوت الحي والجسم الحاضر، وذلك عملًا بمرسوم تفتَّق عنه ذهنه بوحي من عند ذاته، ثم أملاه بنفسه مُتحمِّلًا عواقب المجازفة كاملةً من دون إخطار القوَّات المُسلَّحة ولا الرجوع إلى وزرائه، وقد نصَّ البند الأول من المرسوم على تطويب بينديسيون ألبارادو قديسةً مدنيةً بموجب قرار سام للشعب الحر صاحب السيادة، ثم خلع عليها لقب شفيعة الأمَّةً وشافية المرضى وسيدة الطيور، وأعلن تاريخ ميلادها عيدًا قوميًّا، وأما البند الثاني فقد نصَّ على إعلان حالة الحرب بين هذه الأمَّة وقوى الكرسي البابوي اعتبارًا من تاريخ إصدار هذا المرسوم، بكل ما يترتَّب على ذلك من تبعات تكفلها القوانين والاتفاقات الدولية المعمول بها في مثل هذه الظروف، وأما البند الثالث فقد ورد فيه أمرٌ بطرد السيد رئيس الأساقفة فورًا وعلى الملأ هو وأعوانه من الأساقفة ورؤساء الإرساليات والكهنة والراهبات وكل من يمتّ لشؤون الرَّب بصلة من السُكَّان المحليين والأجانب تحت أي ظرف وأي مُسمًّى داخل حدود البلد، وحتى خمسين فرسخًا بحريًّا داخل المياه الإقليمية، وأما البند الرابع والأخير فقد ورد فيه أمرٌ بمصادرة أملاك الكنيسة من دور عبادة وأديرة ومدارس ومعامل تكرير سكر ومصانع وورش وأراضٍ زراعية ومُعدَّات وحيوانات وكل ما يمتّ للكنيسة بصلة على أرض الواقع، حتى وإن كان مُسجَّلًا باسم طرف آخر، وهي الأملاك التي

أصبحت تمثِّل جزءًا من إرث بينديسيون ألبارادو قديسة الطيور إجلالًا لعبادتها وتعظيمًا لذكراها اعتبارًا من تاريخ صدور هذا المرسوم الذي أمليه بالصوت الحي وأختمه بخاتم السلطة العليا والسطوة المطلقة التي لا ردّ لها، وذلك أمر واجب الطاعة والنفاذ. وفي غمرة مفرقعات الفرح ونواقيس المجد وموسيقى البهجة المُدوِّية احتفالًا بالتطويب المدني، أخذ هو على عاتقه تنفيذ المرسوم بالجسم الحاضر وبلا أي مناورات ملتبسة تجنُبًا للوقوع ضحية خداع جديد، ثم تولَّى زمام الواقع مرة أخرى بقفازه الساتاني المُحكَم كما في زمن المجد العظيم حين كان الناس يعترضون سبيله على الدَّرَج للمطالبة باستئناف سباق الخيل في الشارع فيصدر هو أمره، مُوافَقة، والمطالبة باستئناف سباق الجوالات، فيصدر أمره، مُوافقة، ثم يظهر في المزارع الأشد بؤسًا شارحًا كيف يجب أن ترقد الدجاجات على بيضها في الأعشاش وكيف تُخصَى العجول، ذلك أنه لم يكتفِ بالتحقُّق شخصيًا من محاضر الجرد الدقيقة حيث دُوِّنت أملاك الكنيسة، وإنما تولَّى إدارة مراسم نزع الملكية الرسمية بنفسه لئلَّا تفصل بين إرادته وبين تنفيذ الإجراءات شعرةٌ واحدة، ثم إنه وازن بين الحقائق الواردة في الأوراق وبين الحقائق الخادعة على أرض الواقع، وراقب تهجير جماعات كبرى نُسِب إليها مُخطَّط يرمي إلى تهريب كنوز آخر نوَّاب الملوك في جوالات ذات جيوب سرية وصديريات زائفة، وهي الكنوز الخفيّة التي ظلَّت مطمورة في مقابر المعوزين برغم الشراسة التي أبداها الزعماء الفيديراليون في التفتيش عنها على مدى أعوام طوال من الحروب، هذا ولم يكتفِ بإصدار أمره بألَّا يحمل أعضاء الكنيسة من الأمتعة ما يزيد على طقم واحد من الثياب، بل إنه اتَّخذ قرارًا لا ردّ له بوضعهم على متن السفن عرايا

كما ولدتهم أمهاتهم، أولئك الكهنة القرويون الأجلاف الذين لا فارق عندهم بين التعرِّي وارتداء الثياب ما دام قَدَرهم سوف يتبدَّل، ورؤساء الإرساليات الذين فتكت بهم الملاريا، والأساقفة المُوقَّرون من ذوي البشرة الملساء، وفي أثرهم جاءت النساء، أخوات البرِّ الحييَّات، المُبشِّرات البرِّيات اللائي دَرَجن على ترويض الطبيعة وزراعة الخضروات في الصحراء، وراهبات بيثكايا الهيفاوات عازفات آلة الكلافيكور، وراهبات الساليزيان بأيديهن المرهفة أبدانهن التي لم تُمسّ، فحتى بشرتهن العارية التي بها جئن إلى العالَم كانت تسمح بتمييز أصولهن الطبقية وتنوُّع أوضاعهن والتفاوت الوظيفي القائم بينهن، وقد اصطففن بين أكداس الكاكاو وجوالات سمك السلّور المُملَّح في عنبر الجمارك الشاسع، ومضين في جلبة دوَّارة كالنعاج المذعورة عاقدات سواعدهن على هيئة صليب على صدورهن، وكلٌّ تحاول إخفاء خزيها وراء خزي الأخريات أمام الشيخ الذي بدا وكأنه من الحجارة تحت المراوح ذات الأجنحة، إذ جعل ينظر إليهن وهو لا يتنفَّس، أو يحوِّل ناظريْه عن الفضاء الثابت، حيث لا بد أن يمرَّ سيل النساء العاريات لا محالة، أخذ يتأمَّلهن في غير تأثُّر، من دون أن يرفَّ له جفن، حتى لم تبقَ منهن واحدة على أرض الوطن، فأولئك هن الأخيرات سيدي الجنرال، ومع ذلك فهو لم يتذكَّر منهن إلَّا واحدة فحسب، ما كاد يلقي عليها نظرة واحدة حتى عزلها عن جموع الراهبات المذعورات، فميَّزها وسط الأخريات وإن لم تكُن تختلف عنهن في شيء، كانت ضئيلة، قوية، متينة البنيان، ريَّانة الردفيْن، بارزة النهديْن، خرقاء اليديْن، لها فَرْجٌ وعرةٌ طريقه، وشعر مُشذَّب بمقص البستاني، وأسنان متباعدة صلبة

كما الفؤوس، وأنف دقيق، وقدمان مفلطحتان، كانت طالبة رهبنة أقل من عادية، شأنها شأن الأخريات، أما هو فقد شعر بأنها المرأة الوحيدة وسط قطيع النساء العاريات، الوحيدة التي مرَّت أمامه من دون أن تنظر إليه تاركةً خلفها أثرًا داكنًا، أثر حيوان جبلي سلبني الهواء الذي عليه أعيش، أما هو فبالكاد وجد من الوقت مُتَّسعًا ليحوِّل إليها نظرة غير محسوسة ليراها مرة ثانية وإلى أبد الآبدين حين عثر الضابط التابع لجهاز التحقُّق من الهوية على اسمها في كشف الأسماء المُرتَّبة أبجديًّا فصاح مناديًا ناسارينو ليتيسيا، أما هي فأجابت بصوت رجولي، حاضرة. وهكذا أبقاها طوال البقية الباقية من حياته، حاضرةً، حتى انسلَّت آخر مشاعر الحنين عَبْر شقوق الذاكرة ولم تبقَ منها إلَّا صورتها على قصاصة الورق حيث كتب ليتيسيا ناسارينو، يا روحي أنا، انظري حالي التي إليها صرتُ من دونك، ثم أخفى قصاصة الورق في المخبأ حيث يحتفظ بعسل النحل، فكان يعاود قراءتها حين يعرف أن أحدًا لا يراه، ثم يعاود طيّها بعد أن يعيش مرة أخرى تلك الأمسية الموغلة في القدم للحظة خاطفة، أمسية الأمطار المُشعَّة حين بُوغِت بالخبر القائل بأنكِ قد أُعِدْتِ إلى موطنكِ بموجب أمر لم يُصدِره سيدي الجنرال، ذلك أنه لم يفعل أكثر من الهمهمة باسم ليتيسيا ناسارينو وهو يتأمَّل سفينة شحن الرماد الأخيرة تغيب على مرمى الأفق، ليتيسيا ناسارينو، ردَّد بصوت مرتفع لئلَّا ينسى الاسم، فوجدت أجهزة الأمن الرئاسي قوله كافيًا لاختطافها من الدير القائم في جامايكا واقتيادها إلى الخارج مُكمَّمة ومُكبَّلة بسترة المجانين داخل صندوق من خشب الصنوبر مُطوَّق بالأحزمة المختومة بالشمع، صندوق كُتِب عليه بالقطران

سهل الكسر do not drop this side up، وأُرسِل مُرفقًا بتصريح سليم وإعفاء قنصلي لتصدير ألفين وثمانمائة كأس شامبانيا من الكريستال الأصلي لحساب قبو النبيذ الرئاسي، وهكذا فقد شُحِنَت عائدةً في قبو سفينة فحم حيث وُضِعَت عاريةً مُخدَّرةً على فراش ذي أعمدة جيء به من حجرة ضيوف الشرف، وهي الحال التي سوف يذكرها عليها في الثالثة مساءً على ضياء الناموسية المُنساب كما الطحين، وقد اطمأنت نفسها كغيرها الكثيرات من النساء إذا استغرقن في نوم طبيعي، أولئك النساء الجامدات اللائي كان يستخدمهن بغير استئذان ويتَّخذهن لنفسه في تلك الحجرة فلا يوقظهن حتى من سبات المُنوِّم، مُعذَّبًا بذلك الإحساس المُروِّع بالهجران والهزيمة، أما ليتيسيا ناسارينو فلم يمسسها، بل إنه راح يتأمَّلها في نومها بصنف من الدهشة الطفولية وقد فوجئ بكل هذه التغيُّرات الطارئة على عريها منذ رآها في عنابر المرفأ، ذلك أنهم قد جعَّدوا شعرها، وحلقوا جسمها كاملًا بما في ذلك ثناياها الأكثر حميمية، وبالأحمر طلوا أظفار يديْها وقدميْها، وبطلاء الشفاه زيَّنوا شفتيْها، وبالمساحيق صبغوا وجنتيْها، وبالمسك كحَّلوا جفنيْها، فتضوَّع منها شذى عذب محا كل أثر خفي من آثار الحيوان الجبلي، يا للهول، حاولوا لملمة شتاتها فإذا بهم يشوِّهونها، ويغيِّرونها حتى إنه لم يتمكَّن من رؤيتها عارية تحت الزينة الخرقاء وهو يتأمَّلها مستغرقة في نشوة المُنوِّم، ثم رآها تطفو على السطح، رآها تفيق، ورآها حين رأته يا أمي، كانت هي، ليتيسيا ناسارينو، يا حيرتي أنا، وقد تحجَّرت هلعًا أمام الشيخ الصخري الذي راح يتأمَّلها بلا هوادة عَبْر أبخرة الناموسية الرقيقة، وتملَّكها الذعر من النيّات العصبيّة على التوقُّع الكامنة وراء صمته إذ لم تتخيَّل أنه برغم أعوامه التي لا تُحصَى وسلطته التي لا تُقاس كان

أشد منها هلعًا، وأشد وحدةً، وأشد حيرة من أمره، وأنه ذاهل أعزل كما كان يومَ أصبح رجلًا لأول مرة مع امرأة من نساء الجنود، تلك المرأة التي باغتها في منتصف الليل وهي تغتسل عارية في النهر بعد أن كوَّن فكرة في مخيلته عن مدى قوتها وحجمها بالحكم على أنفاس الفرس التي كانت تلهث بها إثر كل غطسة، في العتمة سمع ضحكتها القاتمة المنعزلة، وفي العتمة أحسَّ ببهجة جسمها، مع أن الخوف قد شلَّ أطرافه لأنه لم يكُن قد فقد عذريته وإن كان ملازمًا في سلاح المدفعية إبان الحرب الأهلية الثالثة، وهكذا إلى أن طغى خوفه من ضَياع الفرصة على خوفه من الهجوم، وعند ذاك خاض المياه بكل شيء، بالطماق، والمخلاة، وحزام الذخيرة، والساطور، والبارودة، مبهورًا بعقبات الحرب والمخاوف السرية حتى ظنَّت المرأة أن هنالك من خاض المياه على صهوة جواده في بادئ الأمر، ولكنها سرعان ما أدركت أنه مُجرَّد رجل مسكين مذعور ليس إلَّا، فتلقَّفته في بِرْكة رحمتها، وفي عتمة الحيرة أخذته من يده إذ لم يتسنَّ له العثور على طريقه في عتمة البِرْكة، وفي العتمة راحت ترشده بصوت أمٍّ قائلةً تشبَّثْ بكتفيّ بقوة لئلَّا يطيح بك التيار، ولا تُقْعِ في المياه بل اجْثُ مرتكزًا بركبتيْك على القاع بقوة وتنفَّسْ على مهل لئلَّا تنقطع أنفاسك، فكان يمتثل لإرشاداتها بطاعة صبيانية وهو يفكِّر قائلًا لنفسه سحقًا يا أمي بينديسيون ألبارادو ماذا تفعل النساء حتى يصنعن الأشياء وكأنهن يبتكرنها، ماذا تفعل النساء حتى يكنّ رجالًا إلى هذا الحد، مضى يفكِّر، وهي تجرِّده من عتاد لا جدوى منه، عتاد حروب أخرى أخفّ وحشة وهولًا إذا ما قُورِنَت بتلك الحرب الدائرة رحاها في قلب العزلة، تلك التي خاضها غائصًا في المياه حتى عنقه، وحين فرغت من حلِّ مشابك حزاميْه وأزرار بنطاله كان قد مات هلعًا

في كنف ذلك الجسم الذي علق به عطر صابون الصنوبر، ثم إني تخشَّبتُ مذعورةً إذ لم أعثر على ما رحت أفتِّش عنه، فلم أجد سوى تلك الخصية الهائلة تسبح في العتمة كالضفدع، فأفلتتها مرتاعةً، وابتعدت عنه، اذهبْ إلى أمك لتبدِّل بك آخر، قالت، أما أنت فلا نفع يُرجَى منك، ولقد غلبه الخوف الوراثي نفسه وجمَّده أمام عري ليتيسيا ناسارينو التي ما كان ينبغي له أن يخوض نهرها ذا المياه العصية على التوقُّع، ولا حتى بكل شيء ما لم تمدّ له هي عون رحمتها، فما كان منه إلَّا أن بسط الملاءة فوقها بنفسه، وأسمعها على الغرامافون أغنية دِلغادينا المسكينة التي أضرَّ بها حب أبيها لها[1]، وأخذ يُعيدها مرارًا وتكرارًا حتى اهترأت الأسطوانة، كما أمر لها بوضع الأزهار الصوفية في المزاهر لئلَّا تذوي كالأزهار الطبيعية مُتأثِّرةً بآفة يديْها، وفعل كل ما خطر له على بال من أجل إسعادها رغم أنه لم يغيِّر شيئًا من صرامة الأسر وعقوبة العري حتى تدرك أنها سوف تلقى الرعاية والحب، أما فرصها في الإفلات من ذلك المصير المُقدَّر فمعدومة، ولقد أدركت ذلك تمام الإدراك حتى إنها في أول هدنة تنعم بها من الخوف أمرته بقولها افتحْ هذه النافذة ليدخل القليل من النسيم العليل، بدلًا من التوسُّل إليه راجيةً بقولها من فضلك سيدي الجنرال، فما كان منه إلَّا أن فتح النافذة، أغلِقها مرة أخرى لأن ضياء القمر يتساقط على وجهي، فأغلقها، ومضى ينفِّذ أوامرها وكأنها نابعة من الحب، ويزداد إذعانًا وثقةً في نفسه كلما أحسَّ بقرب

(1) إشارة إلى قصيدة غنائية تعود أصولها إلى الفولكلور الإسباني. وتدور القصة باختصار حول دِلغادينا، ابنة الملك الذي طلب الزواج منها. ولما قابلت الابنة طلب أبيها بالرفض فما كان منه إلَّا أن احتجزها في برج حتى قضت نحبها عطشًا.

أمسية الأمطار المُشعَّة التي تسلَّل فيها إلى الناموسية واستلقى بثيابه إلى جوار ليتيسيا ناسارينو من دون أن يوقظها، فاختلى بها لياليَ قضاها وهو يشاطرها إفرازات جسدها الخفية، ويتنشَّق نتن الكلبة الجبلية العالق بها الذي غدا أكثر دفئًا مع مضي الشهور، وأما طحالب بطنها فنمت، ثم إنها أفاقت مذعورة وصرخت أغربْ عن وجهي يا جنرال، فقام بتروٍّ ثقيل غير أنه استلقى بجوارها مرة أخرى وهي نائمة، وهكذا تلذَّذ بها من دون أن يمسّها طوال العام الأول من الأسر حتى أَلِفت هي الاستيقاظ إلى جانبه وإن لم تفهم في أي اتجاه تمضي المسارات الخفية لذلك الشيخ الذي لا يُسبَر له غور، ذلك الذي تخلَّى عن إطراءات السلطة ومفاتن العالَم بأسره مُكرِّسًا نفسه لتأمُّلها وخدمتها هي، فكانت تزداد حيرةً كلما أحسَّ هو بقرب أمسية الأمطار المُشعَّة لمَّا جثم فوقها وهي نائمة كما فعل حين خاض المياه بكل شيء، بما في ذلك الزيّ المُجرَّد من الشارات، ونطاق السيف، وحلقة المفاتيح، والطماق، وبوط ركوب الخيل ذو المهماز الذهب، كانت هجمة كابوسية أيقظتها مفزوعة وهي تحاول أن تزيح ذلك الجواد الحربي المزركش الجاثم فوقها، ولكنه بلغ من الإصرار حدًّا جعلها تقرِّر كسب الوقت بحيلة أخيرة من حيلها، فقالت له اخلعْ عنك تلك الأحزمة يا جنرال وإلَّا جرحت قلبي بالحلقات، فخلعها، واخلعْ عنك المهماز يا جنرال وإلَّا آذيت كاحلي بالنجمة الذهب، واخلعْ حلقة المفاتيح عن النطاق وإلَّا احتكَّت بعظم خاصرتي، فانتهت به الحال وقد أذعن لأوامرها وإن اقتضى الأمر ثلاثة أشهر حتى يخلع نطاق السيف الذي يخنق أنفاسي وشهرًا آخر حتى يخلع الطماق الذي يهشِّم روحي بالإبزيم، كان صراعًا شاقًّا بطيئًا حيث جعلت تسوِّفه من دون الإفصاح عن ذلك حتى انتهت به الحال وقد

أذعن مرضاةً لها، وهكذا فلم يعرف أي منهما يومًا كيف وقعت الكارثة الأخيرة بُعَيْد الذكرى الثانية لاختطافها حين تصادف أن تعثَّرت يداه الفاترتان الرقيقتان الهائمتان على غير هدى في الأحجار الخفية لطالبة الرهبنة النائمة، فإذا بها تفيق مأخوذةً بتأثير العرق الشاحب واختلاجة الموت، غير أنها لم تحاول إزاحة ذلك الحيوان الوحشي الجاثم فوقها لا باللين ولا بالشدة، بل انتهت بها الحال وقد أثَّرت فيه بتوسلاتها قائلةً اخلعْ عنك البوط وإلَّا لوثتَ ملاءاتي القطنية فخلعها كيفما اتَّفق، واخلعْ عنك الطماق، والبنطال، وحزام الفتق، اخلعْ عنك كل شيء يا حياتي فأنا لا أحسُّك، حتى إنه هو نفسه لم يدرِ متى عاد كما لم يعرفه سوى أمه على ضياء قياثير أزهار الجيرانيوم الشجية، مُتحرِّرًا من الخوف، طليقًا، وإذا هو ثور مصارعة أطاح بكل شيء في طريقة من أول هجمة ثم انكفأ على وجهه في هاوية من الصمت حيث لم يُسمَع إلَّا صرير خشب المراكب الآتي من أضراس ناسارينو ليتيسيا المطبقة بإحكام، حاضرة، وبكل أصابعها تشبَّثت بشعري لئلَّا تموت وحيدةً في دوَّار بلا قرار حيث رحتُ أحتضر تتنازعني رغبات الجسد المُلحَّة كلها في آن واحد وبزخم واحد، وعلى الرغم من ذلك فقد نسيها، ومكث وحيدًا تحت جنح الظلام يفتِّش عن ذاته في مياه دموعه الآسنة يا جنرال، في خيطٍ من ريق العجل الوادع الذي انساب من شدقيْه يا جنرال، في دهشة الدهشة التي استحوذت عليه ولسان حاله يقول يا أمي بينديسيون ألبارادو كيف يُعقَل أنني عشتُ كل هذه الأعوام من دون معرفة بذاك العذاب، مضى يبكي، ذاهلًا تحت وطأة اللهف المضطرم في كليتيْه، وسيل المفرقعات المُدوِّية في جوفه، والتمزُّق القاتل الذي أحدثه ذلك المجسُّ الرقيق لمَّا اقتلع أحشاءه من الجذور وحوَّله إلى حيوان

منحور العنق ينتفض وهو ينازع في الرمق الأخير، فيلطِّخ الملاءات الثلجية برذاذ من مادة حارقة لاذعة أفسدت هواء البلّور السائل في ذاكرته، هواء أمسية الأمطار المُشعَّة تحت الناموسية، فكان ذلك خراءً يا جنرال، خراءك أنت.

وقبل أن يرخي الليل سدوله بقليل، حين فرغنا من إخراج هياكل الأبقار المُتعفِّنة ورتَّبنا تلك الفوضى الخرافية قليلًا، لم نكُن قد أضفينا على الجثمان صورة الأسطورة المنسوجة حوله بعد. كنا قد كشطناه بسكين إزالة القشور حتى نزيل عنه ريمورا(1) أعماق البحر العالقة به، وغسلناه بمحلول الكريولين والملح الصخري لإزالة آثار التفسُّخ، ومسحنا وجهه بالنشاء لمداراة رتوق الخيش وآبار الشمع التي بها استعنَّا مرغمين لترميم الوجه الذي نقرته طيور مكبِّ النفايات، ورددنا إليه لون الحياة برُقَعٍ من أحمر الشفاه والمساحيق النسائية، ولكن حتى العينيْن الزجاجيتَيْن اللتيْن استقرَّتا في محجريْه الخاوييْن لم تفلحا في إكسابه سيماء السطوة الذي ما زال ينقصه من أجل عرضه على مرأى من الجماهير. وفي تلك الأثناء، كنا في قاعة مجلس الحكومة ننادي باتحاد الجميع في مواجهة الطغيان الذي دام قرونًا لنتقاسم غنيمةَ سلطته بالتساوي، إذ عاد الكل مأخوذين بخبر موته السرِّي وإن تعذَّر احتواؤه، فعاد الليبراليون والمحافظون وقد تصالحوا على جمر الأعوام الماضية بما تخلَّلها من طموحات مُرجأة، وعاد جنرالات القيادة العليا الذين قد فقدوا بوصلة السطوة، وعاد آخر ثلاثة وزراء مدنيين، ورئيس الأساقفة، وكلُّ أولئك الذين

(1) ريمورا: فصيلة من الأسماك تتميَّز بعدد من الممصَّات التي تلجأ إليها للالتصاق بكائنات أكبر حجمًا.

ما كان ليرغب هو في حضورهم، فجلسوا مُتحلِّقين حول مائدة خشب الجوز الطويلة في محاولة للتوصُّل إلى اتفاق بشأن الطريقة التي يجدر اتباعها لإذاعة خبر ذلك الموت العظيم تجنُّبًا لوقوع انفجار جماهيري في الشارع قبل الأوان، أولًا تُذاع النشرة رقم واحد في أولى ساعات الليل حيث يُشار إلى أزمة صحية طفيفة اضطرَّت فخامته لتعليق الالتزامات العامة والاجتماعات المدنية والعسكرية، تليها النشرة الطبية التي يُذاع فيها أن جناب المريض قد اضطُرّ لملازمة حجرته الخاصة نظرًا لإصابته بوعكة صحية تحت وطأة الشيخوخة، وأخيرًا، ومن دون سابق إنذار، تقرع نواقيس الكاتدرائية قرعًا مُدوِّيًا مع بزوغ الفجر المشرق يوم الثلاثاء الدافئ من شهر أغسطس إعلانًا عن موت رسمي، رغم أن أحدًا لن يعرف أبدًا على وجه اليقين ما إذا كان ذلك موته هو في واقع الأمر. فوجدنا أنفسنا عُزَّلًا أمام وضوح الأمر، يتهدَّدنا جسد كريه الرائحة عجزنا عن العثور على بديل له في العالَم لأنه رفض اتخاذ أي قرار بشأن مصير الوطن من بعده وهو في مرحلة الشيخوخة، وتصدَّى لكل المقترحات المُقدَّمة بعناد شيوخ لا يُقهَر منذ انتقلت الحكومة إلى بنايات الوزارات ذات الزجاج الشمسي وعاش هو وحيدًا في البيت المهجور، بيت سلطته المطلقة، حيث ألفيناه يسير حالمًا، مُلوِّحًا بذراعيْه وسط الخراب الذي خلَّفته الأبقار وليس معه من يملي عليه أوامره سوى العميان والبُرْص والمفلوجين الذين كانوا يحتضرون لا تحت وطأة المرض بل لأنهم تقادموا وسط حشائش شجيرات الورود، وعلى الرغم من ذلك كان من صفاء الذهن والعناد حتى إننا لم نحصل منه إلَّا على المراوغة والتسويف كلما طرحنا عليه الحاجة الماسة إلى تسوية إرثه، فيقول إن تفكير المرء في العالَم من بعده

رماديّ قاتم بلون الموت نفسه، سحقًا، وعلى كل حال فلسوف يعاود السياسيون اقتسام الغنيمة بعد موتي كما في زمن القوط، سترون بأعينكم، مضى يقول، سترون كيف يتقاسم الكهنة والغرينغو والأثرياء كل شيء في ما بينهم، أما الفقراء فلا شيء لهم، طبعًا، لسوف يظلُّ أولئك غارقين في الخراء حتى آذانهم، بل إنهم لو أصبح للخراء ثمنٌ لولدوا بغير مُؤخرات، وسترون بأعينكم، مضى يقول، ويستشهد بشخص يرجع إلى زمن مجده، بل ويسخر من نفسه وهو يكاد يختنق من فرط الضحك قائلًا إنه ما دام لن يبقى ميتًا لما يزيد على ثلاثة أيام فالأمر لا يستحقُّ عناء حمله إلى أورشليم لدفنه في قبر المسيح، ثم إنه وضع حدًّا لكل خلاف بالحجَّة الحاسمة الآتي ذكرها، لا يهمُّ أن يفتقر شيءٌ إلى الحقيقة آنذاك، سحقًا، فلسوف يغدو حقيقيًّا مع مضي الزمن. وكان مُحقًّا، ذلك أن أحدًا في زمننا ما كان ليضع شرعية تاريخه موضع الشك، أو يقدر على إثبات صدقه من كذبه، وكيف ذاك ونحن لم نقدر حتى على التحقُّق من هوية جثمانه، فلم يكُن ثمة وطن غير الوطن الذي عَملَه عَلَىَ صُورَتِهِ كَشَبَهِه حيث كان يبدِّل الفضاء ويصوِّب الزمان بِحَسَبِ مَشِيئَته المطلقة، الوطن الذي شرع يعيد تكوينه بنفسه منذ فجر ذكرياته الأكثر إبهامًا، لمَّا هام على غير هدى في أرجاء بيت الخزي حيث لم يخلد إلى النوم شخصٌ سعيد قط، فكان ينثر حبات الذرة للدجاجات التي تنقرها حول سريره المُعلَّق ويشيع السخط في نفوس الخدم بأوامره المتناقضة، فيقول أحضروا لي قدحًا من عصير الليمون بالثلج المجروش ثم يتركه في متناول يده من دون أن يرتشف منه قطرة واحدة، ارفعوا هذا الكرسي من هنا وضعوه هناك ثم ردُّوه مرة أخرى إلى هنا، فيُذكّي بتلك الوسيلة التافهة جمر نهمه المفرط إلى

الأمر والنهي، ذلك الجمر الخامد، ويشغل أوقات فراغ السلطة اليومية في مسح مُتأنٍّ للحظات عابرة من طفولة نائية وهو يهوِّم ناعسًا تحت شجرة القابوق في الباحة، ويفيق فجأةً بمُجرَّد أن يقتنص إحدى الذكريات وكأنها قطعة من أحجية بلا حدود، أحجية الوطن من قبله، الوطن الأكبر، الخيالي، ذلك الذي لا ضفاف له، مملكة المستنقعات التي سبقته إلى الوجود بما حوت من أجراف وأطواف وئيدة، في زمن بلغ فيه الرجال من البسالة حتى إنهم كانوا يقتنصون التماسيح بأيديهم العارية ثم يدقّون الأوتاد في أفواهها، هكذا، فيشرح لنا مُصوِّبًا سبابته إلى سقف حلقه، ويروي لنا أنه ذات جمعة عظيمة سمع قصف الريح، وتنشَّق رائحة قشور الريح، ورأى سحائب الجراد الكثيفة التي حجبت سماء الظهيرة وراحت تقرض كل ما في طريقها حتى تركت العالَم أجرد والضياء مهترئًا كما كان عشية الخلق، وهي الكارثة التي عاشها بنفسه، ثم إنه رأى صفًّا من الديكة مُدلَّاة من قوائمها وقد قُطِعَت رؤوسها، رآها تنزف دماءها قطرة قطرة تحت سقيفة بيت واسع تعمُّه الفوضى في إحدى الضِّياع، هناك حيث قضت امرأة من فورها، ذهب ويده في يد أمه، حافي القدميْن، خلف الجثمان مهترئ الثياب الذي لم يُحمَل إلى المقابر في نعش وإنما على مِحفَّة مضت قدمًا تحت سياط زوبعة الجراد، هكذا كان الوطن آنذاك، فلم تكُن لدينا ولا حتى نعوش لدفن الموتى، ولا شيء، ثم إنه رأى رجلًا يحاول شنق نفسه بحبل سبق أن استخدمه آخر لشنق نفسه على شجرة في ساحة القرية، فتمزَّق الحبل العطِن قبل الأوان ليبقى الرجل المسكين في الساحة ينازع سكرات الموت، ما أشاع الذعر في نفوس السيدات الخارجات من القداس الإلهي، بَيْد أن الرجل لم يقضِ نحبه، فلقد أنعشوه ضربًا بالعصيّ من دون أن يزعجوا أنفسهم

ولو بالتحقُّق من هويته، فما كان أحد يعرف مَنْ هو مَنْ ما لم يتعرَّف عليه في الكنيسة، ثم إنهم دسّوا كاحليْه في خشبة التعذيب وتركوه تحت أشعة الشمس في العراء قرب رفاق آخرين يشاطرونه الألم، هكذا كان زمن القوط الذي طغى فيه حكمُ الرَّب على حكم الحكومة، ذلك الزمن العصيب الذي عاشه الوطن قبل أن يصدر هو أمره بقطع الأشجار في ساحات القرى تجنُّبًا لذلك المشهد المهول حيث يتدلَّى المشنوقون أيام الأحد، وأمر بحظر خشبة التعذيب العلني، والدفن بلا نعش، وكل ما قد يوقظ في الذاكرة قوانين العار السابقة على سلطته، كما أَسَّس قطار الپارامو حتى يضع حدًّا لخزي البغال التي كانت تسير مذعورةً على حافة أطناف الجبال مُحمَّلةً بآلات البيانو الكبيرة لإقامة الحفلات التنكُّرية الراقصة في مزارع القهوة، كما رأى بنفسه كارثة الثلاثين بيانو الكبيرة المُهشَّمة في الهاوية، تلك التي طالما دار الحديث بشأنها وكُتِب عنها حتى في الخارج، رغم أن أحدًا لم يكُن قادرًا على الإدلاء بشهادة حقيقية سواه، إذ شاءت الصدفة أن يطلّ من النافذة في اللحظة نفسها حين زلَّت قوائم البغلة الأخيرة لتسقط جاذبةً معها باقي البغال إلى الهاوية، وهكذا، لم يسمع أحد سواه عواء الفزع الذي أطلقه القطيع المتهاوي، والأنغام اللامتناهية الآتية من آلات البيانو التي هوت مع البغال وراحت تدقُّ في الخواء من تلقاء نفسها، مندفعةً صوب قاع الوطن الذي كان شاسعًا مبهمًا إلى أبعد حد، مثله كمثل كل شيء من قبله هو، حتى كان من المحال تمييز الليل من النهار في ذلك الغسق الأبدي، غسق ضباب الأبخرة الدافئة في الأخاديد السحيقة، حيث تهشَّمت آلات البيانو المستوردة من النمسا، ولقد رأى تلك الواقعة ودونها الكثير من الوقائع في ذلك العالَم النائي رغم أنه لم يعرف

على وجه الدقة وبما لا يدع مجالًا للشك ما إذا كانت تلك ذكرياته هو نفسه، أو إنها روايات سمعها في ليالي الحروب المحمومة العصيبة، أو لعلَّه رآها في رسوم كتب الرحلات التي كان يمكث أمام صفحاتها منتشيًا طوال الساعات الكثيرة الخاوية التي يخيِّم فيها السكون على السلطة، غير أن شيئًا من ذلك ما كان يهمّ، سحقًا، فسرعان ما ترون بأعينكم أن الأمر سوف يغدو حقيقيًّا مع مضي الزمن، كان يقول، مدركًا أن طفولته الواقعية لم تكُن ذلك المستنقع الموحل المفعم بذكريات مبهمة لا تتبادر إلى ذهنه ما لم يبدأ دخان أقراص الروث في التصاعد ثم ينساه إلى الأبد، وإنما كانت طفولته في واقع الأمر تلك التي عاشها في رحاب زوجتي الشرعية الوحيدة ليتيسيا ناسارينو، وهي التي كانت تُجلِسه كل مساء ما بين الثانية والرابعة على مقعد مدرسي تحت عريشة الجهنميات كي تعلِّمه القراءة والكتابة، المهمة البطولية التي أقبلَتْ عليها بعناد طالبة الرهبنة، فاستجاب لها بصبر الشيخ الرهيب، وإرادة سلطته الرهيبة التي لا حدود لها، بكل قلبي، فكان يتغنَّى بكل روحه ويقول التونة على الزيزفون والبنفسج على الزيتون والقلنسوة على الليمون[1]، ويتغنَّى من دون أن يسمع نفسه أو يسمعه أحد وسط جلبة الطيور المهتاجة التي كانت لأمه الراحلة، ويقول سيسيليا تبيع السَّلق والسَّلوى والسِّلاح والسَّلالم والسَّلاسل والسَّلاطة والسَّلاحف، سيسيليا تبيع كل شيء، ويضحك، وفي غمرة صخب الزيزان يكرِّر

(1) في هذا الموضع وسواه روعي نقل دروس القراءة والكتابة بما يحافظ على طابع النص الأصلي وموسيقاه، بغض النظر عن المعنى الحرفي في بعض الأحيان.

درس القراءة الذي به تتغنَّى ليتيسيا ناسارينو على وقع مترونوم[1] طالبة الرهبنة، إلى أن تشبَّعت أجواء العالَم بكائنات صوتك ولم تعُد في مملكته الموحشة مترامية الأطراف حقيقةٌ أخرى سوى تلك الحقائق النموذجية الواردة في كتاب الحروف الأبجدية، ولم يعُد هنالك سوى القمر في السحاب والموز في الجراب والثور من الدواب، دروس القراءة التي كان يردِّدها في كل أوان وكل مكان بقدر ما يكرِّر صوره، وإن يكُن ذلك في حضرة وزير المالية الهولندي الذي نسي أمر الزيارة الرسمية حين رفع الشيخ الوقور يده بالقفاز الساتاني تحت جنح ظلام سلطته التي لا يُسبَر لها غور، وقطع الاجتماع ليدعوه إلى الإنشاد معي قائلًا أمي أمي ما أحلاها، سار إسماعيل ست ساعات في الساحة، سألت السيدة كم سعر السبانخ، مضى ينشد وهو يقلِّد حركة مُؤشِّر المترونوم بالسبابة، ويردِّد من الذاكرة درس الثلاثاء ويلقيه إلقاءً مثاليًّا رغم غفلته التامة عن المناسبة حتى انتهت المقابلة كما أراد لها أن تنتهي، فتقرَّر تأجيل سداد المديونية الهولندية إلى أن تسنح فرصة أنسب، إلى أن يسمح الوقت، قرَّر هو، أمام دهشة البُرْص والعميان والمفلوجين الذين قاموا فجرًا وسط شجيرات الورود المكسوة بنُدَف الثلج فرأوا شيخ الظلمات يمنح بَرَكته الصامتة، وينشد ثلاث مرات على أنغام قداس الأعياد، قائلًا إني أنا الملك الأمين وأحبُّ كل القوانين، مضى ينشد، العرَّاف يشرب ولا يخاف، المنارة برجٌ مُشيِّد ذو مصباح يرشد البحَّارة حتى طلوع الصباح، وينشد، مُدركًا أنه لا وقت إلَّا وقت ليتيسيا ناسارينو، يا حياتي أنا، في ظلال سعادة الشيخوخة، في حساء جمبري المنساب في لهو القيلولة الخانق، ولا لهفة إلَّا لهفة الاستلقاء معكِ عاريًا فوق

(1) المترونوم: جهاز يُستخدَم في ضبط وقياس الزمن أو الإيقاع الموسيقي.

الحصيرة المُخضَّبة بالعرق تحت وطواط المروحة الكهربائية الأسير، ولا ضياء إلَّا ضياء ردفيْك، يا ليتيسيا، ولا شيء إلَّا نهدَيْكِ الطوطميينْ[1]، وقدميْكِ المفلطحتيْن، وغصين السذَّاب[2] الذي به تتداوين، وشهور يناير الثقيلة في جزيرة أنتيغوا[3] النائية حيث جئتِ إلى العالَم ذات فَجْرٍ من العزلة في مهب الريح الحارقة الآتية من المستنقعات العفنة، وقد أقفلا دونهما باب حجرة ضيوف الشرف مع أمر شخصي منه بمنع أي شخص من الاقتراب إلى مسافة تقلُّ عن خمسة أمتار من هذا الباب، لأني سأكون منهمكًا في تعلُّم القراءة والكتابة، وهكذا فلم يقاطعه أحدٌ ولا حتى بالخبر القائل بأن الحُمَّى الصفراء قد ضربت سُكَّان الأرياف سيدي الجنرال، وخفقات قلبي تتسارع على وقع المترونوم مدفوعةً بالقوة الخفية الكامنة في رائحة الحيوان الجبلي العالقة بكِ، ويتغنَّى قائلًا إن الأقزام يرقصون على الأقدام، والبغال تمضي فوق التلال، وأوتيليا تقطف زهرة الكاميليا، والبقرة تُكتَب بحرف الباء كالباب، ويتغنَّى، بينما تزيح ليتيسيا ناسارينو خصيته المصابة بالفتق لتنظِّف آثار الكاكا التي تركها الحب الأخير، فتغمره بالمياه المُقدَّسة في مغطس مشغول من البيوتر يرتكز على قوائم أسد، وتدلِّكه بصابون رويتر وتفركه بالليف وتغسله بمياه الأعشاب المغلية بينما هما ينشدان معًا، ويقولان جزرة جنِّي جبل جراثيم كلمات تبدأ بحرف الجيم، وتضمِّخ مُفصَّلات ساقيه بزبد الكاكاو لتخفِّف عنه الالتهابات التي يتركها حزام الفتق، وتنثر

---

(1) الطوطم: في النظام القبلي، يُعدُّ الطوطم بمثابة كيان تُقدِّسه القبيلة أو تتَّخذ منه رمزًا لها.

(2) السذَّاب: جنس من النباتات يُستخدَم للتداوي من بعض الأمراض.

(3) أنتيغوا: جزيرة في الكاريبي تابعة لدولة أنتيغوا وباربودا.

مسحوق حمض البوريك على نجمة مُؤخِّرته الذاوية وتضربه على ردفيْه ضربات أمٍّ حنونٍ جزاءً لك على شقاوتك مع الوزير الهولندي، طاخ، طاخ، ثم إنها طلبت منه التكفير عمّا بدر منه بأن يسمح لجمعيات رعاية المعوزين بالعودة إلى البلد لتولِّي مسؤولية دور الأيتام ودور الشفاء ودونها من الدور الخيرية مرة أخرى، فما كان منه إلَّا أن أحاطها بهالة كئيبة من ضغينته التي لا تلين، دعي عنكِ تلك الترهات، ندَّت عنه تنهيدة، فلم تكُن هنالك سلطة قادرة على إقناعه بالعدول عن قرار اتَّخذه بنفسه وأملاه بالصوت الحي لا في هذا العالَم ولا العالَم الآخر، وفي غمرة لهاث حُبِّ الثانية مساءً طلبت منه أن تهبني شيئًا واحدًا، يا حياتي أنا، شيئًا واحدًا ليس إلَّا، أن تعود إرسالية جمعيات الأقاليم، تلك التي تعمل على هامش أهواء السلطة، أما هو فأجابها مُتلهِّفًا بلهاث الزوج المُتعجِّل، وقال دعي عنكِ تلك الترهات يا حبيبتي، أهون عليَّ الموت من قبول الإهانة من قطيع الجبناء الذين يمتطون ظهور الهنود بدلًا من البغال، ويقايضون بقلائد من الزجاج المُلوَّن أقراطًا وحلقانَ من الذهب، دعي عنكِ تلك الترهات، قال معترضًا، غير آبه لتوسُّلات ليتيسيا ناسارينو، يا ويلي أنا، تلك التي عقدت ساقيْها طالبةً ردَّ المدارس الدينية التي صادرتها الحكومة، والإفراج عن الأوقاف، ومعاصر قصب السكَّر، ودور العبادة التي تحوَّلت إلى ثكنات، بَيْد أنه أشاح بوجهه إلى الجدار وهو على استعداد للتخلِّي عن ذلك الشقاء الذي لا يرتوي، شقاء حُبِّك البطيء السحيق، وذلك أهون عليَّ من السماح للصوص الرَّب بليِّ ذراعي، أولئك الذين نهشوا أكباد الوطن على مدى قرون، دعي عنكِ تلك الترهات، اتَّخذ قراره، وعلى الرغم من ذلك فقد عادوا سيدي الجنرال، إذ عادت جمعيات رعاية المعوزين

إلى البلد عَبْر أضيق الثغرات بموجب أمر سرِّي منه يلزمها فيه بالنزول عن سفنها في خلجان سرِّية من دون صخب، بل إنها تلقَّت تعويضات هائلة، واستردَّت أملاكها المُصادَرة بالزيادة، كما أُبطِلَت القوانين الصادرة حديثًا بشأن الزواج المدني والطلاق والتعليم العلماني، وكل القوانين التي سنَّها بالصوت الحي وهو يتميَّز من الغيظ في الحفل الهزلي المُقام بمناسبة تطويب أمه بينديسيون ألبارادو قديسةً، عسى أن يتغمَّدها الرَّب برحمته في ملكوته، سحقًا، أما ليتيسيا ناسارينو فهي لم تقنع بكل هذا وإنما طلبت المزيد، فطلبت إليه قائلةً ضَعْ أذنك أسفل بطني لتسمع الجنين الذي ينمو في الداخل وهو يغنِّي، ذلك أنها قد أفاقت في منتصف الليل مذعورةً على وقع صوت عميق يصف الفردوس المائي داخل أحشائك التي لفحتها الأصائل الأرجوانية ورياح القطران، صوت داخلي حدَّثها عن سلائل[1] كُليتيْك، وفولاذ أمعائك الرقيق، وعنبر بولك الفاتر النائم في منابعه، فوضع هو أذنه التي يتردَّد فيها الطنين بقدر أقل من الأخرى على بطنها وسمع البقبقة السرِّية التي يحدثها الجنين الحي ابن خطيئته المميتة، ابن أحشائنا البذيئة الذي سوف يَدْعُونَ اسْمَهُ عِمَّانُوئِيل[2]، الاسم الذي به تعرف الرَّبَّ باقي الآلهة، ولسوف يحمل نجمًا أبيض على جبينه علامةً على أصله النبيل ويرث روح التضحية عن أمه والعظمة عن أبيه، بل وسيرث عن أبيه القَدَر نفسه، قَدَر المرشد الخفي، رغم أنه سيكون عارًا على السماء ووصمة في جبين الوطن نظرًا لطبيعته غير الشرعية ما دام هو يأبى أن يبارك على المذبح ما قد

(1) سليلة (ج.) سلائل: نمو غير طبيعي للأنسجة من الأغشية المخاطية.
(2) إشارة إلى الآية التالية من الكتاب المُقدَّس: «هُوَذَا الْعَذْرَاءُ تَحْبَلُ وَتَلِدُ ابْنًا، وَيَدْعُونَ اسْمَهُ عِمَّانُوئِيلَ» الَّذِي تَفْسِيرُهُ: اَللهُ مَعَنَا» (متى 1: 23).

دنَّسه على الفراش طوال أعوام وأعوام من المعاشرة الدنسة، وعند ذاك شقَّ طريقه وسط زبد ناموسية الأعراس العتيقة، فجاء لهاثه كهدير مِرجَل سفينة يتصاعد من أعماق غيظه المُروِّع الذي كظمه صارخًا دعي عنكِ تلك الترهات، أهون عليَّ الموت من الزواج، غير أنه مضى يجرجر قائمتيْه الضخمتيْن، قائمتي العريس المُتخفِّي، عَبْر أرجاء قاعات بيت غريب عاد إليه بهاء الزمن الغابر بعد زمن طويل من ظلمات الحداد الرسمي، وإذا بأشرطة أسبوع الآلام المُتعفِّنة تُنتزَع من الأفاريز، وضياء البحر يغمر الحجرات، والأزهار تُزيِّن الشرفات، والمارشات العسكرية تعلو، كل ذلك نزولًا عند أمر لم يُصدِره بنفسه وإن كان من أوامره بلا أدنى شك سيدي الجنرال نظرًا لما اتَّسم به الأمر من صرامة هادئة خليقة بصوته وأسلوب قاطع جدير بسطوته، فما كان منه إلَّا أن صدَّق عليه، مُوافقة، فأُعيد فتح أبواب دور العبادة الموصدة، ورُدَّت الأديرة والمقابر للجماعات الدينية القديمة بموجب أمر آخر من أوامره صدَّق عليه وإن لم يكُن قد أصدره بنفسه، مُوافَقة، واستؤنفت الأعياد المفروضة القديمة وصوم الأربعين وتسلَّلت عَبْر الشرفات المشرعة أناشيد الجماهير الفرِحة التي كانت تنشد تمجيدًا له في ما مضى، فأصبحت تنشد الآن جاثيةً تحت الشمس الحارقة احتفالًا بالبشرى السارة القائلة بأنهم قد جاؤوا بالرَّب على متن سفينة سيدي الجنرال، حقًّا، جاؤوا به نزولًا عند أمرك يا ليتيسيا، نزولًا عند أمر صدر في المخدع كغيره الكثير من الأوامر التي كانت تُصدِرها سرًّا من دون الرجوع إلى أحد، فيُضطرّ هو إلى التصديق عليها في العلن لئلَّا يبدو لأحد أنه فَقَد أوراكل[1]

(1) أوراكل: عند الإغريق، كانت الأوراكل وسيطة روحانية تنقل إلى البشر إرادة الآلهة.

سطوته، فكنتِ أنتِ القوة الخفية وراء تلك المواكب اللانهائية التي يتأمَّلها دهِشًا من نوافذ مخدعه ويراها ماضيةً إلى حيث لم تصل جحافل المُتعصِّبين لأمه بينديسيون ألبارادو التي طُمِسَت ذكراها من زمن البشر، وفي مهب الريح تناثرت أسمال ثوب العروس ونشاء عظامها، كما وُضِع شاهد القبر معكوسًا في ضريحها بحيث يواجه الجانبُ المنقوش الجدارَ لئلَّا يبقى من مُلوَّنة طيور الأوروپيندولا ومُربِّية الطيور الراقدة إلى أبد الآبدين ولا حتى اسمها، كل ذلك امتثالًا لأمركِ أنتِ، لأنكِ أنتِ التي أمرتِ بذلك حتى لا تخيِّم ذكرى أخرى بظلِّها على ذكراكِ يا ليتيسيا ناسارينو، يا بلواي أنا، يا ابنة القحبة. ولقد غيَّرته ليتيسيا ناسارينو وهو في عمر لا يطرأ فيه على المرء تغيُّر سوى الموت، وبفضل حيلها في الفراش تمكَّنت من القضاء على مقاومته الصبيانية، دعي عنكِ تلك الترهات، أهون عليَّ الموت من الزواج، كما أرغمته على وضع حزام الفتق الجديد، أنصتْ إليه كيف يرنّ كجلاجل خروف شارد في العتمة، وأرغمته على وضع بوط من الجلد المصقول يرجع إلى اليوم الذي راقص فيه الملكة على أنغام الفالس الأول، والمهماز الذهب على الكاحل الأيسر، المهماز الذي أهداه إليه أميرالُ البحر المحيط لينتعله حتى الموت علامةً على السلطة العليا، وسترتك الحربية ذات الزخارف المُذهَّبة والشراريب وكتفيات التمثال، تلك التي لم يعاود ارتداءها منذ زمن كان المرء فيه لا يزال قادرًا على رؤية العينيْن المحزونتيْن، والذقن المُتأمِّل، واليد الصموت في القفَّاز الساتاني خلف أستار المركبة الرئاسية، ثم إنها أرغمته على التعطُّر بعطرك الرجالي، وتقلُّد سيفك الحربي، ونيشانك ذي النطاق، نيشان فارس كنيسة القيامة الذي أرسله إليك قداسة البابا تكريمًا لك على إعادة ممتلكات

الكنيسة المُصادَرة، ثم إنكِ زيَّنتِني كالمذبح في أيام العيد وجرجرتِني من قدميَّ فجرًا إلى قاعة الاجتماعات القاتمة التي عبقت برائحة شموع الموت وسط أغصان البرتقال المُزيَّنة بها النوافذ ورموز الوطن المُعلَّقة على الجدران، من دون شهود، وأنا مشدود إلى نير طالبة الرهبنة المُضمَّدة بتنورة طويلة من الكتان تحت هالات من الموسلين مدارةً لخزي سبعة أشهر من المجون المُختلَس، وقد تفصَّد عرقهما في غمرة نعاس البحر الخفي الذي انتشرت رائحته الكريهة بلا هوادة في أرجاء قاعة الحفلات الكئيبة التي سُدَّت مداخلها وسُوِّرت نوافذها بموجب أمر منه، واقْتُلِع كل أثر للحياة من البيت لئلَّا يسمع العالَمُ أدنى صوت آتٍ من العرس الهائل المحجوب عن الأعين، حيث بالكاد تمكَّنتِ من التقاط أنفاسكِ تحت وطأة القيظ وضغط الجنين الذكر السابق على أوانه، الجنين السابح وسط الأشنيات في الظلمة التي خيَّمت على كثبان أحشائك، ذلك أنه اتَّخذ قراره بأن يكون الجنين ذكرًا، فكان ذكرًا يتغنَّى تحت صفحة كيانكِ بصوت الينبوع الخفي الذي به أخذ يرتِّل رئيس الأساقفة في ردائه الاحتفالي قائلًا الْمَجْدُ للهِ فِي الأَعَالِي، حتى لا يسمعه الخفراء الناعسون، وذعر الغوَّاص التائه الذي به أودع رئيس الأساقفة روحه بين يدي الرَّب حتى يسأل الشيخ الذي لا يُسبَر له غور ما لم يجرؤ شخص على سؤاله لا من قبل ولا من بعد وإلى انقضاء الدهر، هل تقبل ليتيسيا مِرسيديس ماريا ناسارينو زوجةً لك، بالكاد رفَّ جفناه، مُوافَقة، بالكاد رنَّت على صدره نياشين الحرب على أثر انقباضة خفية في القلب، ولكن صوته جاء مفعمًا بالسطوة حتى إن الكائن الرهيب في أحشائك بدَّل من وضعه تمامًا كاعتدال الشمس في غمرة المياه الكثيفة ليصوِّب اتجاهه نحو المشرق ويعثر على الطريق

المفضية إلى الضياء، عند ذاك شرعت ليتيسيا ناسارينو تتلوَّى على نفسها وهي تنتحب قائلةً يا أبت وربِّي اِرْحَمْ اتِّضَاعَ أَمَتِك التي سُرَّت أيما سرور بعصيان ناموسك المُقدَّس، أما الآن فهي تقبل جزاءك الرهيب في تسليم، وإن راحت تعضّ قفاز الدانتيل في الوقت نفسه لئلَّا يفتضح العار المستور بتنورة طويلة من الكتان على وقع قرقعة عظام خاصرتها، وإذا هي تجلس القرفصاء أرضًا، وتتمزَّق في بِرْكة من مياهها التي تتصاعد منها الأبخرة، وتنتزع من بين عُقَد نسيج الموسلين وليدها المُسْبَع الذي كان في حجم عجل نيء وليد وله مظهره الحيواني الذي يشي بالهجران، ثم رفعته بيديْها كلتَيْهما وهي تحاول التعرُّف عليه تحت الضياء العكِر المنساب من شموع المذبح المُرتجَل، فرأته ذكرًا، مثلما قضى الجنرال، ذكرًا هشًّا خجِلًا سيحمل اسم عمانوئيل بلا شرف، كما هو مُقرَّر، ثم إنه نُصِّب جنرالًا وقائد فرقة عسكرية اعتبارًا من اللحظة التي أودعه فيها بيديْه على حجر القربان وقطع حبله السُّرِّي بسيفه واعترف به ابني الشرعي الوحيد، يا أبتِ، عمِّده من أجلي. وإذا بقراره غير المسبوق مُقدِّمة عهد جديد، وإعلان أوَّلي ينذر بالزمن العصيب الذي كان الجيش يطوِّق خلاله الشوارع قبل مطلع الفجر ويأمر بإقفال نوافذ الشرفات ويُخلِي السوق بضربات من أخامص البنادق لئلَّا يتمكَّن أحد من رؤية السيارة اللامعة في مرورها الخاطف، السيارة ذات الفولاذ المُصفَّح ومقابض الذهب من أسطول المركبات الرئاسية، أما أولئك الذين واتتهم الجرأة على التلصُّص من الأسطح المحظورة، فما كانوا يرون الرجل العسكري الذي عاش دهرًا كما في السابق، ما كانوا يرونه مُتَّكئًا بذقنه على يده المُتأمِّلة ذات القفاز الساتاني من خلال الأستار المُوشَّاة بألوان العلَم الوطني وإنما كانوا يرون طالبة الرهبنة القديمة المكتنزة

وقد اعتمرت قبعة من القش مُزيَّنة بأزهار الصوف وأحاطت عنقها بعِقْد من الثعالب الزرق على الرغم من القيظ، كُنَّا نراها وهي تترجَّل أمام السوق العمومية فجرَ الأربعاء برفقة دورية من جنود الحرب ويدها في يد الجنرال قائد الفرقة الصغير الذي لم يكُن عمره آنذاك يربو على ثلاثة أعوام، وبالنظر إلى رشاقة الصغير وجماله فقد تعذَّر التصديق بأنه لم يكُن صبية مُتنكِّرة في زيٍّ عسكريٍّ رسمي مُوشًّى بالذهب بدا وكأنه ينمو على جسده، ذلك أن ليتيسيا ناسارينو قد خلعت عليه الزي الرسمي قبل أن يسنِّن لأول مرة حين كانت تحمله في مهده ذي العجلات ليترأَّس اللقاءات الرسمية مُمثِّلًا عن أبيه، وتحمله على ذراعيْها ليتفقَّد شؤون جيوشه، وترفعه فوق رأسها ليتلقَّى تصفيق الجماهير في ملعب الكرة، وترضعه في السيارة المكشوفة خلال مواكب الأعياد الوطنية بلا تفكير في الدعابات الحميمية التي يثيرها ذلك المشهد العلني حيث يتعلَّق الجنرال ذو الشموس الخمس بحلمة أمه في نشوة كالعجل اليتيم، ثم إنه شرع يحضر حفلات الاستقبال الدبلوماسية منذ أصبح قادرًا على الاعتناء بنفسه، وعند ذاك بدأ يضع الزي الرسمي ونياشين الحرب التي ينتقيها على هواه من حقيبة أوسمة يعيرها له أبوه كي يلهو بها، كان طفلًا جادًّا، غريب الأطوار، يعرف كيف يتصرَّف علانيةً منذ عمر السادسة، فيمسك بكأس عصير الفاكهة بدلًا من الشامبانيا ويتطرَّق إلى شؤون الكبار في كياسة ولباقة عفويتيْن لم يرثهما عن أحد، وإن حدث وخيَّمت غيمة كثيفة على قاعة الاجتماعات غير مرة، حيث تجمَّد الزمن لأن ولي العهد الشاحب قد استسلم للنعاس، وهو المنوط بأرفع السلطات، صمتًا، مضوا يتهامسون، فالجنرال الصغير قد استغرق في النوم، ووسط المحادثات المبتورة واللفتات المُتحجِّرة

حمله مرافقوه على أذرعهم إلى خارج الاجتماع الذي حضره لفيف من القتلة المأجورين والسيدات المحتشمات، فما كادوا يجرؤون على الهمس وهم يكبحون ضحكات الحرِّ الخانق خلف مراوح اليد المصنوعة من الريش، يا للهول، لو علم الجنرال بما كان، ذلك أنه هو من سمح بشيوع ذلك الاعتقاد الذي ابتكره بنفسه، الاعتقاد الزاعم بأنه غافل عن كل ما يدور في العالَم ما لم يكُن في منزلة تليق بعظمته، غافل حتى عن وقاحة ابنه في العلن، ابنه الوحيد الذي اعترف به دونًا عن أولئك الذين أنجبهم بأعداد لا تُحصَى، غافل عن الطيش المنسوب لزوجتي الشرعية الوحيدة ليتيسيا ناسارينو التي كانت تصل إلى السوق فجرَ الأربعاء ويدها في يد جنرالها اللعبة الصغير محاطةً برفقة صاخبة من خادمات الثكنات وأفراد قوَّات الهجوم الذين تتبدَّل هيئتهم مُتأثِّرين بذلك البريق المرئيّ الغريب الذي يغمر الوعي قُبَيْل بزوغ الشمس الوشيك في الكاريبي، فكانوا يغوصون حتى خصورهم في مياه الخليج العفِنة لنهب المراكب ذات الأشرعة المرتوقة الراسية في مرفأ الرقيق القديم، تلك المراكب المُحمَّلة بالأزهار من جزيرة مارتينيك وجذور الزنجبيل من باراماريبو، وكانوا يجرِّفون الأسماك الحية في طريقهم وكأنهم في معمعة حرب، ويختصمون في ما بينهم على الخنازير ضربًا بأخامص البنادق حول رصيف تفريغ الرقيق الذي لم يتوقَّف استخدامه بعد، هناك حيث بيعت أسيرة سنغالية في المزاد العلني بما يزيد على وزنها ذهبًا لما لها من جمال كابوسي ذات أربعاء آخر في زمن آخر من تلك الأزمنة التي عاشها الوطن قبل مجيئه، ولقد أتوا على كلِ شيء سيدي الجنرال، فهم شرّ من الجراد، ومن الإعصار، وإن ظلَّ هو غير آبه لتلك الفضيحة المتفاقمة، فضيحة ليتيسيا ناسارينو التي كانت تقتحم

الرواق المبرقش في سوق الطيور والخضروات كما لم يكُن هو نفسه ليجرؤ أن يفعل، فتلاحقها ثورة كلاب الشوارع التي تنبح خوفًا من العيون الزجاج الذاهلة للثعالب الزرق، أما هي فتملك زمام سلطتها بوقاحة وتتحرَّك وسط أعمدة رشيقة مشغولة من الحديد المُوشَّى تحت أغصان مشغولة من الحديد ومُطعَّمة بأوراق ضخمة من البلّور الأصفر، وتفاحات من البلّور المُتورِّد، وقرون وفرة[1] تفيض بثروات خرافية من النباتات البلّورية الزرق تحت قبة الأضواء العملاقة حيث كانت تنتقي من الفاكهة أطيبها ومن الخضروات أنضرها، وعلى الرغم من ذلك فلا تكاد ليتيسيا ناسارينو تمسّ الخضروات والفاكهة حتى تذوي في التو واللحظة، بينما هي غافلة عن آفة يديْها اللتَيْن تجعلان العفن ينمو على الخبز حتى وإن كان دافئًا لم يزَل، يديْها اللتيْن سوَّدتا خاتم الزواج الذهب حول إصبعها، وكانت ليتيسيا ناسارينو تكيل السباب للبائعات اللائي يخفين عنها خيرة المؤن ولا يتركن لبيت السلطة أكثر من حبات المانغو البائسة هذهِ التي لا تليق إلَّا بالخنازير، أيتها المحتالات، وهذه اليقطينة التي يرنُّ جوفها كما تقرع الطبول، يا بنات القحاب، وهذا اللحم المقرف بما فيه من دماء فاسدة استشرت فيها الديدان المرئية على بعد فراسخ، ما هذا بلحم عجل وإنما لحم حمار نفق بالطاعون، يا بنات الساقطات، كانت تصرخ وقد بُحَّ صوتها، بينما ينقضُّ أفراد الخدمة العسكرية بأسطالهم والخادمات بسلالهن مكتسحين كل ما تقع عليه أنظارهم من طعام، مطلقين صيحات قرصانية تطغى على جلبة الكلاب التي تثيرها رطوبة المخابئ المكسوَّة بنُدَف الثلوج، مخابئ أذناب الثعالب

(1) قرن الوفرة: رمز الغنى والوفرة والخصوبة عند الإغريق، ويكون على شكل وعاء مملوء فاكهة.

الزرق التي كانت تأمر هي بجلبها حيةً من جزيرة الأمير إدوارد[1]، فكانت تلك الصيحات أشد حدَّةً من الردود الدموية لببغاوات المَكاو سليطة اللسان التي كانت مالكاتها يلقِّنَّها في السرِّ ما يتمنَّين الهتاف به ولا يستطعن، ليتيسيا اللصَّة، الراهبة القحبة، هكذا كانت الببغاوات تصيح جاثمةً على الأغصان المشغولة من الحديدة المُطعَّمة بأوراق البلَّور المُلوَّن المُغبَّر تحت قبَّة السوق حيث تعرف أنها في مأمن من ريح الخراب الآتية من رقصة السامباپالو القرصانية[2] المُتكرِّرة فجرَ كل أربعاء على مدى الطفولة الصاخبة التي عاشها الجنرال الصغير الزائف الذي كانت نبراته تزداد حنانًا ولفتاته تزداد عذوبةً كلما حاول أن يبدو بمظهر الرجال مُتقلِّدًا سيف ملك ورق اللعب الذي ما زال يجرجره خلفه في سيره، وفي غمرة النهب كان يحافظ على رباطة جأشه، وهدوئه، وخيلائه، بوقار لا يلين غرسته فيه أمه حتى يكون أهلًا لوراثة زهرة العائلة التي كانت هي نفسها تنثر بتلاتها في السوق خلال نزوات الكلبة المهتاجة التي تنخرط فيها وشتائم المرأة التركية التي تكيلها تحت النظرات الجامدة التي تحدجها بها العجائز الزنجيات المُعمَّمات بأسمال مشرقة الألوان، أولئك اللائي يتحمَّلن السباب ويتأمَّلن النهب وهن يروِّحن عن أنفسهن من دون أن يرفَّ لهن جفن، في هدوء سحيق يليق بالأصنام الجالسة، بأنفاس مُتقطِّعة، ويجترن كرات من التبغ، وكرات من الكوكا، وأدوية مُهدِّئة تسمح لهن بتحمُّل مثل ذاك الهوان ريثما ينتهي الهجوم الضاري الذي تشنّه

(1) جزيرة الأمير إدوارد: جزيرة كندية تقع في المحيط الأطلنطي.

(2) سامباپالو: لون من الفنون الموسيقية الراقصة التي ظهرت في أمريكا ثم انتقلت إلى إسبانيا خلال القرن السادس عشر. وتتميَّز هذه الرقصة بالصخب والإيقاع السريع.

الجحافل بينما تشقّ ليتيسيا ناسارينو طريقها برفقة رجلها العسكري الزائف وسط الفقرات الناتئة في ظهور الكلاب المهتاجة وتصرخ من مكانها عند الباب وتقول أرسلوا الفاتورة إلى الحكومة، كعادتها دومًا، أما هن فبالكاد تندّ عنهن تنهيدة، رباه، لو علم الجنرال بما كان، لو أن هنالك من يقدر على إخباره، وقد انطلى عليهن ذلك الوهم فحسبن أنه ظلَّ غافلًا عمّا يعرفه الجميع حتى أزفت ساعته، الأمر الذي أساء لذكراه أكثر فأكثر، ذلك أن زوجتي الشرعية الوحيدة ليتيسيا ناسارينو قد جرَّدت بازارات الهندوس من إوزّاتها البلّورية المهولة ومراياها المُؤطَّرة بالأصداف ومنافضها المرجانية، ونهبت الحرائر الجنائزية المصقولة من حوانيت السوريين واغترفت ملء يديْها مسابح السمكات الذهب الصغيرة والتمائم الحارسة التي يسبكها الصاغة الجائلون في الشارع التجاري، أولئك الذين صرخوا في وجهها قائلين إنك لأشدّ ثَعْلَبَةً من هذه الليتيسيات الزرقاوات حول عنقك[1]، ثم إنها اكتسحت كل ما في طريقها لترضي بذلك الشيء الوحيد المُتبقّي لها من عهد طالبة رهبنة القديمة، لترضي ذائقتها الرديئة الصبيانية وآفة السؤال بغير حاجة، رغم أنها لم تعُد في حاجة للاستجداء مُتوسِّلةً لوجه الرَّب آنذاك وهي في دهاليز عبِقة بعطر الياسمين في حيِّ نوَّاب الملوك، وإنما غدت تُحمِّل الشاحنات العسكرية بِحَسَبِ مَشِيئَتها فلا تقدِّم المزيد من التضحيات سوى الأمر القاطع الذي تمليه بقولها أرسلوا الفاتورة إلى الحكومة. فكأنها تأمرهم بمحاسبة الرَّب، ذلك أن أحدًا ما عاد مُتأكِّدًا من وجوده منذ

(1) يتلاعب المُؤلِّف بالكلمات على نحو تكاد ترجمته تكون مستحيلة، حيث يشبِّه ليتيسيا ناسارينو بالثعالب، والثعالب بليتيسيا. فضلًا عن ذلك، فكلمة ثعلبة بالإسبانية تعد مرادفا لساقطة أو مومس.

ذلك الحين، فلقد توارى عن الأعين، أما نحن فكنا نرى الجدران المُحصَّنة فوق تلَّة ميدان السلاح، بيت السلطة بما فيه من شرفة الخطب الأسطورية والنوافذ المكسوَّة بأستار الدانتيل وأصص الأزهار على الأفاريز، ذلك البيت الذي كان إذا جنَّ الليلُ يبدو وكأنه سفينة بخارية تمخر عباب السماء، فلا يبدو بتلك الهيئة من أي موضع في المدينة وحسب بل وكذلك من على بعد سبعة فراسخ بحرية منذ طلائه بالأبيض وإضاءته بالمصابيح الكروية الزجاج احتفالًا بزيارة الشاعر المعروف روبِن داريو، وإن لم يكُن أيٌّ من تلك العلامات دليلًا قاطعًا على وجوده هناك، بالعكس، إذ كانت لدينا أسباب وجيهة تحدونا إلى التفكير بأن تلك الاستعراضات المفعمة بالحياة لا تعدو أن تكون حيَلًا عسكرية ترمي إلى تكذيب الرواية السائدة الزاعمة بأنه قد استسلم لأزمة روحانية ألمَّت به في الشيخوخة، فتخلَّى عن بذخ السلطة وخيلائها، وفرض على نفسه التكفير عن الآثام بقضاء البقية الباقية من أعوامه في حالة مهيبة من الخشوع، حيث يخلع على روحه مسوح الحرمان ويكبح شهوات جسده بكل صنوف الأغلال، فلا ينال من الطعام إلَّا خبز السلت، ولا يذوق من الشراب إلَّا مياه البئر، ولا يرقد إلَّا على البلاط العاري في زنزانة بدير راهبات بيثكايا تكفيرًا عن الذنب الرهيب الذي اقترفه حين فرض ملكيته على امرأة لا تجوز له رغمًا عنها وأنجب منها ذكرًا، المرأة التي إن لم تكُن قد التحقت بالرهبنة بعد فما ذاك سوى لأن الرَّبَّ كبير، وعلى الرغم من ذلك فإن شيئًا لم يتبدَّل في مملكته الموحشة مترامية الأطراف، ذلك أن ليتيسيا ناسارينو قد ملكت مفاتيح سلطته وصار يكفيها الزعم بأنه هو الذي يأمر بإرسال الفاتورة إلى الحكومة، تلك الوسيلة القديمة التي بدا التهرُّب منها غاية في

اليسر أوَّل الأمر، ولكنها ازدادت فظاعة مع مضي الوقت، حتى كان يومٌ حَسَم فيه نفرٌ من الدائنين أمرهم وتجرَّأوا على الذهاب إلى مقرِّ حرس البيت الرئاسي بعد أعوام طوال، فذهبوا ومعهم حقيبة عامرة بالفواتير المُعلَّقة، ولدهشتنا لم يُجِبنا أحدٌ لا بالرفض ولا بالقبول، بل طلبوا إلينا التوجُّه برفقة جندي من جنود الخدمة إلى قاعة انتظار بسيطة حيث استقبلنا ضابط بحرية ودود للغاية، في مقتبل العمر، له صوت رصين ولفتات باسمة، قدَّم لنا قدحًا من القهوة الخفيفة المُعطَّرة من نتاج المحاصيل الرئاسية، ثم أطلعنا على المكاتب البيض التي يغمرها الضياء الساطع بما فيها من مراوح سقف ونوافذ مُسيَّجة بالشباك المعدنية، وإذا بكل شيء صافٍ إنساني حتى كان المرء ليسائل نفسه حائرًا أين موقع السلطة في تلك الأجواء العبقة بروائح الأدوية المُعطَّرة، وأين تكمن خِسَّة السلطة وقسوتها في ضمائر أولئك النسَّاخين من ذوي الأقمصة الحريرية الذين يحكمون في صمت وتروٍّ، ثم إنه أطلعنا على الباحة الداخلية الصغيرة حيث شذَّبت ليتيسيا ناسارينو شجيرات الورود بنفسها لتنقية ندى الفجر من تلك الذكرى الكريهة، ذكرى البُرْص والعميان والمفلوجين الذين أُرسِلوا إلى دور العجزة الخيرية ليقضوا نحبهم تحت وطأة النسيان، كما أطلعنا على عنبر المحظيات العتيق، وآلات الحياكة الصدئة، وأسِرَّة الثكنات حيث كانت جواري الحريم يرقدن بأعداد تصل إلى ثلاث في زنزانة واحدة من تلك الزنازين الرثَّة المزمع هدمها بغرض إقامة مُصلًّى خاص في الموضع نفسه، ومن خلال إحدى النوافذ الداخلية أطلعنا على الرواق الأكثر حميمية في البيت المدني، وعريشة الجهنميات المُذهَّبة تحت أشعة شمس الرابعة فيما وراء السياج ذي العوارض الخشب الخضر حيث فرغت ليتيسيا

ناسارينو من تناول الغداء لتوّها برفقة الصغير، وهما الوحيدان المُصرَّح لهما بالجلوس إلى مائدته، كما أطلعنا على شجرة القابوق الأسطورية وقد تدلَّى تحت ظلالها السرير الكتاني المُعلَّق المنسوج بألوان العلَم الوطني حيث كان يأخذ القيلولة في أشد الأمسيات قيظًا، وأطلعنا على حظائر حلب الأبقار، وأوعية صناعة الأجبان، وخلايا النحل، وبينما هو عائد أدراجه في الدرب التي يطويها كل فجر للإشراف على حلب الأبقار بدا وكأن صاعقة قد ضربته تحت وطأة الكشف الذي اهتدى إليه، فأشار بإصبعه مُبديًا لنا آثارًا تركها البوط في الوحل، انظروا، قال، إنها آثاره هو، فتحجَّرنا مكاننا ورُحنا نتأمَّل أثر النعل الضخم الخشن وقد تجلَّى فيه البهاء والنفوذ الرابضَيْن، وفاح منه عَفَنُ جَرَب قديم خلَّفه نَمِرٌ قد أَلِف العزلة، فرأينا السلطة في ذلك الأثر، وشعرنا بالتواصل مع غموضه بقوة كاشفة أعتى كثيرًا مما شعرنا به حين اختير واحد منا لرؤيته بالجسم الحاضر لأن الرؤوس الكبيرة في الجيش كانت قد بدأت في التمرُّد على تلك الدخيلة التي استطاعت أن تجمع من السلطة ما يفوق سلطة القيادة العليا، وسلطة الحكومة، وسلطته هو، إذ تمادت ليتيسيا ناسارينو في خيلاء الملكات حتى إن أركان الرئاسة أنفسهم أخذوا على عاتقهم مسؤولية المخاطرة بالسماح لواحد منكم بلقياه، واحد فقط لا غير، ليحاول هو أن يُكوِّن ولو فكرة يسيرة عمّا آلت إليه مجريات الأمور في الوطن من خلف ظهرك سيدي الجنرال، وهكذا فقد رأيتُه، وحيدًا في مكتبه القائظ ذي الجدران البيض بما عليها من نقوش تمثِّل خيولًا إنجليزية، وقد مال إلى الوراء على الأريكة ذات النوابض، تحت المروحة ذات الأجنحة، بزيِّه القطني الأبيض المُجعَّد ذي الأزرار النحاسية الذي خلا من الشارات بصنوفها كافة، وأما يمناه ذات

القفاز الساتاني فقد وضعها على المكتب الخشب الذي خلا من كل شيء عدا ثلاث نظارات متطابقة ذهبية الأُطُر في منتهى الدقة، وأما خلف ظهره فقد استقرَّت خزانة الكتب المُغبَّرة التي بدت وكأنها بالأحرى دفاتر حسابات مُغلَّفة بجلد بشري، وعلى يمينه نافذة واسعة مشرعة، مُسيَّجة بشباك معدنية أيضًا، من حيث تراءت المدينة بأسرها، وقد خلت السماء كلها من السحائب والطيور حتى أقاصي البحر، فغمرتني راحة عظيمة لأنه بدا أقل إدراكًا لسلطته مقارنةً بأيّ واحد من أنصاره وأكثر ألفةً وأجدر بالشفقة مما يظهر في صوره، فكان كل ما فيه هرمًا مضنيًا، وبدا أن مرضًا شرهًا قد استشرى في جسده، حتى إن أنفاسه لم تسعفه ليطلب مني الجلوس، وإنما أشار إليَّ بإيماءة حزينة من قفازه الساتاني، فمضى ينصت إلى بواعثي وهو لا ينظر إليَّ، وإنما يلتقط أنفاسه مصحوبةً بصفير خافت مُضنٍ، صفير خفي نثر في أرجاء الحجرة ندًى من خلاصة القطران، واضعًا كل تركيزه في امتحان الحساب حيث رحتُ أضرب له الأمثلة المدرسية لعجزه عن إدراك المفاهيم المُجرَّدة، وهكذا فقد شرعت أوضح له أن ليتيسيا ناسارينو مدينة لنا بكمية من الحرير المصقول تعادل ضعف المسافة بحرًا إلى سانتا ماريا دِل ألتار، أي مائة وتسعين فرسخًا، فما كان منه إلَّا أن قال آها كمن يحدِّث نفسه، وأخيرًا أوضحتُ له أن مجموع الدَّين بعد حساب الخصم المُقدَّم لفخامته خصيصًا يعادل ستة أضعاف قيمة جائزة اليانصيب الكبرى على مدى عشرة أعوام، فأعاد قوله آها، وعند ذاك فحسب نظر إليَّ وجهًا إلى وجه بلا نظارة فتمكَّنتُ من رؤية عينيْه اللتيْن ألفيتُهما خجِلتيْن حليمتيْن، وعند ذاك فحسب تكلَّم بصوت غريب كصوت الأرغن وقال إن بواعثنا عادلة بيِّنة، فكل امرئ وما أتقن، قال، أرسلوا الفاتورة

إلى الحكومة. وهكذا كان، في واقع الأمر، إبَّان الحقبة التي صنعته فيها ليتيسيا ناسارينو من جديد وقد خلت طريقها من العقبات الشاقة التي كانت أمه بينديسيون ألبارادو تضع أمامها، فنَهَته عن عادة الأكل سائرًا والصحن في إحدى يديه والملعقة في الأخرى، وبات ثلاثتهم يتناولون طعامهم على طاولة شاطئ صغيرة تحت عريشة الجهنميات، فيجلس هو أمام الصغير تتوسَّطهما ليتيسيا ناسارينو حيث تلقِّنهما تعاليم التحضُّر وآداب الطعام الصحي، فعلَّمتهما كيفية المحافظة على وضع الجلوس مع الاتِّكاء بالعمود الفقري على ظهر المقعد، والشوكة في اليد اليسرى، والسكين في اليمنى، وعلَّمتهما كيفية مضغ كل لقمة خمس عشرة مرة على الجانب الأول ومثلها على الجانب الآخر بفم مطبق ورأس مستقيم، فلم تحفل بما أبدياه من اعتراض مُتذرِّعيْن بأن كل هذه الفروض تبدو وكأنها واجبات عسكرية، علَّمته أن يتبع الغداء بقراءة الجريدة الرسمية حيث يظهر اسمه بصفته راعيًا ومديرًا شرفيًّا، فكانت تودعها بين يديْه إذ رأته مستلقيًا على السرير المُعلَّق تحت ظلال شجرة القابوق العملاقة في الباحة العائلية، وتقول إنه من غير المعقول ألَّا يكون رئيس دولة في مكانته مُطَّلعًا على ما يجري في العالَم، وتضع النظارة الذهب على عينيْه وتتركه يسبح في قراءة أخباره وهي تدرِّب الصغير على رياضة طالبات الرهبنة حيث تُرمَى الكرة المطاطية ثم تُرَدّ، بينما يعثر هو على نفسه في صور بلغت من القدم حتى إن الكثير منها لم يكُن له وإنما لشبيه قديم مات عنه، شبيه ما عاد يذكر اسمه، فيجد نفسه على رأس اجتماع مجلس الوزراء، اجتماع الثلاثاء الذي أمسك عن حضوره منذ زمن المُذنَّب، ويطالع مأثورات تاريخية يعزوها إليه وزراؤه المُتعلِّمون، ويهوِّم برأسه خلال القراءة في غمرة الحرِّ

الخانق، حرِّ السحائب الكثيفة الشاردة في أمسيات أغسطس، ويغوص رويدًا رويدًا في حساء عرق القيلولة مغمغمًا أي جريدة خرائية هذه، سحقًا، لستُ أفهم كيف يطيقها الناس، ويغمغم، وعلى الرغم من ذلك فلا بد أن شيئًا كان يعلق بذهنه من تلك القراءات الخالية من التشويق لأنه كان يفيق من نومه القصير الطفيف وقد لاحت له فكرة جديدة مستوحاة من الأخبار، فيرسل أوامره مع ليتيسيا ناسارينو إلى وزرائه الذين يجيبونه عن طريقها ويحاولون سبر خواطره من خلال خواطرها هي، فكنتِ أنتِ كما أردتُكِ أن تكوني، كُنتِ لي مترجمةَ النيّات الأسمى، كنتِ لي صوتًا، كنتِ لي عقلًا وقوة، كانت هي سمعه الأوفى والأكثر يقظةً وسط صخب الحمم الأبدية في ذلك العالَم المنيع الذي يحاصره، وإن غدت الرسائل المجهولة المكتوبة على جدران مراحيض الخدم هي الأوراكل الأخيرة التي بها يسترشد قَدَرُه في واقع الأمر، تلك الرسائل حيث كان يكشف طلاسم الحقائق الخفية التي لا يجرؤ شخص على الكشف له عنها، ولا حتى أنتِ يا ليتيسيا، فيقرأها فجرًا لدى عودته بعد حلب الأبقار وقبل أن يطمسها أفراد خدمة النظافة، بل وأصدر أمره بتكليس جدران دورات المياه بصفة يومية لئلّا يصمد أحد في وجه غواية البوح بما يعتمل في نفسه من ضغائن دفينة، وهناك عرف المرارة التي تتجرَّعها القيادة العليا، والنيّات المكبوتة في صدور أولئك الذين يكنزون الثروات تحت ظله، ثم يجحدونه من وراء ظهره، فكان يحسُّ بسيادته المطلقة على سلطته حين يتمكَّن من الكشف عن أحد ألغاز القلب البشري على صفحة تلك المرآة

الكاشفة، مرآة صحيفة المكّار[1]، ثم إنه عاود الغناء بعد كل الأعوام التي أمضاها في تأمُّل ذلك السبات الصباحي عَبْر ضباب الناموسية، سبات الحوت الجانح الذي كانت تستغرق فيه زوجته الشرعية الوحيدة ليتيسيا ناسارينو، انهضي، كان يتغنَّى، فساعة قلبي تدقّ معلنةً عن تمام السادسة، والبحر مُستقِرٌّ في مكانه، والحياة ماضية قدُمًا يا ليتيسيا ناسارينو، تلك الحياة العصيّة على التوقُّع، حياة المرأة الوحيدة التي فازت منه بكل شيء دونًا عن نسائه كافة، كل شيء سوى ذلك الامتياز اليسير المُتمثِّل في الاستيقاظ معها على الفراش فجرًا، ذلك أنه كان يرحل بعد مطارحة الحب مرةً أخيرة، فيعلِّق مصباح الهرولة إلى الخارج على عارضة الباب المُؤدِّي إلى مخدع الشيخ العازب حيث يخلد إلى النوم، ويوصد المزاليج الثلاثة، والمغاليق الثلاثة، والأقفال الثلاثة، ثم يرتمي على وجهه أرضًا، وحيدًا، بثيابه، كما فعل كل ليلة من قبلكِ، وكما فعل من دونكِ حتى آخر ليلة من ليالي أحلام الغريق في عزلته، وبعد حلب الأبقار كان يعود إلى حجرتكِ العبقة برائحة وحش العتمة كي يتبعكِ ويهبكِ جميع ما ترغبين، فيهبكِ أكثر كثيرًا من إرث أمه بينديسيون ألبارادو الذي لا يُقاس، وأكثر كثيرًا مما حلم به أي إنسان على وجه الأرض، ليس من أجلها فحسب بل وكذلك من أجل أقربائها الذين لا ينتهون، أولئك القادمين من جُزُر الأنتيل الرملية المجهولة كثيرة المستنقعات، وليس لهم من الثروة سوى الجلد الذي به اكتست أجسادهم، وليس لهم من الألقاب سوى هوية آل ناسارينو، تلك العائلة الفظَّة بمن فيها من رجال طائشين ونساء اكتوين بحُمَّى الجشع، العائلة التي احتكرت

(1) مقولة إسبانية شائعة يكتفي الكاتب منها بالشطر الثاني فحسب، علمًا أن المقولة كاملة كما يلي: «الحائط والجدار، صحيفة المكار».

منافذ بيع الملح والتبغ ومياه الشرب عنوة، وهي الامتيازات القديمة التي كان يخصّ بها القادة من شتَّى أسلحة الجيش ليبقيهم بعيدًا عن دونها من الطموحات، فانتزعتها منهم ليتيسيا ناسارينو شيئًا فشيئًا بموجب أوامر لم يصدرها بنفسه وإن صدَّق عليها، مُوافَقة، ثم إنه أبطل عقوبة الإعدام الهمجية حيث يُشَدُّ وثاق الأطراف إلى الخيل حتى تتمزَّق، كما سعى للاستعاضة عنها بالكرسي الكهربائي الذي أهداه إياه قائد قوات المارينز حتى ننعم بوسيلة القتل الأكثر تحضُّرًا نحن أيضًا، فأجرى زيارة إلى معمل الرُّعب القائم في حصن المرفأ حيث كانوا ينتقون السُّجناء السياسيين الأشد وهنًا للتدرُّب على استخدام عرش الموت الذي تمتصُّ شحناته إجمالي الطاقة الكهربائية في المدينة، كُنَّا نعرف موعد إجراء التجربة المميتة على وجه التحديد لأن الظلمات كانت تخيِّم على المكان والأنفاس تنقطع رعبًا، فنصمت دقيقةً على سبيل الحداد في مواخير المرفأ ونحتسي كأسًا على روح المحكوم بالإعدام، لا مرة واحدة بل مرات كثيرة، فأكثر الضحايا كانوا يبقون مُعلَّقين من أحزمة الكرسي بأجساد تشبه النقانق والأدخنة تتصاعد من لحومهم المشوية، بينما هم يلهثون من فرط الألم حتى يرقَّ لحالهم أحد الحضور ويجهز عليهم رميًا بالرصاص بعد عدد من محاولات الإعدام الفاشلة، كل هذا مرضاةً لكِ يا ليتيسيا، فمن أجلكِ أفرغ الزنازين من نزلائها، وسمح بردِّ أعدائه إلى موطنهم مرة أخرى، وأصدر مرسومًا بمناسبة عيد الفصح أقرَّ فيه بإسقاط العقوبة المُترتِّبة على الخلاف في الرأي والملاحقة المُترتِّبة على مسائل الضمير، ثم إنه اقتنع من صميم القلب وهو في أوج خريفه بأن حتى أشرس غرمائه لهم الحق في مشاطرته السكينة التي نَعِم بها في ليالي يناير الأخَّاذة برفقة المرأة

الوحيدة التي استحقَّت مجد رؤياه، وقد خلع قميصه وارتدى سرواله الداخلي الطويل حيث بدت خصيته المصابة بالفتق مُذهَّبةً تحت أشعة القمر في شرفة البيت المدني، فكانا يتأمَّلان أشجار الصفصاف الغامضة معًا، تلك التي أرسلها إليه ملوك بابل بمناسبة أعياد الميلاد لغرسها في حديقة الأمطار، وينعمان بالشمس المُثلَّمة عَبْر المياه الدائمة، ويهنآن بالنجم القطبي الذي اشتبكت به الأوراق، ويتأمَّلان الكون في تردُّد الراديو الذي يشوِّشه الصفير الهازئ الآتي من كواكب هاربة، وينصتان معًا إلى الحلقة اليومية من المسلسل الإذاعي الذي يُبَثُّ من مدينة سانتياغو الكوبية، فيترك في روحيْهما إحساسًا بالغمّ وهما يتساءلان ترانا نعيش إلى الغد لنعرف كيف تنجلي تلك المأساة، كان يلعب مع الصغير قبل أن يضعه في الفراش ليعلِّمه كل شيء تُمكِن معرفته عن استخدام السلاح الحربي وصيانته، ذلك العلم الإنساني الذي يتقنه خيرًا من أي رجل سواه، بَيْد أنه لم يسدِ إليه سوى نصيحة واحدة، ألَّا يُصدِر أمرًا ما لم يكُن موقنًا من الإذعان له، وجعله يردِّدها كل المرات اللازمة بحسب اعتقاده حتى لا ينسى الصغير ما حيي أن الخطأ الوحيد الذي لا يجوز لرجل صاحب سطوة وقيادة أن يقترفه ولو مرة واحدة مدى الحياة أن يُصدِر أمرًا ما لم يكُن موقنًا من الإذعان له، وتلك نصيحة جَدٍّ سبق أن تعرَّض للّدغ أكثر منها نصيحة أب حكيم، نصيحة ما كان الصغير لينساها يومًا وإن عمَّر بقدر ما عمَّر هو نفسه لأنه قد لقَّنه إياها والصغير في عمر السادسة بينما هو يُعدّه لإطلاق النيران لأول مرة من مدفع ارتدادي عزَوْنا لقصفه الكارثي تلك العاصفة الجافة الرهيبة المُحمَّلة بالبروق والرعود البركانية وتلك الريح القطبية العاتية التي هبَّت من كومودورو

ريفادافيا[1]، فقلبت أحشاء البحر رأسًا على عقب، وعصفت بسيرك الحيوانات الذي نُصبت خيمته في ساحة مرفأ الرقيق القديم، فأخذنا ننتشل بالشباك أفيالًا، ومهرّجين غرقى، وزرافات طارت فوق أراجيح الترابيز[2] إلى حيث حملها غضب العاصفة التي لم تُغرِق سفينة شحن الموز بمعجزة، تلك السفينة التي وصل على متنها بُعَيْد ساعات الشاعر الشاب فيليكس روبِن غارسيا سارمينتو الذي سيشتهر باسم روبِن داريو، ومن حسن الحظ أن البحر قد سكن في الرابعة والهواء المغسول مفعم بالنمل الطائر، أما هو فقد أطلّ من نافذة المخدع ورأى السفينة الصغيرة البيضاء خلف تلال المرفأ، في ملاذ من الرياح، رآها مائلة جهة الميمنة وقد تفكَّك صاريها وراحت تبحر بلا أخطار في رحابِ المساء الساكن المُطهَّر بكبريت العاصفة، ورأى القبطان على مُؤخِّر السفينة يقود مناورة شاقة على شرف المسافر المرموق ذي السترة الداكنة والصِّدار ذي النسيج المتقاطعة خيوطه، المسافر الذي لم يُسمع له ذِكر حتى كانت ليلة الأحد التالية حين طلبت منه ليتيسيا ناسارينو أن ينعم عليها بتلك النعمة العصية على التصوُّر ويرافقها إلى أمسية شعرية في المسرح القومي، فما كان منه إلَّا أن أبدى قبوله من دون أن يرفَّ له جفن، مُوافَقة. ولقد انتظرنا وقوفًا على الأقدام طوال ساعات ثلاث في أجواء البخار التي غشيت صالة المسرح حيث اختنقنا في الثياب الرسمية التي طُلِب إلينا ارتداؤها على وجه السرعة في اللحظة الأخيرة، عند ذاك تعالت أنغام النشيد الوطني أخيرًا فأخذنا في التصفيق ملتفتين إلى المقصورة المُميَّزة بشعار الوطن، هناك حيث ظهرت طالبة الرهبنة المكتنزة

(1) كومودورو ريفادافيا: مدينة سكنية تقع جنوبي الأرجنتين.
(2) الترابيز: أرجوحة البهلوان في السيرك.

بقبعتها المُكلَّلة بالريشات المُجعَّدة ووشاحها من أذناب الثعالب الليلية فوق الثوب الحريري المصقول، ومن دون أن تلقي التحية جلست قرب ولي العهد المتسربل بزيِّه الليلي، ذلك الذي تجاوب مع التصفيق بزنبقة الأصابع الخاوية في القفاز الساتاني الذي أحكم عليه قبضته مثله كمثل أمراء الأزمنة الغابرة بحسب ما قالت له أمه، ولم نرَ سواهما في المقصورة الرئاسية، وإن احتملنا قناعتنا الراسخة بأنه كان هناك طوال التلاوة التي استغرقت ساعتيْن، وشعرنا بذلك الحضور الخفي يراقب قدرنا لئلَّا تخرِّبه فوضى الشِّعر، فكان هو الذي ينظِّم الحب ويقرِّر أجَلَ الموت وشِدَّته في ركن من أركان المقصورة الغارقة في الغَبَش من حيث رأى المينوتور[1] الثقيل متواريًا عن الأعين، وإذا بالمينوتور يقتلعه من مكانه ومن لحظته بصوت كالصاعقة البحرية ويتركه طافيًا بلا إذن منه في هزيم الرعد الذهبي[2] الآتي من الأبواق الصافية التي صدحت على أقواس نصر مارس[3] ومينيرڤا[4] احتفاءً بمجدٍ لم يكُن مجدكم سيدي الجنرال، فرأى أبطال الرياضة براياتهم، وكلاب الصيد السود، وخيول الحرب القوية ذات السنابك الحديد، ورماح الفرسان ذوي الخوذات الخشنة الذين رفعوا الراية الغريبة الأسيرة إعلاءً لمجد سلاح لم يكُن سلاحكم، ورأى قوَّات الشباب الأشاوس تتحدَّى شموس الصيف الأحمر، وثلوج الشتاء الجليدي ورياحه، والليل والصقيع والكراهية

---

(1) المينوتور: كائن خرافي نصفه رجل ونصفه الآخر ثور.

(2) في الفقرة التالية يدرج المُؤلِّف عدة مقاطع من قصيدة بعنوان موكب النصر للشاعر روبِن داريو.

(3) مارس: إله الحرب في الميثولوجيا الرومانية.

(4) مينيرڤا: إلهة الحكمة وراعية الفنون في الميثولوجيا الرومانية.

والموت، في سبيل الجلال الأبدي لوطن خالد أكبر وأعظم من كل الأوطان التي حلم بها في نوبات هذيان الحُمَّى الطويلة، هذيان المُحارِب حافي القدميْن، فأحسَّ بأنه مسكين ضئيل في غمرة الدويّ الزلزالي الآتي من التصفيق الذي قابله بالاستحسان وهو غارق في الظلِّ يفكِّر قائلًا لنفسه يا أمي بينديسيون ألبارادو، إن هذا لموكب بحق، وليس الخراء الذي ينظِّمه أولئك الناس، فأحسَّ بالوهن والوحدة، مُثقَلًا بالنعاس والبعوض والأعمدة المطلية بلون الذهب والمخمل الذاوي في مقصورة الشَّرَف، سحقًا، كيف يُعقَل أن يتمكَّن هذا الهندي من كتابة شيء بديع كهذا باليد التي يمسح بها مُؤخِّرته، مضى يسائل نفسه، مأخوذًا بتجلِّي الجمال المكتوب حتى إنه طفق يجرِّر قائمتيْه الضخمتيْن، قائمتي الفيل الأسير، على وقع دقات الطبول العسكرية، ويغفو على إيقاع أصوات المجد والأناشيد الرنَّانة التي بها صدحت الجوقة الدافئة، والتي كانت ليتيسيا ناسارينو تتلوها من أجله تحت ظلال أقواس النصر المترامية تحت شجرة القابوق القائمة في الباحة، فكان يكتب الأشعار على جدران دورات المياه، ويحاول تلاوة القصيدة كاملةً من الذاكرة على جبل أوليمب الروث الفاتر في حظائر حلب الأبقار عندما رجفت الأرض إثر انفجار عبوة الديناميت قبل الأوان في حقيبة السيارة الرئاسية داخل المرأب، كان ذلك مُروِّعًا سيدي الجنرال، إذ بلغ الانفجار من الشدَّة حتى إننا ما برحنا نعثر على شظايا ملتوية من السيارة المُصفَّحة في أرجاء المدينة كافة بعد مضي أشهر طوال، السيارة التي كانت ليتيسيا ناسارينو على وشك أن تستقلَّها برفقة الصغير بعد ساعة واحدة في طريقها إلى سوق الأربعاء، وعليه فإنها هي المُستهدَفة من محاولة الاغتيال سيدي الجنرال، بما لا يدع مجالًا للشك، وعند ذاك صفع جبينه

براحة يده، سحقًا، كيف يُعقَل أنني لم أتوقَّع ذلك، وماذا دَهَى بصيرته الأسطورية مع أن رسائل دورات المياه ما عادت تستهدفه هو منذ أشهر طوال على غير العادة، ولا تستهدف وزراءه المدنيين، وإنما باتت مستوحاة من وقاحة آل ناسارينو التي بلغت من الشدّة حد أنهم طفقوا ينهشون الغنائم المحجوزة من أجل القيادة العليا، أو مستوحاة من طموحات رجال الكنيسة الذين يتحصَّلون على خدمات هائلة أبدية مُستغلِّين سلطتهم الزمنية، وقد لاحظ هو أن رسائل الطعن البريئة المُوجَّهة ضد أمه بينديسيون ألبارادو صارت عبارة عن شتائم ببغاوات، منشورات مُترَعة بأحقاد دفينة نضجت في ظلِّ حَصانة دورات المياه الفاترة ثم خرجت إلى الشارع في خاتمة المطاف كغيرها وغيرها من الفضائح الأقل شأنًا التي كان يتولَّى مسؤولية التعجيل بانتشارها شخصيًّا، وإن لم يخطر له ولا حتى التفكير بأنهم قد يبلغون من الشراسة حد زرع قنطارَيْن من الديناميت داخل حدود البيت المدني نفسه، أيها المخادعون، كيف يُعقَل أن يستغرق في نشوة برونز النصر حتى يعجز عن التعرُّف على رائحة الخطر العذبة العتيقة قبل فوات الأوان، بما له من حاسة شمّ مرهفة خليقة بنمر مفترس، يا للهول، فما كان منه إلَّا أن دعا لاجتماع مستعجل غير عادي لجنرالات القيادة العليا؛ أربعة عشر عسكريًّا مرتجفًا، فرأيناه مرة أخرى على مبعدة ذراعيْن بعد كل هذه الأعوام من الوساطة والأوامر غير المباشرة، رأينا الشيخ المبهم الذي كان وجوده الواقعي هو الأبسط بين ألغازه كافة، فاستقبلنا جالسًا على كرسي العرش في قاعة الاجتماعات بزيٍّ الجندي العادي العالقة به رائحة بول الظربان، ونظارة في منتهى الدقة من الذهب الخالص لم نكُن قد رأيناها، ولا حتى في صوره الأحدث عهدًا، فألفيناه أشد هرمًا ونأيًا مما قد يتخيَّله

كائن من كان، فيما عدا يديْه المرتخيتيْن من دون القفاز الساتاني، فلم يبدُ عليهما أنهما يدا عسكري طبيعيتان بل يدا رجل أكثر شبابًا وحنانًا بكثير، أما في ما عدا ذلك فكان ثقيلًا قاتمًا، وكان كلما توطَّدت به معرفتنا بدا لنا أكثر وضوحًا للعيان أنه في الرمق الأخير، وإن كانت لذاك الرمق سلطة مُدمِّرة لا ردّ لها حتى شقَّ عليه هو نفسه كبحها وكأنها ثورة جواد برّيّ، فلم ينبس بكلمة واحدة، ولا حتى ندَّت عن رأسه حركة فيما رحنا نقدِّم له تحية الجنرال الزعيم الأعلى وفرغنا من الجلوس أمامه على كراسٍ مُتراصَّة في دائرة، وعند ذاك فقط خلع نظارته وشرع يتفرَّس فينا بتينك العينيْن الثاقبتيْن العليمتيْن بمخابئ بنات عرس حيث تتوارى نيّاتنا الخفية، أخذ يتفرَّس فيهم بلا هوادة، واحدًا تلو الآخر، مستغرقًا كل ما يلزمه من الوقت ليحدِّد على وجه الدقة كم تبدَّل كل واحد فينا منذ أمسية ضباب الذكرى التي رقَّاهم فيها إلى أرفع المراتب بإشارة من إصبعه وفق ما توحي به نزواته، وإذا هو كلما أمعن النظر فيهم ترسَّخ يقينه بأن مُدبِّري عملية الاغتيال وسط أولئك الأعداء المُتخفِّين الأربعة عشر، وإن شعر في الوقت نفسه بأنه وحيد أعزل في مواجهتهم حتى إنه بالكاد رَمَش بعينيْه، وبالكاد رفع رأسه لحضّهم على الوحدة أكثر من أيٍ وقت مضى من أجل مصلحة الوطنِ، واعلاءً لشرف القوات المُسلَّحة، ثم أوصاهم بالهمَّة والحيطة وكلَّفهم بمهمة مُشرِّفة تهدف إلى الكشف عن مُدبِّري عملية الاغتيال بلا توانٍ من أجل إخضاعهم للعدالة العسكرية الحازمة الرصينة، وهذا كل ما في الأمر أيها السادة، ختم حديثه، مُدرِكًا أن مُدبِّر عملية الاغتيال واحد منهم، أو كلهم معًا، وقد أُصيب بجرح قاتل أسفرت عنه قناعته المحتومة بأن حياة ليتيسيا ناسارينو لم تعُد رهنًا بمشيئة الرَّب آنذاك، بل أصبح الذود عن حياتها من خطر

مُحقَّق عاجلًا أم آجلًا رهنًا بحكمته، اللعنة. فأرغمها على إلغاء التزاماتها العامة، وأرغم أقرباءها الأشد نهمًا على التخلِّي عن كل ما قد يصطدم بمصالح القوَّات المُسلَّحة من الامتيازات، وأما أكثرهم تفهُّمًا فقد نصَّبهم قناصل ومنحهم حرية التصرُّف، وأما أشدّهم دموية فقد عثرنا على أجسادهم طافية على أسطح البرَك المُعْشَوْشِبة في مجارير السوق، وإذا هو يظهر من دون سابق إنذار على كرسيه الشاغر في مجلس الوزراء بعد كل الأعوام الماضية حيث أبدى استعداده للحدِّ من تدخُّل رجال الدين في صفقات الدولة لتبقي أنتِ في مأمن من أعدائك يا ليتيسيا، وعلى الرغم من ذلك فقد عاود جسَّ نبض مجلس القيادة العليا عقب القرارات الصارمة الأولى، وكان مقتنعًا بإخلاص سبعة من القادة بلا تحفُّظات، زِدْ عليهم الجنرال القائد العام، الأقدم بين رفاقه، وعلى الرغم من ذلك ما زالت تعوزه السلطة اللازمة لمواجهة الألغاز الستة الأخرى، تلك الألغاز التي أطالت لياليه. وقد ترسَّخت لديه فكرة محتومة بأن سيماء الموت قد انطبعت على وجه ليتيسيا ناسارينو، فهم يقتلونها شيئًا فشيئًا بين يديْه رغم الصرامة التي أمر باتباعها في تذوُّق طعام ليتيسيا ناسارينو منذ العثور على حسكة سمك في رغيف الخبز، فكان يجري التأكُّد من نقاء الهواء الذي تتنفَّسه خشية أن يُدَسَّ لها السمُّ في مرشَّة مبيد فليت بحسب ما ذهبت إليه ظنونه، كان يراها شاحبةً على المائدة، ويحسُّ بها إذا انقطع صوتها في أوج الحب، ويتعذَّب خشية أن تُدَسَّ لها ميكروبات الحُمَّى الصفراء في مياه الشرب، أو حامض الكبريتيك في قطرة العين، فكانت تلك الحيل المرهفة القاتلة تنغِّص عليه كل لحظة من لحظاته وتقضُّ مضجعه في منتصف الليل إذا داهمه الكابوس الحيّ الذي يرى فيه ليتيبسيا ناسارينو وقد نزفت دماءها

حتى آخر قطرة في نومها مُتأثِّرة بلعنة من صنع الهنود، وقد صعقته كل هذه الأخطار الخيالية والتهديدات الحقيقية حتى إنه حظر عليها الخروج إلى الشارع من دون مرافقيها الأشاوس من أفراد الحرس الرئاسي الذين تلقّوا تعليمات بالقتل من دون سبب، بَيْد أنها كانت تخرج سيدي الجنرال، وتصطحب معها الصغير، في حين يغالب هو نذير الشؤم ليراقبهما وهما يستقلّان السيارة المُصفَّحة الجديدة، ويودِّعهما بالتعاويذ وهو يلوِّح لهما من إحدى الشرف الداخلية مُتوسِّلًا يا أمي بينديسيون ألبارادو اشمليهما بحمايتكِ، اجعلي الرصاص يرتدّ عن صديريتها، خفِّفي صبغة الأفيون يا أمي، قوِّمي الأفكار الملتوية، فلا يهنأ بلحظة طمأنينة واحدة حتى يسمع صافرات الإنذار آتية من سيارات المرافقين مرة أخرى في ميدان السلاح، ويرى ليتيسيا ناسارينو وهي تقطع الباحة برفقة الصغير مع أولى خيوط الفنار، كانت تعود منفعلة سعيدة وسط حراسة من المحاربين المُحمَّلين بالديكة الرومية الحية، وأزهار الأوركيد التي جيء بها من إنبيجادو[1]، ومسابح المصابيح الصغيرة المُلوَّنة من أجل ليالي أعياد الميلاد التي بدأ الإعلان عنها في الشارع بلافتات مُرصَّعة بالنجوم الساطعة عُلِّقت نزولًا عند الأمر الذي أصدره مداراةً للهفته، وكان يستقبلك على الدَّرَج كي يحسَّ بأنكِ ما زلتِ على قيد الحياة في غمرة ندى النفتالين العالق بأذناب الثعالب الزرقاء، والعرق اللاذع على خصلات شعركِ، شعر العاجزة، وكان يساعدكِ على حمل الهدايا إلى المخدع وهو على يقين غريب بأنه يستهلك الفتات الأخيرة المُتبقِّية من فرح ملعون كان يؤثر لو أنه لم يعرفه، وإذا بوحشته تتفاقم كلما ترسَّخت قناعته بأن كل وسيلة يتفتَّق عنها ذهنه

(1) إنبيجادو: بلدة كولومبية تقع في مقاطعة أنتيوكيا.

للتخفيف من لهفه الذي لا يُطاق، وكل خطوة يخطوها تجنُّبًا له، كانت تدنيه بلا هوادة من ذلك الأربعاء المُروِّع، أربعاء مصيبتي أنا الذي فيه اتَّخذ قراره الرهيب بأن الكيل قد طفح، سحقًا، وليكُن ما هو كائن في القريب العاجل، اتَّخذ قراره، وكأنه أمر قاطع لم يكُن قد فرغ من صياغته بعد لمَّا اقتحم اثنان من مرافقيه المكتب وقد أقبلوا عليه بالخبر المُروِّع القائل بأن الكلاب المُتوحِّشة مزَّقت ليتيسيا ناسارينو والصغير إربًا في السوق العمومية ثم التهمتهما نتفة نتفة، التهمتهما الكلاب وهما على قيد الحياة سيدي الجنرال، بَيْد أنها لم تكُن كلاب الشوارع المعهودة وإنما حيوانات صيد عيونها صفر ذاهلة وجلودها ملساء كأسماك القرش، حرَّضها أحدهم على مهاجمة الثعالب الزرق. ستون كلبًا يشبه كل منها الآخر، لم يدرِ أحد متى وثبت من بين طاولات باعة الخضروات وتكالبت عليهما من دون أن تمهلنا الوقت الكافي لإطلاق النيران خشية أن نصيب ليتيسيا ناسارينو والصغير اللذيْن بدا وكأنهما يغرقان مع الكلاب في إعصار جهنّمي، فلم نرَ سوى خيالات آنية تركتها أيدٍ عابرة مُمتدَّة نحونا والبقية الباقية من الجسديْن تتلاشى نتفة نتفة، كما رأينا تعبيرات خاطفة عصيّة على المساس تجلَّى فيها الرعب تارة، والألم تارة، والفرح تارة، حتى غاصا تمامًا في دوامة حامية الوطيس ولم يبقَ طافيًا سوى قبعة ليتيسيا ناسارينو المُزيَّنة بأزهار البنفسج الصوفية أمام الهلع الخالي من التأثُّر الذي بدا على بائعات الخضروات الطوطميات اللائي تلطَّخن برذاذ الدماء الساخنة، فشرعن في الابتهال إلى الرَّب يا إلهي، لم يكُن ذلك ممكنًا ما لم يشأ الجنرال، أو ما لم يكُن عارفًا به على الأقل، فكانت تلك وصمة عار أبدية في جبين الحرس الرئاسي الذي لم يفلح سوى في إنقاذ العظام العارية

المُبعثَرة وسط الخضروات المُخضَّبة بالدماء من دون أن يطلق رصاصة واحدة، ولا أكثر سيدي الجنرال، فلم نجد سوى نياشين الصغير، وسيفه الخالي من الشراريب، وحذاء ليتيسيا ناسارينو المصنوع من جلد الماعز، الحذاء الذي لم يعرف أحد سبب ظهوره طافيًا علي صفحة مياه الخليج على مبعدة فرسخ من السوق تقريبًا، وعقد البلّور المُلوَّن، وكيس النقود المُغلَّف بالزِّرد الذي نودعه بين يديْك سيدي الجنرال، فضلًا عن هذه المفاتيح الثلاثة، وخاتم الزواج الذهبي المُسودّ، وخمس قطع معدنية من فئة العشرة سِنْتات أودعوها فوق المكتب حتى يعدَّها بنفسه، ولا أكثر سيدي الجنرال، فهذا كل ما تبقَّى منهما. ما كان ليأبه لو تبقَّى منهما أكثر أو أقل، فلو كان يعلم حينها أن الأعوام اللازمة لمحو كل أثر للذكرى التي تركها ذلك الأربعاء المحتوم ليست بالكثيرة ولا الشاقة، غير أنه بكى غضبًا، أفاق من نومه وهو يصرخ غضبًا وشقاءً بنباح الكلاب التي قضت ليلتها مُقيَّدة بالأغلال في الباحة ريثما يقرِّر ماذا نحن فاعلون بها سيدي الجنرال، وراح يسائل نفسه ذاهلًا لو أن قتلها لا يعدو أن يكون طريقة أخرى لقتل ليتيسيا ناسارينو والصغير في أحشاء الكلاب من جديد، فأصدر أمره بأن تُهدَم القبة الحديد في سوق الخضروات وتُقام في مكانها حديقة من المَنغوليا والسِّمان مُزيَّنة بصليب من الرخام ولها مصباح أقوى وأعلى من الفنار تخليدًا لذكراها من أجل الأجيال الآتية وإلى أبد الآبدين، تخليدًا لذكرى امرأة تاريخية نسيها هو نفسه قبل وقت طويل من تدمير النصب التذكاري في تفجير ليلي لم يتبنَّ مسؤوليته كائن من كان، وأما أزهار المَنغوليا فقد التهمتها الخنازير، وأما الحديقة التذكارية فقد تحوَّلت إلى مكبٍّ نفايات موحل عفِن لم يتعرَّف عليه ولا حتى هو، ليس لمُجرَّد أنه أمر السائق

الرئاسي بتجنُّب المرور بسوق الخضروات العتيقة وإن اضطررت للدوران حول العالَم، بل لأنه فوق ذلك لم يعاود الخروج إلى الشارع منذ أصدر أمره بنقل المكاتب إلى بنايات الوزارات ذات الزجاج الشمسي فلبث وحيدًا مع الحد الأدنى من أفراد الخدمة للعيش في البيت المتداعي حيث لم يبقَ حينها أدنى أثر ظاهر من الحاجات الماسة للملكة التي كنتِها يا ليتيسيا، وذلك امتثالًا لأمره هو، فظلَّ هائمًا في البيت الخالي حيث لم يُعرَف له عمل سوى استشارات عرضية تسعى بها إليه القيادة العليا أو قرار حاسم يتَّخذه في اجتماع عصيب من اجتماعات مجلس الوزراء أو استقبال زيارات السفير ويلسون الوخيمة، ذلك السفير الذي دَرَج على البقاء برفقته حتى ساعة مُتأخِّرة من المساء تحت أوراق شجرة القابوق، فكان يحمل إليه حلوى من بالتيمور ومجلات تحوي رسومًا لنساء عاريات في محاولة لإقناعه بأن يتنازل له عن المياه الإقليمية مقابل التكاليف الفلكية المُترتِّبة على خدمات الدين الخارجي، أما هو فيتركه يتكلَّم، ويتظاهر بأنه يسمع أكثر أو أقل مما يستطيع سماعه فعلًا بحسب ما يلائمه، ويقي نفسه من طلاقة السفير بالإنصات إلى جوقة مدرسة البنات القريبة وهي تتغنَّى بنشيد الطائر الصغير المُلوَّن الذي حطَّ على غصن الليمون الأخضر، ومع انسياب الظلال الأولى كان يرافقه إلى الدَّرَج ويحاول أن يوضح له ما يلي، لك أن تأخذ ما شئت إلَّا بحر نوافذي أنا، تخيَّل، فما عساي أن أفعل وحيدًا في هذا البيت الشاسع إن لم أتمكَّن من رؤية البحر كعهدي في مثل هذه الساعة أبدًا، حين يبدو مستنقعًا يستعر فيه اللهب، ما عساي أن أفعل من دون رياح ديسمبر إذ تتسلَّل نابحةً عبر الزجاج المُهشَّم، وكيف لي العيش بغير دفقات الفنار الخضراء، وأنا الذي هجرتُ الپارامو الضبابي

وخضتُ معمعة الحرب الفيديرالية محتضرًا تحت وطأة الحُمَّى، ولا تحسب أني فعلتُ ما فعلتُ بوازع وطني كما يقول القاموس، ولا مدفوعًا بروح المغامرة، دَعْ عنك أن أكون مهتمًّا أدنى اهتمام بمبادئ الفيديراليين الذين أدعو الرَّب أن يتغمَّدهم برحمته في ملكوته، كلا يا عزيزي ويلسون، إنما فعلتِ كل ما فعلتُ لأتعرَّف على البحر، ولذا فعليك بالتفكير في سواه، كان يقول، ويودِّعه على الدَّرَج بربتة على كتفه، ثم يعود أدراجه وهو يضيء الأنوار في قاعات المكاتب العتيقة المهجورة حيث وجد بقرة هائمة ذات مساء، ولمَّا زجرها ناحية الدَّرَج تعثَّرت البهيمة في رقع الأبسطة فانكفأت وتدحرجت وانكسر عنقها ليجد فيها البُرْص المجد والقوت ويسارعوا بتمزيقها إربًا، ذلك أن البُرْص قد عادوا إثر موت ليتيسيا ناسارينو وهناك لبث العميان والمفلوجون مرة أخرى يترقَّبون ملح العافية من يديْه تحت شجيرات الورود البرية في الباحة، فكان ينصت إلى غنائهم في الليالي المُرصَّعة بالنجوم، ويتغنَّى قائلًا: سوسانا تعالي يا سوسانا كما في زمن مجده، ويطلُّ من كُوَّات مخازن الغلال في الخامسة مساء ليراقب خروج الصبايا من المدرسة وينتشي لمرأى المآزر الزرق، والجوارب التي تصل إلى الكاحل، والضفائر يا أمي، فكنا نهرول مذعورات من عينيّ الشبح مريض السُّلّ الذي ينادينا من بين قضبان الحديد بأصابع قفازه المهترئة، يا صبية، يا صبية، وينادينا قائلًا تعالي، دعيني أتحسَّسكِ، فيراهنَّ وقد لذن بالهرب مفزوعات بينما هو يفكِّر قائلًا لنفسه يا أمي بينديسيون ألبارادو كم صبايا هن صبايا اليوم، ويضحك من ذاته، ثم يتصالح مع ذاته مرة أخرى حين يُجري له طبيبه الشخصي وزير الصحة فحص شبكية العين بالعدسة المُكبِّرة كلما دعاه إلى الغداء، ويجسُّ نبضه، وكان الوزير يريد

إرغامه على تناول ملاعق من منقوع السيريخين المُنشِّط للمُخِّ بغرض سدِّ الشقوق التي منها تتسرَّب ذاكرتي، يا للهول، ملاعق من السيريخين من أجلي أنا وأنا الذي لم أتعثَّر مدى الحياة إلَّا في ملاريا الحرب، سحقًا يا دكتور، فبات يأكل طعامه وحيدًا على المائدة الوحيدة مُوليًا ظهره إلى العالَم شأن ملوك المغرب طبقًا لما رواه له السفير العلَّامة ماريلاند، ويأكل بالشوكة والسكين وبرأس مستقيم وفق تعاليم صارمة لقَّنته إياها مُعلِّمة منسية، ويجوب البيت بأسره مُفتِّشًا عن أواني العسل التي يسهو عن مخابئها بُعَيْد ساعات قلائل، ثم يجد على سبيل الخطأ حواشي العرائض المطوية التي كان يكتبها في زمن غير الزمن لئلَّا ينسى شيئًا حين يعجز عن تذكُّر أي شيء، وكان أن قرأ في إحداها أن غدًا يوم الثلاثاء، وقرأ في إحداها أن على منديلك الأبيض رمزًا أحمر يشير إلى اسم، غير أنه لم يكُن اسمك يا مالكًا نفسي[1]، وقرأ مأخوذًا يا ليتيسيا ناسارينو، يا روحي أنا، انظري حالي التي إليها صرتُ من دونك، فكأن يقرأ ليتيسيا ناسارينو في كل مكان وهو لا يسعه أن يفهم كيف يكون أحدهم من التعاسة حتى يترك خلفه ذلك السيل من التنهُّدات المكتوبة، ولكنه خط يدي أنا، خط اليد اليسرى الوحيد الذي كان يُرَى آنذاك على جدران دورات المياه حيث يكتب مُعزِّيًا نفسه عاش الجنرال، عاش، سحقًا، ثم إنه برِئ من الغضب الذي استحوذ عليه لأنه بات الأضعف وسط رجال العسكرية برًّا وبحرًا وجوًّا بسبب هاربة من الدير لم يبقَ منها سوى اسم مكتوب بالقلم الرصاص على قصاصات الورق عملًا بالقرار الذي اتَّخذه ثمَّ أبى حتى أن يمسَّ حوائجها التي أودعها المرافقون فوق المكتب، فأصدر أمره من دون أن ينظر إليها قائلًا خذوا هذا

---

(1) بيت من قصيدة للشاعر روبِن داريو.

الحذاء من هنا، وهذه المفاتيح، وكل ما قد يستحضر صورة الفقيدْين في ذاكرته، فأُودِع كل ما كان لهما في مخدع قيلولاته الجامحة، وسُدَّت أبوابه ونوافذه نزولًا عند أمر حاسم يحظر الدخول إلى تلك الحجرة ولا حتى بأمر مني أنا، سحقًا، ولقد نجا من القشعريرة الليلية التي كان يبعثها ذلك العواء المخيف، عواء الكلاب التي ظلَّت مُقيَّدة بالأغلال في الباحة لأشهر طوال ظنًّا منه بأن أي ضرر يُلحِقه بها قد يؤلم الفقيدْين، فهجر نفسه على السرير المُعلَّق، وراح ينتفض من فرط الغضب عارفًا بهويات قتلة دمه، مُضطرًّا لتكبُّد مهانة رؤيتهم في عقر داره، لأنه كان يفتقر إلى السلطة الكافية لمواجهتهم آنذاك، وقد عارض إقامة حفلات التأبين بصنوفها كافة، وحظر زيارات العزاء، والحداد، وجعل يترقَّب ساعته وهو يتأرجح غضبًا على السرير المُعلَّق تحت ظلال شجرة القابوق الحارسة حيث أعرب له رفيقي الأخير عن فخر القيادة العليا بالهدوء والانضباط اللذيْن تحلَّى بهما الشعب في وجه المأساة، أما هو فبالكاد افترَّ ثغره عن ابتسامة، لا تكُن أحمق يا رفيق، أي هدوء وأيّ انضباط، كل ما في الأمر أنهم لا يعيرون المأساة أدنى أهمية، وكان يعيد قراءة الجريدة عن ظهر قلب بحثًا عن شيء آخر بخلاف الأخبار التي ابتكرتها أجهزته الصحافية نفسها، كما أمر بوضع الراديو في متناول يده لسماع الخبر نفسه من فيراكروز وحتى ريوبامبا[1]، الخبر القائل بأن قوَّات الأمن تقتفي أثر مُدبِّري عملية الاغتيال، فكان يغمغم قائلًا بكل تأكيد، يا أولاد العنكبوت. هذا وقد تعرَّفت قوَّات الأمن على هوياتهم بما لا يدع أدنى مجال للشك، بكل تأكيد، وحاصرتهم بقذائف الهاون داخل أحد بيوت الدعارة في الضواحي، قُضِي الأمر، ندَّت عنه تنهيدة، يا

(1) مدينة تقع في وسط الإكوادور.

للمساكين، بَيْد أنه لزم سريره المُعلَّق من دون أن يبدي أدنى أثر لضياء ضغائنه، مُتوسِّلًا يا أمي بينديسيون ألبارادو هبي لي حياةً للأخذ بهذا الثأر، لا تتركي يدي يا أمي، ألهميني، موقنًا كل اليقين من فعالية ابتهاله حتى إننا ألفيناه وقد تعافى من ألمه يومَ جئنا نحن قادة أركان الحرب المسؤولين عن النظام العام وأمن الدولة حاملين الخبر القائل بأن ثلاثة من مُدبِّري الجريمة قد لقوا مصرعهم في اشتباك مع قوَّات الأمن العام، أما الآخران فقد أُودِعَا في سجن سان خيرونيمو وهما رهن إشارة سيدي الجنرال، فقال هو آها، جالسًا على السرير المُعلَّق وفي يده دورق عصير الفاكهة الذي صبَّ منه قدحًا لكل واحد بقبضة هادئة تليق بقناص محترف، وإذا هو أكثر حكمة ومراعاةً من أي وقت مضى، حتى إنه حَدَس ما بي من لهفة إلى إشعال سيجارة ومنحني الإذن الذي لم يسبق أن منحه لعسكري واحد في الخدمة حتى ذاك الوقت، فكلنا على قدم المساواة تحت هذه الشجرة، قال، ومضى ينصت غير ناقم إلى تقرير جريمة السوق، وكيف جاء مُدبِّرو الاغتيال باثنين وثمانين كلب صيد حديثي الولادة من إسكوتلندا على شحنات مُتفرِّقة، نفق منها اثنان وعشرون وهي في طور التربية، أما الستون الباقية فقد دُرِّبت على القتل، المهمة التي تولَّاها مُدرِّب إسكوتلندي غرس فيها حقدًا إجراميًّا لا تجاه الثعالب الزرق فحسب، بل وتجاه شخص ليتيسيا ناسارينو والصغير مستعينًا على ذلك بالثياب التي اختُلِسَت شيئًا فشيئًا من مغاسل البيت المدني، بما فيها صديرية ليتيسيا ناسارينو، وهذا المنديل، وهذه الجوارب، وزي الصغير كاملًا، تلك الثياب التي عرضناها أمامه ليتعرَّف عليها، فما كان منه إلَّا أن قال آها، ولم ينظر إليها، فأوضحنا له كيف تلقَّت الكلاب الستون تدريبها حتى على الإمساك عن النباح متى كان عليها

ذلك، وتعوَّدت على مذاق اللحم البشري، وحُبِسَت بمعزل عن العالم على مدى أعوام عصيبة من التدريب في مزرعة صينيين قديمة تبعد سبعة فراسخ عن هذه العاصمة، كما استعانوا على تدريبها بتماثيل مُجسَّمة بالحجم الطبيعي، فألبسوها ثياب ليتيسيا ناسارينو والصغير، اللذيْن تعرَّفت الكلاب عليهما أيضًا من خلال صورهما الأصلية وقصاصات الصحف التي أطلعناه عليها ملصقةً في ألبوم ليتمكَّن سيدي الجنرال من تقدير العمل الذي أنجزه أولاد الزنا على أكمل وجه، فكل امرئ وما أتقن، أما هو فما كان منه إلَّا أن قال آها، ولم ينظر إليها، وأخيرًا أوضحنا له أن المُتَّهمين لم يرتكبوا الجريمة من تلقاء أنفسهم، بطبيعة الحال، فهم عملاء تابعون لرابطة أخوية مُخرِّبة لها قاعدة في الخارج، وشعارها ريشة إوزة وسكين مُتقاطعتَيْن، آها، كلهم هاربون من العدالة الجنائية العسكرية التي تلاحقهم بسبب جرائم سابقة من شأنها تهديد أمن الدولة، أما أولئك الثلاثة فهم القتلى الذين أطلعناك على صورهم في الألبوم، وقد تدلَّت من عنق كل واحد صحيفته الجنائية، أما هذان فهما الناجيان اللذان أودعناهما في السجن ترقُّبًا لقرارك الحاسم الذي لا ردّ له سيدي الجنرال، وهما الأخوان ماوريسيو وجومارو پونسيه دي ليون، في الثامنة والعشرين والثالثة والعشرين من العمر، الأول هارب من العسكرية لا يُعرَف له عمل ولا سكن، أما الثاني فمُعلِّم صناعة خزف لدى مدرسة الفنون والحرف، وقد أبدى الكلاب في حضورهما من مظاهر الألفة والبهجة ما كان يغنينا عن دونه من الأدلَّة سيدي الجنرال، فما كان منه إلَّا أن قال آها، غير أنه نوَّه في محضر الجلسة بالضباط الثلاثة الذين أنجزوا التحريات المُتعلِّقة بالجريمة وقلَّدهم نيشان الاستحقاق العسكري عن خدماتهم المبذولة من

أجل الوطن في احتفال مهيب شكَّل خلاله المجلسَ الحربي الجزئي الذي أجرى محاكمة الأخويْن ماوريسيو وجومارو پونسيه دي ليون وقضى عليهما بالإعدام رميًا بالرصاص خلال ثمانٍ وأربعين ساعة، ما لم تشملهما بعفوكم سيدي الجنرال، والأمر لكم. أما هو فقد ظلَّ مستغرقًا وحيدًا على السرير المُعلَّق، لا يتأثَّر بالتوسُّلات المنادية بالعفو الواردة من أرجاء العالم كافة، وسمع في الراديو مناقشة عقيمة دائرة في عصبة الأمم، فضلًا عن شتائم البلدان المجاورة وبعض نداءات الدعم النائية، وبالانتباه نفسه أنصت إلى الدوافع الخجلى التي ساقها الوزراء أنصار الرحمة، والحجج الزاعقة التي ساقها أنصار العقاب، وأبى أن يستقبل السفير البابوي الرسولي الذي حمل إليه رسالة شخصية من البابا يعرب فيها عن قلقه الرعوي بشأن مصير هذيْن الخَرُوفيْن الضَّالّيْن، وسمع تقارير حول النظام العام في كل أرجاء البلد، حيث عمَّت البلبلة من جرَّاء صمته، وسمع دوي طلقات بعيدة، وأحسَّ بالأرض ترجف تحت وطأة انفجار مجهول المصدر في سفينة حربية راسية في الخليج، حيث سقط أحد عشر قتيلًا سيدي الجنرال، واثنان وثمانون جريحًا، ولم تعُد السفينة تصلح للخدمة، حسنًا، قال هو، ومن نافذة المخدع مضى يتأمَّل حلقة نيران ليلية في خليج المرفأ بينما شرع المحكومان بالإعدام يعيشان ليلتهما الأخيرة في القاعة الجنائزية بقاعدة سان خيرونيمو، فتذكَّرهما في تلك الساعة كما رآهما في الصور بحواجبهما الكثَّة التي ورثاها عن أم واحدة، تذكَّرهما يرتجفان، وحيديْن، وقد تدلَّى من عنقيْهما رقمان متتاليان تحت المصباح المُضاء على الدوام في زنزانة النزع الأخير، فأحسَّ بأنهما يفكِّران فيه، وعرف أنهما في حاجة إليه، يتوسَّلان إليه، وإن لم تبدر عنه أدنى لفتة من شأنها الإفصاح عن مشيئته حين فرغ

من تكرار الإجراءات الروتينية في ذلك النهار الآخر من نهارات حياته، ثم ألقى التحية على ضابط الخدمة المُكلَّف بالسهر أمام مخدعه ليحمل عنه الرسالة متى استقرَّ هو على قراره في أي ساعة قبل الديكة الأولى، ألقى التحية على الضابط وهو لا ينظر إليه، ماضيًا في طريقه، طابت ليلتك يا كابتن، ثم علَّق المصباح على عارضة الباب المُؤدِّي إلى المخدع، وأوصده بالمزاليج الثلاثة، والمغاليق الثلاثة، والأقفال الثلاثة، ثم ارتمى على وجهه وغاص في سبات يقِظ، وعَبْر جدران سباته الهشة ظلَّ يسمع نباح الكلاب المُتلهِّف آتيًا من الباحة، وصافرات سيارات الإسعاف، والمفرقعات، ودفقات الموسيقى الآتية من حفلة مبهمة في جوف الليل الكثيف، ليل المدينة المأخوذة بصرامة الحكم، أما هو فقد أفاق على نواقيس الكاتدرائية إذ قرعت معلنةً تمام الثانية عشرة، ثم أفاق مرة أخرى في الثانية، ومرة أخرى قبل الثالثة على وقع قطرات الرذاذ فوق سياج النوافذ، وعند ذاك نهض من مكانه على الأرض بمناورة عِجْل شاقة هائلة حيث رفع عجزه أولًا ثم قائمتيْه الأماميتَيْن، وأخيرًا رفع رأسه الذاهل وقد سال على خطمه خيط من اللعاب، ثم أمر ضابط الحراسة أولًا بحمل تلك الكلاب إلى حيث لا أسمع لها صوتًا، ثم وضعها تحت حماية الحكومة لحين نفوقها الطبيعي، وثانيًا أمر بإطلاق سراح غير مشروط لصالح الجنود المسؤولين عن مرافقة ليتيسيا ناسارينو والصغير، وأخيرًا أمر بإعدام الأخويْن ماوريسيو وجومارو پونسيه دي ليون بمُجرَّد بلوغ قراري السامي الذي لا ردّ له، ولكن ليس على جدار الإعدام رميًا بالرصاص، كما هو مُقرَّر، بل إنه أمر بإخضاعهما لعقوبة الإعدام البائدة حيث يُشَدُّ وثاق الأطراف إلى الخيل حتى تتمزَّق ثم تُعرَض على الملأ ليراها الشعب الساخط الفزِع في الأمكنة الأكثر

وضوحًا للعيان في مملكته الموحشة المترامية، يا للفتييْن المسكينيْن، بينما هو يجرجر قائمتي الفيل الجريح جرحًا غائرًا ويبتهل إلى أمه في غضب قائلًا يا أمي بينديسيون ألبارادو، مدّي لي يد العون، لا تتركي يدي يا أمي، واهديني إلى الرجل الذي يعينني على الثأر لتلك الدماء البريئة، الرجل الكفء مبعوث العناية الإلهية الذي تخيَّله في نوبات هذيان الضغينة وراح يفتِّش عنه بلهف لا يُقاوَم في أعماق العيون التي يجدها في سبيله، ويسعى لاكتشافه متواريًا في نبرات الصوت الأكثر رهافة، ونزوات القلب، وخصاص الذاكرة من حيث لم ينظر إلَّا في ما ندر، وبعد أن فقد الأمل في العثور عليه فإذا هو يجد نفسه مفتونًا بالرجل الأكثر جاذبية وزهوًا بين كل من رأت عيناي من الرجال يا أمي، بما له من ثياب القوط القدامى وسترة هنري پول[1] وزهرة الغاردينيا المُثبَّتة في عروته وبنطال پيكوڤر والصدار المزركش ذي البريق الفضي الذي كان يخطر فيه بأناقته التلقائية داخل صالونات أوروبا الأشد مناعة، ساحبًا خلفه مقود كلب دبرمان صموت بحجم العجل وله عينان بشريتان، خوسيه إغناسيو ساينس دي لا بارًّا في خدمة فخامتكم، قدَّم نفسه، وهو آخر الأيائل الطليقة الباقية من أرستقراطيتنا التي ذهبت أدراج الرياح العاتية، رياح الزعماء الفِيديراليين، وامّحت من على وجه الوطن بأحلام عظمتها القاحلة وقصورها الشاسعة الكئيبة ولكنتها الفرنسية، فكان بمثابة حلقة أخيرة رائعة في سلالة بائدة، وإن لم يتحصّل من الثروة ما يزيد على أعوامه الاثنين

(1) هنري پول: علامة تجارية إنجليزية اشتهرت بتصميم الأزياء للملوك والأمراء والنبلاء.

والثلاثين، ولغاته السبع، وأرقامه القياسية الأربعة في رمي الحمام في بلدة دوفيل[1]، كان قويًّا، ممشوق القوام، له بشرة بلون الحديد، وشعر خلاسي مفروق نصفيْن، وخصلة بيضاء مصبوغة، وشفتا المشيئة الأبدية الرقيقتان، ونظرة حازمة هي نظرة مبعوث العناية الإلهية الذي يتظاهر بأنه يلعب الكريكيت بعصا من خشب الكرز، حتى تُلتقَط له صورة بالألوان خلفيتها ربيعية شاعرية كلوحات النسيج التي بها ازدانت قاعة الحفلات، وما إن رآه حتى ندَّت عنه تنهيدة ارتياح في اللحظة عينها قائلًا لنفسه ها هو ذا، وقد كان. فوضع نفسه في خدمته بشرط بسيط ينصُّ على أن تسلِّمني ميزانية قدرها ثمانمائة وخمسون مليونًا لا أُضطرُّ لتقديم حساب عنها لكائن من كان وألَّا يفوقني أحد سطوةً إلَّا فخامتكم، وفي المقابل أسلِّمك رؤوس القتلة الحقيقيين الذين اغتالوا ليتيسيا ناسارينو والصغير خلال عاميْن، أما هو فقد أبدى قبوله، مُوافَقة، مقتنعًا بوفائه وكفاءته بعد التجارب الشاقة الكثيرة التي وضعها في طريقه لسبر أغوار روحه والوقوف على حدود إرادته وشروخ طباعه قبل أن يتَّخذ قراره بتسليمه مفاتيح سلطته، ثم أخضعه للتجربة الأخيرة المُتمثِّلة في مباريات الدومينو العنيفة التي أبَى خوسيه إغناسيو ساينس دي لا بارَّا إلَّا أن يفوز بها من دون إذن، وقد فاز، وإذا هو أشجع من رأت عيناي من الرجال يا أمي، فكان مُلمًّا بكل شيء، وله صبر لا ينفد، ويتقن اثنتين وسبعين طريقة لإعداد القهوة، ويميِّز جنس ثمار البحر، ويتقن قراءة النوتة الموسيقية والنصوص المكتوبة بطريقة برايل للمكفوفين، فكان يمكث مُحدِّقًا في عينيَّ،

(1) دوفيل: بلدة تقع في إقليم نورماندي شمال غربي فرنسا.

لا ينبس بكلمة، وأنا لست أدري ماذا أفعل أمام ذلك الوجه الذي لا يُقهَر، وهاتيْن اليديْن العاطلتيْن المُتَّكئتيْن على مقبض العصا المصنوعة من خشب الكرز، وذلك البنصر المُزيَّن بحجر كريم من مياه الصباح، وذلك الكلب الضخم القابع عند قدميْه في يقظة وشراسة يلفُّه دثار جلد نائم من المخمل الحي، وشذى الأملاح التي بها اغتسل ذلك الجسد المنيع على الحنان والموت، جسد أجمل من رأت عيناي من الرجال وأعظمهم هيمنةً، حين واتته الشجاعة ليفضي إليَّ بأني لم أغدُ عسكريًّا إلّا سعيًا وراء المصلحة، ذلك أنك أنت والعسكر على طرفي نقيض سيدي الجنرال، فهم رجال طموحات آنية سهلة المنال، يحرصون على الأمر والنهي بأكثر مما يحرصون على السلطة، زِدْ على ذلك أنهم ليسوا في خدمة الأغراض وإنما في خدمة الأشخاص، ولذا فإن استخدامهم أمر غاية في اليسر، قال، ولا سيما استخدام بعضهم ضد البعض الآخر، فلم يخطر لي أكثر من الابتسام مقتنعًا بأنه ما كان ليقدر على حجب خواطره عن ذلك الرجل الأخَّاذ الذي أعطاه من السلطة أكثر مما أعطى أي رجل سواه في ظل نظامه بعد رفيقي الجنرال رودريغو دي أغيلار الذي أدعو الرَّب أن يُجْلِسَه عن يمينه المُقدَّسة، ثم إنه نصَّب خوسيه إغناسيوساينس دي لا بارًا سيدًا مطلقًا على إمبراطورية سرية داخل إمبراطوريته الخاصة، على جهاز خفي مهمته القمع والإبادة لا يفتقر إلى الهوية الرسمية فحسب، وإنما يصعب التصديق بوجوده على أرض الواقع أيضًا، ذلك أن أحدًا ما كان يُسأل عمّا يقترف ذلك الجهاز من أفعال، ولا كان يُعرَف له اسم ولا مقرّ في العالَم بأسره، ومع ذلك فتلك هي الحقيقة المُروِّعة التي فرضت نفسها عن طريق الرعب على باقي الأجهزة القمعية

التابعة للدولة قبل أن تكشف القيادة العليا أصلها وطبيعتها غير الملموسة بوقت طويل، فلا أنت نفسك توقَّعت مدى نفوذ آلة الرعب تلك سيدي الجنرال، ولا أنا كنت لأرتاب في وقوعي بمُجرَّد قبول الاتفاق تحت رحمة ذلك السحر الذي لا يُقاوَم، واللهف ذي المجسّات للرجل الوحشي المتسربل بثياب الأمراء، ذلك الذي أرسل إليَّ جوالًا من الخيش بدا مُكتَظًّا بثمار جوز الهند تلقَّاه في البيت الرئاسي، فأمر بأن يُوضَع الجوال هناك في خزانة أوراق الأرشيف المُثبَّتة في الجدار حيث لا يقف عثرة في سبيل أحد، ثم نسيه، وإذا بالعيش يصبح مستحيلًا في غضون ثلاثة أيام بسبب نتن الجيف الذي نفذ عَبْر الجدران وغشي قمر المرايا بالأبخرة العفِنة، كنا نفتِّش عن الرائحة الكريهة في المطبخ فنجدها منتشرة في الحظائر، ويطردونها بالمباخر من المكاتب فتخرج للقائهم في قاعة الاجتماعات، بل وحتى الخبايا الأكثر عمقًا تشبَّعت بغازات شجيرة الورود المُتعفِّنة، تلك الخبايا التي لم تكُن تبلغها أرقُّ أنفاس الجَرَب العالقة بأجواء الطاعون الليلية حتى وإن توارت خلف روائح أخرى، وعلى الرغم من ذلك فقد اتَّضح أنها كانت آتية من أقل موضع فتَّشنا فيه عن الرائحة، من الجوال الذي بدا مُكتَظًّا بثمار جوز الهند، ذلك المُرسَل من قِبَل خوسيه إغناسيو ساينس دي لا بارًّا بوصفه دفعة أولى من المُتَّفَق عليه، ستة رؤوس مبتورة مرفقة بشهادات وفاة أصحابها، رأس نبيل أعمى من العصر الحجري، دون نيپوموسينو إسترادا، عن عمر يناهز الرابعة والتسعين عامًا، آخر من خاضوا الحرب الكبرى من المحاربين القدامى ومُؤسِّس الحزب الراديكالي، أودت بحياته أزمة صحية تحت وطأة الشيخوخة في الرابع عشر من شهر مايو طبقًا لما ورد

في شهادة الوفاة المرفقة، ثم رأس الدكتور نيپوموسينو إسترادا دي لا فوينتيه، نجل سابقه، عن عمر يناهز السابعة والخمسين، طبيب تجانسي، أودت بحياته جلطة في الشريان التاجي في تاريخ وفاة الوالد نفسه طبقًا لما ورد في شهادة الوفاة المرفقة، ثم رأس إلييسير كاستور، عن عمر يناهز الحادية والعشرين عامًا، طالب آداب، طُعِن بسلاح حاد ما أسفر عن إصابته بعدد من الجروح المفضية إلى الموت خلال مشاجرة اندلعت في إحدى الحانات طبقًا لما ورد في شهادة الوفاة المرفقة، ثم رأس ليديسيه سانتياغو، عن عمر يناهز الثانية والثلاثين عامًا، ناشطة سرّية، لقيت مصرعها خلال عملية إجهاض طبقًا لما ورد في شهادة الوفاة المرفقة، ثم رأس روكيه پينسون، الشهير بخاسينتو الخفي، عن عمر يناهز الثامنة والثلاثين عامًا، صانع بالونات مُلوَّنة، لقي مصرعه في تاريخ وفاة سابقه مُسمَّمًا بالكحول الإثيلي، ثم رأس ناتاليسيو رويس، أمين حركة السابع عشر من أكتوبر السرّية، عن عمر يناهز الثلاثين عامًا، أنهى حياته برصاصة في الحلق من مسدسه إثر قصة حب خائبة طبقًا لما ورد في شهادة الوفاة المرفقة، بإجمالي ستة رؤوس، ملحقة بإيصال استلام وقَّعه بمرارة منقبضة تحت وطأة الرعب والرائحة، وهو يفكِّر قائلًا لنفسه يا أمي بينديسيون ألبارادو إن ذاك الرجل لوَحْشٌ، من كان يتخيَّله هكذا بلفتاته الروحانية وزهرته المُثبَّتة في عروته، ثم أصدر إليه أمرًا بألَّا ترسل إليَّ المزيد من الأشلاء يا ناتشو[1]، فكلمتك تكفيني، غير أن خوسيه إغناسيو ساينس دي لا بارَّا أجابه قائلًا إنها مسألة رجولة يا جنرال، لو أن

(1) ناتشو: تصغير اسم خوسيه إغناسيو.

قلبك لا يحتمل رؤية الحقيقة وجهًا لوجه فإليك ذهبك ولنبقَ صديقيْن كعهدنا أبدًا، يا للهول، كان من شأنه أن يأمر بإعدام أمه رميًا بالرصاص عقابًا له على جرم أهون كثيرًا من ذلك الذي اقترف، بَيْد أنه عضَّ على لسانه، هوِّن عليك يا ناتشو، قال، أَدِّ واجبك، وهكذا توالت الرؤوس في جوالات الخيش القاتمة التي كانت تبدو مُكتَظَّةً بثمار جوز الهند فيصدر أمره بمعدة منقبضة بأن تُحمَل الرؤوس بعيدًا من هنا، ويصدر أمره بأن تُقرأ عليه تفاصيل شهادات الوفاة حتى يوقِّع إيصالات الاستلام، مُوافَقة، وقد وقَّع على استلام تسعمائة وثمانية عشر رأسًا من رؤوس معارضيه الأشد ضراوةً عشيةَ راوده الحلم الذي رأى نفسه فيه وقد تحوَّل إلى حيوان ذي إصبع واحدة، مضى تاركًا أثر بصمته في سهل من الإسمنت الطري، ثم أفاق على ندى من المرارة، وكان يناور كرب الفجر منصرفًا إلى حساب عدد الرؤوس المُلقاة في مكبِّ الذكريات اللاذعة في حظائر حلب الأبقار، حيث يبلغ به الاستغراق في تأمُّلات الشيخوخة حتى إنه كان يخلط بين الطنين الذي يدوِّي في طبلتي أذنيْه وأصوات حشرات العشب المُتعفِّن، وهو يفكِّر قائلًا لنفسه يا أمي بينديسيون ألبارادو كيف يُعقَل أن تصلني كل هذه الرؤوس ما دامت رؤوس المُذنبين بحق لم تصل بعد، ولكن ساينس دي لا بارَّا لفت نظره إلى أن كل ستة رؤوس تسفر عن ستين عدوًّا وكل ستين تسفر عن ستمائة، فستة آلاف، فستة ملايين، فالبلد بأسره، سحقًا، هكذا لن ننتهي أبدًا، فأجابه ساينس دي لا بارَّا غير آبه وقال نَمْ هانئًا يا جنرال، فلسوف ننتهي يومَ ينتهون، أي وحشية. لم يعرف لحظة ريب واحدة قط، ولم يترك ثغرة متاحة لخيار بديل قط، كان يستند إلى القوة الخفية للدبرمان القابع في

تربُّص أبدي، الوحيد الذي شهد لقاءاتهما وإن سعى هو للحيلولة دون ذلك منذ المرة الأولى التي رأى فيها خوسيه إغناسيو ساينس دي لا بارَّا ساحبًا خلفه مقود الحيوان ثائر الأعصاب الذي لا يخضع سوى لتلك السيادة غير المحسوسة التي يفرضها عليه الرجل الأكثر وجاهة رغم أنه الأقل سلاسة بين من رأت عيناي من الرجال، اتركْ ذلك الكلب خارجًا، أمره، فأجاب ساينس دي لا بارَّا بقوله كلا يا جنرال، فما من مكان يسعني دخوله في العالَم بأسره إلَّا ودخله لورد كوتشيل أيضًا، وقد كان، فبات يرقد عند قدمي سيده وهما يجريان الحساب الروتيني لإحصاء عدد الرؤوس المبتورة إلَّا أنه كان يستوي بخفقات مُتلهِّفة إذا احتدم الحساب، وتقطع عيناه الأنثويتان حبل أفكاري، وأما أنفاسه البشرية فكانت تبعث رعدة في نفسي، ولقد رأيته ينهض بغتةً والأبخرة تتصاعد من خطمه بهدير مِرجَل حين ضرب هو الطاولة غضبًا لأنه عثر في جوال الرؤوس على رأس مرافقه القديم الذي كان فوق ذلك من شركائه في الدومينو على مدى أعوام طوال، سحقًا، قُضِي الأمر، بَيْد أن ساينس دي لا بارَّا كان يحمله على الاقتناع دومًا، فلا يقنعه بالحجة بقدر ما يقنعه بقسوته العذبة، قسوة مُروِّض الكلاب المُتوحِّشة، أما هو فيلوم نفسه على خضوعه للفاني الوحيد الذي واتته الجرأة على معاملته وكأنه واحد من رعاياه، ويتمرَّد على إمبراطوريته إذا اختلى بنفسه، ويتَّخذ قراره بأن يضع حدًّا لتلك التبعية التي تشبَّع بها فضاء سطوته رويدًا رويدًا، قُضِي الأمر ابتداءً من هذه اللحظة، سحقًا، كان يقول، لأن بينديسيون ألبارادو لم تلدني كي أتلقَّى الأوامر وإنما كي أمليها في خاتمة المطاف، وإذا بقراراته الليلية تُمْنَى بالإخفاق بمُجرَّد أن يدلف ساينس دي لا بارَّا

إلى المكتب، وإذا هو يستسلم لفتنة الأسلوب الرقيق وزهرة الغاردينيا الطبيعية والصوت النقي والأملاح العطرية والأزرار الزمردية والقبضتيْن الشمعيتيْن والعصا الهادئة والجمال الرصين لأشهى من رأت عيناي من الرجال وأصعبهم على الاحتمال، هوِّن عليك يا ناتشو، كان يردِّد على مسمعيْه، أدِّ واجبك، فتتواصل جوالات الرؤوس التي يتلقَّاها، ثم يوقِّع إيصالات الاستلام من دون أن ينظر إليها، ويغوص في رمال سلطته المُتحرِّكة وليس له ما يتشبَّث به، وهو يسائل نفسه مع كل خطوةٍ يخطوها كلُّ فجرٍ في كلِّ بحر ماذا دهَى العالَم، فالساعة تكاد تدقُّ الحادية عشرة وليس من روح واحد في بيت المقابر هذا، من هناك، كان يسأل، هو وحده، أين أكون فأنا ما عدت أجد نفسي، ويسأل، وأين قطعان أفراد الخدمة العسكرية حُفاة الأقدام الذين كانوا يفرغون حمولات الحمير من خضروات وأقفاص دجاج في الأروقة، وأين بِرَك المياه القذرة التي كانت تسكبها نسائي سليطات اللسان، نسائي اللواتي كن يضعن أزهارًا نضرة في المزاهر بدلًا من الأزهار الليلية، وينظِّفن الأقفاص وينفضن الأبسطة في الشرفات فيما يتغنّين على إيقاع مكانس الأغصان اليابسة بأغنية سوسانا تعالي يا سوسانا، أودُّ النعيم بحبك، وأين صغاري المُسْبَعون ذوو الأجساد الضامرة، الذين كانوا يتغوَّطون خلف الأبواب، ويرسمون جِمَالًا من البَوْل على جدران قاعة الاجتماعات، وماذا دهَى صخب مُوظَّفيَّ الذين كانوا يعثرون على دجاجات تضع بيضها في جوارير المكاتب، وماذا دهَى زحامي، زحام الموسسات والجنود في دورات المياه، وفوضى كلابي، كلاب الشوارع التي كانت تلاحق الدبلوماسيين وتنبح عليها، ومن عاود طرد مفلوجِيَّ من على الدَّرَج، وبُرْصي من

تحت شجيرات الورود، ومُتملِّقيَّ الوقحين من كل مكان، فأمسى لا يكاد يلمح آخر رفاقه في القيادة العليا خلف سياج محكم من المسؤولين الجدد عن أمنه الشخصي، ولا يكاد يحظى بفرصة للتدخُّل في اجتماعات مجلس الوزراء الجدد الذين تولّوا المنصب نزولًا عند طلب شخص لم يكُن هو، ستة أساتذة مُتعلِّمين بستراتهم الرسمية الجنائزية وياقاتهم المُجنَّحة يستبقون خواطره ويبتّون في شؤون الحكومة من دون الرجوع إليَّ بشأنها، كيف ذاك وأنا الحكومة في خاتمة المطاف، فكان ساينس دي لا بارًّا يوضح له في غير اكتراث أنك لستَ الحكومة يا جنرال، وإنما أنت السلطة، أما هو فيتجشَّم الضجر في سهرات الدومينو حتى وإن وجد نفسه في مواجهة أمهر المنافسين لأنه لم يفلح في خسارة مباراة واحدة مهما حاول ومهما استعان بأبرع الحيل ضد نفسه، فكان يرضخ مُضطرًّا لمشيئة الذوَّاقة الذين يغمِّسون في طعامه قبل أن يتناوله بساعة واحدة، ولا يجد عسل النحل في مخابئه، سحقًا، ليست هذه السلطة التي أردتُ، قال مُحتجًّا، فأجابه ساينس دي لا بارًّا بأنها السلطة الوحيدة وليس سواها يا جنرال، إنها السلطة الوحيدة الممكنة في سبات الموت الذي طغى على فردوسه القديم، فردوس سوق الأحد، حيث لم يعُد له شاغل آنذاك سوى ترقُّب الساعة الرابعة لسماع الحلقة الإذاعية اليومية من المسلسل الحافل بقصص الحُبِّ العقيمة في المحطة المحلية، فينصت إليه مُمدَّدًا على السرير المُعلَّق وفي يده قدح عصير فاكهة لم يرتشف منه قطرة واحدة، ويظلُّ طافيًا في خواء الترقُّب بعينيْن تترقرق فيهما الدموع مُتلهِّفًا على معرفة مصير تلك الصبية، تراها تموت وهي في مقتبل العمر، فيتحرَّى ساينس دي لا بارًّا الأمر ويخبره بأن الصبية ستموت

يا جنرال، أجل، لا تسمح بموتها إذًا، سحقًا، أصدر أمره، فلتبقَ على قيد الحياة حتى النهاية، ولتتزوَّج وتنجب أبناءً وتطعن في العمر كسائر الناس، فيأمر ساينس دي لا بارًّا بتعديل السيناريو مرضاةً له وإيهامًا بأنه هو الآمر الناهي، وهكذا، ما عاد أحد يموت نزولًا عند أمره، بل صار هنالك خُطّاب يتزوَّجون عن غير حب، وموتى يُبعَثون من بين الأموات إثر دفنهم في حلقات سابقة، وأشرار يُضحَّى بهم قبل الأوان مرضاةً لسيدي الجنرال، وإذا بالجميع سعداء نزولًا عند أمره كي تبدو له الحياة أقل عبثًا وهو يتفقَّد البيت مع دقّات الثامنة المعدنية، فيجد أن هنالك من سبقه إلى وضع العَليق للأبقار، ويجد الأنوار مطفأة في ثكنة الحرس الرئاسي، وأفراد الخدمة نائمين، والمطابخ مُرتَّبة، والأرضيات نظيفة، ويجد طاولات الجزّارين وقد مُسِحَت بمحلول الكريولين وخلت من كل أثر للدماء وعلقت بها رائحة المستشفيات، ويجد أن هنالك من أوصد مزاليج النوافذ وأحكم إقفال المكاتب رغم أن حلقة المفاتيح بحوزته وحده وليس سواه، وكانت الأنوار تُطفأ واحدًا تلو الآخر قبل أن يمسَّ مفاتيح الإضاءة من الردهة الأولى وحتى مخدعه، فيسير تحت جنح الظلام وهو يجرجر قائمتيْه الثقيلتيْن، قائمتي الملك الأسير، فيمضي عَبْر المرايا القاتمة وقد غلَّف المهماز الوحيد بطبقة من المخمل حتى لا يقتفي أحدهم نثار الذهب الذي يتركه وراءه، وكان كلما عرَّج على نافذة رأى البحر نفسه، الكاريبي في يناير، تأمَّله ثلاثًا وعشرين مرة بلا انقطاع، ليجده في كل مرة كعهده في يناير دومًا، وكأنه بِرْكة مزهرة، أطلَّ على حجرة بينديسيون ألبارادو ليتأكَّد من وجود إرثها في موضعه، إرث التُرُنجان، وأقفاص الطيور الميتة، وفراش الآلام حيث

احتملت أم الوطن شيخوختها العفِنة، طابت ليلتكِ، همهم كعهده أبدًا، وإن لم يجبه أحد منذ أمد بعيد قائلًا طابت ليلتك يا بني، نَمْ في رعاية الرَّب، كان في طريقه إلى المخدع ومعه مصباح الهرولة إلى الخارج عندما سرت إليه رعدة لمرأى الجذوتيْن الذاهلتيْن في حدقتي لورد كوتشيل تحت الظلال، ثم تنشَّق رائحة رجل، بما لهيمنته من كثافة، وبما لاستهانته من بريق، من هناك، سأل، وإن كان يعرف من هناك، خوسيه إغناسيو داينس دي لا بارَّا في زي التشريفات وقد جاء يُذكِّره بأنها ليلة تاريخية، ليلة الثاني عشر من أغسطس يا جنرال، التاريخ المشهود الذي فيه نحتفل بالذكرى المئوية الأولى لصعوده إلى سدة الحكم، ولذا فقد أقبل الزوار من أنحاء العالَم كافة مأخوذين بالإعلان المُبشِّر بحدث يستحيل أن يشهده المرء أكثر من مرة واحدة مدى الحياة مهما طالت أمدًا، فالوطن في عيد، كل الوطن إلَّا هو، ورغم إلحاح خوسيه إغناسيو داينس دي لا بارًا في سؤاله أن يعيش تلك الليلة التي لا تُنسَى وسط هتاف شعبه وحماسته، ما كان منه إلَّا أن أوصد مزاليج زنزانة النوم الثلاثة، والمغاليق الثلاثة، والأقفال الثلاثة، أبكر من أي وقت مضى، واستلقى على وجهه فوق البلاط العاري بالزي الكتاني الخشن المُجرَّد من الشارات، والطماق، ومهماز الذهب، وتوسَّد ذراعه اليمنى التي انثنت تحت رأسه، واستقرَّ على تلك الحال التي سوف نجده عليها وقد نقرته العقبان واستشرت في جسده كائنات أعماق البحر وأزهاره، وعَبْر ضباب أستار الوَسَن سمع دوي المفرقعات البعيدة، مفرقعات العيد الذي خلا منه، وسمع أنغام موسيقى الفرح، وقرع نواقيس البهجة، وسيول الجماهير الموحلة الآتية احتفاءً بمجد لم يكُن مجده هو، وبينما طغى شعوره

بالاستغراق على حزنه فقد أخذ يهمهم قائلًا يا أمي بينديسيون ألبارادو، يا قَدَري أنا، ها قد مرَّت مائة عام، سحقًا، ها قد مرَّت مائة عام، سرعان ما يمرُّ الزمن.

وهكذا فقد كان هناك، وكأنه هو حتى وإن لم يكُن هو، مُستلقيًا على مائدة الولائم في قاعة الحفلات بما له من رونق أنثوي يليق ببابا مُتنيِّحًا وسط الأزهار، ما حال دونه ودون التعرُّف على نفسه خلال مراسم عرض الجثمان إثر موته الأول، وإذا هو أشد هولًا مما كان في حياته بقفّازه الساتاني المحشو قطنًا ويديْه اللتيْن وضعهما على صدره المُصفَّح بنياشين زائفة نالها عن انتصارات من نسج الخيال في حروب من الشكولا ابتكرها مُتملِّقوه الوقحون، وقد ارتدى الزي الرسمي الصارخ وطماق الجلد المصقول ومهماز الذهب الوحيد الذي وجدناه في البيت والشموس العشر الحزينة، شموس جنرال الكون التي خُلِعَت عليه في اللحظة الأخيرة من أجل رفعه إلى مرتبة أسمى من الموت، فكان من المُباشَرة والوضوح للعيان في هويته الجديدة التي أُسبِغَت عليه بعد وفاته حتى بات التصديق بوجوده الواقعي ممكنًا لأول مرة بما لا يدع مجالًا للشك، ولكن في حقيقة الأمر فلم يكُن هناك من يناقضه أو يبْعد عنه شبهًا بقدر ما فعل ذلك الجثمان الراقد في الواجهة الزجاج حيث ما برح يُطهَى على نيران هادئة حتى منتصف الليل في فضاء القاعة الجنائزية الدقيق، ونحن جلوس في قاعة مجلس الوزراء الملحقة نناقش نص الخبر النهائي كلمة كلمة، الخبر الذي لم يجرؤ كائن من كان على تصديقه، لمَّا أفقنا على ضجة الشاحنات المُحمَّلة بالقوَّات المُدجَّجة بعتاد الحرب

التي احتلَّت البنايات العمومية خلسةً منذ بزوغ الفجر، وإذا هم ينبطحون أرضًا ويتَّخذون وضع إطلاق النيران أسفل طاقات الشارع التجاري، ويتَّخذون لأنفسهم ساترًا في الدهاليز، أما أنا فلقد رأيتُهم ينصبون المدافع الرشاشة فوق الأسطح بحي نوَّاب الملوك عندما فتحتُ شرفة بيتي عند مطلع الفجر بحثًا عن مكان أودع فيه باقة القرنفل المخضلة بالماء التي قطفتُها من الباحة لتوّي، ورأيتُ أسفل الشرفة دورية من الجنود بقيادة ملازم راح يتنقَّل من باب إلى آخر آمرًا بإقفال الحوانيت القليلة التي شرعت تفتح أبوابها في الشارع التجاري، اليوم عطلة قومية، أخذ يصيح، وتلك أوامر عليا، فرميتُهم بقرنفلة من الشرفة وسألتُ ماذا يجري وما هذا الجمع من الجنود وما دويّ السلاح الآتي من كل صوب، أما الضابط فقد تلقَّف القرنفلة في الهواء وأجابني قائلًا تصوَّري يا صغيرتي أننا لا نعرف نحن أيضًا، لا بد أن الميت قام من بين الأموات، قال، وهو يكاد يموت ضحكًا، ذلك أن أحدًا ما كان ليجرؤ على التفكير في وقوع خطب جلل كهذا، بالعكس، فقد دار في خلدنا أنه عاود القبض على زمام سطوته بعد أعوام طوال من التقاعس وبات مفعمًا بالحياة أكثر من أي وقت مضى وهو يجرجر قائمتيْه الضخمتيْن مرة أخرى، قائمتي الملك الوهمي، في بيت السلطة حيث أُضيئَت المصابيح الكروية مرة أخرى، ودار في خلدنا أنه هو الذي أخرج الأبقار المتواثبة فوق شقوق البلاط في ميدان السلاح، هناك حيث اختلط وقع الأظلاف على الأعمى الجالس تحت ظل النخيل المحتضر فظنَّه دبيب أحذية العسكر، وكان الأعمى يتلو أشعار الفارس السعيد الذي أتى من بعيد منتصرًا على الموت، ويتلوها ملء صوته مادًّا يده إلى الأبقار وهي تتسلَّق منصَّة عازفي الموسيقى آتيةً على ما فيها من أكاليل البلسمينا

مدفوعةً بعادة نزول الدَّرَج وصعوده للبحث عن الطعام، وقد استقرَّ بها المقام وسط أطلال ربات الإلهام المُتوَّجات بأزهار الكاميليا البرية والقردة المُتدلِّية من قياثير حطام المسرح القومي، وعلى دويِّ أصص الناردين المُهشَّمة كانت الأبقار تقتحم الغَبَش المنعش الذي يغمر دهاليز حي نوَّاب الملوك وهي تتضوَّر من العطش فتغوص بخطومها الملتهبة في بِرْكة الباحة الداخلية فلا يجرؤ شخص على إزعاجها لأننا كنا نعرف الوسم الرئاسي الخلقي الذي تحمله الإناث على أعجازها والذكور على أعناقها، كانت لا تُمَسُّ، بل وحتى الجنود أنفسهم كانوا يفسحون الطريق أمامها في المناطق الوعرة من الشارع التجاري الذي فقد جلبته، جلبة السوق الجهنمية، ولم يبقَ سوى مشرحة من الأضلاع المُهشَّمة والصواري المُحطَّمة في بِرَك العَفَن المُتَّقد حيث كانت السوق العمومية والبحر لا يزال ملكًا لنا، حيث كانت المراكب الشراعية ترسو بين طاولات باعة الخضروات، وأما الأمكنة التي شغلتها حوانيت الهندوس في زمن مجده فقد خوت، لأن الهندوس قد رحلوا، من دون كلمة شكر واحدة سيدي الجنرال، فصرخ هو بقوله سحقًا، ذاهلًا تحت وطأة غضبات الشيخوخة الأخيرة، فليذهبوا لمسح خراء الإنجليز، صرخ، ولقد رحلوا جميعًا، فحلَّ محلهم باعة تمائم الهنود والترياقات الشافية من لدغ الحيات، فضلًا عن حانات الموسيقى المحمومة المُتراصَّة في مخازنها أسِرَّةٌ للإيجار طفق الجنود يقتلعونها من أمكنتها ضربًا بأخامص بنادقهم ونواقيس الكاتدرائية الحديد تقرع إعلانًا عن الحداد، ذلك أن كل شيء قد سبقه إلى الفناء، أما نحن فقد خَبَوْنا حتى النفس الأخير ونحن نترقَّب في غير أمل أن تثبت يومًا حقيقة الإشاعة المُتكرِّرة والمُفنَّدة في كل مرة، إشاعة سقوطه أخيرًا تحت

وطأة أي مرض من أمراضه الملكية الكثيرة، وعلى الرغم من ذلك فلم نصدِّق بصحة ما قيل آنذاك، ليس لأننا لم نصدِّق في واقع الأمر ولكن لأننا ما عدنا نرغب في ثبوت صحة الإشاعة، إذ انتهت بنا الحال ونحن لا ندرك مصيرنا من دونه، ومصير حياتنا من بعده، وإذا بي عاجزة عن تصوُّر العالَم من دون الرجل الذي أسعدني وأنا في الثانية عشرة كما لم يقدر على إسعادي رجل سواه منذ تلك الأمسيات البعيدة كل البعد، الأمسيات التي كنا نخرج فيها من المدرسة مع دقات الخامسة وهو يتلصَّص من كوَّات الحظيرة على الصبايا اللائي يخطرن في زيهن المدرسي الأزرق ذي الياقة البحرية وخلف ظهر كل صبية تنسدل ضفيرة واحدة، بينما هو يفكِّر قائلًا لنفسه يا أمي بينديسيون ألبارادو ما أجمل النساء وأنا في مثل عمري، كان ينادينا، فنرى عينيْه المرتجفتيْن، واليد ذات القفاز المُمزَّقة أصابعه تحاول أسرهن بجرس حلوى السفير فوربِس، فيركضن جميعًا مذعورات، يركضن جميعًا إلَّا أنا، وقد بقيتُ وحدي في شارع المدرسة حين عرفتُ أن أحدًا لا يراني فحاولت بلوغ الحلوى، عند ذاك جذبني هو من معصمي بما له من مخالب نَمِرٍ حانية ثم رفعني في الهواء بغير ألم وأدخلني عَبْر الكوَّة بكل حذر حتى إن طية واحدة في ثوبي لم تتجعَّد ثم أرقدني على القشِّ العبق بروائح البول العطنة وهو يحاول أن يقول شيئًا يأبَى الخروج من فمه الجاف لأنه كان أشد مني ذعرًا، فمضى يرتعد وقد شفَّت سترته عن خفقات قلبه، وشحب لونه، وفاضت عيناه بالدمع كما لم تِفِض عينا رجل سواه من أجلي مدى حياة المنفى التي عشتُها، فراح يتحسَّسني في صمت، ويلتقط أنفاسه في غير عجل، ويتلمَّسني بحنان رجل لم أصادفه في غيره قط، ويجعل برعمتي نهديَّ تتفتَّحان، ويدسُّ أصابعه تحت حافة ثوبي

الداخلي، ثم يشمُّ أصابعه، ويسألني شمَّها أنا أيضًا، شمِّي، كان يقول، فإنها رائحتك، ولم تعُد به حاجة إلى حلوى السفير بالدريتش لإقناعي بالتسلُّل عَبْر الكوَّات المفضية إلى الحظيرة حيث أعيش ساعات بلوغ الحُلُم السعيدة برفقة الرجل ذي القلب السليم الحزين الذي يترقَّبني جالسًا على القشِّ، ومُزوَّدًا بكيس من الأطعمة، فيغمس الخبز في باكورة صلصة مراهقتي، ويدسُّ الأطعمة في داخلي قبل أن يلتهمها، ويلقِّمني إياها، ويدسُّ لي أطراف سيقان الهليون ليأكلها مُملَّحةً بمياهي الحميمية، شهية، كان يقول، إن لكِ مذاق المرفأ، ويحلم بالتهام كليتي مغلية في حسائه الأمونياكي نفسه، وملح إبطيْك، كان يحلم، وبولكِ الدافئ، ويمزِّقني إربًا من قمة رأسي إلى أخمص قدميَّ، ويتبِّلني بالملح الصخري والفلفل الحريف وأوراق الغار، ثم يتركني أغلي على نيران هادئة في الأرجوان المُتَّقد خلال الأصائل العابرة، أصائل حبنا الذي لا مستقبل له، كان يلتهمني من قمة رأسي إلى أخمص قدميَّ بلهفة وأريحية شيخ لم أصادفها مرةً أخرى في كل من عرفت من الرجال المُتعجِّلين الخبثاء، أولئك الذين حاولوا أن يحبّوني فما استطاعوا طوال البقية الباقية من حياتي التي عشتُها من دونه، كان يحدِّثني عن نفسه ونحن نهضم الحبَّ على مهل ونزيح عنا خطوم أبقار تحاول أن تلعقنا، ويقول إنه ولا حتى هو نفسه يعرف من يكون، وإنه قد ضاق ذرعًا بسيدي الجنرال حتى تورَّمت خصيتاه، فيقولها بلا مرارة، بلا دافع، كمن يحدِّث نفسه، طافيًا في غمرة الطنين المتواصل، طنين الصمت الداخلي الذي يستحيل كسره إلَّا صراخًا، فما كان أحد يفوقه تفانيًا ولا حكمةً، ما كان أحد يفوقه رجولةً، وإذا هو يغدو علةَ وجودي الوحيدة وأنا في الرابعة عشرة من العمر، عند ذاك ظهر في بيت أبويَّ عسكريان من

أرفع المراتب مُحمَّلَيْن بحقيبة عامرة بعملات من الذهب الخالص، ثم وضعاني على متن سفينة أجنبية في منتصف الليل أنا وجميع أفراد عائلتي وأمرانا بألّا نعود إلى أرض الوطن لأعوام وأعوام حتى دوَّى خبرُ موته في العالَم بأسره وهو لا يدري أنني أمضيتُ البقية الباقية من حياتي أموت عليه لهفًا، وأشارك الفراش أغرابًا من الشارع لَعَلَّني أجد رجلًا خيرًا منه، ثم إنني عدتُ عجوزًا تَعِسة ومعي قطيع من أبناء ولدتُهم من آباء شتّى يحدوني وَهْمُ أن يكونوا أبناءه هو، أما هو فقد نسيها في اليوم الثاني إذ لم يرَها تتسلَّل عَبْر الكوَّة المفضية إلى حظائر حلب الأبقار، وراح يستبدل بها أخرى كل مساء لأنه ما عاد يدرك مَنْ هي مَنْ في غمرة فوضى صبايا المدارس بأزيائهن المتشابهة، الصبايا اللائي كُنَّ يخرجن له ألسنتهن ويصحن فيه بقولهن أيها الشيخ المُخرِّف فيما هو يحاول أسرهن بحلوى السفير رومپيلماير، ويناديهن من دون تمييز، من دون أن يسائل نفسه يومًا عمّا إذا كانت صبية اليوم هي نفسها صبية البارحة، فيستقبلهن جميعًا استقبالًا واحدًا، ويفكِّر فيهن جميعًا كما لو كن واحدة فحسب وهو شبه غافٍ على السرير المُعلَّق ينصت إلى بواعث السفير سترايمبرغ المتشابهة أبدًا، وهو السفير الذي أهداه بوقًا يشبه بوق الكلب على شعار شركة صوت سيده[1] مُرفَقًا بمُكبِّر صوت كهربائي ليتمكَّن مرة أخرى من سماع مطالب السفير المُلحَّة بالاستيلاء على مياهنا الإقليمية مقابل تكاليف خدمات الدَّين الخارجي، أما هو فكان يكرِّر عليه قوله المعهود أبدًا، دَعْ عنك تلك الترهات يا عزيزي ستيڤنسون، كل شيء إلَّا البحر، فيطفئ السماعة الكهربائية لئلَّا يستمرَّ في سماع الصوت

(1) صوت سيده (His Master's Voice): اسم علامة تجارية شهيرة في مجال صناعة الموسيقى، شعارها كلب ينظر داخل بوق الفونوغراف.

المُدوِّي لذلك الكائن المعدني الذي بدا وكأنه يقلب الأسطوانة على الوجه الآخر موضحًا له مرة أخرى ما أوضحه لي خبرائي أنفسهم مرارًا وتكرارًا في لغة خالية من عبارات القواميس الطنَّانة، فقالوا إننا صرنا جلدًا على عظم سيدي الجنرال، واستهلكنا آخر مواردنا التي استنزفتها حاجتُنا طويلة الأمد إلى قبول القروض لسداد تكاليف خدمات الدَّين الخارجي المتراكم منذ حروب الاستقلال، متبوعةً بقروض أخرى لسداد فوائد تكاليف خدمات الديون المُتأخِّرة، وذلك مقابل شيء في كل مرة سيدي الجنرال، فاحتكر الإنجليز الكينا والتبغ أولًا، ثم احتكر الهولنديون المطاط والكاكاو، ثم تنازلنا عن السكك الحديد في الپارامو والملاحة النهرية لصالح الألمان، ثم تنازلنا عن كلِّ شيء لصالح الغرينغو مقابل الاتفاقات السرية التي لم يعرف بها إلَّا بعد سقوط خوسيه إغناسيوساينس دي لا بارَّا سقوطًا مُدوِّيًا واغتياله على الملأ، عسى أن يشويه الرَّب على نيران المواقد الحيّة في أسافل جحيمه، وهكذا فلم يبقَ لنا شيء يا جنرال، بَيْد أنه قد سمع وزراء المالية كافة يردِّدون القول نفسه منذ الزمن العصيب الذي أعلن فيه عن تأجيل سداد الالتزامات المُستحقَّة لصيارفة هامبورغ، فأحكم الأسطولُ الألماني حصارَه على المرفأ، وأطلقت بارجة إنجليزية طلقة مدفع تحذيرية تركت فجوةً في برج الكاتدرائية، فما كان منه إلَّا أن صرخ قائلًا فليأكل ملك لندن الخراء، الموت أهون علينا من بيع أنفسنا، صرخ، الموت للقيصر، وفي اللحظة الحاسمة جاءه الخلاص من خلال المساعي الحميدة التي بذلها السفير تشارلز ف. تراكسلر شريكه في الدومينو، ذلك الذي قدَّمت حكومته ضمانًا للوفاء بالالتزامات الأوروبية مقابل الحق في استغلال كل ما في باطن أراضينا مدى الحياة، ومن حينها صرنا على

هذه الحال، ندين لهم حتى بثيابنا الداخلية سيدي الجنرال، أما هو فكان يرافق سفير الساعة الخامسة الأبدي إلى الدَّرَج حيث يودِّعه بربتة على الكتف، دَعْ عنك تلك الترهات يا عزيزي باكستر، أهون عليَّ الموت من فقدان البحر، مغمومًا تحت وطأة الوحشة التي غشيت بيت المقابر ذاك حيث يمكن السير من دون أن يعترض سبيل المرء شيءٌ وكأن البيت غارق تحت سطح الماء منذ الزمن الخبيث، زمن المدعو خوسيه إغناسيو ساينس دي لا بارَّا، يا إثمي أنا، ذلك الذي بتر رؤوس البشر جميعًا فلم يترك سوى رؤوس مُدبِّري اغتيال ليتيسيا ناسارينو والصغير، تلك التي كان يجب عليه بترها، أما الطيور فقد أبت التغريد في أقفاصها مهما ناولها في مناقيرها من منقوع الكانتورينا المُحفِّز على التغريد، وأما صبايا المدرسة المجاورة فلم يعاودن التغنِّي بنشيد الفسحة، نشيد الطائر الصغير المُلوَّن الذي حطَّ على غصن الليمون الأخضر، ومضت حياته تنسلُّ من بين يديْه وهو يترقَّب في نفاد صبر تلك الساعات التي يقضيها معكِ في الحظيرة، يا صغيرتي، بنهديْكِ الصغيريْن كالجوزتيْن وشيئكِ الصغير كالمحارة، فبات يأكل طعامه وحيدًا تحت عريشة الجهنميات، سابحًا في ذبذبات قيظ الثانية وهو يلتقط نزرًا يسيرًا من نعاس القيلولة لئلَّا يفوته سير أحداث الفيلم المعروض على شاشة التلفزيون حيث يجري كل شيء طبقًا لأوامره على عكس الحياة، لأن صاحب الجدارة والاستحقاق العارف بكل شيء لم يعرف يومًا أننا قد نصبنا جهاز إرسال مستقل من أجله في زمن خوسيه إغناسيو ساينس دي لا بارَّا

حتى يستمع إلى المسلسلات الإذاعية، ثم أتبعناه بدائرة تلفزيونية مغلقة حتى يشاهد وحده الأفلام المُعدَّلة على هواه حيث لا يموت سوى الأشرار، وينتصر الحب على الموت، حيث الحياة نسمة هواء، فكنا نحتال من أجل إسعاده كما فعلنا طوال أمسيات شيخوخته الكثيرة، إذ احتلنا عليه بالصبايا من ذوات الزي المُوحَّد اللائي كن سيتابعن إدخال البهجة على نفسه حتى الموت لولا حظه العاثر الذي دفعه لسؤال إحداهن ماذا تتعلَّمين في المدرسة فما كان مني إلَّا أن أجبتُه بالحق وقلتُ إني لا أتعلَّم شيئًا يا سيدي، فأنا لستُ إلَّا مومس المرفأ، فسألها أن تعيد عليه قولها لعلَّه عجز عن فهم الكلمات التي قرأها على شفتَيَّ، وعند ذاك أعدتُ عليه قولي حرفًا حرفًا، فما أنا بطالبة مدرسة يا سيدي، بل إنني مومس المرفأ التي غسلتها أجهزة الخدمات الصحية بالليف ومحلول الكريولين، وأمروها بأن ترتدي زي بحَّار وجورب صبية محترمة وتمرَّ بهذا الشارع في الخامسة من كل مساء، وأنا لست وحدي بل إن الشرطة الصحّية قد جنَّدت كل من هنَّ في مثل عمري من المومسات وغسلتهم، فارتدينا جميعًا الزي نفسه وانتعلنا الحذاء الرجالي نفسه ووضعنا هذه الضفيرة المجدولة من شعر الخيول، تصوَّر أنها تُثبَّت وتُنزَع بالمشبك مثل المشط، وقالوا لا تفزعن منه فما هو إلَّا جَدٌّ أحمق مسكين، حتى إنه لن يضاجعكن بل سيجري لكنَّ فحوصات طبية بإصبعه ويمصُّ نهودكن ويدسُّ الطعام في محاراتكن، أي كل ما تفعل أنت بي حين آتي باختصار، وقالوا إن كل ما علينا أن نغمض عيوننا لذةً ونقول يا حبيبي يا حبيبي لأن ذلك ما يروق لك، هكذا قالوا، بل إنهم أمرونا بالتدرُّب وتكرار كل شيء من البداية قبل أداء مستحقاتنا، وإن كنتُ أراه ضربًا من المبالغة أن يُدَسَّ كل هذا الموز الناضج في زَرْزُور الواحدة منا

وكل هذا القلقاس المطهو في مُؤخِّرتها مقابل أربعة بيسو هزيلة هي كل ما يتبقَّى لنا بعد خصم ضريبة الصحة وعمولة الرقيب، سحقًا، ليس من العدل إهدار كل هذا الطعام من تحت ما دامت الواحدة منا لا تجد ما تأكله من فوق، قالت، وقد أحاطها الشيخ الذي لا يُسبَر له غور بهالة كئيبة ومضى ينصت إلى هذا الكشف من دون أن يرفَّ له جفن وهو يفكِّر قائلًا لنفسه يا أمي بينديسيون ألبارادو لماذا ترسلين إليَّ هذا العقاب، بَيْد أنه لم يأتِ بلفتة واحدة من شأنها أن تفضح وحشته وإنما عكف على إجراء التحرّيات السرّية بصنوفها كافة حتى اكتشف أن مدرسة البنات المجاورة للبيت المدني قد أقفلت أبوابها منذ أعوام طوال سيدي الجنرال، ذلك أن وزير التعليم نفسه قد وفَّر التمويل اللازم بالاتفاق مع رئيس الأساقفة واتحاد أولياء الأمور من أجل إقامة بناء جديد من طوابق ثلاثة يطلُّ على البحر حيث تأمن أميرات الأُسَر ذات الخيلاء العظيم على أنفسهن من شراك ذلك المُغرِّر الغارب بجسده المُمدَّد على ظهره فوق مائدة الولائم وكأنه سمكة شابل جنحت إلى البر، هناك حيث بدأ خياله يشخص ومن خلفه أرجوان الأفق الشاحب، أفق الفوهات القمرية، في أول شَفَق لنا من دونه، وقد أمن كلَّ شرٍّ وسط أزهار العشاق المكسوَّة بنُدَف الثلوج، وتحرَّر أخيرًا من سلطته المطلقة بعد كل هذه الأعوام من الأسر المتبادل حيث كان ضربًا من المُحال أن يعرف المرء مَنْ ضحية مَنْ في تلك المقبرة، مقبرة الرؤساء الأحياء التي دُهِنَت بلون الأضرحة الأبيض من الداخل ومن الخارج وإن لم يرجعوا إليَّ في هذا الشأن، بل إنهم شرعوا يأمرونه من دون أن يتعرَّفوا عليه قائلين لا تمرّ من هنا يا سيدي وإلَّا لوَّثت الكلس، فلا يمرّ، ابقَ في الطابق العلوي يا سيدي وإلَّا فربما سقطت على رأسك إحدى السقالات،

فيبقى في الطابق الثاني، مأخوذًا بصخب النجارين وحنق البنائين الذين يصيحون فيه قائلين تنحَّ جانبًا أيها الشيخ الأحمق وإلَّا أفسدت الملاط، فيتنحَّى جانبًا، وقد فاق الجنودَ طاعةً على مدى الأشهر العصيبة التي أُجريَت خلالها عملية ترميم لم يرجعوا إليه فيها أسفرت عن فتح نوافذ جديدة تطلُّ على رياح البحر، وبات أكثر وحدة من أي وقت مضى تحت مراقبة ضارية أخضعه لها مرافقوه الذين بدا أن مهمتهم مراقبته لا حمايته، فكانوا يأتون على نصف حصته من الطعام تجنُّبًا لإصابته بالتسمُّم، ويبدِّلون مخابئ عسل النحل، ويغلِّفون مهماز الذهب لئلَّا يرنَّ في سيره كما تُكمَّم مناقير ديكة المصارعة، سحقًا، ودون ذلك من حيل رعاة البقر التي يلجأون إليها بكل صنوفها، الحيل التي كانت ستُضحِك رفيقي ساتورنو سانتوس إلى حد الموت، وإذا هو يعيش تحت رحمة أحد عشر جلفًا من الأجلاف بما لهم من سترات وربطات عنق، فكانوا يقضون يومهم في أداء الحيل البهلوانية اليابانية، ويمرِّرون جهازًا مُزوَّدًا بأضواء خضر وحمر تضيء وتنطفئ لدى الكشف عن حيازة سلاح في دائرة محيطها خمسون مترًا، وهكذا فقد جُبنا الشوارع كالهاربين في سبع سيارات متطابقة تبدِّل مواضعها وتتقدَّم بعضها بعضًا في الطريق حتى لم أعُد أنا نفسي أعرف أي سيارة تحملني، سحقًا، نفقات لا طائل يُرجَى من ورائها كإهدار البارود على العقبان لمُجرَّد أنه قد أزاح الأستار كي يرى الشوارع بعد كل هذه الأعوام التي أمضاها حبيسًا ليجد أن أحدًا لم يتأثَّر بمرور سيارات الليموزين الجنائزية خلسةً في القافلة الرئاسية، فرأى شعاب الزجاج الشمسي على بنايات الوزارات التي فاقت أبراج الكاتدرائية ارتفاعًا وحجبت رؤية الرُّبَى المفعمة بالألوان حيث أكواخ الزنوج المشرفة على المرفأ،

ورأى دورية من الجنود الذين راحوا يطمسون كتابة حديثة بالفرشاة العريضة على أحد الجدران، ولمَّا سأل عن فحواها أجابوه بأنها تنادي بالمجد الأبدي لصانع الوطن الجديد رغم علمه بأنهم يكذبونه القول، بكل تأكيد، وإلَّا ما طمسوها، سحقًا، ورأى جادة بعرض ست جادات مجتمعة يحفُّها نخيل جوز الهند والمساحات المُزيَّنة بالأزهار وتمتدُّ وصولًا إلى البحر في الموضع الذي كانت تشغله الأراضي الموحلة في ما سبق، ورأى ضاحية بما فيها من الفيلات المُتكرِّرة ذات الأروقة الرومانية والفنادق ذات الحدائق الأمازونية في الموضع الذي كان يشغله مكبُّ نفايات السوق العمومية في ما سبق، ورأى السيارات كالسلاحف في متاهات الطرق الحلزونية الحضرية، ورأى الجماهير وقد أصابهم قيظ منتصف النهار بالخدر وهم وقوف على الرصيف المشمس في حين خلا الرصيف المقابل إلَّا من المُحصِّلين العاطلين المُكلَّفين بجباية الضرائب على السير في الظلال، ولكن أحدًا لم يرتجف هذه المرة تحت وطأة نذير الشؤم المُتمثِّل في السلطة المحجوبة داخل ذلك النعش المُكيَّف، نعش الليموزين الرئاسية، كما أن أحدًا لم يتعرَّف على العينيْن المخذولتيْن، ولا الشفتيْن المُتلهِّفتيْن، ولا اليد عديمة الحيلة التي راحت تلوِّح بإيماءات الوداع إلى غير وجهة عَبْر صياح باعة الصحف والتمائم، وعربات باعة المُثلَّجات، وشعارات تذاكر اليانصيب ذات الأرقام الثلاثة، وصخب العالَم اليومي في الشارع الغريب عن المأساة الحميمية، مأساة العسكري الذي راح يتنهَّد حنينًا في عزلته وهو يفكِّر قائلًا لنفسه يا أمي بينديسيون ألبارادو ماذا دهَى مدينتي، أين الزقاق التعِس بمن فيه من نساء لا رجال لهن يخرجن عاريات ساعة الأصيل لشراء سمك الكوربين الأزرق والمرجان المُتورِّد وتبادل

السباب المقذع مع بائعات الخضروات ريثما تجفُّ ثيابهن على الشرفات، أين الهندوس الذين يقضون حاجتهم على أبواب حوانيتهم، وأين الزوجات الشاحبات اللائي يخفِّفن من وطأة الموت بأغنيات الأسى، أين المرأة التي مُسِخَت عقربًا جزاءً لها عن عصيان أبويها، أين حانات المرتزقة، وجداول البول المُتخمِّر التي كانوا يتركونها، أين الهواء اليومي للبجعات عند منعطف الطريق، وبغتةً، آه، المرفأ، كان المرفأ هنا فإلى أين صار، ماذا دهَى مراكب المُهرِّبين الشراعية، وقطعة الخردة التي خلَّفها مارينز الإنزال، ورائحة خرائي يا أمي، ماذا دهَى العالَم حتى لم يعُد هنالك من يعرف اليد الهاربة، يد العاشق المنسي الذي مضى تاركًا خلفه سيلًا من وداعات لا نفع يُرجى من ورائها عَبْر النافذة ذات الزجاج الحائل على متن القطار الافتتاحي الذي أخذ يصفِّر ويطوي حقول الأعشاب العطرية في الموضع الذي كانت تشغله في ما سبق مستنقعات حقول الأرز بما حوته من طيور الملاريا الصاخبة، فمضى يزجر قطعانًا من الأبقار الموسومة بالختم الرئاسي عَبْر سهول مدهشة من المراعي الزرق، ويسائل نفسه داخل مقطورة الصلاة الجنائزية المُبطَّنة بالمخمل الكَنَسي الماضية صوب مصيري المحتوم قائلًا أين قطاري الصغير العتيق الذي يسير على أربع، سحقًا، أين أغصاني، أغصان الأناكوندا والبلسمينا السامة، وصخب قِرَدتي، وعصافير جنتي، والوطن بأسره وبتنِّينه يا أمي، أين هي الآن وقد حلَّت محلَّها محطات الهنديات الصموتات بقبعاتهن الإنجليزية، أولئك اللواتي يبعن حيوانات من السكر المعقود عَبْر النوافذ، ويبعن البطاطس يا أمي، ويبعن الدجاجات المطهوة بالزُّبْد الأصفر تحت الطاقات المُزيَّنة بلافتات الأزهار المنادية بالمجد الأبدي لصاحب الجدارة والاستحقاق

الذي لا يُعرَف له مكان، بَيْد أنه كلما احتجَّ بدعوى أن حياة الهاربين التي يعيشها شرّ من الموت أجابوه بقولهم كلا سيدي الجنرال، بل إنه السلام والانضباط، فيبدي قبوله في خاتمة المطاف، مُوافَقة، مبهورًا ومفتونًا بخوسيه إغناسيو ساينس دي لا بارًّا، يا فوضاي أنا، ذلك الذي طالما نفر منه وبصق عليه في ثورة الأرق ثم عاود الإذعان لسحره بمُجرَّد وصوله إلى المكتب مع ضياء الشمس ساحبًا خلفه مقود الكلب ذي النظرة البشرية الذي لا يفارقه ولا حتى للتبوُّل، بل إن حتى اسمه كان بشريًّا، لورد كوتشيل، أما هو فيتقبَّل كلماته مرة أخرى بوداعة كانت تؤلِّبه على نفسه، فيقرُّ بقوله لا تقلق يا ناتشو، أدِّ واجبك، وهكذا يعود خوسيه إغناسيو ساينس دي لا بارًّا مرة أخرى بسلطته غير منقوصة إلى مصنع التعذيب الذي أقامه على مسافة تقلُّ عن خمسمائة متر من البيت الرئاسي في البناء الحجري البريء الذي يرجع إلى الحقبة الاستعمارية حيث كان مستشفى المجاذيب الهولنديين في ما مضى، بيت في ضخامة بيتكم سيدي الجنرال، متوارٍ في قلب غابة من أشجار اللوز ويحفُّ به مرجٍ من البنفسج البري، هناك حيث خُصِّص الطابق الأول لأجهزة التحقُّق من الهوية والسجلات المدنية، وأما في باقي أرجاء البناية فقد نُصبَت آلات التعذيب الأشد وحشيةً وإبداعًا بين كل ما تفتَّقت عنه المُخَيِّلة، حتى إنه هو نفسه لم يُرِد التعرُّف عليها وإنما حذَّر ساينس دي لا بارًّا قائلًا تابع أداء واجبك بما يخدم مصلحة الوطن على أكمل وجه بشرط واحد فقط ليس إلَّا، فأنا لا أعرف شيئًا ولم أرَ شيئًا ولا وطأت قدماي هذا المكان قط، فتعهَّد له ساينس دي لا بارًّا بكلمة شرف قائلًا في خدمتك يا جنرال، وقد برَّ بوعده، كما انصاع لأمره بألَّا يعاود تعذيب الأطفال دون الخامسة أو صعقهم بالكهرباء في الخصيتيْن لإرغام

الوالدين على الاعتراف خشية أن يتكرَّر أرقُ الليالي الطوال مرة أخرى كما كان في زمن اليانصيب من جرَّاء تلك الفعلة المشينة، وعلى الرغم من ذلك فقد تعذَّر عليه نسيان معمل الرعب القائم على مسافة بالغة القرب من مخدعه، ذلك أنه في الليالي الساكنة أقمارها كانت توقظه موسيقى القطارات الهاربة وخيوط الفجر المرعدة، موسيقى بروكنر[1] التي كانت تخلِّف دمارًا طوفانيًا وتترك وحشة من أسمال ثياب عرائس قضين نحبهن على أغصان شجر اللوز في القصر العتيق حيث سكن المجاذيب الهولنديون قديمًا، وهي الموسيقى المُدوِّية تجنُّبًا لوصول صرخات المحتضرين هلعًا وألمًا إلى الشارع، كل ذلك من دون سِنْت واحد سيدي الجنرال، ذلك أن خوسيه إغناسيو ساينس دي لا بارًّا كان ينفق راتبه على ثياب الأمراء، وأقمصة من الحرير الطبيعي موسومة بالحروف الأولى من اسمه عند موضع الصدر، وأحذية من جلد الجداء، وصناديق من أزهار الغاردينيا يثبِّتها في عروته، ودهانات فرنسية تحمل بطاقاتها الأصلية شعار الأسرة، وإن لم تُعرَف له امرأة ولم يُشَع عنه أنه مُخنَّث ولا كان له صديق واحد أو بيت خاص يعيش فيه، لا شيء سيدي الجنرال، فقد عاش حياة خليقة بالقديسين، مُسخَّرًا للعمل في مصنع التعذيب حتى يتهاوى من فرط الإعياء على أريكة المكتب حيث ينام كيفما اتَّفق وإن لم يحدث قط أن نام ليلًا أو استغرق في النوم أكثر من ثلاث ساعات في المرة الواحدة، وهو من دون حراسة على بابه، ولا سلاح في متناول يده، وإن شمله لورد كوتشيل بحمايته المُتلهِّفة، ذلك الذي ما كان يسعه جلدُه من اللهف لا على الطعام وإنما على الشيء

---

(1) جوزيف أنطون بروكنر (1824 - 1896): موسيقار نمساوي له العديد من المؤلفات السيمفونية والكنسية.

الذي لا يأكل سواه، أي الأمعاء الحارة لأصحاب الرؤوس المبتورة، فلا يكاد يلمح بنظراته البشرية شخصًا يدنو إلى المكتب من وراء الجدران حتى يهدر كالمِرجَل كي يوقظ صاحبه، أيًّا كان القادم سيدي الجنرال، فذلك رجل لا يثق ولا حتى في مرآته، يتَّخذ قراراته بعد سماع تقارير عملائه من دون الرجوع إلى أحد، فما كان شيءٌ يجري في البلد ولا مَنْفيٌّ يلتقط نفسًا في أي مكان على سطح الكوكب إلَّا وعلم بذلك خوسيه إغناسيو ساينس دي لا بارًّا في التو واللحظة عَبْر خيوط عنكبوت خفية من الوشاية والرشوة نسجها حول العالَم بأسره، وفي هذا ينفق ماله سيدي الجنرال، فليس صحيحًا ما أُشيع حول المُعذِّبين من كونهم يتقاضون رواتب وزراء، بالعكس، كانوا يتطوَّعون بخدماتهم مجانًا لإثبات قدرتهم على تمزيق أمهاتهم إربًا وإلقاء لحمهن نتفة نتفة إلى الخنازير من دون أن يرفَّ لهم جفن، وبدلًا من خطابات التوصية وشهادات حسن السير والسلوك كانوا يتقدَّمون بشهادات السوابق المُروِّعة للحصول على الوظيفة تحت إمرة المُعذِّبين الفرنسيين بما لهم من عقلانية سيدي الجنرال، فهم يتَّبعون المنهجية في قسوتهم ولا يعرفون الرحمة، وبفضلهم بات تحقيق النهضة والانضباط ممكنًا، فهم الذين كانوا يستبِقون المؤامرات قبل أن تتفتَّق الأذهان عنها بوقت طويل، وهم الزبائن شاردو الأذهان الذين يتنسَّمون الهواء العليل تحت مراوح اليد ذات الأجنحة في محال المُثلَّجات، وقُرَّاء الجرائد في حانات الصينيين، والنيام في دور السينما، والمتنازلون عن مقاعدهم للسيدات الحوامل على متن الحافلات، وأولئك الذين تعلَّموا حرفة السباكة والكهرباء بعد أن قضوا الشطر الأول من حياتهم في السرقة الليلية وقطع طرقات الضِّياع، وعشاق الخادمات العابرون،

وموسات الحانات الدولية وعابرات المحيطات، ومُروِّجو الرحلات السياحية إلى جنَّات الكاريبي في وكالات السفر في ميامي، والسكرتير الشخصي لوزير الشؤون الخارجية البلجيكي، وعاملة النظافة الدائمة في الرواق المظلم بالطابق الرابع من فندق موسكو الدولي، وغيرهم الكثيرون ممن لا يعرف أحد من أمرهم شيئًا، من هنا وحتى أقاصي الأرض، وعلى الرغم من ذلك فلك أن تنام هانئًا سيدي الجنرال، لأن مواطني الوطن الصالحين يقولون إنك لا تعلم عمّا يجري شيئًا، وإن الأمر برمته يجري من دون موافقتك، وإن سيدي الجنرال لو علم لأرسل بساينس دي لا بارَّا إلى مقابر المُنشقّين في حصن المرفأ، بل إنهم كلما تناهى إليهم خبر عمل وحشي جديد ندَّت عنهم تنهيدة عميقة وقالوا آه لو علم الجنرال، لو كان بوسعنا إخباره، لو كانت هناك طريقة لرؤيته، أما الشخص الذي أبلغه بذلك فقد أصدر هو إليه أمره بألَّا ينسى ما حيي أنني لا أعلم شيئًا بحق، ولا رأيتُ شيئًا، ولا تحدَّثتُ في هذا الشأن مع أحد، وهكذا كان يستردُّ هدوءه، وإن ما برح يتلقَّى أعدادًا وفيرة من جوالات الرؤوس المبتورة حتى لم يبدُ له من المفهوم أن يتمرَّغ خوسيه إغناسيو ساينس دي لا بارَّا في الدماء حتى قمة رأسه بلا أدنى منفعة، فالناس حمقى ولكنهم ليسوا على هذا القدر من الحماقة، كما لم يبدُ له من المعقول أن تمرَّ أعوام كاملة لم يحتجّ خلالها قادة الأسلحة الثلاثة على تبعيتهم، أو يطلبوا زيادة في الرواتب، لا شيء، ولذا فقد شرع يجسُّ نبض كل واحد على حدة في محاولة منه للوقوف على أسباب الرضوخ العسكري، أراد أن يعرف السبب في إحجامهم عن محاولة التمرُّد، وإذعانهم لسيطرة مدني، فسأل أكثرهم جشعًا عمّا إذا لم يخطر لهم على بال أن الوقت قد حان لبتر عُرْف

الدخيل الدموي الذي لطَّخ اسم القوات المُسلَّحة برذاذ الدماء، غير أنهم أجابوه بقولهم كلا سيدي الجنرال، على الإطلاق، فالأمر هيِّن، ومن حينها لم أعُد أعرف مَنْ هو مَنْ، ولا مَنْ مع مَنْ أو ضد مَنْ في آلة النهضة والانضباط، تلك الآلة الخردة التي بدأتُ أشتمُّ منها رائحة جيفة حبيسة كما كان في واقعة أطفال اليانصيب التي لستُ أودُّ لها ذكرًا، أما خوسيه إغناسيو ساينس دي لا بارًّا فكان يهدِّئ من حدة الجنرال مستعينًا بهيمنته العذبة الخليقة بمُروِّض كلاب مُتوحِّشة، نَمْ هانئًا يا جنرال، كان يقول، فالعالَم ملك يديْك، ويحمله على التصديق بأن كل شيء من البساطة والوضوح حتى يتركه مرة أخرى في ظلمات بيت اللاأحد الذي يقطعه من أقصاه إلى أقصاه وهو يسائل نفسه ملء صوته من أكون أنا حتى أشعر وكأنهم قد عكسوا أضواء المرايا في عينيَّ، سحقًا، أين أكون حتى لا أرى ولو على سبيل الصدفة دجاجةً واحدة في هذه الصحراء الآن والساعة تكاد تدقُّ معلنةً تمام الحادية عشرة صباحًا، سحقًا، تذكَّروا كيف كانت الحال في ما سبق، راح يصرخ، تذكَّروا فوضى البُرْص والمفلوجين الذين كانوا ينازعون الكلاب على الطعام، تذكَّروا زحلوقة الدَّرَج المفروش بروث الحيوانات وجعجعة المواطنين الذين ما كانوا يسمحون لي بالسير وهم يردِّدون تلك الأسطوانة الباعثة على النعاس بين قائل انثرْ على جسدي ملح العافية سيدي الجنرال، وبين قائلٍ عمِّدِ الصبي من أجلي لعلّه يبرأ من الإسهال، فقد ذاع أن مسحة مُقدَّسة من يدي لها فعالية أعظم من الموز الأخضر في علاج الإسهال، وضَعْ يدك هنا لعلَّني أبرأ من خفقان القلب فأنا ما عدتُ أقوى على العيش في هذا الزلزال الأبدي، وأمعنِ النظر إلى البحر فتنصرف الأعاصير سيدي الجنرال، وارفعْ عينيْك إلى السماء فيتبدَّد الكسوف، واخفضهما إلى

الأرض فيزول الطاعون، فقد ذاع أني أنا صاحب الجدارة والاستحقاق الذي يبثُّ الرهبة في الطبيعة ويُقوِّم نظام الكون ويُنزِل العناية الإلهية من عليائها، فكنتُ أهبهم ما يسألون وأشتري منهم كل ما يبيعون، لا عن وهن في القلب على حد قول أمه بينديسيون ألبارادو، فالمرء لا يأبى صنع الجميل في من يتغنَّى بأفضاله ما لم يكُن ذا قلب من حديد، أما الآن فلم يعُد هنالك من يسأله شيئًا، أو حتى من يقول له عمت صباحًا سيدي الجنرال، كيف أمضيت ليلتك، ولم يعُد له ولا حتى عزاء التفجيرات الليلية التي كانت توقظه بوابل من شظايا زجاج النوافذ وتخلع مفصلات الأبواب وتبثُّ الهلع في نفوس القوات، تلك التفجيرات التي كان يستعين بها ليحسَّ بأنه على قيد الحياة على أقل تقدير، ولا هذا الصمت الطنَّان في رأسي الذي يوقظني بدويِّه، فأنا ما عدتُ أكثر من فزَّاعة مرسومة على جدار بيت الرعب هذا حيث بات يتعذَّر عليه إصدار أمرٍ ما لم يكُن قد نُفِّذ سلفًا، كان يجد رغباته الأكثر حميمية وقد لُبِّيَت من خلال الجريدة الرسمية التي ظلَّ يطالعها مُمدَّدًا على السرير المُعلَّق في ساعة القيلولة من الصفحة الأولى حتى الأخيرة بما فيها من دعايات إعلانية، فما من نزوةٍ راودت نفسَه أو رغبةٍ عنَّت لمشيئته إلَّا وظهرت مطبوعةً بالأحرف الكبيرة ومُرفَقة بصورة الجسر الذي لم يأمر بتشييده سهوًا، والمدرسة التي أمر بتأسيسها لتعليم الكَنْس، والبقرة الحلوب، وشجرة الخبز، مع صور له وهو يقصُّ أشرطة افتتاحية أخرى ترجع إلى زمن المجد، وعلى الرغم من ذلك فما كان يجد راحةَ البال، وإنما يجرجر قائمتي الفيل الهرم اللتيْن يخطو بهما مُفتِّشًا عن شيء لم يضِع منه في بيت عزلته، فيجد أنَّ هنالك من سبقه إلى تغطية الأقفاص بأسمال الحداد، وأن هنالك من سبقه إلى إحصاء

عدد الأبقار وتأمُّل البحر عَبْر النوافذ، وأن كل شيء على أكمل وجه وتحت السيطرة، وفيما هو عائد إلى مخدعه حاملًا المصباح تعرَّف على صوته مُضخَّمًا آتيًا من مقرِّ الحرس الرئاسي، فأطلَّ من النافذة المُواربة ليرى نفرًا من الضباط الناعسين في الحجرة المُعبَّأة بالدخان على البريق الحزين الآتي من شاشة التلفزيون، فكان هناك، على الشاشة، أكثر نحولًا وتوتُّرًا، ولكني كنتُ أنا يا أمي، جالسًا في المكتب حيث سيموت، وشعار الوطن في الخلفية والنظارات الذهب الثلاث على الطاولة، فمضى يتلو تحليلًا لحسابات الأمَّة من الذاكرة بكلمات رجل حكيم ما كان ليجرؤ على تكرارها قط، سحقًا، وكان ذلك المشهد أكثر مدعاةً للكدر من مشهد جسده ميتًا وسط الأزهار، فهو يرى نفسه الآن على قيد الحياة ويسمع حديثه بصوته، أنا بنفسي يا أمي، وأنا الذي لم أقدر يومًا على تحمُّل خزي الإطلال من الشرفة ولم أفلح في التغلُّب على خجلي من الحديث على الملأ، هناك كان، وقد بلغ من الحقيقية والفناء حتى إنه لبث مكانه حائرًا عند النافذة وهو يفكِّر قائلًا لنفسه يا أمي بينديسيون ألبارادو كيف يُعقَل هذا السرّ الغامض، بَيْد أن خوسيه إغناسيو ساينس دي لا بارَّا حافظ على جموده في وجه واحدةٍ من ثورات الغضب النادرة التي سمح بها لنفسه طوال أعوام نظامه التي لا تُعدّ ولا تُحصَى، هوِّن عليك يا جنرال، قال مُشدِّدًا على كلماته بنبرته الأكثر عذوبة، فلقد لجأنا رغمًا عنا إلى تلك السبل غير المشروعة بهدف إنقاذ سفينة النهضة والانضباط من الغرق، كان ذلك بوحي إلهي يا جنرال، وبفضله نجحنا في تجنُّب ارتياب الشعب بسلطة من لحم ودم وعظام تقدِّم تقريرًا مُسكِّنًا حول مساعي الحكومة عَبْر قنوات الراديو والتلفزيون القومية في الأربعاء الأخير من كل شهر، وأنا أتحمَّل

كامل المسؤولية بنفسي يا جنرال، فأنا الذي أودعتُ هذه المزهرية هنا وزوَّدتُها بستة ميكروفونات على هيئة أزهار عباد الشمس كانت ترصد خواطرك التي تعرب عنها بالصوت الحي، وأنا الذي كنتُ أطرح عليه الأسئلة فيجيبها خلال اجتماع الجمعة ولا يرتاب في أن مقاطع الخطاب الشهري الذي به يتوجَّه إلى الأمَّة مُؤلَّفة من إجاباته البريئة، ذلك أن ساينس دي لا بارًّا لم يستعِن يومًا بصورة إلَّا وكانت صورته، هو ولم يستعن بكلمة إلَّا وكانت كلمته هو، كما لك أن تتأكَّد بنفسك من هذه الأسطوانات التي أودعها ساينس دي لا بارًّا على المكتب مرفقةً بهذه الأفلام وهذه الرسالة المكتوبة بخط يدي والتي أذيِّلها بتوقيعي في حضورك يا جنرال تاركًا لك حرية التصرُّف في مصيري بما تراه ملائمًا، أما هو فقد نظر إليه حائرًا وقد أدرك فجأةً أن ساينس دي لا بارًّا لم يكُن برفقة الكلب لأول مرة، وإذا هو أعزل، شاحب، عند ذاك ندَّت عنه تنهيدة، حسنًا يا ناتشو، أدِّ واجبك، قال، بمظهر يشي بإعياء لا متناهٍ، وقد مال إلى الوراء على الأريكة ذات النوابض مُحدِّقًا في عيون أطلَّ منها الاتهام، عيون الأبطال في الصور، وهو أشد هرمًا من أي وقت مضى، أشد كآبة وحزنًا، وإن ارتسم على وجهه تعبير يشي بنيَّات عصية على التوقُّع، ذلك التعبير الذي تعرَّف عليه ساينس دي لا بارًّا بعد أسبوعيْن حين دلف إلى المكتب مرة أخرى من دون موعد مسبق وهو يكاد يجرجر الكلب من المقود وقد أقبل عليه بأنباء عاجلة عن اندلاع تمرُّد مُسلَّح لا سبيل إلى ردعه إلَّا بتدخُّل منك يا جنرال، وإذا هو يكتشف أخيرًا ذلك الشرخ العصي على الإدراك بعد أن فتَّش عنه أعوامًا طوالًا على جدار الفتنة المُشيَّد من حجر السَّبَج البركاني، يا أمي بينديسيون ألبارادو، يا ثأري أنا، قال لنفسه، إن ذلك الوغد المسكين على وشك

أن يفعلها على نفسه من فرط الخوف، بَيْد أنه لم يأتِ بلفتة واحدة تسمح بسبر نيَّاته وإنما أحاط ساينس دي لا بارَّا بهالة من الأمومة، لا تقلق يا ناتشو، ندَّت عنه تنهيدة، فما زال أمامنا من الوقت مُتَّسع لنفكِّر من دون أن يزعجنا أحد، فأين هي الحقيقة اللعينة في خضم ذلك المستنقع، مستنقع الحقائق المتناقضة التي بدت أبعد عن الصحة مما لو كانت أكاذيب، وفيما أخذ ساينس دي لا بارَّا ينظر في ساعته ذات السلسلة ويتأكَّد أنها تكاد تشير إلى السابعة ليلًا يا جنرال كان قادة الأسلحة الثلاثة على وشك الانتهاء من تناول الطعام في بيوتهم، مع نسائهم وأطفالهم، لئلَّا يشكَّ في أغراضهم ولا حتى هؤلاء، ولسوف يغادر كلٌّ منهم في ثياب مدنية بلا مرافقين عَبْر باب الخدم حيث تنتظرهم سيارة عمومية طُلِبَت عبر الهاتف لمغافلة الرقابة التي يفرضها رجالنا، وهكذا فلن يروا من رجالنا أحدًا، بكل تأكيد، ولكنهم هناك، فهم السائقون، أما هو فقال آها، وافترَّ ثغره عن ابتسامة، لا داعي لكل هذا القلق يا ناتشو، بل أوضحْ لي من باب أولى كيف نفذنا بجلدنا حتى الآن ما دام لنا من العِدَى أكثر مما لنا من الجنود وفقًا لحسابات الرؤوس المبتورة التي أجريتَها بنفسك، ولكن ساينس دي لا بارَّا لم يستند إلى شيء سوى الخفقات متناهية الدقة الآتية من ساعته ذات السلسلة، لم يعُد أمامنا سوى أقل من ثلاث ساعات يا جنرال، وفي اللحظة نفسها كان قائد القوات البرية متجهًا إلى ثكنة إل كونديه، وأما قائد القوات البحرية فإلى حصن المرفأ، وأما قائد القوات الجوية فإلى قاعدة سان خيرونيمو، وما زال اعتقالهم ممكنًا لأن شاحنة أمن الدوَّلة المُحمَّلة بالخضروات كانت تتعقَّبهم عن كثب، أما هو فلم يُبدِ أدنى تأثُّر، بل أحسَّ بأن لهف ساينس دي لا بارَّا المتزايد يحرِّره من عقوبة العبودية التي كانت أشد

وطأة على نفسه من النهم إلى السلطة، هدِّئ من روعك يا ناتشو، مضى يقول، وأوضحْ لي من باب أولى ما إحجامك عن اقتناء قصر في ضخامة السفن البخارية، وما عملك مثل البغال إن كنتَ لا تأبه لأمر النقود، وما عيشك مثل الجنود المُستجدّين ما دامت النساء الأكثر تزمُّتًا يتحرَّقن شوقًا لدخول مخدعك، ما بالك تبدو أكثر كهنوتيَّةً من الكهنة أنفسهم يا ناتشو، بينما اختنق ساينس دي لا بارًّا داخل محرقة المكتب وجعل يتفصَّد عرقًا مُثلَّجًا لم يفلح في مداراته بوقاره الذي لا تشوبه شائبة، كانت الحادية عشرة، تأخَّر الوقت أكثر مما ينبغي، قال، وفي تلك الساعة انطلقت إشارة مُشفَّرة عَبْر أسلاك التلغراف صوب شتَّى حاميات البلد، وأما القادة المُتمرِّدون فراحوا يعلِّقون الأوسمة على زي العروض العسكرية استعدادًا لالتقاط الصورة الرسمية لمجلس الحكومة الجديد بينما تولَّى مساعدوهم إبلاغ الأوامر الأخيرة في حرب بلا أعداء حيث اقتصرت المعارك على التحكُّم في مراكز الاتصال والخدمات العامة، بَيْد أن جفنًا لم يطرف له أمام الخفقات المُتلهِّفة في صدر لورد كوتشيل الذي استوى في جلسته وخيطٌ من اللعاب يسيل من خطمه وكأنه قطرة من الدمع بلا نهاية، لا تفزعْ يا ناتشو، بل أوضحْ لي من باب أولى ما خوفك من الموت كل هذا الخوف، وبحركة واحدة انتزع خوسيه إغناسيو ساينس دي لا بارًّا ياقة السيلولويد التي ارتخت على عنقه بتأثير العرق وإذا بسحنة المُغنِّي التي أطلَّ بها قد فارقتها الروح، ذلك أمر طبيعي، أجابه، إنما الخوف من الموت جمر السعادة، ولذا فأنت لا تشعر به يا جنرال، ثم هبَّ واقفًا وشرع يحصي دقَّات نواقيس الكاتدرائية من باب العادة ليس إلَّا، إنها الثانية عشرة، قال، ولم يعُد لك أحدٌ في العالَم بأسره يا جنرال، فأنا آخر من تبقَّى لك، أما هو

فلزم أريكته لا يحرِّك ساكنًا ولا يحسُّ بهزيم الرعد الجوفي الذي أحدثته الدبابات الحربية في ميدان السلاح، عند ذاك افترَّ ثغره عن ابتسامةٍ، لا يغرّك الأمر يا ناتشو، فما زال عندي الشعب، قال، الشعب المسكين المعهود أبدًا، ذلك الذي خرج إلى الشوارع قبل بزوغ الفجر بتحريض من الشيخ العصيِّ على التوقُّع الذي توجَّه عَبْر قنوات الراديو والتلفزيون القومية إلى مواطني الوطن كافة بلا أدنى تمييز، وبتأثُّر تاريخي، كان هو الأكثر حيوية، أعلن عن نجاح قادة الأسلحة الثلاث في وضع حدٍّ لآلة الرعب التي كان يديرها مدنيٌّ مُتعطِّش للدماء عند منتصف هذه الليلة المجيدة، ومن ثم إخضاعه للعقاب بموجب العدالة العمياء للجماهير وبإلهام من مُثُل النظام التي لا تتبدَّل، وبقيادتي شخصيًا ونزولًا عند إرادة الشعب صاحب السيادة كما جرت العادة أبدًا، وهناك كان خوسيه إغناسيو ساينس دي لا بارًا، وقد شبع ضربًا حتى اهترأ جسده، وعُلِّق من كاحلَيْه على عمود إنارة في ميدان السلاح، ودُسَّ عضوه التناسلي في فمه، كما توقَّع سيدي الجنرال حين أصدر إلينا أمره بقطع الطرق المُؤدِّية إلى السفارات لحرمانه من الحق في اللجوء، لقد اقتنصه الشعب رميًا بالحجارة سيدي الجنرال، وإن اضطررنا لتمزيق الكلب الدموي أولًا، ذلك الذي نهش أحشاء أربعة من المدنيين وألحق إصابات خطيرة بسبعة من الجنود، عند ذاك انقضَّ الشعبُ على مكاتبه حيث كان يعيش وأطاحوا من النافذة بما يربو على مائتي صدار مُقصَّب ما زالت تحمل بطاقة المصنع، كما أطاحوا بقرابة ثلاثة آلاف زوج من الأبواط الإيطالية لم تُنتعَل بعد، ثلاثة آلاف سيدي الجنرال، ففي تلك الأمور كان ينفق أموال الحكومة، زِدْ على ذلك صناديق الغاردينيا التي لا أعرف لها عددًا، تلك التي كان يثبِّتها في عروته،

وأسطوانات بروكنر الكاملة مرفقة بالنوتة الموسيقية مكتوبة بخط يده، هذا وقد أُطلِق سراح السجناء المحتجزين في الأقبية وأُضرِمَت النيران في حجرات التعذيب داخل مستشفى المجاذيب الهولنديين العتيق وسط صيحات تنادي عاش الجنرال، عاش الفحل الذي أدرك الحقيقة أخيرًا، فالكل يزعم أنك لم تكُن تعرف شيئًا سيدي الجنرال، وأنهم قد دفعوا بك إلى الحافة مُستغلِّين طيبة قلبك، وما زال صيد مُعذِّبي أمن الدولة كالجرذان جاريًا حتى الآن، أولئك الذين رفعنا عنهم حماية القوات نزولًا عند أوامرك حتى يتخفَّف الناس من السخط القديم الذي به جاشت نفوسهم والرعب الذي استحوذ عليهم، فما كان منه إلَّا أن أبدى قبوله، مُوافَقة، وقد تأثَّر بنواقيس الفرح وموسيقى الحرية وأصوات الجماهير المُمتنَّة التي احتشدت في ميدان السلاح رافعةً لافتات ضخمة تقول حفظ الرَّبُّ العظيمَ الذي افتدانا من ظلمات الرعب، وفي تلك النسخة العابرة من زمن المجد أصدر أمره بجمع طُلَّاب الحربية ممن ساعدوه على نزع أغلال السلطة، التي شدَّ بها وثاق نفسه ثم شرع ينصِّبنا أعضاء في مجلس القيادة العليا بإشارات من إصبعه وفق ما توحي به نزواته، لحين اكتمال آخر مجلس سوف يشهده نظامه الهرم، حيث نصَّبنا عوضًا عن مُدبِّري اغتيال ليتيسيا ناسارينو والصغير الذين أُلقِي القبض عليهم وهم في ثياب النوم يسعون لدى السفارات طلبًا للجوء، أما هو فما كاد يتعرَّف عليهم، ذلك أنه نسي أسماءهم، فراح يفتِّش في قلبه عن شحنة الكراهية التي حاول إذكاءها حتى الممات فلم يجد سوى رماد كبرياء جريحة ما عادت تستحق التشبُّث بها، فليغربوا عن وجهي، أصدر أمره، فوُضِعوا على متن أول سفينة مبحرة إلى حيث لن يعاود ذكرهم أحد، مساكين أولئك الأوغاد، ثم ترأَّس

أولى جلسات الحكومة الجديدة وقد تكوَّن لديه انطباع صافٍ يحدِّثه بأن أولئك الشباب النموذجيين الذين اصطفاهم من هذا الجيل الجديد وهذا القرن الجديد إنما هم وزراؤه المدنيون المعهودون مرة أخرى بستراتهم المُغبَّرة وأحشائهم الواهنة، كل ما هنالك أنهم أكثر نهمًا إلى التشريفات منهم إلى السلطة، وأكثر نزوعًا إلى الخوف والخدمة وأقل نفعًا من سابقيهم كافة مع العلم أنهم يواجهون دَينًا خارجيًّا تفوق قيمته كل ما يمكن بيعه في مملكته الموحشة المنهوبة، وليس هنالك ما يمكن عمله سيدي الجنرال، فقد هوى قطار الپارامو الأخير عن أجراف تكسوها أزهار الأوركيد، وأما الفهود فصارت تنام على المقاعد المخملية، وأما هياكل البواخر ذات الدواليب فقد جنحت في مستنقعات حقول الأرز، وأما الأخبار فراحت تتعفَّن في جوالات البريد، وأما أزواج خراف البحر فقد انخدعت بوهم إنجاب حوريات البحر وسط الزنابق المظلمة على المرايا القمرية في المقصورة الرئاسية، وما كان أحد يجهل ذلك سواه، بطبيعة الحال، فلقد آمن بشعار النهضة والانضباط لأن شيئًا ما عاد يصل بينه وبين الحياة على أرض الواقع آنذاك سوى مطالعة الجريدة الحكومية التي تُطبَع من أجلك وحدك سيدي الجنرال، طبعة كاملة لا يُنسَخ منها إلَّا نسخة واحدة تشتمل على الأخبار التي يروق لك أن تقرأها، والتصميم الذي تتوقَّع أن تجده، والدعايات الإعلانية التي جعلته يحلم بعالم غير ذلك العالم الذي قد أقرضوه إياه من أجل القيلولة، حتى تمكَّنت من التحقُّق بنفسي ورأيت بعينيَّ المرتابتيْن أكواخ الزنوج المُلوَّنة وهي ما زالت بلا مساس فوق الرُّبَى المشرفة على المرفأ في ما وراء بنايات الوزارات ذات الزجاج الشمسي، ذلك أن

جادات النخيل أُقيمَت حتى شاطئ البحر كي لا أرى بعينيَّ الأحياء البائسة التي قوَّضها واحد من أعاصيرنا بالغة الكثرة وهي ما زالت هناك وراء الفيلات الرومانية ذات الأروقة المتشابهة كما غُرِسَت الأعشاب العطرية على جانبي الطريق ليرى من مكانه في المقطورة الرئاسية أن العالَم يبدو رائعًا بفضل تلك المياه التي تُباع وتُشْرى والتي كانت أمه بينديسيون ألبارادو، يا حشاي أنا، تلوِّن بها طيور الأوروپيندولا، وما كانوا يخدعونه مرضاةً له كما فعل الجنرال رودريغو دي أغيلار في أواخر زمن مجده، ولا تجنُّبًا لخلافات غير مجدية كما كانت ليتيسيا ناسارينو تفعل مدفوعةً بالشفقة أكثر منها بالحب، وإنما كانوا يخدعونه ليبقى أسير سلطته في غمرة خمول الشيخوخة، مستلقيًا على السرير المُعلَّق من شجرة القابوق في الباحة حيث لن يكون شيءٌ حقيقةً في أواخر أعوامه، ولا حتى جوقة المدرسة التي تتغنَّى بنشيد الطائر الصغير المُلوَّن الذي حطَّ على غصن الليمون الأخضر، يا للهول، وعلى الرغم من ذلك فهو لم يتأثَّر بتلك المغافلة وإنما حاول التصالح مع الواقع بأن يستردَّ الحق في احتكار الكينا ودونها من الأدوية التي لا غنى عنها من أجل سعادة الدولة بموجب مرسوم رئاسي، بَيْد أن الواقع باغته مرة أخرى وحذَّره من أن العالَم يتغيَّر والحياة تمضي قدمًا حتى وإن جرى ذلك خلف ظهر سلطته، فلم يعُد هناك المزيد من الكينا يا جنرال، ولا الكاكاو، ولا النيلج[1] يا جنرال، ولا شيء سوى ثروته الشخصية التي لا تُعَدّ ولا تُحصَى، ثروته العقيمة التي تتهدَّدها البطالة، وعلى الرغم من ذلك فهو لم ينزعج من تلك الأخبار المشؤومة وإنما بعث برسالة

---

(1) نيلج: صباغ أزرق يستخرج من ورق نبات النيل.

تحدٍّ إلى السفير الهرم روكسبُري عسى أن يتوصَّلا إلى وصفة من أجل تحسين الوضع على طاولة الدومينو، بَيْد أن السفير أجابه على طريقته هو نفسه قائلًا دَعْ عنك تلك الترهات يا صاحب الفخامة، فهذا البلد لا يساوي حزمة بقل واحدة، في ما عدا البحر، طبعًا، البحر الصافي الزلال الذي يكفي إضرام شمعة واحدة تحته لطهو حساء ثمار البحر الكوني الأعظم داخل فُوَّهة البحر نفسها، ولذا فأنا أدعوك للتفكير في الأمر يا صاحب الفخامة، ولسوف نرضى به مقابل تكاليف خدمات الدَّين المُؤجَّل الذي لن يسدِّده ولا حتى مائة جيل من الأبطال المثابرين من أمثال فخامتكم، أما هو فلم يأخذ الأمر على محمل الجد ولا حتى في تلك المرة الأولى، وإنما رافقه إلى الدَّرَج وهو يفكِّر قائلًا لنفسه يا أمي بينديسيون ألبارادو انظري أولئك الغرينغو، أي همج، كيف يُعقَل ألَّا يفكِّروا في البحر سوى من أجل التهامه، ثم ودَّعه بالربتة المعهودة على كتفه وعاود المكوث مع نفسه وحيدًا يتلمَّس خطوط الضباب الوهمي في پارامو السلطة، ذلك أن الجماهير قد هجرت ميدان السلاح وحملت معها اللافتات المُتكرِّرة والشعارات المستأجرة من أجل حفلات مستقبلية مماثلة بمُجرَّد أن انتهى حافز الأطعمة والمشروبات التي كانت القوات توزِّعها في الاستراحة بين وصلات التصفيق، وتُركِت القاعات مهجورة حزينة مرة أخرى رغم أمره بألَّا تُقفَل البوابات في أيّ ساعة من ساعات اليوم حتى يدخل من يشاء، كما في سابق عهده، حين لم يكُن ذلك بيتًا من بيوت الموتى وإنما قصرًا من قصور الجوار، وعلى الرغم من ذلك فلم يبقَ سوى البُرْص سيدي الجنرال، ومعهم العميان والمفلوجون الذين مكثوا أعوامًا وأعوامًا قبالة البيت كما رآهم

ديميتريو ألدوس وقد اكتست بشرتهم سمرةً على أبواب أورشليم، مُقوَّضين وإن كانوا لا يُقهَرون، على يقين من دخولهم مرة أخرى لتلقِّي ملح العافية من يديْه عاجلًا وليس آجلًا، ذلك أنه سوف ينجو من النوازل كافة ومن الآلام الأشد قسوة ومن شراك النسيان الأشد فتكًا، لأنه خالد، وقد كان، إذ وجدهم مرة أخرى فيما هو عائد أدراجه بعد حلب الأبقار، وجدهم في الباحة يسخِّنون بقايا الطعام في الصفائح على مواقد مرتجلة من الآجر، رآهم مُمدَّدين بأذرع مفتوحة على هيئة صلبان فوق الحصائر المُخضَّبة بعرق القروح تحت الظلال العطرة المتساقطة من شجيرات الورود، فأمر ببناء موقد جماعي من أجلهم وابتاع لهم حصائر جديدة وأمر بإقامة عريشة من النخيل في خلفية الباحة لئلَّا يُضطَرّوا للاحتماء داخل البيت، ومع ذلك فما كانت تمرُّ أربعة أيام إلَّا وعثر على زوج من البُرْص نائميْن فوق الأبسطة العربية في قاعة الحفلات، أو وجد أعمى شاردًا في المكاتب، أو مفلوجًا كسيرًا على الدَّرَج، وكان يأمر بإقفال الأبواب لئلَّا يتركوا آثار جروحهم الحية على الجدران أو يفسدوا هواء البيت بنتن حمض الفينول الذي به ترشّهم أجهزة الخدمات الصحية، ولكنهم ما إن يُبَعدوا من ناحية حتى يظهروا من أخرى، مثابرين، لا يُقهَرون، مُتشبِّثين بأملهم القديم الضاري في حين لم يعُد هنالك من يأمل شيئًا من ذلك الشيخ العاجز الذي يخفي ذكرياته مكتوبةً بين شقوق الجدران ويتلمَّس طريقه كالمُسرنَم في مهب الرياح المتقاطعة في مستنقعات ضباب الذاكرة، ويقضي ساعات الأرق على السرير المُعلَّق يسائل نفسه كيف أتملَّص من السفير الجديد فيشر، سحقًا، ذلك الذي اقترح عليَّ الإعلان عن استشراء الحُمَّى الصفراء لتبرير

إنزال مشاة المارينز عملًا باتفاقية التعاون المشترك طوال الأعوام اللازمة من أجل بعث روح جديد في الوطن المحتضر، فأجاب من فوره قائلًا دَعْ عنك تلك الترهات، مفتونًا إزاء ما بدا له جليًّا من كونه يعيش فجر نظامه مُجدَّدًا حين لجأ لوسيلة مماثلة للفوز بالسلطات الاستثنائية التي تمنحها الأحكام العرفية في وجه تهديد خطير باندلاع تمرُّد مدني، فأعلن حالة الطاعون بموجب مرسوم رئاسي، ورفع الراية الصفراء على المنارة، وأُقفِل المرفأ، وأُلغِيَت أيام الآحاد، وحُظِر البكاء على الموتى في العلن أو عزف الموسيقى تخليدًا لذكراهم، كما عُهِد إلى القوات المُسلَّحة بتطبيق المرسوم والتصرُّف مع المصابين بالطاعون بِحَسَبِ مَشِيئَتها، أما أفراد القوات الذين عصبوا سواعدهم بالشارات الصحية فقد أقبلوا على تنفيذ الإعدام علنًا في الناس من شتَّى الأطياف وأكثرها تنوُّعًا، فكانوا يجعلون دائرة حمراء على أبواب البيوت المشتبه في خروجها على النظام، ويَسِمُون بأختام الأبقار جباه مرتكبي المخالفات البسيطة والمسترجلات والمُخنَّثين، بينما تكفَّلت بعثةٌ صحية بوقاية ساكني البيت الرئاسي من العدوى، وهي البعثة التي أرسل السفير ميتشيل في طلبها بصفة عاجلة من حكومته، فكان أفرادها يلتقطون براز الصغار المُسْبَعين من الأرض بغرض تحليله بالعدسات المُكبِّرة، ويلقون بالأقراص المُطهِّرة في الجِّرار، ويلقِّمون الحيوانات ديدانًا في مختبراتهم العلمية، فيكاد يموت ضحكًا وهو يقول لهم من خلال المترجم لا داعي لكل هذه الحماقة يا مسترز، فليس من طاعون هنا إلَّاكم، بينما يصرّون هم على أن الطاعون مُستشرٍ في البلد، فلديهم أوامر عليا بذلك، ولقد أعدّوا عسلًا يتميَّز بخواص وقائية، ثخينًا

أخضر اللون، فكانوا يضمِّخون به أجسام الزائرين من قمة الرأس إلى أخمص القدم، من أبسط الزائرين وحتى أبرزهم، من دون تمييز على أساس أوراق الاعتماد، ويرغمونهم على الالتزام بمسافة تفصل بينهم وبينه خلال الاجتماعات، فيظلّ الزائرون وقوفًا عند عتبة الباب بينما هو جالس في الخلفية حيث يبلغه صوتهم لا أنفاسهم، فيتفاوض ملء صوته مع نبلاء عرايا يلوِّحون بيد وبالأخرى يدارون الحمامة الهزيلة المبرقشة يا صاحب الفخامة، كل ذلك بغرض حمايته من الإصابة بالعدوى وهو الذي تفتَّق ذهنه حتى عن أتفه تفاصيل الكارثة الزائفة مستغرقًا في وهن اليقظة، وقد اخترع أكاذيب أرضية وروَّج تنبُّؤات قيامية عملًا برأيه الآتي ذكره، كلما افتقر الناس إلى الفهم زادوا خوفًا، فما كاد يرفُّ له جفن حين وقف أحد مرافقيه أمامه في وضع الانتباه، شاحبًا من فرط الهول، وقد أقبل عليه بالخبر القائل بأن الطاعون قد أودى بحياة أعداد مهولة في صفوف المدنيين سيدي الجنرال، وهكذا فمن خلال الزجاج المُغبَّش في المركبة الرئاسية رأى الزمن وقد تجمَّد امتثالًا لأمره في الشوارع المهجورة، ورأى الهواء ذاهلًا على الرايات الصفر، ورأى الأبواب المقفلة بما فيها أبواب البيوت الخالية من الدوائر الحمر، ورأى العقبان وقد تخمت في الشرفات، ورأى الموتى، الموتى، الموتى، رآهم بأعداد مفرطة في كل الأرجاء حتى صار إحصاؤهم ضربًا من المحال في الأراضي الموحلة وقد تكدَّسوا تحت أشعة الشمس في الشرفات، وتمدَّدوا على الخضروات في السوق، موتى من لحم وعظم سيدي الجنرال، من يدري كم بلغت أعدادهم، فهم أكثر كثيرًا من عدد الموتى الذين كان يودُّ لو رآهم في صفوف الأعداء مُمدَّدين كالكلاب النافقة داخل

حاويات القمامة، ثم إنه تعرَّف على رائحة جَرَب الطاعون يعلو فوق عفن الجثث والنتن المعهود في الشوارع، غير أنه لم يُبدِ أدنى تأثُّر، ولم ينزل عند أي من التوسّلات حتى عاوده الإحساس بالسيادة المطلقة على سلطته، وفقط حين بدا جليًّا أنه ما من وسيلة بشرية ولا إلهية قادرة على وضع حدٍّ لنزيف القتلى. رأينا مركبةً مُجرَّدة من الشارات تجوب الشوارع حيث لم يدرك أحد دفقة الريح المُثلَّجة التي أرسلتها جلالة السلطة من أول نظرة، ولكن في جوف المركبة المُبطَّنة بالمخمل الجنائزي رأينا العينَيْن المُهلِكتَيْن، والشفتَيْن المرتجفتَيْن، وقفاز العرس الذي به راح ينثر حفنات الملح على أبواب البيوت، ورأينا القطار المطلي بألوان العلَم الوطني يتسلَّق بمخالبه من بين أزهار الغاردينيا والفهود الجافلة وصولًا إلى الأطناف الضبابية في المقاطعات الأشد وعورة، ورأينا العينَيْن العكِرتَيْن عَبْر أستار المقطورة المنعزلة، ورأينا السحنة المغمومة، ويد العذراء المهجورة، التي مضت تاركة وراءها سيلًا من الملح في أرجاء پارامو طفولته الموحش، ورأينا السفينة البخارية ذات الدولاب الخشب وآلات البيانولا المصنوعة من نسج الخيال التي كانت تعزف رقصات المازوركا[1]، تلك السفينة التي أبحرت وهي تتعثَّر وسط الصخور والضفاف الرملية وحطام الكوارث التي أسفرت عنها جولات التنِّين الربيعية في الأدغال، ورأينا العينيْن الغاربتيْن من نافذة المقصورة الرئاسية، ورأينا الشفتيْن الشاحبتيْن، واليد التي لا منبت لها تنثر حفنات الملح على قرى خدَّرها القيظ، أما أولئك الذين كانوا يسفّون الملح ويلعقون الأرض التي وطأها بقدميْه فكانوا

(1) المازوركا: رقصة شعبية بولندية الأصل.

يستردّون عافيتهم في التو واللحظة ويكتسبون مناعة تقيهم زمنًا طويلًا من نُذُر الشؤم وأهواء الوهم، وهكذا فهو لن يُفاجأ في أواخر خريفه حين يُعرَض عليه نظام إنزال جديد يقوم على الأكذوبة نفسها الزاعمة باستشراء وباء الحُمَّى الصفراء السياسية، بل إنه تصدَّى للحجج التي ساقها وزراؤه العقماء وهم يصرخون منادين بعودة مُشاة المارينز يا جنرال، فليعودوا بآلات رش الموبوئين مقابل ما يحلو لهم، فليعودوا بمستشفياتهم البيض ومروجهم الزرق ومرشَّات المياه الدوَّارة التي تعوِّض الأعوامَ الكبيسة عمّا ينقصها بقرون من العافية، بَيْد أنه ضرب الطاولة وقرَّر ألَّا يعودوا، وذلك على مسؤوليته العليا، حتى أجابه السفير الفظّ ماك كوين بقوله إننا لم نعُد في وضع يسمح لنا بالمناقشة يا صاحب الفخامة، فنظامك لا يقوم على الأمل ولا الإذعان، ولا حتى الرعب، وإنما على محض القصور الذاتي الناتج عن خذلان قديم لا سبيل لإصلاحه، اخرجْ إلى الشارع وانظرْ في وجه الحقيقة يا صاحب الفخامة، فها نحن قد بلغنا المنعطف الأخير، إما يأتي مُشاة المارينز وإما نأخذ البحر، خياران لا ثالث لهما يا صاحب الفخامة، ولم يكُن لهما ثالث يا أمي، وهكذا، فقد أخذوا الكاريبي في إبريل، أخذه المهندسون الملاحيون مُقسَّمًا إلى قطع تحمل كل منها رقمًا تحت إمرة السفير إوينج من أجل غرسه في شَفَق أريزونا الدامي بمنأى عن الأعاصير، أخذوه بكل ما في جوفه سيدي الجنرال، بصورة مدننا المنعكسة على صفحته، وغَرْقانا الخجولين والتنانين التي بها مسٌّ من الجنون، رغم أنه استعان بأجرأ حيل دهائه العتيق في محاولة منه لإثارة انتفاضة قومية ترفض السطو على البحر، ولكن أحدًا لم يلقِ بالًا سيدي الجنرال، فالناس لم ترغب

في الخروج إلى الشارع لا بالحجة ولا بالقوة، إذ خطر لنا أنها مناورة جديدة كغيرها الكثير من المناورات التي لجأ لها كي يشبع شغفه بالمضي قدمًا متجاوزًا الحدود كافة، ذلك الشغف العصي على السيطرة، وفكَّرنا قائلين لأنفسنا فليكُن ما هو كائن، شريطة أن يجدَّ جديد، سحقًا، حتى وإن أخذوا الوطن بأسره وبتنِّينه، فكَّرنا، ولم نتأثَّر بفنون غواية العسكر الذين كانوا يظهرون في بيوتنا مُتنكِّرين في ثياب مدنية ويتوسَّلون إلينا باسم الوطن أن نخرج إلى الشارع صارخين ومنادين برحيل الغرينغو للحيلولة دون السطو على البحر، ثم إنهم حرَّضونا على نهب حوانيت الأجانب وفيلاتهم وإضرام النيران فيها، وعرضوا علينا المال نقدًا لحثِّنا على الخروج والاحتجاج تحت حماية القوات المتضامنة مع الشعب في مواجهة العدوان، ولكن أحدًا لم يخرج سيدي الجنرال لأن أحدًا لم ينسَ أنهم قد ادَّعوا الشيء نفسه في مرة سابقة مُتعهِّدين بكلمة شرف عسكرية ثم ارتكبوا مجزرة في حق المتظاهرين بحجة اندساس عناصر مُحرِّضة وفتحها النيران على القوات، ولذا فنحن لا نعوِّل ولا حتى على الشعب هذه المرة سيدي الجنرال، فاضطررتُ إلى الرزوح وحدي تحت وطأة هذا العقاب، واضطررتُ للتوقيع وحدي وأنا أفكِّر قائلًا لنفسي يا أمي بينديسيون ألبارادو ليس هنالك من يعرف خيرًا منكِ أن فقدان البحر أهون من السماح بإنزال مُشاة المارينز، تذكَّري أنهم هم الذين كانوا يصيغون الأوامر ثم يحملونني على تذييلها بتوقيعي، وهم الذين كانوا يحوِّلون الفنانين إلى مُخنَّثين، وهم الذين جاؤوا بالكتاب المُقدَّس وداء الزهري، وأقنعوا الناس بأن الحياة يسيرة يا أمي، وبأن كل شيء يُشْرَى بالمال، وبأن الزنوج ينقلون العدوى، ثم حاولوا

إقناع جنودنا بأن الوطن تجارة والإحساس بالشرف وهْمٌ اخترعته الحكومة لحمل القوات على القتال مجانًا، وتلافيًا لتكرار كل هذه الشرور فإني قد نزلتُ لهم عن الحق في استغلال بحارنا الإقليمية على النحو الذي يرون فيه خدمة مصالح البشرية والسلام بين الشعوب، ويُفهَم من التنازل المذكور أنه لا يقتصر على المياه الملموسة المنظورة من نافذة مخدعه على مرمى الأفق فحسب، وإنما يمتدُّ ليشمل كل ما يُفهَم من البحر بالمعنى الأوسع للكلمة، أي بكل ما فيه من الحيوانات والنباتات، ومنظومة الرياح، وتقلُّب الميليبارات[1]، وكل شيء، وإن لم يدُر في مُخيِّلتي يومًا أنهم قادرون على الإتيان بمثل ما أتوا به يومًا، فلقد امتصّوا بحري العتيق بعد تقسيمه إلى أحواض مُرقَّمة كرقعة الشطرنج باستخدام آلات شفط عملاقة، فرأينا ومضات خاطفة من الأطلال الغارقة في الفوهة المُتشقِّقة حيث كان البحر في ما مضى، أطلال مدينة سانتا ماريا دِل دارِيين سحيقة القدم التي اكتسحتها الجحافل، ورأينا سفينة القبطان أميرال البحر المحيط كما رأيتُها أنا من نافذتي يا أمي، صورة طبق الأصل، كانت السفينة عالقة في أجمة من محار البرنقيل فاقتلعتها أنيابُ الكرّاكات من الجذور قبل أن يجد هو من الوقت مُتَّسعًا ليأمر بتكريم يليق بالأهمية التاريخية لتلك السفينة الغارقة، وإذا بهم يأتون على كل ما خضتُ من أجله حروبي وكل ما يبرِّر سلطته، فلم يتركوا إلّا السهل المهجور المكسو بالغبار القمري الخشن، السهل الذي أصبح يراه بقلب منقبض إذا عرَّج على النوافذ ويصرخ قائلًا يا أمي بينديسيون ألبارادو هَبي لي قبسًا من نورِكِ الأعظم حكمة، ذلك أنه

(1) ميليبار: وحدة لقياس الضغط تعادل واحد على ألف من البار.

في تلك الليالي الأخيرة كان يصحو مفزوعًا من موتى الوطن الذين يستوون جلوسًا في قبورهم ويحاسبونه على البحر، فكان يحسُّ بخدوشهم على الجدران، ويسمع أصواتهم خارج القبور، ويستحوذ عليه الرعب من نظرات ما بعد الموت التي تترصَّد آثار قائمتيْه الضخمتيْن عَبْر ثقوب المفاتيح، قائمتَي العظاءة المحتضرة، في مستنقع تتصاعد منه الأبخرة، مستنقع الخلاص الأخير حيث البيت الذي خيَّمت عليه الظلمات، فكان يسير بلا هوادة في ملتقى الرياح التجارية المُتأخِّرة ورياح الميسترال[1] الزائفة الآتية من آلة الريح التي أهداها له السفير إبرهارت لئلَّا يلاحظ فداحة الخسارة المُترتِّبة على صفقة البحر، فكان يرى على قمم الشعاب ذلك الوهجَ المنعزل في دار الراحة حيث كان الطغاة اللاجئون ينامون جلوسًا كالثيران، في حين أتعذَّب أنا يا أولاد القحاب، ويتذكَّر غطيط وداع أمه بينديسيون ألبارادو في قصر الضواحي، ونوم مُربِّية الطيور الهانئ في الحجرة المُضاءة بالمردقوش الساهر، ومَنْ مثلها، كان يتنهَّد، وهي الأم السعيدة النائمة التي لا سمحت للطاعون بأن يفزعها ولا سمحت للحب بأن يرهبها ولا سمحت للموت بأن يخيفها يومًا، أما هو فقد بلغ من الحيرة حتى إن دفقات الضياء التي يرسلها الفنار بغير بحر مُتقطِّعةً عَبْر النوافذ صارت تبدو لعينيْه وكأنما قد دنَّسها الموتى، فلاذ بالهرب مذعورًا من اليراعة الفلكية العجيبة التي كانت في مدارها الكابوسي الدوَّار تُبخِّر سحائب الغبار المضيء الرهيب، غبار نخاع الموتى، أطفئوه، صرخ، فأطفأوه، ثم أمر برأب صدوع البيت من الداخل ومن الخارج لئلَّا تتسلَّل عَبْر شقوق الأبواب والنوافذ أرقُّ

(1) رياح الميسترال: رياح شمالية باردة تهبُّ على جنوب فرنسا.

أنفاسِ الجرَبِ التي تغشى أجواء الموت الليلية حتى وإن توارت خلف روائح أخرى، فمكث تحت جنح الظلام، يترنَّح، ويلتقط أنفاسه بمشقّة في قيظ بلا هواء، ويحسُّ بنفسه وهو يعرِّج على مرايا قاتمة، ويسير خوفًا، حتى سمع وقع حوافر آتيًا من الفوهة حيث كان البحر وإذا بالقمر يطلع رهيبًا بثلوجه العتيقة، أزيلوه، صرخ، واطفئوا النجوم، سحقًا، وهذا أمر إلهي، ولكن أحدًا لم يُلبِّ صراخه، أو يسمعه، في ما عدا المفلوجين الذين أفاقوا مذعورين في المكاتب القديمة، والعميان على الدَّرَج، والبُرْص الذين تناثرت فوقهم قطرات الندى كاللآلئ فهبّوا وقوفًا لدى مروره وسط هشيم الورود الأولى، مُتوسِّلين أن يمنحهم ملح العافية بيديْه، وعند ذاك جرى ما جرى، يا مُشكِّكي العالَم بأسره، يا عُبَّاد الأوثان الملاعين، فلقد مضى يمسُّ رؤوسنا، واحدًا واحدًا، ومسَّ كل واحد منا في الموضع الذي يشكو منه بيد ملساء حكيمة كانت هي يد الحقيقة، فلا يكاد يفعل حتى نستردَّ عافية الجسم وسكينة الروح، ونستردَّ القوة والرغبة في الحياة، ورأينا العميان وقد أبهرهم بريق الورود، ورأينا الكسحان وهم يتعثّرون في سيرهم على الدَّرَج، ورأينا بشرتي أنا التي عادت بشرةَ وليدٍ فبتُّ أعرضها على الملأ في كرنفالات العالَم بأسره لئلّا يبقى شخص واحد إلّا وعرف خبر المعجزة، وأريج زنابق جروحي التي أينعت قبل أوانها، ذلك الأريج الذي أنشره على وجه الأرض استهزاءً بالكافرين وعبرةً للفاسقين، هكذا كانوا يصرخون في المدائن والضِّياع، في المواكب والمراقص، في محاولة لإشاعة رهبة المعجزة في نفوس الجماهير، ولكن أحدًا لم يصدِّق بصحة ذلك، بل ظننا أنه مبعوث كغيره الكثيرين ممن كانوا يُرسَلون إلى القرى

مصحوبين بفرقة من المنادين في محاولة لإقناعنا بآخر ما ينقصنا تصديقه، بأنه قد ردّ البشرة إلى البُرْص، والنور إلى العميان، والحركة إلى المفلوجين، فظننا أنها آخر حيلة في جعبة النظام كي يلفت أنظارنا إلى رئيس بعيد الاحتمال تقلّص عدد حرسه الشخصي إلى وردية واحدة من المُستجدّين خلافًا لما أجمع عليه مجلس الحكومة الذي أصرّ على الرفض سيدي الجنرال، فلا غنى عن توفير حماية أشد صرامة، على الأقل فرقة واحدة من رماة البنادق سيدي الجنرال، فأصرَّ هو أن أحدًا لا يحتاج إلى قتلي أو يرغب فيه، سواكم أنتم، وزرائي الذين لا نفع يُرجَى من ورائهم، وقادتي العسكريين العاطلين، كل ما هنالك أنكم لا ولن تجرؤوا على قتلي ما حييتم، علمًا أنكم بعد ذلك مُضطرّون لقتل أحدكم الآخر، وهكذا لم يبقَ سوى الحرس المُستجدِّين في بيت خامد تجوبه الأبقار بلا قانون يحكمها من الردهة الأولى وحتى قاعة الاجتماعات، الأبقار التي أتت على مروج الأزهار في لوحات النسيج سيدي الجنرال، وأتت على الأرشيف، أما هو فلا يسمع، ولقد رأى البقرة الأولى تصعد الدَّرَج ذات أمسية من أمسيات أكتوبر تعذَّر خلالها المكوث في العراء تحت وطأة ثوران السيول، فما كان منه إلَّا أن حاول زجرها بيديْه، يا بقرة، يا بقرة، وقد تذكَّر فجأةً أن بقرة تُكتَب بحرف الباء، ثم رآها ذات مرة أخرى تلتهم أغطية المصابيح خلال حقبة من حياته بدأ يدرك فيها أن الأمر لا يستحقّ عناء التوجُّه إلى الدَّرَج لزجر بقرة، ثم وجد بقرتيْن في قاعة الحفلات وقد أحنقتهما الدجاجات التي كانت تقفز على ظهريْهما لتنقر القرّادات، وهكذا كنا في الليالي قريبة العهد نرى أنوارًا تشبه أنوار الملاحة ونسمع وقع أظلاف كارثي لحيوان ضخم

في ما وراء الجدران المُحصَّنة، لأنه كان يجوب المكان حاملًا المصباح البحري وينازع الأبقار على مكان يخلد فيه إلى النوم، وأما حياته العامة في الخارج فمضت قدمًا من دونه، وكنا نطالع في صحف النظام كل يوم صورًا خيالية من اجتماعات مدنية وعسكرية يظهرونه فيها بزي يختلف باختلاف طبيعة المناسبة، ونسمع في الراديو خُطَبَه العصماء المُتكرِّرة في كل عام منذ أعوام سحيقة بمناسبة كبرى الأعياد الوطنية، كان حاضرًا في حياتنا إذا غادرنا البيت، وإذا دلفنا إلى الكنيسة، وإذا أكلنا، وإذا خلدنا إلى النوم، إبان حقبة شاع فيها أنه بالكاد يقوى على السير منتعلًا بوطه الريفي، بوط المَشَّاء الذي لا يتعب، عَبْر أرجاء البيت العتيق حيث تقلَّص عدد أفراد الخدمة آنذاك إلى ثلاثة أو أربعة جنود يطعمونه ويزوِّدون مخابئه بعسل النحل، ويزجرون الأبقار التي خرَّبت تمثال أركان الحرب بما فيه من مارشالات خزفية داخل المكتب المحظور، حيث ينتظره الموت بحسب ما جاء في إحدى تنبُّؤات العرافات التي قد نسيها هو نفسه، فكان أفراد الخدمة يبقون رهن أوامره العرضية حتى يعلِّق المصباح على عارضة الباب وتُسمَع صلصلة مُدوِّية مصدرها المغاليق الثلاثة، والأقفال الثلاثة، والمزاليج الثلاثة عند إغلاق الحجرة المُلوَّث هواؤها من جرَّاء غياب البحر، ثم يأوون إلى حجراتهم في الطابق الأرضي وهم على قناعة بأنه باقٍ تحت رحمة أحلام الغريق في عزلته حتى بزوغ الفجر، بَيْد أنه كان يهبُّ من نومه مذعورًا، وإذا هو يرعَى في رحاب الأرق، ويجرجر قائمتيْه الضخمتيْن، قائمتي الشبح، عَبْر أرجاء البيت الشاسع المظلم الذي لا يعكِّر صفوه سوى الأبقار إذ تجترّ في أناة والدجاجات النائمة على

مشاجب ثياب نوَّاب الملوك إذ تلتقط أنفاسها في بلادة، فكان يسمع صفير الرياح القمرية في العتمة، ويحسُّ بخطى الزمن في العتمة، ويرى أمه بينديسيون ألبارادو وهي تكنس في العتمة بمكنسة الأغصان الخضر التي بها كنست الأوراق المتساقطة، أوراق النص الأصلي من كتاب مشاهير الرجال لمُؤلِّفه كورنيليوس نيپوس[1]، وكذلك البلاغة الضاربة في القِدم لكل من ليڤيوس أندرنيكوس[2] وسيسيليو إستاتو[3]، البلاغة التي لم يبقَ منها سوى مُخلَّفات المكاتب في تلك الليلة الدامية، عشيةَ دلف لأول مرة إلى بيت السلطة الذي لا صاحب له، والمتاريس الانتحارية تقاوم في الخارج تحت إمرة علَّامة اللغة اللاتينية الشهير الجنرال لاوتارو مونيوس الذي أدعو الرَّب أن يتغمَّده برحمته في ملكوته، ثم إنهما اجتازا الباحة على وهج المدينة المُتَّقدة وأخذا يتواثبان فوق أكوام جثث الحرس الشخصي للرئيس المستنير بينما هو يرتعد تحت وطأة حُمَّى الملاريا برفقة أمه بينديسيون ألبارادو التي لا تحمل من السلاح إلَّا مكنسة الأغصان الخضر، فارتقيا الدَّرَج يتعثَّران في العتمة وجثث الخيول النافقة ما زالت تدمي من الردهة الأولى حتى قاعة الاجتماعات، خيول أسطول المركبات الرئاسية الفارهة، وفي البيت المقفل تعذَّر على المرء التنفُّس وسط رائحة البارود اللاذع المتصاعدة من دماء

---

(1) كورنيليوس نيپوس (99 - 24 ق.م. على وجه التقريب): مُؤرِّخ روماني من أهم مُؤلَّفاته كتاب مشاهير الرجال الوارد ذكره في الفقرة نفسها، حيث يروي سير الرومان والأجانب البارزين في إيجاز.

(2) ليڤيوس أندرنيكوس(260/ 280 - 200 ق.م. على وجه التقريب): كاتب مسرحي وشاعر ملحمي ذو أصول إغريقية رومانية.

(3) سيسيليو إستاتو: (220 - 166 ق.م. على وجه التقريب): شاعر هزلي روماني.

الخيول، أما نحن فقد رأينا في الأروقة آثار أقدام حافية مُضرَّجة بدماء الخيول، ورأينا أَكُفًّا مطبوعة على الجدران بدماء الخيول، ورأينا جثة امرأة فلورنسية بارعة الجمال تنزف في بحيرة من الدماء داخل قاعة الاجتماعات،، رأيناها في ثياب السهرة وقد استقرَّ في قلبها سيف حربي، فكانت تلك هي زوجة الرئيس، ورأينا على مقربة منها جثة صبية بدت وكأنها دمية راقصة تعمل بالزنبرك، رأيناها وقد استقرَّت في جبينها رصاصة مسدس، فكانت تلك هي ابنته ذات التسعة أعوام، ثم رأينا جثة الرئيس لاوتارو مونيوس، ذلك القيصر الغاريبالدي[1]، الأبرع والأقدر وسط الجنرالات الفيديراليين الأربعة عشر الذين توالوا على السلطة عَبْر سلسلة من الاغتيالات المتتابعة طوال أحد عشر عامًا من الخصومات الدامية، كما أنه الوحيد الذي واتته الجرأة ليقول كلًّا بلسانه لقنصل الإنجليز، وها هو مُلقًى مثل السمكة، حافي القدميْن، يتجرَّع عقاب التهوُّر وقد اخترقت جمجمته رصاصة مسدس أطلقها في حلقه بعد أن قتل زوجته وابنته وخيوله الأندلسية الاثنين والأربعين لئلَّا تقع تحت رحمة حملة القصاص التي شنَّها الأسطول البريطاني، وعند ذاك أشار القائد كيتشنر إلى الجثة وقال لي كما ترى بعينيْك يا جنرال، فهكذا ينتهي أولئك الذين يرفعون يدهم في وجه أبيهم، فلا تنسَ ذلك متى بلغت مملكتك، قال له، رغم أنه بالفعل كان هناك، وبعد كل هذه الليالي الطوال، ليالي أرق الترقّب، وبعد كل هذا الغضب المُؤجَّل، وكل هذه المهانة المُتجرَّعة،

---

(1) غاريبالدي: بدأ استخدام هذا اللقب للإشارة إلى الجنود الذين تطوَّعوا بالانضمام إلى چوزيپه غاريبالدي (1807 - 1882) في معارك التحرير التي خاضها في إيطاليا.

فها هو ذا يا أمي، وقد نودي به قائدًا أعلى للأسلحة الثلاثة ورئيسًا للجمهورية طوال الفترة اللازمة من أجل إرساء النظام وإعادة التوازن الاقتصادي للأمَّة، وهو القرار الذي أجمع عليه زعماء الفيديرالية الأواخر بموافقة مجلس الشيوخ ومجلس النوَّاب المعقودَيْن بكل أعضائهما وبدعم من الأسطول البريطاني الذي أيَّده بعد ليالٍ بالغة الطول والمشقة قضيتُها إلى طاولة الدومينو مع القنصل ماكدونال، غير أني لم أصدِّق في بادئ الأمر، لا أنا ولا غيري، بطبيعة الحال، فمن كان يصدِّق في صخب تلك الليلة المهولة ما دامت أمه بينديسيون ألبارادو نفسها لم تصدِّق تمامًا حتى وهي على فراش العَفَن تستحضر ذكرى ابنها الذي لم يعرف من أين يبدأ الحكم في خضم تلك الفوضى، فلم يجدوا عشبة مغلية لعلاجه من الحُمَّى في ذلك البيت الشاسع الخالي من الأثاث حيث لم يبقَ شيء ذو قيمة سوى اللوحات الزيتية التي قرضتها العُثَّة، لوحات مجد إسبانيا البائد حيث يظهر نوَّاب الملوك ورؤساء الأساقفة، أما كل ما عدا ذلك فقد استولى عليه أسلافه من الرؤساء رويدًا رويدًا ونقلوه إلى ملكيتهم الشخصية، فلم يتركوا أدنى أثر لورق الحائط بما عليه من أستار مُوشَّاة بصور المآثر البطولية، في حين غصَّت مخادع البيت بفضلات الثكنات، وانتشرت في كل أرجاء المكان آثار منسية خلَّفتها مذابح تاريخية، وشعارات مكتوبة بأصابع دامية سطرها رؤساء وهميون، رؤساء الليلة الواحدة، وإن لم تكُن هناك ولو حصيرة واحدة يرقد عليها ويتفصَّد عرقًا حتى يبرأ من الحُمَّى، فما كان من أمه بينديسيون ألبارادو إلَّا أن نزعت ستارًا لتدثِّرني ثم تركته راقدًا في أحد أركان الدَّرَج الرئيسي وعمدت إلى مكنسة الأغصان الخضر تكنس

حجرات الرئاسة بينما يفرغ الإنجليز من نهبها، ثم كنست الطابق بأسره وهي تتصدَّى بضربات المكنسة لتلك العصابة القرصانية التي حاولت اغتصابها في ما وراء الأبواب، وقُبَيْل بزوغ الفجر جلست لتنال قسطًا من الراحة بجوار ابنها الذي خرَّ تحت وطأة القشعريرة، ملتحفًا بستار من المخمل، يتصبَّب عرقه غزيرًا على السلمة الأخيرة من الدَّرَج الرئيسي في البيت الخراب فيما هي تسعى إلى تخفيف الحُمَّى بحساباتها اليسيرة وتقول لا تسمح لهذه الفوضى بأن تخيفك يا بني، فالمسألة رهن بشراء بضعة كراسٍ جلدية من الصنف الأبخس ثمنًا وتزيينها برسوم الأزهار والحيوانات المُلوَّنة، ولسوف أرسمها بنفسي، مضت تقول، المسألة رهن بشراء بضعة أسِرَّة مُعلَّقة من أجل الزائرين، أهم شيء الأسِرَّة المُعلَّقة، فلا شك في أن بيتًا كهذا يقصده الزائرون في أي ساعة ومن دون سابق إنذار، مضت تقول، ولنشترِ مائدة من موائد الكنائس لتناول الطعام، ولنشترِ أشواكًا وسكاكين وملاعق مشغولة من الحديد وصحون مشغولة من البيوتر لتحتمل حياة العسكرية الشاقة، ولنشترِ جرةً لائقة لمياه الشرب وموقد فحم وكفى بذلك، فالمال مال الحكومة في خاتمة المطاف، مضت تقول مواسيةً، فلا ينصت إليها، محزونًا لمرأى خيوط الفجر الأرجوانية الأولى تضيء الجانب الخفي من الحقيقة وتكشفه كاللحم الحي، مُدركًا أنه لا يعدو أن يكون شيخًا جديرًا بالرثاء يرتجف تحت وطأة الحُمَّى، جالسًا على الدَّرَج يفكِّر بلا حب قائلًا لنفسه يا أمي بينديسيون ألبارادو إذًا فهذا كل ما في الأمر، سحقًا، فما السلطة بأكثر من بيت الغرقى ذاك، ورائحة الخيول المحترقة تلك، وما يوم السلطة بأكثر من الشَفَق الموحش ذاك، شَفَق ذكرى أخرى من ذكريات الثاني

عشر من أغسطس، كعهدها في كل مرة يا أمي، في أي ورطة زججنا بأنفسنا، فيتساءل وهو يتجشَّم الكدر الأصلي والخوف الوراثي من قرن جديد من الظلمات يطلع على العالَم بغير إذنه، والديكة في البحر تصيح، أما الإنجليز فأخذوا يتغنّون بالإنجليزية وهم ينتشلون الموتى من الباحة لمَّا فرغت أمه بينديسيون ألبارادو من إجراء حساباتها المبهجة برصيد الراحة المُتبقِّي لها، فأنا لستُ أخشى الأشياء اللازم شراؤها ولا المهمات اللازم أداؤها، لا شيء من هذا يا بني، وإنما أخشى عدد الملاءات اللازم غسلها في هذا البيت، وعند ذاك استند إلى القوة المُستمَدَّة من خذلانه في محاولة لمواساتها بقوله نامي هانئة يا أمي، فلا رئيس يدوم في هذا البلد، قال، ولسوف ترين كيف يطيحون بي قبل مرور خمسة عشر يومًا، قال، وعلى الرغم من ذلك فهو لم يكتفِ بالتصديق حينها فحسب وإنما ظلَّ مُصدِّقًا في كل لحظة من كل ساعة من حياته مفرطة الطول، حياة المُستبدّ الجالس، بل وكان يزيد يقينًا كلما أقنعته الحياة بأن أعوام السلطة المديدة لا تجلب يومَيْن متشابهيْن أبدًا، وأن مساعي رئيس الوزراء تنطوي على نية مُبيَّتة دومًا كلما أقدم الأخير على تفجير الحقيقة التي تُغشي الأبصار في تقرير الأربعاء الروتيني، أما هو فبالكاد يفترُّ ثغره عن ابتسامة، لا تقُل لي الحقيقة يا معالي الوزير، وإلَّا جازفت بأن أصدِّقها، فيحبط بتلك الجملة الوحيدة استراتيجية شاقة كاملة وضعها مجلس الحكومة في محاولة لحمله على التوقيع بلا سؤال، وكان كلما زادت الإشاعات إقناعًا تراءى لي أصفى ذهنًا من أي وقت مضى، تلك الإشاعات الزاعمة بأنه يبول في بنطاله في غير وعي خلال الزيارات الرسمية، وكان يبدو لي أشد صرامة كلما

غاص في رحاب الشيخوخة بخفّي الشريد ونظارته ذات الذراع الواحدة المربوطة بخيط الحياكة، فباتت طباعه أشد حدَّة وغريزته أكثر دقة في استبعاد ما لا يناسبه وتوقيع ما يناسبه من دون الاطلاع عليه، سحقًا، فلا أحد يلقي إليَّ بالًا في خاتمة المطاف، ويفترُّ ثغره عن ابتسامة، تصوَّر أنني قد أمرتُ بوضع سياج في الردهة لصدِّ الأبقار عن تسلُّق الدَّرَج، وها هي ذي مرة أخرى، يا بقرة، يا بقرة، فلقد أطلَّت برأسها من نافذة المكتب وطفقت تلتهم الأزهار الورقية على مذبح الوطن، وكان يكتفي بالابتسام قائلًا ها أنت ترى بعينيْك ما أقصد يا معالي الوزير، إن هذا البلد غارق في الخراء لأن أحدًا لم يلقِ إليَّ بالًا قط، كان يقول، ويقولها برجاحة عقل تبدو في مثل عمره ضربًا من المحال، رغم أن السفير كيپلينغ روى في مُذكِّراته الممنوعة أنه وجده في تلك الحقبة وهو في حالة من اللاوعي يُرثَى لها تحت وطأة الشيخوخة، حالة ما كانت تسمح له ولو بالاعتماد على نفسه في الأفعال الأكثر صبيانية، وروى أنه وجده غارقًا في مادة آسنة تفرزها بشرته بلا انقطاع، وقد صار في ضخامة الغريق وخيَّمت عليه تلك السكينة البطيئة، سكينة الغريق الهائم، ثم إنه فتح قميصه ليريني جسده المشدود الصافي، جسد الغريق على الأرض الصلبة، ذلك الذي استشرت في تجاويفه طفيليات الصخور المُستقرَّة في أعماق البحر، وعلقت بظهره أسماك الريمورا كما تعلق بالسفن، واستشرى تحت إبطيْه المرجان الرخو والقشريات الميكروسكوبية، وإن اقتنع بأن تلك البراعم الصخرية لا تعدو أن تكون أولى أعراض عودة البحر من تلقاء نفسه، البحر الذي أخذتم مني يا عزيزي چونسون، لأن البحار مثلها كمثل القطط، تعود أبدًا، قال، وهو على قناعة بأن

أسراب محار البرنقيل عند ملتقى فخذيْه كانت إعلانًا سريًّا عن قدوم فجر سعيد يفتح فيه نافذة مخدعه فيعاود رؤية سفن الكارافيل الثلاث لأميرال البحر المحيط الذي أعياه البحث عنه في أرجاء العالَم كافة لعلَّه يقف على حقيقة ما قيل له من كون يدا الأميرال ناعمتيْن مثل يديه هو ودونه الكثيرون من عظماء التاريخ، فأصدر أمرًا بإحضاره، ولو عنوة، حين روى له بحَّارة آخرون أنهم قد رأوه يرسم خرائط الجُزُر الصغيرة التي لا يُحصَى لها عدد في البحار المجاورة، مُبدِّلًا بأسماء العسكر القديمة أسماء ملوك وقديسين، مُفتِّشًا في علوم السكان الأصليين عن الشيء الوحيد الذي يهمُّه بحق، عن علاج ناجع من الصلع الذي ظهرت بوادره على رأسه، وكنا قد فقدنا الأمل في العثور عليه مُجدَّدًا حين تعرَّف هو عليه من الليموزين الرئاسية مُتنكِّرًا في مسوح راهب بنية اللون وقد لفَّ حول خصره نطاق القديس فرنسيس[1] وراح يقرع خشخيشة التوبة[2] وسط جموع الأحد في السوق العمومية مستغرقًا في حالة معنوية بلغت من التردِّي حتى ما عاد يمكن التصديق بأنه الرجل نفسه الذي قد رأيناه يدلف إلى قاعة الاجتماعات بالزي القرمزي ومهماز الذهب والمشية الرصينة، مشية السرطان البحري على الأرض الصلبة، ولكن ما إن حاولوا الزجَّ به في الليموزين نزولًا عند أمره هو حتى لم نعثر له على أدنى أثر سيدي الجنرال، فانشقَّت الأرض وابتلعته، قيل إنه اعتنق الإسلام،

---

(1) القديس فرنسيس الأسيسي (1181 – 1226): راهب وواعظ كاثوليكي ومؤسِّس الجماعة الرهبانية المعروفة باسم رهبنة الآباء الفرنسيسكان.

(2) تقليد قديم لدى بعض المجتمعات المسيحية حيث يقرع التائب خشخيشة من الخشب تعبيرًا عن الندم.

وإنه قضى نحبه في السنغال بداء الحصاف ودُفِن في ثلاث مقابر مختلفة في ثلاث مدن مختلفة من مدن العالَم، وإن لم يكُن في أي منها في واقع الأمر، وهو المحكوم بالتشرُّد من ضريح إلى ضريح إلى أبد الآبدين كما شاء له حظه العاثر الذي لازمه في مغامراته، فهو رجل مشؤوم سيدي الجنرال، بل إنه يفوق الذهب نحسًا، أما هو فلم يصدِّق بصحة ذلك يومًا، وظلَّ يترقَّب عودته حتى بلغ من الشيخوخة أواخرها خلال حقبة كان وزير الصحة فيها ينتزع ما يجد على جسده من قرادات الثيران بالجفت فيصرُّ هو أنها ليست قرادات يا دكتور، وإنما هو البحر العائد، كان يقول، موقنًا من رأيه كل اليقين حتى إن وزير الصحة طالما فكَّر أنه لم يكُن على تلك الدرجة من الصمم كما يحاول إقناع الناس في العلن، ولا على تلك الدرجة من البلادة كما يتظاهر في الاجتماعات المزعجة، وإن أظهر الفحصُ الشامل أن له شرايين من زجاج، وقلبًا تشقَّق من غياب الحب، وفي كليتيْه رواسب عالقة من رمال الشطآن، وهكذا فقد تدرَّع الطبيب الشيخ بثقة الرفاق القديمة ليخبره بأن ساعة تسليم الأمور قد حانت سيدي الجنرال، فاخترْ ولو حتى اليد التي فيها سوف تتركنا، قال، وخلِّصنا من الفوضى، أما هو فقد سأله دهِشًا ومن قال لك إني أفكِّر في الموت يا عزيزي الدكتور، فليمُت الآخرون، سحقًا، وختم حديثه بروح دعابة قائلًا إنني قد رأيت نفسي على شاشة اِلتلفزيون منذ ليلتيْن فوجدتني أفضل حالًا من أي وقت مضى، كثور المصارعة، قال، وهو يكاد يموت ضحكًا، ذلك أنه قد رأى نفسه وسط الضباب، يهوِّم من فرط النعاس وقد لفَّ رأسه بمنشفة مُبلَّلة أمام شاشة مكتومة الصوت كعادته في سهرات العزلة الأخيرة، وإذا هو بحق يفوق ثور المصارعة

حزمًا أمام فتنة سفيرة فرنسا، أو ربما سفيرة تركيا، أو السويد، سحقًا، كنَّ في غاية الكثرة والتشابه حتى إنه عجز عن التمييز بينهن، ولقد مضى زمن طويل حتى إنه ما عاد يذكر نفسه وهو يخطر في زي السهرة وسطهن ممسكًا بكأس الشامبانيا التي لم يرتشف منها قطرة واحدة في عيد الثاني عشر من أغسطس، أو ذكرى نصر الرابع عشر من يناير، أو ذكرى نهضة الثالث عشر من مارس، وما أدراني، بل إنه قد انتهى به المطاف وهو لا يدري أي يوم يصادف أي مناسبة ولا أي شيء يوافق أي عيد في خضم طلاسم الأيام التاريخية للنظام، فلم تنفعه بشيء الوريقات المطوية التي أخفاها داخل شقوق الجدران بكل همّة وعناية وهو الذي انتهى به المطاف وقد نسي ما الذي يجدر به أن يتذكَّره، إلَّا أنه كان يجد الوريقات المطوية على سبيل الصدفة في مخابئ عسل النحل، فقرأ فيها ذات مرة أن السابع من إبريل يوافق عيد ميلاد دكتور ماركوس دي ليون ويجب إهداؤه نَمِرًا بهذه المناسبة، قرأها مكتوبةً بخط يده، وهو لا يملك أدنى فكرة عمن يكون سالف الذكر، شاعرًا بأنه ما من عقاب قد يتجرَّعه الرجل أشد مهانةً أو ظلمًا من خيانة جسده له، الأمر الذي بدأ يتبيَّنه قبل زمن خوسيه إغناسيوساينس دي لا بارًّا السحيق بكثير، حين أدرك أنه بالكاد يعرف مَنْ هو مَنْ في الاجتماعات مُتعدِّدة الأطراف، رجل مثلي أنا، وأنا الذي كنتُ قادرًا على مناداة سُكَّان أبعد القرى بأسمائهم وألقابهم في مملكته الموحشة مترامية الأطراف، وعلى الرغم من ذلك فقد انقلبت حاله من النقيض إلى النقيض، إذ رأى من المركبة فتى مألوفًا وسط الجماهير، فهاله ألَّا يتذكَّر أين رآه من قبل، حتى إنني أمرتُ المرافقين بإلقاء القبض عليه ريثما أتذكَّر، كان رجلًا جبليًّا

مسكينًا قضى اثنين وعشرين عامًا في الزنزانة وهو يردِّد الحقيقة المُثبَتة في المحضر منذ اليوم الأول، فهو يُدعى براوليو لينارِس موسكوتيه، ابن غير شرعي وإن اعترف به والده ماركوس لينارِس، بحَّار مياه عذبة، وأمه دِلفينا موسكوتيه، مُربِّية كلاب صيد النمور، ولكل من أبويْه محل سكن معروف في روسال دِل بيرّاي، أما براوليو لينارِس موسكوتيه فقد أتى إلى عاصمة هذه المملكة لأول مرة نزولًا عند طلب أمه التي أرسلته لبيع جروين في مهرجان مارس للشعر، فجاء على ظهر حمار مُستأجَر وليس معه من الثياب إلّا ما وضع على بدنه فجرَ الخميس الذي أُلقِي عليه القبض فيه، وكان يحتسي فنجانًا من القهوة المرة في أحد أكشاك السوق العمومية حين شرع يسأل بائعات المقالي عمّا إذا كن يعرفن أحدًا قد يرغب في شراء جروَيْن مُهجَّنيْن لصيد النمور، فأجبنه بالنفي، وعند ذاك انطلق دوي الطبول، والأبواق، والمفرقعات، وهتافات الناس قائلين هوذا الرجل آتٍ، هوذا آتٍ، ولمَّا سأل من يكون الرجل أجابوه قائلين من عساه أن يكون، إنه الآمر الناهي، فوضع الجرويْن في صندوق سائلًا بائعات المقالي هلا أسديتنَّ إليَّ معروفًا واعتنيتن بالجروَيْن من أجلي ريثما أعود، ثم إنه تسلَّق حافة إحدى النوافذ ليطلَّ من فوق الناس المحتشدة فرأى المرافقين على ظهور خيولهم بتجافيفها[1] الذهب ورؤوسها المُكلَّلة بالريش، ورأى المركبة مزدانة بتنِّين الوطن، ورأى يدًا في قفاز من النسيج تومئ بالتحية، ورأى السحنة الشاحبة، والشفتيْن الصموتتيْن في غير ابتسام، شفتي الرجل صاحب الأمر والنهي، والعينيْن الحزينتيْن اللتين عثرتا عليه فجأةً كإبرة في كومة إبر،

(1) تجفاف (ج.) تجافيف: ما تُغطَّى به الخيول من دروع تقيها الجراح في الحرب.

والإصبع التي أشارت إليه، ها هو ذا، ذلك الذي تسلَّق النافذة، ألقوا القبض عليه ريثما أتذكَّر أين رأيتُه، أصدر أمره، وهكذا فقد أمسكوني وهم يبرحونني ضربًا، وأقدموا على سلخ جلدي بالسيوف وشيِّ بدني حتى أعترف وأقرّ أين سبق للرجل صاحب الأمر والنهي أن رآني، بَيْد أنهم لم يفلحوا في انتزاع حقيقة أخرى منه بخلاف الحقيقة الوحيدة التي أدلى بها في زنزانة الرعب داخل حصن المرفأ، تلك التي ردَّدها بكل اقتناع وكل شجاعة شخصية حتى أقرَّ بخطأه في خاتمة المطاف، ولكن لا سبيل إلى التراجع الآن، قال، لأن المعاملة التي لقيها بلغت من القسوة حتى إنه بات يناصبه العداء وإن لم يكُن عدوًا من الأساس، مسكين ذاك الرجل، وهكذا فقد أخذ يتعفَّن في الزنزانة حيًّا وأنا أهيم في بيت الظلال هذا وأفكِّر قائلًا لنفسي يا أمي بينديسيون ألبارادو، يا زمني الهانئ، مدِّي لي عونكِ، انظري ماذا ألمَّ بي من دون وشاحك الذي يحميني، ومضى يصرخ وحيدًا، فكل أيام مجده لم تكُن جديرة بأن تُعاش ما دام عاجزًا عن استحضارها ليتعزَّى بها ويتغذَّى عليها ويظلَّ على قيد الحياة من أجلها في مستنقعات الشيخوخة، فحتى أقسى الآلام وأسعد اللحظات التي مرَّ بها في زمنه العظيم قد انسابت عَبْر فجوات ذاكرته إلى غير رجعة على الرغم من محاولاته الساذجة للحيلولة دون ذلك مستعينًا بصمامات من الوريقات المطوية، وكان محكومًا بألَّا يعرف قط من هي فرانسيسكا لينيرو ذات الستة والتسعين عامًا التي أمر بدفنها وتكريمها كالملكات عملًا بما جاء في ملاحظة أخرى مكتوبة بخط يده، وبأن يحكم على نحو أعمى بنظاراته الإحدى عشرة عديمة النفع التي كان يخفيها في جارور المكتب ليداري أنه في واقع الأمر يتحدَّث إلى أشباح لا يكاد

يكشف طلاسم أصواتهم، وإنما يحزر هوياتهم بإشارات غريزية، وقد غاص في حالة من الهجران تجلَّت خطورتها الكبرى أمام عينيْه في اجتماع مع وزير الحربية لمَّا شاء حظه العاثر أن يعطس مرة فبادره وزير الحربية قائلًا صحة سيدي الجنرال، ثم عطس مرة أخرى، فعاود وزير الحربية قوله صحة سيدي الجنرال، ومرة أخرى، صحة سيدي الجنرال، ولكني بعد أن عطس تسع مرات متتالية لم أُعِد عليه قولي صحة سيدي الجنرال، وإنما شعرتُ بالهلع إزاء التهديد المُحدّق بذلك الوجه المُعتَلّ من فرط الذهول، ورأيتُ العينيْن المغرورقتيْن بالدموع اللتيْن بصقتا في وجهي بلا رحمة من مستنقع سكرات الموت، ورأيتُ لسان الوحش المشنوق الهرم الذي يحتضر بين ذراعيَّ وليس هنالك من يشهد على براءتي، وليس هنالك أحد، عند ذاك لم يخطر لي سوى الفرار من المكتب قبل فوات الأوان، غير أنه حال دون ذلك بدفقة من السلطة، وبين عطسة وأخرى صاح فيَّ بقوله دَعْ عنك الجُبْنَ أيها الفريق روسيندو ساكريستان، والزمْ مكانك، سحقًا، فأنا لستُ من الحماقة حتى أقضي نحبي أمامك، صاح، وقد كان، ذلك أنه ظلَّ يعطس حتى بلغ حافة الموت سابحًا في فضاء من اللاوعي تسكنه يراعات منتصف النهار مُتشبِّثًا بيقينه بأن أمه بينديسيون ألبارادو لن تُلحِق به خزي الموت إثر نوبة من العطس في حضرة واحد من مرؤوسيه، أي ترهات، أهون عليَّ الموت من المهانة، فالعيش مع الأبقار خير من العيش مع رجال على استعداد لترك المرء يقضي نحبه بلا كرامة، سحقًا، وهو الذي لم يعاود مجادلة السفير البابوي الرسولي بشأن الرَّب لئلَّا يلاحظ أنه يتناول الشكولا بالملعقة، ولا عاود لعب الدومينو خشية أن يتجرَّأ منافسٌ على

الخسارة أمامه بدافع الشفقة، ورغب عن رؤية الجميع يا أمي، لئلَّا يكتشف أحدهم أنه برغم الرقابة الصارمة التي يفرضها على مسلكه، وبرغمِ خيلائه الذي يحدو به إلى الإمساك عن جرِّ قدميْه المفلطحتيْن فقد ظلَّ يجرجرهما منذ الأزل، وبرغم شعوره بالخجل من أعوامه الطوال فقد شعر بأنه على حافة هاوية الآلام حيث سقط أواخر الطغاة المنكوبين، أولئك الذين أبقاهم في بيت الشعاب سجناء أكثر من كونهم محميين لئلَّا يلوِّثوا العالم بطاعون نقمتهم، ولقد تجشَّم ذلك الإحساس وحيدًا ذات صباح مشؤوم بقي فيه نائمًا داخل المسبح المقام في باحته الخاصة حيث راح يغتسل بالمياه العلاجية، حالمًا بكِ أنتِ يا أمي، حالمًا بأنكِ أنتِ خالقة الزيزان التي كانت تتفجَّر فوق رأسي من فرط الطنين وسط أغصان شجرة اللوز المزهرة على أرض الواقع، حالمًا بأنكِ أنتِ مُلوِّنة الأصوات بالفرشاة وبألوان طيور الأوروبيندولا، عند ذاك أفاق مذعورًا على جشأة مباغتة خارجة من أحشائه وهو في أعماق المياه يا أمي، أفاق محتقنًا من فرط الغضب في ذلك المسبح الفاسد، مسبح خزيي أنا حيث طفَتْ على صفحته أزهار اللوتس العطِرة والمردقوش والأرجوان، وأزهار شجرة البرتقال النضِرة المتساقطة، والسلاحف التي أثارها نثار الفضلات المُذهَّبة الطرية التي أطلقها سيدي الجنرال في المياه المُعطَّرة، يا للهول، أما هو فقد نجا من تلك الوصمة ودونها الكثير من وصمات الشيخوخة التي قلَّص عدد أفراد الخدمة إلى الحد الأدنى من أجل التصدي لها بغير شهود، وهكذا فلن يراه أحدٌ هائمًا على غير هدى في بيت اللاأحد أيامًا وليالي وقد لفَّ رأسه بأسمال مغموسة في الدهان، وراح يئنُّ في يأس مُولِيًا وجهه شطر الجدران،

مُشبَّعًا بصمغ السنط، وقد مسَّه الجنون من شدة الصداع الذي لا يُحتمَل رغم أنه لم يذكره قط ولا حتى لطبيبه الشخصي علمًا منه أنه مُجرَّد ألم آخر من آلام الشيخوخة الكثيرة التي لا نفع يُرجَى من ورائها، كان يحسُّ به آتيًا كالرعد الحجري قبل أن تتبدَّى سحائب العاصفة الكثيفة بوقت طويل، فلا يكاد الإعصار يبدأ في الدوران داخل صدغيْه حتى يصدر أمره بألَّا يزعجني أحد، وألَّا يدخل إلى هذا البيت أحد مهما يكُن من شيء، كان يأمر، حين يشعر بعظام جمجمته تقرقع مع الدورة الثانية للإعصار، ولا حتى لو جاء الرَّب نفسه، ويأمر، ولا حتى لو قضيتُ نحبي، سحقًا، فيقول وقد أعماه الألم الذي لا يرحمه ولا يهادنه لحظة واحدة للتفكير حتى نهاية قرون اليأس حين تنهمر بَرَكةُ الأمطار، وحينها كان ينادينا، فنجده وقد وُلِد من جديد، ونجد عشاءه مُجَهَّزًا على الطاولة الصغيرة أمام شاشة التلفزيون الخرساء، فكنا نقدِّم له لحمًا مطهوًا، وفاصوليا بلحم الخنزير المُقدَّد، وأرزًا بجوز الهند، وشرائح من الموز المقلي، عشاء لا يتصوَّره المرء لمن هو في مثل عمره، كان يتركه يبرد من دون حتى أن يتذوَّقه وهو يشاهد فيلم الطوارئ نفسه على شاشة التلفزيون، مدركًا أن الحكومة تريد أن تخفي عنه شيئًا ما دامت تعاود إذاعة البرنامج نفسه على الدائرة التلفزيونية المغلقة من دون الانتباه حتى إلى شرائط الفيلم التي عُرِضَت مقلوبةً، سحقًا، كان يقول، محاولًا نسيان ما يريدون إخفاءه عنه، لو كان الأمر أسوأ لذاع خبره، كان يقول، وهو يغطُّ أمام العشاء المُجهَّز، إلى أن تدقَّ الساعة معلنةً تمام الثامنة في الكاتدرائية فينهض وصحن الطعام لم يُمسّ ليلقي بمحتوياته في المرحاض كعهده كل ليلة في الساعة نفسها منذ أمد

بعيد ليداري شعوره بالمهانة لأن معدته ترفض كل شيء، وليهوِّن على نفسه تلك الضغينة التي يضمرها لذاته كلما اقترف فعلة مقيتة مدفوعًا بسهو الشيوخ، فيهوِّن على نفسه مستعينًا بأساطير من زمن مجده، ولينسى أنه بالكاد على قيد الحياة، وأنه هو دون غيره من يكتب على جدران دورات المياه عاش الجنرال، عاش الفحل، وأنه قد تناول في الخفاء منقوع من صنع المُطبِّبين حتى يختلي بالنساء بقدر ما تصبو إليه نفسه، وحتى ثلاث مرات كل مرة مع ثلاث نساء مختلفات في الليلة الواحدة، إلّا أنه دفع ثمن سذاجة الشيوخ بدموع ذرفها حنقًا أكثر منه ألمًا، وهو مُتشبِّث بحافة المرحاض باكيًا يا أمي بينديسيون ألبارادو، يا قلبي أنا، امقتيني، طهِّريني بمياهك النارية، فكان ينال جزاء سذاجته بكبرياء عارفًا حق المعرفة بأن الحب ما ينقصه في الفراش منذ الأزل وليست الكرامة، كما تنقصه نساء أقل جفاءً من أولئك اللواتي قدَّمهن لي رفيقي وزير الخارجية لئلّا يفقد عادته المحمودة بعد إقفال المدرسة المجاورة، إناث من لحم بلا عظم لك وحدك سيدي الجنرال، مُرسَلات من واجهات عرض أمستردام على متن الطائرة بموجب إعفاء رسمي من الرسوم الجمركية، ومن مهرجانات السينما في بودابست، ومن بحر إيطاليا سيدي الجنرال، انظرْ ما أروعهن، أجمل نساء العالَم بأسره، فكان يجدهن في غَبَش المكتب جالسات في وقار يليق بمُعلِّمات الغناء، فيتعرَّين كما الفنانات، ويستلقين على الأريكة المخملية وقد انطبعت سيور ثياب السباحة كما ينطبع نيغاتيف الصور على بشرتهن الدافئة المُشرَّبة بالعسل الذهب، بينما تتضوَّع منهن رائحة معجون الأسنان بالمنتول، وأريج أزهار العطور، وهن مستلقيات قرب الثور الإسمنتي

الهائل الذي لم يُرِد خلع ثيابه العسكرية فيما رحتُ أحاول تشجيعه بحيلي الأغلى ثمنًا حتى أعيته لجاجة ذلك الجمال المذهل، جمال السمكة النافقة، فقلتُ لها حسبكِ يا بنيتي، وعليكِ بالرهبنة، قالها وقد استحوذت عليه الكآبة من فرط تراخيه حتى إنه أقدم على مباغتة إحدى النساء المُكلَّفات بغسيل ثياب الجنود في الليلة نفسها مع دقات الثامنة فطرحها فوق أحواض الغسيل بضربة واحدة من مخالبه رغم أنها حاولت الإفلات منه بحجة مخيفة زاعمةً بأني اليوم لا أستطيع يا جنرال، صدِّقني، فالراية الحمراء مرفوعة، فما كان منه إلَّا أن طرحها على وجهها فوق ألواح الغسيل ولقَّحها بالعكس في نزوة توراتية أحسَّت بها المسكينة تخترق روحها مصحوبة بصرير الموت، فراحت المرأة تلهث قائلةً أي وحشية يا جنرال، لا بد أنك درست لتتعلم كيف تصبح حمارًا، أما هو فقد أشعرته آهات الألم بالإطراء أكثر مما يفعل المديح المحموم الذي يغدقه عليه مُتملِّقوه المحترفون، فرصد لعاملة الغسيل معاشًا مدى الحياة من أجل تعليم أولادها، ثم عاود الغناء مرة أخرى بعد أعوام طوال وهو يضع العليق في حظائر حلب الأبقار، يا قمر يناير الوضَّاح، أخذ يتغنَّى، من دون أن يخطر له الموت على بال، ذلك أنه لن يسمح لنفسه بوهن التفكير في أمور تفتقر إلى حسن التميز، ولا حتى في آخر ليالي عمره، ثم عاود إحصاء عدد الأبقار مرتيْن وهو يتغنَّى قائلًا نُورُ دربي المعتم أنتِ، نجمي القطبي أنتِ، وتأكَّد من نقص أربع بقرات، ثم عاد إلى داخل البيت وفي طريقه مضى يحصي عدد الدجاجات النائمة على مشاجب ثياب نوَّاب الملوك، ويغطِّي أقفاص الطيور النائمة التي يحصي عددها وهو يودع فوقها الأغطية الكتانية، ثمانية وأربعون، ثم

أضرم النار في أقراص الروث الذي نثرته الأبقار نهارًا من الردهة وحتى قاعة الاجتماعات، وتذكَّر طفولة نائية تجلَّت فيها صورته لأول مرة وهو يرتجف وسط جليد الپارامو وصورة أمه التي انتزعت أحشاء خروف من نسور مكبِّ النفايات لتناول الغداء، وكانت الساعة قد دقَّت معلنةً تمام الحادية عشرة لمَّا اجتاز البيت مرة أخرى من أوله إلى آخره في الاتجاه المعاكس، وسار يضيء طريقه بالمصباح ويطفئ الأنوار حتى بلغ الردهة، فرأى نفسه واحدًا واحدًا بإجمالي أربعة عشر جنرالًا مُكرَّرين يسيرون حاملين مصابيحهم في المرايا القاتمة، وفي خلفية المرآة بقاعة الموسيقى رأى بقرةً مُمدَّدة على ظهرها وقد تباعدت قوائمها، يا بقرة، يا بقرة، نادى، كانت نافقة، يا للهول، فعرَّج على مخادع الحرس لإخبارهم بأمر البقرة النافقة في المرآة، وأصدر أمره بإخراجها في الغد الباكر، بلا توانٍ، قبل أن يزدحم البيت بالعقبان، أصدر أمره، وهو يتفقَّد الأنوار في المكاتب العتيقة في الطابق الأرضي بحثًا عن باقي الأبقار الضالة، كانت ثلاثًا، بحث عنها في دورات المياه، وتحت الطاولات، وفي كل واحدة من المرايا، وصعد إلى الطابق الرئيسي فيما هو يتفقَّد الحجرات واحدة تلو الأخرى فلم يجد سوى دجاجة ملقاة تحت ناموسية وردية طرَّزتها طالبةُ رهبنة من زمن غير الزمن كان قد نسي اسمها، ثم تناول ملعقة عسل النحل المعهودة قبل النوم، وعاود وضع الإناء في المخبأ حيث استقرَّت إحدى وريقاته المطوية بتاريخ عيد ميلاد الشاعر الشهير روبِن داريو الذي أدعو الرَّب أن يخصَّه بأرفع كرسي في ملكوته، ثم إنه طواها مرة أخرى وردَّها إلى مكانها بينما هو يتلو صلاة ملائمة من الذاكرة قائلًا أبانا المُعلِّم السحري الشاعر

السماوي[1]، يا من تحفظ الطائرات مُحلِّقةً في الهواء، وعابرات المحيطات طافيةً على صفحة مياه البحر، وهو يجرجر قائمتيْه الضخمتيْن، قائمتي الشريد الأرِق، عَبْر آخر خيوط الفجر الخضر الخاطفة التي يبثُّها الفنار في دورانه، وينصت إلى الرياح في حزنها على البحر الذي رحل، وينصت إلى موسيقى مفعمة بالحياة آتية من عرس صاخب حيث كان هو على وشك أن يُقتَل غدرًا في سهوة من الرَّب، ثم إنه عثر على بقرة شاردة فاعترض سبيلها من دون أن يمسَّها، يا بقرة، يا بقرة، فعاد أدراجه إلى المخدع، وفيما هو يعرِّج على النوافذ كان يرى فوضى أنوار المدينة بغير بحر من كل نافذة ويحسّ بالأبخرة الحارة المتصاعدة من لغز أحشائها، ويحسّ بسرِّ أنفاسها الجماعية، فتأمَّلها ثلاثًا وعشرين مرة بلا انقطاع وهو يعاني كعهده أبدًا من ريبة ذلك المحيط المترامي الذي لا يُسبَر له غور، محيط الشعب النائم ويده على قلبه، فعرف أن أولئك الأكثر حبًّا له صاروا يبغضونه، وأحسَّ بضياء شموع القديسين يغمره، وأحسَّ باسمه مذكورًا في الابتهالات لجلب الحظ على المُشرفات على الولادة وتبديل مصائر المحتضرين، وأحسَّ بذكراه يحييها أولئك الذين كانوا يلعنون أمه إذ وقعت أبصارهم على العينيْن الصموتتيْن، والشفتيْن الحزينتيْن، ويد العروس المُتأمِّلة خلف زجاج الفولاذ الشفاف الذي يرجع إلى ذلك الزمن النائي، زمن الليموزين المُسرنَمة، فكنا نقبِّل آثار البوط التي يتركها في الوحل ونقرأ التعاويذ اتقاءً لشر ميتة مُروِّعة في ليالي القيظ إذ نرى من الباحات أنوارًا شاردة

(1) مطلع مرثية للشاعر روبِن داريو بعنوان صلاة جنائزية من أجل ڤرلان، مُهداة إلى الشاعر والكاتب الفرنسي پول ڤرلان (1844 - 1896).

في نوافذ البيت المدني الخالية من الروح، لا أحد يحبُّنا، وندَّت عنه تنهيدة، وهو يُطلُّ على المخدع العتيق الذي كان لأمه بينديسيون ألبارادو مُربِّية الطيور الخالية من الحياة ورسَّامة طيور الأوروپيندولا التي استشرت الطحالب في جسدها، طاب موتكِ يا أمي، قال لها، طاب موتك يا بني، أجابته من ضريحها، كانت الثانية عشرة بالتمام حين علَّق المصباح على عارضة الباب، جريحًا في أحشائه من جرَّاء ذلك الالتواء المميت، التواء صفير الفتق المُروِّع، وإذا بالعالَم يخلو من الأجواء سوى أجواء ألمه، ثم أوصد أقفال مخدعه الثلاثة مرةً أخيرة، وأوصد المزاليج الثلاثة، والمغاليق الثلاثة، وتعذَّب بمحرقة أخيرة وهو يعتصر بوله الشحيح في المرحاض المُتنقِّل، وارتمى على الأرض العارية بالبنطال الخشن الذي كان يرتديه في البيت منذ وضع حدًّا للاجتماعات، وبالقميص المُخطَّط بلا ياقة، وبخفَّي العاجز، ارتمى على وجهه، وتوسَّد ذراعه اليمنى التي انثنت تحت رأسه، ثم خلد إلى النوم من فوره، بَيْد أنه استيقظ في الثانية وعشر دقائق بذهن جانح وثياب غارقة في عرق شاحب فاتر، عرق عشية الإعصار، من هناك، سأل وهو يرتعد موقنًا بأن أحدهم قد ناداه في أثناء نومه باسم لم يكُن اسمه هو، نيكانور، ومرة أخرى، نيكانور، هنالك من يمتلك القدرة على التسلُّل إلى مخدعه بغير حاجة لإزاحة المزاليج الثلاثة لأنه ينفذ عَبْر الجدران دخولًا وخروجًا متى شاء، وعند ذاك رآه، فكان الموت سيدي الجنرال، موتك أنت، وقد أقبل في رداء توبة مهترئ من الخيش، ممسكًا بعصا المنجل وقد نمت براعم طحالب القبر على جمجمته وأينعت الأزهار الترابية بين شروخ عظامه وفي عينيْه العتيقتيْن الذاهلتيْن داخل محجرَيْهما

منزوعَي اللحم، فلم يدرك لما ناداه نيكانور نيكانور إلَّا حين رآه بكامل هيئته، ذلك أنه الاسم الذي به يعرف الموتُ سائرَ البشر متى أزفت لحظة الموت، فما كان منه إلَّا أن قال له كلَّا أيها الموت، فساعتك لم تأزف بعد، ولا بد أن يكون موتي في أثناء النوم وفي غَبَش المكتب كما أنذرت مياه الطاس التنبُّؤية منذ الأزل، فأجابه الموت بقوله كلَّا يا جنرال، فلقد قُضِي الأمر هنا، وأنت حافي القدميْن وفي ثياب الشحاذين، وعلى الرغم من ذلك فلسوف يقول أولئك الذين رأوه إنهم وجدوه على أرض المكتب بالزي الكتاني المُجرَّد من الشارات ومهماز الذهب في كاحله الأيسر تجنُّبًا لمخالفة نبوءة عرَّافاته، فجاء موته لمَّا نفر من الموت أكثر من أي وقت مضى، بعد أعوام وأعوام من الأوهام العقيمة، حين بدأ يتبيَّن أن المرء لا يعيش حياته، سحقًا، وإنما ينجو بحياته، وأن المرء يتعلَّم بعد فوات الأوان أنه لن يجد مُتَّسعًا سوى ليتعلَّم كيف يعيش حياته، ولا حتى في الحيوات الأكثر طولًا ونفعًا، ولمَّا عرف عجزه عن الحب في لغز راحتيْه الخرساويْن وفي الرموز الخفية على ورق اللعب حاول التعويض عن قَدَره المشين بالانغماس في العبادة المُتَّقدة لآفة السلطة المحفوفة بالعزلة، وقدَّم نفسه ذبيحةً عن طائفته ليُضحَّى به في نيران تلك المحرقة اللامتناهية، وتغذَّى على الخداع والجريمة، وازدهر في ظلِّ الجور والعار، وتغلَّب على جشعه المحموم وخوفه الوراثي لمُجرَّد أن يحافظ على كريَّته الزجاج في راحة يده حتى الختام وهو لا يدري أنها آفة لا تنتهي، يشبع منها فيزيده الشبعُ جوعًا إلى أبد الآبدين سيدي الجنرال، ولقد عرف منذ البداية أنهم يخدعونه مرضاةً له، ويتقاضون منه ثمن تملُّقه، ويجنِّدون الجماهير المحتشدة

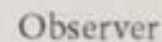
في طريقه بالهتافات الفرِحة واللافتات التي تُباع وتُشْرى، تلك المنادية بالحياة الأبدية للعظيم السابق على عصره، بَيْد أنه تعلَّم كيف يتعايش مع تلك التعاسات ودونها من تعاسات المجد كافة وهو يكتشف بمضي سني عمره التي لا يُحصَى لها عددٌ أن الكذب أعظم راحةً من الريب، وأعظم نفعًا من الحب، وأطول عمرًا من الحقيقة، ولقد توصَّل في غير دهشة إلى ذلك الوهم المشين، وهم الحكم بغير سلطة، والتبجيل بغير مجد، والطاعة بغير سطوة، حين اقتنع في غمرة سيل من أوراق خريفه الصفر بأنه لن يكون صاحب سيادة مطلقة على سلطته أبدًا، وأنه محكوم بألَّا يعرف الحياة إلَّا بالعكس، محكوم بأن يكشف طلاسم الحياكة ويصوِّب الخيوط والعُقَد في نسيج أوهام الواقع من دون أن تخامره الظنون ولا حتى بعد فوات الأوان في أن وحدها الحياة المكشوفة تُعاش، تلك التي نراها من هذا الجانب الذي لم يكُن هو جانبكم سيدي الجنرال، بل جانب المساكين حيث تدفَّق سيل الأوراق الصفر في أعوامنا التي لا تُحصَى من التعاسة ولحظاتنا التي لا تُمَسّ من السعادة، حيث كان الحب مُلوَّثًا بجراثيم الموت حتى وإن كان هو الحبّ كله سيدي الجنرال، حيث كنتَ أنت نفسك مُجرَّد رؤيا مبهمة تبدو فيها عينان يُرثَى لهما عَبْر أستار نافذة القطار المُغبَّرة، وكُنتَ مُجرَّد رجفة شفتيْن صموتتيْن، ووداع هارب يومئ به قفّاز ساتاني اكتست به يد لا صاحب لها، يد شيخ بلا قَدَر لم نعرف من كان هو يومًا، ولا كيف كان، ولا إن كان مُجرَّد أكذوبة من نسج الخيال، طاغيةً هزليًّا لم يعرف الوجه من القفا يومًا في هذه الحياة التي أحببناها بشغف لا يرتوي، الحياة التي لم تجرؤ أنت حتى على أن تتخيَّلها خشية أن تعرف بنفسك ما قد عرفناه حق المعرفة،

فتدرك أنها شاقة عابرة وإن لم تكُن دونها حياة يا جنرال، ولقد عرفنا نحن من نكون أما هو فلم يعرف من كان قط، على صفير فتقه العذب، فتق الميت الهرم الذي اقتلعه الموتُ من الجذور بضربة واحدة، فإذا هو يحلَّق وسط الحفيف المعتم، حفيف آخر الأوراق المُثلَّجة في خريفه، ويحلِّق صوب الوطن الذي غشيته ظلمات حقيقة النسيان، وقد تشبَّث بأسمال رداء الموت البالية المُتعفِّنة من فرط الخوف، غريبًا عن صخب الجماهير المحمومة التي انطلقت إلى الشوارع تتغنَّى بأناشيد الفرح إذ تلقَّت خبر موته السار، غريبًا إلى أبد الآبدين عن موسيقى التحرير ومفرقعات البهجة ونواقيس المجد التي زفَّت إلى العالَم البشرى القائلة بأن زمن الأبدية الذي لا يُقاس قد بلغ نهايته أخيرًا.

لطالما صرَّح غارسيا ماركيز بأن خريف البطريرك تَرَفٌ سمح به لنفسه حين قرَّر أن يكتب ما يريد أخيرًا.

بحِرَفيَّة واقتدار، يأخذنا ماركيز مرة أخرى إلى عالم أمريكا اللاتينية بواقعه وسحره، ذلك العالم الذي ارتقى به حتى بلغ درجة الأسطورة. حيث نجد في شخص الديكتاتور مزيجًا من طغاة أمريكا اللاتينية جميعًا، كاشفًا لنا كيف أن السلطة المطلقة تلخِّص كل ما في الانسان من عظمة وبؤس، وأدنى وأرفع ما في الطبيعة البشرية.

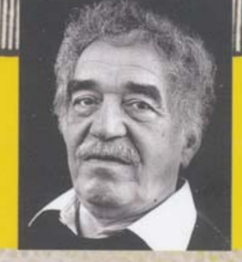
إنها قصيدة في عزلة السلطة نظمها الكاتب كلمة كلمة على مدى سنوات طوال، حيث تنساب أيام الديكتاتور الأخيرة، وتتكرَّر الحكاية متماثلة في كل مرة، مختلفة في كل مرة، مفعمة بالسرد المذهل والأحداث المتلاحقة التي تبلغ من التكثيف حد أن القارئ يلهث وهو يتابعها.



«كتاب يطلب منك مطالعته أكثر من مرتيْن، أما المقابل الذي ينتظرك فيخطف الأنفاس». Observer

«رواية عظيمة... نثر بديع... لوحة مذهلة تصوِّر الطاغية الفاشي... غارسيا ماركيز يفوق التوقُّعات بقدر ما يفعل دوستويفسكي وملفل». The New York Times

«قطعة أدبية مدهشة بكل المقاييس، أودع فيها الكاتبُ كلًّا من القسوة والكوميديا في توازن مثالي». Washington Post



ولد ماركيز في أركتاكا- كولومبيا في عام 1927 ودرس في جامعة بوغوتا ثم عمل صحفيًا ومراسلًا في روما وباريس وبرشلونة وكاراكاس ونيويورك. له مائة عام من العزلة، والحب في زمن الكوليرا، والجنرال في متاهته، وعدد من القصص منها ليس لدى الكولونيل من يكاتبه، وقصة موت معلن. حصل على نوبل للآداب عام 1982 وتوفي عام 2014.

ISBN: 978-614-472-043-1



